

جيفري لانغ

ضياء ديني

صرخة المسلمين في الغرب !!



LOSING MY RELIGION A CALL FOR HELP

Ḍayā' Dīnī

JEFFREY LANG



يبحث جيفري لانغ خلال هذا الكتاب في انسلاخ
الأكثرية الساحقة من المسلمين الأمريكيين الذين نشؤوا في
الوطن عن المساجد ونفورهم منها.

يسوي المؤلف في كتابه هذا كثيراً من التساؤلات التي
طرحها عليه أمريكيون من أبوين مسلمين، وأمريكيون
اعتنقوا الإسلام منذ صدور كتابه (حتى الملائكة تسأل)
عام 1994م.

ويؤكد أنه لا بد للمؤسسة في أمريكا، أن يكون
لديها رغبة في الإصغاء إلى شكوك وشكاوى الساخطين
على الإسلام وغير الموالين له. وهذا يستدعي الانخراط
في مناقشات مفتوحة حول قضايا لا يرتاح لها كثيرون
من أبناء الجالية الإسلامية، ويجزم أن الحوار المفتوح
سيكون أجدي وأنفع للمسلمين الأمريكيين الشباب الذين
يتصارعون مع عقيدتهم، أكثر من المناقشات المغلقة
والنمطية المألوفة، وأجدي كذلك من عدم إجراء هذه
المناقشات أصلاً.

ولهذا السبب، يشعر أنه من المهم، بل من المفيد
((أن يكون المرء صريحاً وموضوعياً وألا يتحاشى الجدل
والمناظرات؛ لأن تقرير حالة ما ضد موقف معين أو معه
بصورة غير ملائمة ولا وافية، خصوصاً عندما يكون الأمر
متعلقاً بتحدي التقاليد والأعراف، لا يسفر إلا عن مزيد
من إبعاد المرتابين وتنفيرهم. بالإضافة إلى ما أجراه المؤلف
من تمحيص لقضايا الحكمة الإلهية من السماح بوجود
الشر، وصحة الحديث النبوي الشريف، والممارسات
التجريدية ضمن الجالية المسلمة الأمريكية، فقد ضمن
كتابته شهادات وأدلة وتحقيقات واستقصاءات مما يجعل
هذا الكتاب مفعماً بالثقافة.

SRUR ALWANI 2007

www.furat.com
موقع عربي رائد لتجارة الكتب والمراجع الإلكترونية

ISBN 1-59239-665-8



9 781592 396658

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ضِيَاعُ دِينِي

محنة المسلمين في الغرب

ضياع ديني: صرخة المسلمين في الغرب = Losing my religion

/ جيفري لانغ؛ ترجمة إبراهيم يحيى الشهابي . - دمشق:
دار الفكر ٢٠٠٧ . - ٤٠٨ ص؛ ٢٥ سم.

ردمك 8-665-59239-1

١- ٢١٠،١ ل ١ ن ص ٢- العنوان

٣- لانغ ٤- الشهابي

مكتبة الأسد

جيفري لانغ

ضيق ديني

صحة المسلمين في الغرب

ترجمة

إبراهيم يحيى الشهابي



آفاق معرفة متجددة



٢٠٠٨

دمشق

حاضنة اللغة العربية

دار الفكر - دمشق - بrame

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١



٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١



[Http://www.fikr.com/](http://www.fikr.com/)
[e-mail:fikr@fikr.net](mailto:fikr@fikr.net)

ضيا ع ديني

صرخة المسلمين في الغرب

تأليف: جيفري لانغ

الترجمة: د. إبراهيم يحيى الشهابي

الرقم الاصطلاحي: ٢٠٠٠,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-665-8

الرقم الموضوعي: ٢١٨/٢١٠

٤٠٨ ص، ١٧ x ٢٥ سم

الإعادة الأولى: ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

LOSING MY RELIGION A CALL FOR HELP

JEFFREY LANG

amana publications

First Edition
(1425AH/2004AC)

© Copyright 1425AH/2004AC
amana publications
10710 Tucker Street
Beltsville, Maryland 20705-2223 USA
Tel: (301) 595-5777 / Fax: (301) 595-5888
E-mail: amana@igprinting.com
Website: www.amana-publications.com

Library of Congress Cataloging-In-Publications Data

Lang, Jeffrey.

Losing my religion : a call for help / Jeffrey Lang.-- 1st ed.

p. cm.

Includes index.

ISBN 1-59008-027-0

1. Islam--United States. 2. Muslims--United States. 3. Muslim converts--United States. 4. Muslim families--United States--Religious life. 5. United States--Religious life and customs. 6. Religious life--Islam.
I. Title.

BP67.A1L36 2004
297.5'74'092--dc22

2004013559

Printed in the United States of America by
International Graphics
10710 Tucker Street
Beltsville, Maryland 20705-2223 USA
Tel: (301) 595-5999 Fax: (301) 595-5888
Website: igprinting.com
E-mail: ig@igprinting.com

المحتوى

٩ عَمَّ يتساءلون؟ كلمة للناس
١٤ مقدمة المترجم
١٧ المقدمة
٢٩ الفصل الأول : ضياع ديني
٣٧ هل أنت تتحدث إلي؟
٣٩ إنك تحدثني
٤١ افتح عينيك
٥١ أسئلة
٨٠ عودة إلى الملائكة
٨٢ ألا يستخدمون عقولهم؟
١٠٥ خطأ ما، في هذه الصورة
١٠٩ خيار صعب
١١٥ لماذا أنا؟
١٢٥ ما شأن الحب بنا؟
١٢٩ ماذا تريد مني؟
١٣٤ لو كان الله واحداً منا
١٣٧ اذكر اسمي
١٤٣ تَراجع

١٥١ الممارسة، الممارسة، الممارسة
١٦٢ لا إنكار له
١٦٧ أسئلة
٢١٥ الفصل الثاني : أين ذهب الأبناء كلهم ؟
٢٢٤ إذن ما مشكلتك ؟
٢٢٥ مكان المرأة
٢٣١ في يدي امرأة
٢٣٤ من الصعب أحياناً أن تكون امرأة
٢٤٠ نشوء عفوي
٢٤٤ بين عالمين
٢٥٢ لا هنا ولا هناك
٢٥٧ إننا نتقسم
٢٦٩ الإيمان، والعقل، والمستقبل
٢٨٩ توضيحات للصراع
٤٠٥ ملاحظات فراق : إلى الإخوة والأخوات الأمريكيين الذين نشؤوا في الوطن ...

عمر يتساءلون؟!!

كلمة للناس

لسوف يشير هذا الكتاب اعتراضات شتى ممن قد يرون فيه جرأة على قواعد إسلامية مسلّمة عندهم، أو يرون فيه نظرات مختلفة عما ألفوه مئات السنين من فهم للإسلام صاغوا بموجه عاداتهم وتقاليدهم...

ربما رأوا فيه تشكيكاً يقلقهم حول ما عدّوه ثوابت لا يستسيغون طرح أي أسئلة بشأنها، بله إثارة نقاش حولها.

وربما رأوا فيه تطاولاً على علماء يجلونهم ويثقون بهم، يشير حفيظتهم...

لقد سبق لدار الفكر أن قدمت لقرائها كتابي جيفري لانغ (الصراع من أجل الإيمان) و(حتى الملائكة تسأل)؛ عرض فيهما رحلته من الإلحاد الصارم إلى الإيمان الملتزم، عرضاً أثار دهشة كل من قراهما وإعجابه.

واشتهر جيفري لانغ في تجربته الإيمانية تلك، ورحب به جمهور غفير من المسلمين في أمريكا، مثلما سعد سائر المسلمين في العالم بانضمامه إليهم. ورأوا فيه مؤثلاً يطارحونه همومهم ومشكلاتهم، وينهلون عليه بأسئلتهم تترى على موقعه الإلكتروني.

طُرحت عليه المرأة المسلمة مشكلتها إذ تعاني من مجافاة المجتمع الغربي لها من جهة، ومن المعاملة غير اللائقة لها في المراكز الإسلامية التي يديرها مهاجرو الجيل الأول من المسلمين من جهة أخرى.

وطرح عليه شباب المسلمين من الجيل الثاني شكواهم من تزمت القائمين على المراكز الإسلامية في الغرب الذين نقلوا عاداتهم وتقاليدهم من بلدانهم، وكانوا حراساً أشداء عليها، أكثر من حرصهم على تطبيق روح الإسلام ومقاصده العليا في المجتمع الجديد.

وطرحوا عليه معاناتهم من وطأة الحياة في بيئة اجتماعية تتناقض عاداتها مع أحكام الإسلام، وتستبيح محرّماته، وتنكر معروفيه ومسلّماته.

وسألوه عن موضوعات شتى أشكلت عليهم في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف؛ شجعتهم مناهج البحث العلمي الحديث على طرح أسئلتهم حولها..

لكن سؤال ابنته ذات التسعة أعوام عن موقفه منها لو غيرت دينها إلى النصرانية، كان صدمة كبيرة له، دفعته إلى التفكير من جديد في تساؤلات شباب الجيل الثاني من أبناء المسلمين، ومعتنقي الإسلام من الأمريكيين.. فكان هذا الكتاب..

إنه صرخة بمثابة نداء استغاثة لأولئك المفكرين المسلمين الذين أنسوا بما نشؤوا عليه مما قدمه الآباء لهم في بيئاتهم، وأداروا ظهورهم لأولئك الذين يعيشون وراء البحار في بيئة ومناخ فكري واجتماعي مختلف..

أجل!! ها هو جيفري لانغ يطلق صرخته لإدراك عقيدة الأجيال التالية من أبناء المسلمين المهاجرين لأمريكا، قبل أن ينفضوا عنها ليغرقوا في خضم الثقافة الأمريكية؛ المواردة بالحركة والنمو، المزدهوة بالتفوق والهيمنة، الطافحة بالاستهلاك والإباحية والإغراء.

وبالحركة ذاتها سبق لأحد المفكرين المسلمين - وكان عائداً من رحلة ثقافية إلى أمريكا - أن أطلق صيحة استنفار للعقل الإسلامي الغائب في غفوة طال أمدها: «أمريكا تراودنا عن نفسها!!» تعبيراً عما قوبلت به محاضراته عن الإسلام في جامعة (جورج تاون) من دهشة لدى الشباب الأمريكي المتعطش للمعرفة..

إنه القلق ذاته يساور الشباب في الحالين: حال جيل يُطلب إليه التشبث بالدين، فإن هو تساءل عن المسوّغات: جاءه الجواب: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤/٢٦].

وحال جيلٍ أخرجه زخرف المادة وفتنة العلمانية من الدين، فلم يُرضيا تطلعاته وأشواقه، بل رآه ﴿كَرِيمٍ يَقْبَلُ بِحَسْبِهِ الظُّلُمَاتُ مَاءً﴾ [النور: ٣٩/٢٤] فراح يقلب وجهه في السماء باحثاً عن حقيقة مقنعة..

ولئن تشاطر جيفري لانغ والمهاجرون الآباء الغيرة على الدين، والخوف من ابتعاد الأجيال التالية عن المسجد، وانصهارها في بوتقة المجتمع الجديد وثقافته المغايرة، فإن البواعث مختلفة؛ وشتان..

بين غيرة من حصّل دينه بكد ذهنه، وإعمال فكره، وعرق جبينه، ومعاناة بحثه عن الحقيقة المتوارية خلف سحب من الأوهام، في غياهب بحر من الشكوك؛ يبددها وهماً إثر وهم، وشكاً إثر شك، حتى تنتقل به في رحلة مضنية شاقة وطويلة؛ من ظلمة الإلحاد إلى نور اليقين، فيتضح له الطريق، ويتبين له الرشد من الغي، فيعض عليهما - اليقين والرشد - بالنواجذ، ويخشى عليهما من عاقبتَي الجهل والكسل، ويجتهد في حملهما رسالةً إنسانية حية، متنامية وفاعلة؛ تترك في محيطها أثراً إيجابياً، وتضفي عليها قيمة، وتجعلها أملاً..

وبين من آل إليه دينه إراثاً مجانياً من دون كد ولا نصب؛ فهو إما يزدهي به في متحف يعرض فيه منجزات الأجداد، فيكون له فضل تحنيطه وصونه، وتقديمه مادة تاريخية للأجيال. وإما يدفنه بعيداً عن الأنظار؛ يكتنزه أملاً في أن تكتشفه ذات يوم أجيال قادمة خلال تنقيبها عن الآثار. وإما يبدده؛ يستمتع بإفناقه ذات اليمين وذات الشمال؛ شأن الوارث السفيه؛ لا يعرف لإرثه قيمة، ولا يتخذة رأسمالٍ ينمي أو يضيف إليه شيئاً يسجله التاريخ باسمه ويذكره له، فهو يبوء بإثم تفريطه به، وعجزه عن المحافظة عليه، بله تنميته، وهو ينظر إليه يتلاشى، ويتناوشه الحاسدون الحاقدون.

إنه لبون شاسع بين الموقفين:

موقف أصحاب الرسالات المفتحة على الآخر بلا حدود ولا قيود، تحاوره بعقلانية، تأخذ منه وتعطي من دون مسلمات مسبقة، إنما هو المنطق والبرهان والدليل والبيّنات: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْمَوَدِّينَ﴾ [الزخرف: ٨١/٤٣] وهذا الموقف الإيجابي القابل للنماء والتقدم، في مسار التطور الذي جعله الله قانوناً للخلق المستمر المتنامي ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١/٣٥] وجعله هدفاً لارتقاء الإنسان في معارج الحضارة من خلال كدحه ومعاناته ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَلْيَقِهِ﴾ [الانشقاق: ٦/٨٤].

وموقف أتباع الرسالات المنكفئين على الذات، يطوفون حولها، يثقلون نصوصها بالشروح والحواشي حتى تحجبها عن الأنظار، وتحجب عنها النور والهواء. يطوقونها بأسيجة من الحمايات والحرس الشديد؛ تضيق عليها الخناق حتى تفصلها عن الواقع فلا تعيش إلا في الماضي والذكريات. وذلك كله إنما يتم بدوافع خيرة؛ من الحب والتقديس والحفظ والرعاية، فعل الأم بوليدها تبالغ في لفه بالأغطية؛ يدافعها عن نفسه مخافة الاختناق بها، أو فعل دودة القز تلتف بخيوط الحرير حتى إذا ضاقت بها ذرعاً، ثقت شرنقتها وتحولت إلى فراشة تطير حرة في الفضاء. . إنه موقف مغرق في السلبية لا تطبق الرسالات المكث فيه؛ يتحول فيه الخطاب من خطاب منفتح على الخارج ليتفاعل ويتنامى، إلى خطاب منغلق على الذات ليضمّر ويتآكل، ومن البلاغ المبين بالحجة والبرهان بعيداً عن حدود المكان والأعراق والألوان، إلى الدفاع عن الذات في قرى محصنة أو من وراء جدر، وإنه لعمرى هو عين ما وقع فيه أتباع الرسالات السابقة، وحذرنا الله تعالى من الوقوع فيه في سورة الحديد [١٦/٥٧] من طول الأمد وقسوة القلب ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ آلَمِهِ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. وما طول الأمد سوى الوقوف في المكان على حال واحدة، دون تقدم يذكر لم يعد الإنسان يحتمله في عصر أخذت معلومات الإنسان تتضاعف خلال العقد الواحد من الزمان؛ ولا يكاد إسهام المسلم في إنتاجها وتوليد معارفها يجاوز الصفر إلا قليلاً.

لقد راح جيفري لانغ يستطلع الأجيال التالية من المسلمين ﴿عَمَّ بَسْأَلُؤُنْ﴾ [النبا: ١٧٨] وأدرك أن إجابات آبائهم المنبعثة عن أشواقهم المترسخة في أعماقهم وثقافتهم التي حملوها معهم من أوطانهم؛ لن تجديهم نفعاً، بعد أن تأثروا بمناهج البحث العلمي الجديدة، فقدم لهم - على تردد وتعبير عن قلة زاده - ما استطاع إليه سبيلاً من إجابات، وأراد أن يشرك القارئ وكل غيور على مستقبل الإسلام في هموم الجالية وأسئلتها.

وفي سياق استطلاع أسئلة الأجيال، خصص فصلاً لإشكالية الحديث النبوي، ونظراً لخصوصية هذا الفصل، ولكونه بحثاً علمياً (أكاديمياً) مطولاً، يحتاج إلى جهود علمية متخصصة لمناقشته وتمحيصه، فقد رأت دار الفكر أن تستلّه لتصدره في كتاب مستقل.

ودار الفكر التي تعودت من قرائها؛ أنهم ليسوا مجرد متلقين منفعلين، بل ناقلين فاعلين، سوف تخصص في موقعها على الإنترنت حيزاً لتعليقاتهم وإسهاماتهم؛ تعصف به أفكارهم وتساؤلاتهم، لتضعها بين أيدي العلماء المتخصصين؛ متوخية أن تضيف بها إلى جهود أسلافنا العظام، إضافات تكسر حالة العقم والجمود والتوقف الذي طال أمده، وتليق بعصر المعرفة الذي زودهم بأحدث مناهج البحث العلمي، ووضع في أيديهم أرقى تقنيات الحواسيب والاتصالات التي يسرت لهم سبله.

محمد عدنان سالم

مقدمة المترجم

عندما قرأت هذا الكتاب وجدت نقطة مشتركة بيني وبين المؤلف هي نقطة الإيمان بالله وبكتابه القرآن الكريم ورسوله النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبالتالي اعتناق الإسلام عن عقل ويقين ودراسة واعية، وليس بالوراثة.

كان من المستبعد أن يرث المؤلف الإسلام لأنه من أبوين مسيحيين، ومن بيئة ومجتمع مسيحيين، لكن معاملة والده السيئة واللاإنسانية لوالدته، وسلوك والده السُّكير، وصبر أمه المؤمنة كانت نقطة انطلاق نحو الإلحاد والكفر بالدين كله. بيد أن الظروف وضعته أمام مصحف باللغة الإنكليزية، فقرأه من باب الفضول فاكشف الحقيقة الساطعة وتبين له أن هذا القرآن هو حتماً من عند الله، فأمن بالله بعد أن ألحد، واعتنق الإسلام بعد أن كفر بالأديان.

أما أنا فمن الطبيعي أن أرث الإسلام لأنني من أبوين مسلمين متدينين، من بيئة ومجتمع إسلاميين. ولكن تشريدنا - نحن الفلسطينيين - من بلادنا بسبب الإرهاب اليهودي واغتصاب أرضنا وهدم بيوتنا، وإلقاءنا في مهب الريح، واقتلاعنا من التاريخ، وقذفنا إلى المجهول بلا حاضر ولا مستقبل، نسير على دروب التشرد كجماعات النمل، جعلني أفكر وأنا أتأمل هذه الآلاف المؤلفة من النساء والرجال والولدان والشيوخ الهائمين على وجوههم إلى حيث لا يدرون بلا طعام ولا شراب ولا حتى غطاء: أطفال يموتون جوعاً وعطشاً، وآخرون يضعون عن أهلهم، وشيوخ يهلكون تعباً وإعياء، وحوامل يضعن على الطريق؛ فصدر عني تساؤل بصوت مسموع: هل يعقل أن يكون للكون إله ويحدث هذا الذي أراه بأأم عيني؟ فردّ عليّ طفل مشرد مثلي كان يسير معي دون أن يشعر أحدنا بالآخر: نعم. لنا إله، ولكنه في إجازة.

أخذت هذه الشكوك تنمو في رأسي وفي نفسي خصوصاً بعد أن صرت أرى وأسمع عبارة "بني إسرائيل" تتكرر في القرآن. فقلت في نفسي: ما هذا القرآن الذي يفرد حيزاً كبيراً لبني إسرائيل، وهم الذين اغتصبوا فلسطين وقتلوا أهلها وشردوهم وهدموا بيوتهم، وما زالوا يرتكبون من الجرائم ما تقشعر له الأبدان؟! فأهملت مسألة الدين ووجود الإله.. لم أكفر تماماً كما حصل للمؤلف، ولكنني نسيت الموضوع، ولم أعد أعيره أي اهتمام.

وفي يوم من الأيام حينما كنت معلماً في مدرسة ابتدائية بقرية من قرى حوران، مع زميل لي مسيحي كلفتني مديرية التربية بتدريس مادة الدين الإسلامي لأنني المعلم المسلم (هكذا كان مكتوباً في الهوية الشخصية) فيها، فأجبت بجرأة: كيف أدرس شيئاً لا أؤمن به؟ فكان جواب المديرية: لا مفر لك، يجب أن تعلم مادة الدين الإسلامي.

وبينما أنا غارق في حيرتي، وصل مصحف كان قد طلبه أخي الأكبر، وهو معلم أيضاً يحمل شهادة الاجتياز للتعليم العالي من فلسطين. هذا المصحف ترجمه وشرحه علماء باكستانيون، حصلوا على شهادة العالمية من الأزهر الشريف، وشهادة دكتوراه في الدين من فرنسا. المهم أنني شرعت أقرأ فيه علّني أفهم شيئاً أستطيع تدريسه. كنت قبل ذلك قد درست أدبيات الأحزاب والأيديولوجيات المختلفة: الشيوعية الماركسية اللينينية، والأيديولوجيات القومية، والإقليمية، فلم أخرج من هذه الدراسات بقناعة تشجعني على تبني إحداها. وعندما بدأت أقرأ في هذا المصحف أخذت الحقيقة تظهر شيئاً فشيئاً حتى سطعت واضحة لا لبس فيها. زالت كل الشكوك التي كانت تساورني حول وجود الله، والمشيئة الإلهية، والقضاء والقدر، ثم تبين لي أن ذكر بني إسرائيل في القرآن الكريم هو من باب التعريف بهذه الفئة وتوجيه البشر إلى البناء الحضاري عن طريق قبول الآخر والتحاور معه، والتفاعل الحضاري بعيداً عن العنصرية والعنصرية والروح العدوانية، سواء على الرسل أو على الفئات الأخرى من البشر، والتخلص من النزعة القومية، وإرساء المحبة، ومن باب رسم الخطوط الرئيسية لمواجهة الانحرافات ومحاولات التخريب.. فأمنت بالله

وبالإسلام عن عقل ويقين وعلم ووعي، وليس عن وراثة. وقمت بتدريس مادة الدين الإسلامي وأنا واثق من نفسي، حتى إن مفتش الديانة قال بعد حضوره درساً لي: «قضيت سنوات طويلة في التوجيه، وحضرت دروساً كثيرة لرجال دين وغيرهم، فلم أشهد درساً أجمل وأمتع وأوضح من هذا الدرس؛ حياك الله يا بني ووفقك».

ومنذ ذلك الحين أخذت أتعلم في هذا الفكر المتوازن الذي يرسم الخطوط الواضحة للبشرية كي تبني حضارة إنسانية يسودها الإعمار والسلام والأمن والحب، وكي تستمر بالتقدم والبناء عن طريق التفاعل والحوار الودي. فكان إيماني بالله وكتبه ورساله إيماناً راسخاً لا يتزعزع، ووصلت بعون الله، إلى درجة التسليم الكامل لله سبحانه وتعالى، ومن سلم أمره الله لا يُخيب الله له أملاً.

أما فيما يتعلق بما تعانيه أمتنا اليوم من تمزق وامتهان على يد أعدائها؛ فقد وجدت الحل في القرآن أيضاً. وهو أن مرضنا أساساً يكمن في انفصام الشخصية الذي تعاني منه الأمة. فشخصيتها متحللة إلى العنصرين المكونين لها: العروبة والإسلام. ووضِعَ العنصران في مواجهة بعضهما البعض كعدوين، تماماً كما لو حللنا الماء إلى عنصريه: الهيدروجين والأكسجين، فنفقد الماء ونموت عطشاً ولو كان عنصره موجودين. والحل إذن في إعادة بناء الشخصية العربية الحضارية بإحداث تفاعل بين العروبة والإسلام^(١).

(١) انظر كتاب "الشخصية العربية" للمترجم.

المقدمة

ذات مساء صيفي قبل بضع سنين، كنت وابنتي جميلة نتمشى في المنطقة المجاورة، عندما فاجأتني بالسؤال التالي: «بابا، ماذا ستفعل إن صرت مسيحية في يوم ما؟» طرحت السؤال بجدية، دلت على أنه لم يكن مجرد افتراض، خصوصاً وهي في التاسعة من العمر.

ظننت أن قلبي قد توقف لحظة عندما وقفت هناك عاجزاً عن الكلام. أحسست بخواء في صدري وفي جوف معدتي. فهل هي ابنتي تلك التي تسألني هذا السؤال؟ ابنتي التي شهدتني ألقي محاضرات في طول البلاد وعرضها عن الإسلام، والتي ترافقني كل ليلة إلى الصلاة، والتي جرت بيني وبينها أحاديث عديدة عن الدين؟ لم أكن أتصور أبداً أن تخطر ببالها مثل هذه الفكرة.

سألتها: محاولاً جهدي أن أبدو متزناً غير متلعثم. «هل تعرفين كثيراً عن المسيحية؟» فأجابتنني قائلة: «فقط كنت أتساءل إن كنت ستغضب مني؟ هل غضبت جدتي وهل غضب جدي منك عندما تخلّيت عن المسيحية؟».

كان جميلاً منها أن تُجري مثل هذه المقارنة، إذ ساعدتني بذلك على الهدوء قليلاً. فأجبتها متذكراً الصدمة والقلق اللذين ظهرا على وجه أمي والهيّاج الذي أبداه أبي؛ لقد هال الأمر أمي فانهارت، وهددني أبي بطردني من البيت، إذ عدّ ذلك، كما هي العادة، إهانة شخصية له، وقال لي: «أتظن أنك ذكي جداً يا جفري؟ حسناً سأريك، سنرى كيف ترى الحياة في الشارع، لن ندخلك المدرسة أبداً، أيها الصبي؛ سوف تعيش في المجاري مع أفكارك الجديدة!!».

سألتنى جميلة ثانية: «هل ستغضب مني؟».

فأجبتها، محاولاً ستر مشاعري: «الغضب ليس هو الكلمة المناسبة. لا أنكر أنني سأحبط جداً، لأنني أجد سلاماً وجمالاً رائعاً في الإسلام، وأود دائماً أن يشاركني أبنائي بهذا السلام وهذا الجمال، فكل ما يهمني في هذه الحياة هو أسرني وعقيدتي».

سرنا هادئين دقيقة من الزمن، ثم بادرتي القول: «أنا لا أفكر حقاً، يا أبت، أن أصبح مسيحية، ولكنني أظن أحياناً أنه من الأسهل على المرء ألا يكون مسلماً».

كان لابد لي من إخفاء قلقي؛ إذ لم أشأ أن يخشى أبنائي من مصارحتي بما يدور في خلدكم بشأن الدين. يمكن أن يكون من الصعب أن ينشأ المرء مسلماً في أمريكا. وشعرت بأهمية انفتاحهم عليّ، والإفصاح عن مشاكلهم إذا ما أردت أن أكون عوناً لهم. المسألة هي أنني لم أكن أتوقع مثل هذا السؤال الذي ينبغي أن أعالجه وأصلحه.

قللت لها: «جميلة!! عليك أن تفهمي قبل كل شيء أنني أحبك، وسأظل أحبك دائماً مهما كنت، ومهما حدث. لقد أحبتك منذ وُلدت، ومنذ اللحظة التي وضعتك الممرضة بين ذراعي، فأخذت أذرع المكان جيئة وذهاباً محملاً فيك. كنت أشعر كأنني في عالم آخر، في السماء!! وعندما أرادت الممرضة فيما بعد أن تأخذك مني لم أستطع التخلي عنك، ولن يتخلى عنك قلبي أبداً - فهو لك دوماً. وعندما تكبرين سوف تختارين ما تعتقدين أنه الصواب. وسأكون لك عوناً وناصحاً، ولكن ستفعلين في النهاية ما تريه أفضل ولو عارضناك أنا وأمك. وكل ما أريده هو أن يكون اختيارك صادراً عن تفكير وفهم. على أي حال، لماذا تشعرين أنه من الصعب على المرء أن يكون مسلماً؟».

تطرقنا في أثناء سيرنا إلى الأعياد الدينية، وبعض متطلبات الشعائر الدينية، وتحريم لحم الخنزير، والمواعيد، مع أن هذه الأمور لا تُعدُّ في الواقع، قضايا حاسمة عندها، بأي حال من الأحوال. واعتقد أنها تطرقت إليها لتعبر عن قلقها العام الغامض بشأن كونها مسلمة. ويرغم ما هي عليه من ذكاء، فلا أظن أنها فهمت - وهي ما زالت في التاسعة من العمر - سبب شعورها بقيد العقيدة

التي ورثتها. بيد أن تلك كانت بداية ما سأشخصه بأنه طور النقد والاحتجاج الذي يمر به أبنائي في أثناء نمو دينهم، فيثيرون أسئلة ويعبرون عن تحفظات تتعلق بممارسات المسلمين ومعتقداتهم.

لدى تأملي في ما مضى من أحداث، وجدت أنه ينبغي ألا أصعق بسؤال جميلة. أعتقد أنه سيكون لدى كثير من الأطفال الأمريكيين، المولودين من أبوين مسلمين مثل هذه المشاعر في وقت من الأوقات. فبادئ ذي بدء، يولد هؤلاء الأطفال في جالية إيمانية يزدريها كثيرون من الأمريكيين ويخشونها. ويرغب الأطفال، طبعاً، في أن يتلاءموا مع بيئتهم، وسيكون ربطهم بشعب محتقر وغريب مصدر قلق وعدم استقرار شديدين؛ إذ اتخذ فهم الإسلام منذ هجوم الإرهابيين في الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ مساراً سلبياً، مع أن الموقف الأمريكي العام تجاه العقيدة وأبنائها كان وما زال موقف استنكار، وعدم احترام. أذكر مقالة بحثية ظهرت قبل عام ٢٠٠١ تقول: إن أكثر من تسعين بالمئة من صور المسلمين التي عرضت في القرن المنصرم في الروايات والأفلام الإنكليزية كانت صوراً سلبية. وبناء على ما رأيته في طفولتي، أخذ يساورني إحساس داخلي بأن صورة المسلم سلبية أيضاً في وسائل الإعلام الأخرى كالتلفاز وأفلام الكرتون، والكتب الهزلية وألعاب الفيديو.

يقضي الطفل جزءاً كبيراً من وقته في المدرسة، ويتوقع الطلبة المسلمون أن يواجهوا هناك بالتعصب. إذ يمكن أن يكون الشباب أحياناً حقودين جداً، ولكن الأكثر سوءاً هو أن بعض المدرسين محدودو التفكير كبعض الأطفال، وأن بعضهم يستخدم الصف ليلقي بموعظة تتسم بضيق الأفق. ومنذ أن بدأت التحدث علناً عن الإسلام قبل ثمانية عشر عاماً، صارت تردني باستمرار رسائل مسلمين من جميع أنحاء البلاد يشكون من مدرسين يحقرون الإسلام في الصف. كذلك واجه أطفالي الأمر نفسه خلال تعلمهم في المدارس. ففي هذا العام مثلاً كانت مدرسة التربية المدنية (الحقوق والواجبات والقوانين) تقول لطلبة السنة السابعة: إن الإسلام يشجع العنف، في حين أن المسيحية تحث على السلام. كما قالت مدرسة ابنتي سارة لطلبة السنة التاسعة: إن المسلمين ناكرون للجميل «لأننا (برأيها) نرسل إليهم المساعدات الإنسانية فيقابلونها بالهجمات الإرهابية علينا».

ومن المظالم التي تقوم في معاهد التربية والتعليم إهمال الأعياد الإسلامية في المدارس إهمالاً كلياً - حتى ولو أحاط الآباء المسلمون المدرسين والإدارات علماً بحلول هذه الأعياد - في حين أنه يُطلب إلى الطلبة المسلمين الاشتراك في احتفالات الأعياد اليهودية - المسيحية.

وبالإضافة إلى ما يواجهه الأطفال المسلمون الذين يمارسون شعائهم من تحييز وتحامل، فإنهم يُدفعون إلى هامش المجتمع الأمريكي؛ لأن سلوكهم وأخلاقهم مخالفة لقواعد السلوك الاجتماعية الأمريكية. فالممارسات الجنسية قبل الزواج، على سبيل المثال، تعد في أمريكا مَعْلَماً جذاباً ومقبولاً على نطاق واسع من معالم ثقافة الشباب، في حين أن القرآن يعدُّ جريمة يعاقب عليها، واقترافها من أخطر الآثام. يبدأ كثير من الأمريكيين بضرب مواعيد الغرام وهم ما يزالون في المدرسة الابتدائية، أما الإسلام فإنه يحرم مثل هذه المواعيد تحريماً مطلقاً بغض النظر عن العمر. كذلك فإن شرب الخمر المحرم عند المسلمين يشجّع عليه ويحتفل بشربه في أمريكا، كما أن الأزياء الغربية تصمم بحيث تكشف جمال المرأة للعامة، في حين يخفي لباس المسلمة ذلك الجمال. إضافة إلى أن المهاجرين المسلمين الذين يحثهم دينهم وثقافتهم على احترام الكبار احتراماً بالغاً يصدمون عندما يرون عدم الاكتراث والوقاحة التي يعامل بها الأطفال الأمريكيون آباءهم وأمهاتهم.

وهناك أمثلة أخرى عديدة، لكن هذه تكفي لتبين أن المسلم الملتزم بشعائره دينه سيكون خارج السرب الرئيسي.

على الرغم من وجود نقاط اختلاف، لا شك فيها، بين الإسلام والثقافة الشعبية الأمريكية، فإن المسافة الملحوظة بينهما يمكن أن تتعاضد بسبب الخلط بين الدين والثقافة. إذ يدير غالبية المساجد في أمريكا مهاجرون أو طلبة أجنبي زائرون؛ كثيرون منهم يساؤون الإسلام بنسخه المعروفة في مواطنهم التي تدمج في إطارها العادات والمواقف التي لا علاقة لها أساساً بما يتطلبه النص الديني صراحة. ولمواءمة المنظورات الثقافية المتنوعة مع الجالية الإسلامية الأمريكية، يتبنى زعماء الجالية غالباً وجهة النظر الأكثر تشدداً، ولو كان ما يعززها من

الأحاديث ضعيفاً أو من القرآن غامضاً. ولهذا الموقف أسباب عديدة، منها أن الناس يميلون إلى الخوف من القسوة والجمود اللذين يفتقرنان عادة بالورع الشديد، بيد أن عدم المرونة هذا يمكن أن يكون رد فعل على النسق الشائع في الثقافة الغربية، وانعكاساً لتفضيل المسلم العادي تحاشي ارتكاب الخطأ في المسائل الدينية الأكثر تشدداً. ربما يكون الجمود نتيجة كون المحافظين أكثر الفئات توحداً وحزماً في المسجد.

تجلى نزعة الانصياع إلى وجهة النظر المتزمتة بوجه خاص في معاملة النساء عند الجالية الإسلامية الأمريكية. إذ لا تشجّع النسوة عادة على تأدية الصلاة في المسجد، وإن فعلن يعزلن في غرفة بعيدة عن قاعة الصلاة الرئيسية، ومن ثم فلا يرى زوار المساجد من المصلين سوى الرجال. كما يفصل النساء عن الرجال في أكثر اجتماعات الجالية كالرحلات أو المحاضرات أو لائمه العشاء أو احتفالات الأعياد أو المؤتمرات. كذلك يحال دون وصول المرأة إلى موقع الزعامة أو القيادة في كثير من الجاليات، ونادراً ما تشمل مجالس المديرين أو اللجان التنفيذية نساءً.

مع بقاء الهيمنة على المؤسسات الإسلامية الأمريكية محصورة بين من نشؤوا خارج الولايات المتحدة من المسلمين، لا بد أن نتوقع من خطاب المسجد وأسس تفكيره اختلافاً عن خطاب التيار العام وأسس تفكيره، وهنا مرة أخرى نقول: إن الخلط بين الدين والثقافة هو السبب الذي يجعل المسلمين المولودين في أمريكا يشعرون يائسين بالابتعاد فكرياً عن المسجد. والمعضلة عند كثير من المسلمين الشباب هي الحاجة لتبني طريقتين في التفكير لا تتوافقان. فالمسجد يشدد كثيراً على التقاليد والامثال لها، في حين أن الثقافة الأوسع التي يعيش فيها المسلم الأمريكي الشاب تمجد العقلانية الفردية. يحترم المسلمون قواعد السلوك وأحكامها التي تعد في نظرهم خالدة لا تقبل التغيير، في حين أن التيار العام الأمريكي يشجع على التكيّف والإبداع. إذ يولي النظام التربوي الأمريكي أهمية للتساؤلات النقدية والموضوعية، في حين أن الجالية الإسلامية تقاوم ذلك بشدة عند تطبيقه على الإسلام. تعلم المدارس الأمريكية طلبتها التحدي وطرح

الأسئلة بلا حرج، في حين أن المسجد يعلم رواده ألا يعرضوا تقاليدهم الدينية للتساؤل. مما لا شك فيه أن كل دين في أمريكا يواجه هذه التوترات نفسها، أما فيما يتعلق بالإسلام فإن كثيراً من تقاليد المسلمين وأعرافهم قد جعلت مثالية بحيث لم تترك مجالاً لإعادة التفسير والتأويل والتكيف، ومن ثم فسحت مجالاً واسعاً لخلق الشكوك في أذهان الشباب المسلمين.

وهكذا يولد الأطفال المسلمون في أمريكا في خضم صدام ثقافات راديكالية متنافرة؛ ثقافة المسجد والثقافة الأمريكية السائدة. إننا نستطيع الحكم -حين نرى غياب الجيل الثاني وما بعده من الأجيال عن المساجد- أن أكثرية المسلمين يختارون تلافياً لمواجهة بابتعادهم عن المسجد وغيره من المواقع الإسلامية. لا غرابة في ذلك؛ إذ نشأ الجيل الثاني في قلب أكثر الثقافات دينامية في العالم، تلك التي أثرت في أقصى مراكز الأرض. فقد انتشرت الموسيقى والتكنولوجيا والأزياء ووسائل الترفيه والتسلية الأمريكية، حتى الأخبار الأمريكية فقد شاعت في أنحاء العالم قاطبة. والأطفال في البلدان الأجنبية، وحتى في البلدان الإسلامية، يغنون الأغاني الشعبية الأمريكية، ويقلدون حياة المشاهير الأمريكيين، ويشاهدون الأفلام الأمريكية، ويناصرون أبطال الرياضة الأمريكيين المفضلين لديهم، ويتناولون وجبات الطعام الأمريكية السريعة، ويلبسون آخر (الموضات) الأمريكية. فإذا ما كان لأمريكا مثل هذا النفوذ في البلدان الأجنبية، فإننا نجزم بأن مظهر الجيل الثاني من المسلمين الأمريكيين وتفكيره سيكونان أمريكيين بالتأكيد. ولهذه الأسباب ولأسباب غيرها سنبحثها لاحقاً، تبدو ثقافة المسجد الخاصة في نظر كثير من المسلمين نقيضاً تاماً للمجتمع الأوسع الذي ينبغي أن يعيشوا ويتعلموا ويعملوا فيه. وبما أن المسكين بزماء هذه الثقافة قادة مسلمون أكثر التصاقاً بالنموذج الفعلي للإسلام الحقيقي، فإنه يغدو من الصعب على كثيرين من أبناء الجيل الجديد أن يروا أي صلة للإسلام بحياتهم. وبالنظر إلى هذه العوامل، أعتقد أنه من الغريب ألا يتساءل الطفل المسلم الأمريكي في لحظة ما عن شرعية عقيدته.

ولا بد لنا من الاعتراف بأنه ليس غالبية الشباب المسلمين فقط غير مرتاحين للجالية الإسلامية الأمريكية، بل الجالية نفسها كذلك غير مرتاحة. إن كثيرين من

المسلمين المهاجرين الأوائل، كمثّل غيرهم من المهاجرين الآخرين، ينزعجون من الفجوة الثقافية التي تنشأ بينهم وبين الجيل الثاني الذي يكتسب بسرعة طرق التفكير الأمريكية وعاداته. وتنشأ الأزمة الدينية عند الاتقياء الورعين؛ لأنهم يعدّون الثقافة الوطنية (ثقافة أوطانهم الأصلية) هي الثقافة الإسلامية، أما الثقافة الإسلامية في أمريكا فليست إسلامية؛ الأمر الذي يعني - عندما يصل الأمر إلى أنماط السلوك - اعتبار تلك الأنماط خاطئة وغير مرغوب فيها. لذلك يحترس كثيرون من المهاجرين المسلمين احتراساً شديداً من أن يتأمرّك الجيل القادم. ويشكو الشباب المسلمون غالباً، من أن أبناء الجيل الأكبر يختبرون ولاءهم للثقافة الوطنية، ويفضحونهم إذا لم يسلكوا مسلك الشباب المسلمين في أوطانهم الأصلية. ومن المفارقات أنه برغم تحامل المجتمع السائد على الشباب المسلم أحياناً وتجاهله لهم، فإن كثيراً من هؤلاء الشباب الذين تواصلت معهم أكدوا أن غير المسلمين عموماً يقبلونهم أكثر مما تقبلهم الجالية الإسلامية. إذن، هذا هو عامل آخر من عوامل إبعاد الجيل الثاني عن المسجد.

من الأمور الحاسمة التي تبعث الحيوية في أي مجتمع ديني؛ قدرته على اجتذاب الأبناء والأحفاد وغيرهم من الذين يعتنقون الإسلام. وبموجب هذا المعيار يُعدّ أداء الجالية الإسلامية في أمريكا ضعيفاً، بغض النظر عن انتشار المساجد والمنظمات الإسلامية. إن أحدث موجة من هجرة المسلمين إلى أمريكا بدأت في أواخر خمسينات القرن العشرين وما زالت مستمرة حتى اليوم. وقد ظهر اليوم أعداد كبيرة من مسلمي الجيلين الثاني والثالث الذين يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن ليس من أبناء الجيل الثاني في المساجد الأمريكية سوى قلة قليلة، أما الجيل الثالث فلا وجود له تقريباً في هذه المساجد. وقد دخلت أعداد كبيرة من الجالية الأمريكية الإفريقية الإسلام منذ ستينات القرن العشرين، كما رَفده آخرون من بقية السكان بصورة ثابتة، بيد أن غالبية معتنقي الإسلام يتعدون عن الجالية، ولا يُرى في المساجد إلا أعداد يسيرة من أبنائهم وأحفادهم.

يعطي مجتمعا في لورنس (Lawrance) صورة واضحة عن الاتجاه العام في المدن الجامعية. يقع مسجدنا في محيط حرم جامعة كنساس (KU) على مسافة

خمس عشرة دقيقة سيراً على الأقدام من أبعد نقطة من أرض الجامعة، وعلى بعد ما لا يزيد عن ربع ساعة بالسيارة من أي موقع في المدينة. يقيم أكثر من سبع مئة مسلم وغرباء آخرون في المدينة (ويُقدر عددهم بنحو أربع مئة)، ومع ذلك فلا يؤدي من بينهم صلاة الجمعة أكثر من عشرين شخصاً؛ أما بقية المصلين، وعددهم مئتان تقريباً، فهم من الزائرين القادمين من وراء البحار. وهناك مئتان وخمسون طالباً على الأقل من أبوين مسلمين في جامعة كنساس؛ لا أحد منهم يؤم المسجد. شهدت جاليتنا نحو ثلاثين أمريكياً اعتنقوا الإسلام في غضون خمس عشرة السنة الماضية؛ وقد كُفَّ معظمهم تقريباً عن المجيء إلى المسجد بعد اعتناقهم الإسلام بوقت قصير، وارتد منهم ما لا يقل عن عشرة. وتضم المدرستان الثانويتان المحليتان تقريباً ستين طالباً، أحد أبوي كلٍّ منهم مسلم، ولا يؤم المسجد منهم أو يشارك في مناسبات الجالية المسلمة إلا قليل. تعدُّ المساجد التي يديرها المهاجرون أحسن حالاً من تلك التي يديرها طلبة أجنبية، ومع ذلك فتتميّز كلها بقلة روادها من مسلمي المنطقة، وندرة روادها من المسلمين المواطنين.

ولما لم تقم علاقة للغالبية الساحقة -من الأمريكيين من سلالة مسلمة- بالمسجد، فإنه لا يوجد أدنى اهتمام بها من قبل المؤسسة الدينية الإسلامية. يشار إلى هذه القضية أحياناً في المطبوعات والمؤتمرات الإسلامية، بيد أن الموضوع لا يلقى من الاهتمام إلا قليلاً، الأمر الذي يوحي بأن المسلمين في أمريكا، إما أنهم لا يدركون هذه المشكلة، أو أنهم لا يابهنون بها. ولولا أنني تلقيت استغاثات، خلال سنوات عديدة، من آباء أطفال ارتدوا عن الإسلام، لافترضت أن الجهل أو اللامبالاة هما سبب الصمت تجاه هذا الأمر، فلماذا نتحاشى هذا الموضوع؟ وبالرغم من طرحي لهذا السؤال مرات عديدة، فإنني لا أعرف الجواب بوضوح، ولكنني أعتقد أن سبب الصمت هذا ناجم عن مزيج من الإنكار والجبرية (الإيمان بالقضاء والقدر)، والارتباك، والروح الانهزامية. فبعض المسلمين يرون في حضور حفنة من شباب المسلمين في المؤتمرات الإسلامية دليلاً على أن الأمور كلها بخير، ويؤكد الآخرون أن الله بمعجزة سوف يقلب الأمور رأساً على عقب. ويخجل كثيرون من الآباء من

بحث الصعوبات التي يواجهها أبناؤهم فيما يتعلق بالدين، ويشعر آخرون أنهم مسحوقون ومقهورون، وليس لديهم ما يدلهم على كيفية الرد على هذه المشكلة.

سوف يستمر هرب أبناء المسلمين وأولئك الذين اعتنقوا الإسلام من المساجد ما لم تقرر الجالية مواجهة المسألة بجدية؛ وهذا لا يمكن أن يحدث ما لم تُفهم الأسباب الكامنة وراءها. وبالطبع، ربما يظن بعض الزعماء المسلمين أن الخطأ يقع كله على عاتق المحرومين، الذين يفضلون المتع الزائلة في الثقافة الشعبية على مطالب الحقيقة؛ ولكن ربما يقع الخطأ كذلك على عاتق الجالية؛ لأنها لا تبذل جهداً كافياً للوصول إلى الناس، أو لأنها ترتكب أخطاء فادحة في هذا الشأن. من الواضح أنه لا يمكن إدراك الأسباب الكامنة وراء الخروج من مجتمع المسلمين المولودين في أمريكا ما لم تقم رغبة صادقة في الاستماع إلى شكاواهم، ومع ذلك تبقى عقبات كأداء. ليست المسألة أن يهرع المحرومون إلى المسجد يعللون غيابهم عنه. فلو كانوا مرتبطين بالجالية أو مهتمين بها لما بقوا بعيدين عنها. ويفترض أن يكون لدى أقاربهم فكرة، ولو طفيفة، عن أسباب عدم رضاهم، ولكن ثقافة المسجد، كما ذكرنا آنفاً، هي ثقافة شرق أوسطية، توصف عادة بأنها ثقافة مخجلة، لا يفكر المرء من أبنائها حتى بتهوية غسيل الأسرة القذر. جرت دراسات حول اندماج المسلمين في الغرب، ولكنني لم أجد أي دراسة تستكشف بصورة منهجية أسباباً جذرية لبعد الجيل الثاني ومعتنقي الإسلام عن المسجد. ونأمل أن تظهر دراسات وأبحاث من هذا القبيل قريباً.

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب ليس مسحاً لهذه المسألة، لكنه مفعم بظواهر انفصال المواطنين المسلمين عن المسجد. ولأسباب ما، بدأت بعد نشر كتابي (حتى الملائكة تسأل)^(١) أتلقى قدراً كبيراً من الرسائل الإلكترونية وغيرها لأشخاص من أبوين مسلمين، وممن اعتنقوا الإسلام، ومن غير مسلمين؛ يطلبون مني الكتابة عن أنواع عديدة من القضايا الدينية. وقد أبدت الغالبية

(١) منشورات أماتا (Amana)، بلتسفيل (Beltsville)، MD، ١٩٩٧. ودار الفكر، ٢٠٠١م.

العظمى في هذه المراسلات شكوكاً بشأن الإسلام، واعترف قسم كبير منها صراحة بعدم إيمانه بالإسلام. وقال عدد منهم: إنهم في طريق التخلي عن الإسلام، أو هم على وشك التخلي؛ وشعر آخرون أن شكوكهم دفعتهم للردة عن الإسلام. وقد صدمت صدمة عميقة بأولئك الذين يكتنفهم الشك؛ فهم يشعرون بالحاجة إلى اختبار الدين، وشعرت كذلك بالقلق والحرج إذ لجؤوا إلي، لأنني أحس دائماً بأنني لست أهلاً لهذه المهمة. ووجدت نفسي، بمرور الزمن، أواجه باستمرار بعض الأسئلة، لذلك ابتكرت في حاسوبي الشخصي ملفاً أسميته (Losing My Religion) (ضياع ديني) أجمع فيه الأسئلة وإجاباتي عنها، بحيث أرجع إليها بين حين وآخر. وبهذه الطريقة أصبحت قادراً على استرجاع تأملاتي السابقة حول موضوع ما، إذا برز ثانية في محادثة أخرى. كانت معظم هذه الإجابات قصيرة نوعاً ما، إلا أن بعضها تطور حتى أصبح بحثاً مطولاً. وهذه الإجابات الطويلة تشكل فصول الكتاب التي ألحق بها أكثر الأسئلة طرْحاً، مع الإجابات القصيرة عنها.

قسم كبير من الذين بعثوا برسائلهم تعرضوا إلى علم الدين الإسلامي، الأمر الذي يبدو للوهلة الأولى غريباً؛ لأن الذين هداهم الله إلى الإسلام يؤكدون بساطة العقيدة الإسلامية وتماسكها. ومع ذلك فإن علم الدين هو تنظيم بشري بشأن الطبيعة وشرائع الله، ومن ثم فهو غير كامل مهما كان متقناً؛ والواقع أن نزعة المسلمين لتصوير رأي العلماء الأقدمين بأنه الرأي المثالي، هي سبب كثير من الصراع بين الإيمان والعقل الذي يدور في أوساط أصحاب الرسائل، لذلك حاولت في جوابي عن أسئلتهم العقائدية أن أوضح لهم بأن ما أقدمه من رأي ليس هو الحقيقة الخالصة التي لا مرأى فيها، بل هو محاولة لإشراكهم في خبرتي عندما سويت الأمر - من خلال قراءتي للقرآن الكريم - بيني وبين القضايا التي حجبتني ذات يوم عن الإيمان بالله. وهكذا فإنني أحاول قدر الإمكان أن أعيد ذلك في الفصل الأول، وهو عن إحياء تجربتي لدى قراءة القرآن أول مرة. وأقول: «إعادة إحياء تجربتي» ولا أقول: «عرضها ثانية» لأنه من المستحيل أن يعيد المرء التجربة ذاتها بعد انقضاء أكثر من عشرين سنة. لذلك فإن الفصل

الأول مبني على ذكرياتي الأولى عن الأفكار العقائدية المطروحة فيه، وكان يساورني أمل في أنه من الأسهل الرجوع إليها لو طرحت في سياقها التجريبي الأصيل.

أما الفصل الثاني^(١) فيبحث في أسباب نفور الجيل الثاني من المسلمين ومعتقي الإسلام من المساجد، التي يكثر ترددها على السنة الناس، وفي بعض الاقتراحات العامة، للتغلب على هذه الأسباب.

وكما ذكرت آنفاً، فإن بقية الكتاب تتألف من أسئلة نوعية تتبعها إجابات موجزة. وتجري أحياناً مقارنة بين مقاربتين مختلفتين دون تفضيل إحداهما على الأخرى، لأنني شعرت، بكل بساطة، أنه ما من مناقشة تعد ذات فائدة تذكر.

ويتضمن الفصل الثاني كذلك في آخره أمثلة من شهادات مسلمين أمريكيين بشأن صراعاتهم العقائدية. وقد حاولت، بفضل هذه البيانات والأسئلة الشخصية التي تغطي أكثر من ثلث النص، أن أقدم مقطعاً عرضياً لما وصلني من رسائل واتصالات.

إن الهدف الأساسي من هذا الكتاب، كما يدل العنوان، ليس الحديث عن الإسلام بإسهاب، بل مشاركة القارئ بمنظور يتعلق بالغالبية العظمى للجالية الإسلامية الأمريكية، كنت محجوباً عنه. لقد أحبط انفصال المسلمين المواطنين الواضح والمستمر والكلبي عن المساجد جميع المحاولات التي بذلها النشطاء المسلمون لإقامة مجتمع إسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية قابل للحياة، ذاتي الدعم. وسيكون إهمالاً مني للعقيدة وتقصيراً بحقها إن لم أشرك المؤمنين الآخرين المهتمين بمضمون الرسائل التي تلقيتها، وإن لم أشرك الناس كافة بهذا المضمون. ولهذا، رأيت أنه من المهم جداً أن أكون صريحاً وموضوعياً، وألا أتحاشى الجدل، إذ إن عرض أي حالة ضد موقف معين أو معه عرضاً

(١) حذفنا الفصل الثاني المتعلق بعلم الحديث للأسباب المشار إليها في مقدمة الناشر، وصار الفصل الثالث بذلك هو الفصل الثاني (الناشر).

ضعيفاً سوف يزيد المرتابين ابتعاداً ونفوراً؛ خاصة إن كان الموضوع لتحدي التقاليد.

إنني أعترف اعترافاً كاملاً بضخامة المشكلة التي يواجهها هذا الكتاب، ولست خير من يتصدى لها، بيد أنني أرى أن هذا الكتاب خطوة أولية تنتظر إسهامات من هم أكثر أهلية مني، وهكذا فإن العنوان لا يعكس الأسئلة العديدة التي تعدُّ لبَّ هذا الكتاب فحسب، بل يعكس هذا الاعتراف أيضاً.



الفصل الأول

ضياع ديني

إننا لا نختار دائماً ذكرياتنا، بل تنساب إلى عقولنا، وتملأ اللحظات الخالية من التفكير.

كنتُ في الثامنة من العمر، أنام في سريري آخر الليل، حينما أيقظني صباح والدي في الطابق الأسفل. رجل ضخم، قوي؛ طوله ستة أقدام، يزن ٢٣٥ باونداً، كتفاه كبيرتان؛ ذراعه قويتا العضلات، رأسه كبير عريض، وقبضته ضخمتان كالملمزة، يفتخر ويلوح بهما أحياناً لأبنائه في أثناء مداعبته لهم. كانت تتقاطع مع صرخاته العميقة المرعدة فترات قصيرة من صوت أمي المخنوق. حاولت حجب لعناته وتهديداته بدفن رأسي تحت الوسادة، ولكن دون جدوى. فكان عاصفة عنيفة كانت توقظني في منتصف الليل، لا يستطيع المرء إبعادها، وما عليه إلا الانتظار حتى تنجلي، ويساوره الأمل أخيراً في ألا يكون قد تضرر أحد. أتوسل إلى الله، كما كنت أفعل مراراً، أن يزيع والدي من حياتنا، ويحمي أمي وينقذنا من هذا الكابوس الذي لا ينتهي.

سمعت صوت ارتطام مفاجئ، كأنما دفع أحدهم قطعة أثاث إلى الجدار. قفزت، دون تفكير، من سريري، وهرعت إلى الطابق السفلي، ثم إلى الممر

المظلم تجاه المطبخ. ولدى وصولي إلى مدخله تجمدت في مكاني؛ إذ رأيت أمي على بعد بضعة أقدام ملتصقة بطاولة المطبخ وجسد والدي متكئ عليها. تدير رأسها إلى اليمين وتبعد ظهرها إلى الوراء لاتقاء وجهه الذي لا يبعد عن وجهها سوى بوصات قليلة. وبينما كان يكيل لها الإهانات بصوت هادر ممسكاً ذراعها بقبضتيه الضخمتين، أخذت أفكر بطريقة لإيقافه، وأنا مرعوب، يتتابني الهلع، ألثت بصوت عال لهاثاً ثقيلاً، كصوت مروحة قوية.

يبدو أن والدي أدرك وجودي بالرغم من أنه لم يلتفت فتوقف عن الصراخ وأبقى والدتي محصورة إلى الطاولة. تقدمت خطوة لأرى إن كانت والدتي قد تضررت، فأدارت رأسها نحوي، وتغيرت تعبيراتها بسرعة من لهجة خوف الأم على ابنها إلى لهجة المتماسك القوي، وقالت لي بلهجة موزونة جداً وكأنها رئيسة ممرضات في غرفة الطوارئ «جيف، كل شيء على ما يرام. أنا وأبوك نتحدث فقط. سأكون بخير. عد الآن إلى سريرك». لم أتزحزح، بالرغم من أن لهائي هداً قليلاً. فكررت أمي القول: «جيف، لا تقلق. إننا نتناقش في أمر ما، ليس إلّا. أرجوك يا ولدي أن تعود إلى سريرك».

حرر والدي أمي، وتوجه دون الالتفات إلي نحو خزانة الكؤوس والأكواب. وأجبت أمي بشفتين مرتجفتين محاولاً ألا أبكي: «حسناً، أمي» واستدرت عائداً عبر الممر إلى الطابق العلوي.

لم أومن بالله بسهولة. فقد بدأت في سن مبكرة أشك بوجود خالق رحيم حكيم. وغالباً ما كنت أسمع رفاقي يقولون: «إنني رفضت المسيحية من أجل الإسلام. ولم يكن الأمر كذلك».

نشأت في مدينة صاخبة عنيفة، في بيت لا يقل عنها صخباً وعنفاً. كان والدي على الدوام متوحشاً مدمراً؛ يحاول أن يكبت غضبه كل ليلة بشرب مفرط للخمر. وإدمانه على الخمر جعله أكثر تقلباً وأسرع إثارة. إذ تراه يضحك ويمزح في لحظة، ويستشيط غضباً في اللحظات التالية. وكان العيش مع والدي كمن يحمل علبة من النيتروغليسرين. كنت أدرك دائماً أن أدنى إثارة غير متوقعة تجعله ينفجر، وعندها لا يهدأ ولا يأوي إلى فراشه إلا بعد ساعات وبعد تناول قدر

كبير من الخمر. عشت وإخوتي الأربعة طفولة قلقة يسودها الرعب. وأسوأ ما كان في حياتنا رؤية والدي وهو يوبخ أُمي بطريقة ساخرة مهينة ويهددها.

إن كون الطفل هدفاً لغضب والده لا يعد سيئاً حقاً؛ لأنه لا يفكر حينئذ إلا بنجاته. فعندما يوجه أبوك لكلماته إليك أو يرفضك بقدمه طارحاً إياك على الأرض، أو يطاردك في البيت مهدداً: «لأذبحنَّك أيها الولد» فإن كل ما تفكر فيه إذ ذاك هو النجاة. أن لا تفكر -في حماة الهجوم- بنتائج أو بما يسفر عنه؛ وعندما ينتهي الأمر فإنك تخلق له الأعذار، لأنك تظن أنك ربما تستحق ذلك، إن لم يكن على ما فعلته الآن فعلى فعلة ارتكبتها في الماضي. أما رؤيتك والدك يهجم على أمك فإن الخوف الذي يتولد لديك يختلف تماماً عن أي خوف آخر؛ لأنها كما تعلم هي المنيع الوحيد للطف والحنان والحب والحماية، ومن ثم، فإذا ما حاول الوالد أن ينهي ذلك كله، فإنك تفقد كل شيء. ومع ذلك، وبغض النظر عن الخوف الذي يتتابك، فإنك تشعر بالإثم يجتاحك من جهات مختلفة. فهناك إثم صادر عن الكراهية التي تنمو فيك تجاه والدك، لأننا تعلمنا أن نحب آباءنا ونحترمهم، وقد وُلدنا مرتبطين بهم ارتباطاً طبيعياً. وهناك إثم صادر عن معرفتك بأنك أنت سبب العنف الذي مارسه والدك ضد أمك. إذ ربما تكون قد أثرت غضبه بطريقة لا تعيها. وربما يكره أن تكون سبباً في إثارة جدال بينه وبينها. أقسى إثم على الإطلاق إدراكك أنك لا تستطيع فعل شيء لمنع والدك من إيذاء أمك. وحرصاً على سلامتك تختبئ في فراشك عندما يصب أبوك جام غضبه على أمك، وبذلك تكون قد استبدلت بالسلامة الشخصية احترام الذات. إنك تعاني مع حادثة كهذه، بل تدرك بوضوح أكبر ضعفك وتخنثك (ضعفك الجنسي) وعجزك، وتفاهتك وجبنك والكره الذي ينمو ويفرّخ في ذاتك ليس فقط تجاه الرجل الذي نسميه (أباً)، بل تجاه نفسك أيضاً. إذ من المريع جداً أن تضع شخصاً ما في الخيار بين نفسه وبين أمه، إنه لظلم فادح.

عندما سرت في جنازة أُمي بعد بضعة سنين، كان الذين يعزوني يصفونها بالطريقة ذاتها قائلين: «أمك يا جيف كانت قديسة حقاً». ويبدو أن كل من يعرفها يشفق عليها، ويعجب بها لتحملها والذي طيلة تلك السنين التي عاشتها

معه، بكل صبر وقوة ورحمة ومرح. ومع ذلك لم تعدّ نفسها ضحية أبداً، ولم تسع إلى اكتساب عطف أحد؛ لأنها تعتقد أن الزواج الذي عقد مع زوجها عندما كانت في الحادية والعشرين من عمرها زواج مقدس لا يجوز انتهاكه. فضلاً عن أنها كانت تقول دائماً: إنها تحب والدي، الأمر الذي كان من الصعب علي أن أفهمه.

كانت أُمِّي قوية الإرادة واثقة بنفسها تنبض حيوية ونشاطاً. وكان شعارها المفضل «حيث تتوافر الإرادة، تتوافر الوسيلة». وكانت تقول دائماً: كل شيء ممكن بعون الله، وما من أحد ولا من شيء يستطيع تدميرها أو إذلالها.

لقد صدمنا جميعاً عندما أصيبت في السابعة والستين من عمرها بانهايار عصبي. فقد كنا نؤمن بعزيمتها التي لا تضعف ولا تدمر. وبعد ذلك لم تعد هي أُمنا التي نعهد لها، إذ قضت السنوات الست الأخيرة من عمرها تصارع ما وصفه الأطباء بأنه مسٌّ من الاكتئاب. توفي والدي بعدها بسنة.

ما زلت أفتقد أُمِّي افتقاراً موحشاً. فقد كانت لزمن طويل هي الشخص الوحيد الذي أستطيع محبته. كانت أقرب أصدقائي إلي، حاميتي وبطلتي الوحيد. كانت كاثوليكية عميقة الإيمان، ممرضة متفرغة وقفت حياتها للآخرين، يحبها الجيران كلهم، وكانت أكثر من عرفت إحساناً وعطاء.

أتذكر كيف كانت تزور بانتظام كبار السن، وفارغي الصبر، وسبيي الطبع، كما نزور جارة إيطالية لتغسل قدميها وتقليم أظافرهما. وأتذكر كم كانت تعطف على مرضاها في المشفى، وكيف كان حديثهم عنها مفعماً بالدفء والحب؛ أسمع ذلك عندما كنت آتي وأنا في العقد الثاني من عمري لأصطحبها إلى البيت من العمل. وأتذكر أيضاً كم كانت معلمة وأماً عظيمة، وكم كانت صديقة مخلصة أمينة، لم تشتم أحداً، ولم تعامل أحداً بوقاحة قط. وفوق ذلك كله كانت تحب أبناءها الخمسة، وكم كانت تشقى لتعيّلنا وتوفّر لنا حياة عادية سعيدة قدر المستطاع بالرغم من التخلف الذي اكتسبناه.

عندما كنت صغيراً كنت أحلم بحياة ليست فيها والدي. كنت أريد أن يختفي

العنف. كنت أريد أن أتخلص من الخوف. كنت أشعر أنني وقعت في شرك حلم مزعج لا مخرج منه. لذلك كنت أصلي الله وأدعوه أن يزيح والذي من حياتنا وأن يوقف الألم، ولكنّ والذي ظل موجوداً دائماً، فشرعت أشك منذ حادثة سني بوجود الله.

لم أستطع أن أفهم السبب الذي جعل الله يحكم على والدتي بالعقاب مدى الحياة. لم أستطع أن أتخيل أي ذنب اقترفت، أو أي ذنب اقترفناه - نحن أبناءها - ليكون جزاءنا مثل هذا الأب. كنت أفكر للرشد الذي يمكنني من فرز هذه الأسئلة وتصنيفها بالرغم من أنه كان يعمور في نفسي غضب، ويهيمن علي خوف يحفزاني على إثارتها. كنت أصغر من أن أدرك الحكمة التي تجعل أمي تعاني من عنف والذي وسوء معاملته؛ كنت أصغر من أن أفهم لماذا يترك الله أطفالاً يرتعدون خوفاً في فراشهم كل ليلة، يخشون ألا يروا أمهم صبيحة اليوم التالي، كنت أصغر من أن أفهم كيف تشمل رحمة الله وعفوه والذي بكل ما يبوء به من إخفاق ذريع، كل ما كنت أراه في عالمي هو الفوضى والعنف؛ ولهذا كان سهلاً علي أن أشك بوجود الله.

أعتقد أنه غدا من الواضح الآن أن أسأل لماذا لم أجد الله في الكاثوليكية أو في المسيحية؛ لأن صورة والذي المرعبة كانت دائماً تلوح أمامي بيني وبين المسيحية فتحجبني عن الحقيقة التي ربما اكتشفتها. لم أترك المسيحية بسبب أي عقيدة أو لاهوتيات، بل تركتها وتركت الإيمان بالله بسبب الخوف والغضب المنسوجين في فوضى طفولتي وجرحها.

إن الاضطراب الذي حصل في الستينات والسبعينات من القرن العشرين عزز شكوكي وارتياحي. كذلك اغتيال جون روبرت كينيدي ومارتن لوتركنغ ومخازي الرئيس نيكسون ونائب الرئيس أغنيو وسقطاتهما والشغب العرقي، وقاتل العصابات الذي تفجر في مدن كمدينتي، ومذبحة فيتنام الغربية الشاذة التي لا معنى لها.. كل ذلك عزز وثبتّ الدرس الذي انغرس في نفسي، وهو أن العالم يسوده عنف عشوائي، غامر، غير مميز، فبدأت في وقت مبكر من حياتي أتساءل: لماذا؟

لماذا تجري الأمور على هذه الشاكلة؟

لماذا خلق الله مثل هذا العالم العنيف الناقص؟

لماذا لم يضعنا في السماء منذ البداية ولم يبقنا هناك؟

لماذا جعلنا نزاعين للإجرام، قابلين للفساد والتخريب؟

بما أن الله يريدنا أن نستسلم لإرادته، فلماذا لم يجعلنا كذلك منذ البداية؟

لماذا لم يجعلنا ملائكة، أو شيئاً آخر أفضل إذا كان ذلك ضمن قدرته؟

لماذا جعل الأقوياء يعذبون الضعفاء ويضطهدونهم؟

لماذا يجعل الأطفال الأبرياء الذين لا يلامون يُجرحون جروحاً عميقة

لا تُمحي بعنف لا يلائم تكوينهم؟

كنت أريد أن أعرف لماذا، وأطالب بالجواب. وما كنت أبالي إن جاء

الجواب من السماء أم من الجحيم، من ملاك أم من شيطان، من البابا أم من

تشارلز مانسون (Charles Manson)، كنت أريد تفسيراً مقنعاً مترابطاً. كنت أريد

أن أعرف الحقيقة، لا أكثر.

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما قررت ألا أومن بالله، وعلى الرغم

من بقائي كافراً إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة تقريباً، فقد حافظت، كبقية

الملحدين، على اهتمامي بمعتقدات الآخرين. لا أريد أن أصف نفسي باحثاً

خلال هذه الفترة من حياتي، بالرغم من أنني كنت أبحث دون أن أعي ذلك.

أظن أنني كنت أريد أن أفهم الظاهرة التي اعتقدت أنها خدعتني وخانتني، فهماً

أفضل.

وجدت دائرتي الاجتماعية تنجذب بمرور الزمن من منظور ديني إلى منظور

آخر. انسقت، في سنواتي الجامعية الأولى، باتجاه زملاء لي ملحدين، ثم

باتجاه أصدقاء يهود في أثناء الجزء الأخير من دراستي الجامعية الأولى. كان

جل أصدقائي في بداية دراستي الجامعية من البروتستانت، ولكنني اقتربت في

السنتين الأخيرتين من طلاب هندوسيين وبوذيين جاؤوا من وراء البحار. لم

أتعمد اختيار أصدقائي بناء على خلفياتهم الدينية - بل كان ذلك على ما يبدو عفويًا وعرضيًا - ومع ذلك فلدى استرجاعي للأمور بدا لي أنه كان نموذجاً محدداً في صداقاتي.

كنت متطلعاً لمعرفة أفكار الآخرين بشأن الدين، ولكنني لم أكن مندفعاً، على ما أعتقد، كان إصغائي أكثر من كلامي. وإذا سُئلت عن معتقداتي، لا أخفيها، ولكن إجاباتي كانت قصيرة وفي الصميم قدر المستطاع. لم أكن أرغب في أن تكون عقيدتي عقبة في طريق صداقاتي، على أي حال، لم تكن غالبية الناس مهتمة بالإلحاد كثيراً.

وبالرغم من أنني نادراً ما كنت أنتقد معتقدات أصدقائي، فقد وجدت تلك المعتقدات أقل إمتاعاً وإقناعاً كلما كانت عقلانية ومتراطة، إذ كان الشخص يحل العديد من النزاعات بين الإيمان والعقل بفضل تقليص الفروق بين الله والبشر أو إلغائها؛ فيجعلُ الله أكثر قرباً من البشر، والبشر أكثر ألوهية، ومع ذلك يستخلصون أن الله أو الآلهة غير جديرين بالعبادة، وأن البشر أكثر نبلاً وفضيلة من الله أو الآلهة التي خلقتهم. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك الميثولوجيا الإغريقية التي أعتقد أنها أكثر علوم اللاهوت واقعية وصدقاً. فهي تفسر أن الشر والفوضى في العالم قد أوجدهما آلهة أصحاب نزوات يتسلون بصراعنا، ويمارسون الحياة من خلالنا، دون أن يجازفوا بشيء أو يعانون أي ألم.

كان أصدقائي من اليهود والبوذيين والهندوسيين مرتاحين إلى إلحادي، أما بعض أصدقائي المسيحيين فلم يكونوا كذلك، وكانوا يشعرون أحياناً أنه لا بد من الإفصاح عن موقفهم هذا. وكان ذلك يقود في بعض الأحيان إلى مجادلات حادة. وعندما كان يحصل ذلك كنت أعود إلى طرح أسئلتني الأساسية التي كنت أطرحها في أثناء طفولتي، وهي: لماذا خلقنا الله عنيفين ومخربين، وذوي نزعة قوية للشر؟ لماذا لم يضعنا في السماء منذ البداية بطبيعة غير قابلة للغواية. لماذا منحنا عقلاً إذا كان له أن يتصارع مع الإيمان؟

التحقت عام ١٩٨٢ عندما كنت في الثامنة والعشرين من عمري بأعضاء الهيئة التدريسية لجامعة سان فرانسيسكو (USF)، أقدم جامعة يسوعية في

أمريكة. وبعد وصولي هناك بوقت قصير كونت صداقة حميمة مع أسرة مسلمة من السعودية. كانوا طلاباً ثلاثة في الجامعة: محمود، وعمر، وراجية قنديل - أخوان وأخت - كلهم في مطلع العشرينات من أعمارهم.

بالرغم من أنني كنت لا أعرف عملياً شيئاً عن الإسلام، لكنني كنت أفترض - ولا أدري لماذا - أن الدين الإسلامي، أكثر أديان العالم خرافة. بدأت أتفحص فكريتي المسبقة هذه بعد أن جرت أحاديث مع أصدقائي الجدد. كانت أفكارهم الدينية تتبع ميثولوجيا محددة وأساساً منطقياً معيناً، ووجدت، بالرغم من أنني لا أستطيع استرجاع ما قالوه، أن عقيدتهم ليست أفقه من غيرها.

سألني أصدقائي هؤلاء، في أثناء حديث جرى بيننا، عن عقيدتي الدينية، وعندما أخبرتهم أنني لا أؤمن بالله، وبيّنت لهم الأسباب باختصار لم ألحظ عليهم أي رد فعل سوى محمود، فإنه قال شيئاً مفاده أن الدين يتعارض مع العقل، ولذلك يجب أن يقبل عن طريق الإيمان. لم يكن محمود، بالطبع، هو أول من قال لي ذلك، فكنت أسمع مثل هذا القول طيلة حياتي.

وبما أنني كنت كثيراً ما أضيع مفاتيحي كنت أترك باب مكتبي في جامعة سان فرانسيسكو غير مقفل. وكثيراً ما كنت أجد على طاولتي عندما أدخل ملاحظات وواجبات مدرسية تركها لي الطلبة. وبعد أن أخبرت أبناء قنديل عن إلحادي بيوم أو يومين، وجدت على مكتبي كتاباً سميكاً ذا غلاف أخضر، كتب على غلافه (القرآن الكريم). فزعت واضطربت بادئ الأمر، إذ عرفت أن أحد أبناء قنديل قد وضعه هناك، ولكنني تساءلت لماذا وضعوه، وما الذي يريدون قوله؟! ظننت أنهم كانوا يحاولون إدخالني الإسلام، وأنهم يريدون القول: «إذا ما كان لصداقتنا أن تستمر فلا بد أن تعتنق الإسلام». ومع ذلك، كنت كلما فكرت في الأمر أدركت أنني كنت أبالغ. فأولاً، لم يكن أبناء قنديل متدينين باعترافهم هم. وتأكد ذلك لي من واقع أن حياتهم التي كانت متناقضة مع كثير من الأنظمة الإسلامية التي كانوا يتحدثون عنها. وثانياً، كان لهم أصدقاء كثيرون من غير المسلمين، ولم يظهروا أي اهتمام بفتح حديث معهم حول دينهم. وثالثاً: عندما كنا نناقش دينهم كنت أنا الذي أفتح الموضوع. فاستتجت

أن تقديم كتابهم لي كان بريئاً، لظنهم أنه إن كان لدي أسئلة تتعلق بدينهم فلا بد لي من أن أقرأ كتابهم. وهذا معقول لأنهم كانوا يعانون صعوبات في أثناء تعاملهم مع أسئلتي.

هل أنت تتحدث إلي؟

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢]، أحسست برعشة تتابني عندما قرأت هذه الآية. أخذت أفكر في نفسي: هل أنت تخاطبني؟

كنت ما أزال في الصحيفة الثانية من القرآن، حين تشكل لدي إحساس، أخذ يتكرر كلما سرت قدماً في قراءة النص. ففي الصحيفة السابقة من الكتاب نجد السورة الأولى (الفاتحة) التي هي أساساً دعاء للهداية، ونصها: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ١/١-٧].

في الصحيفة الثانية، في بداية السورة الثانية، يجيب الله نفسه القارئ ويبين له أن الهداية التي دعا لها قبل قليل هي بيديه. ففكرت، إذن أنت تقول: إن الهداية التي دعوت للحصول عليها موجودة في هذا الكتاب. نظرت مرة أخرى إلى الآية الثانية: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢/٢].

فقلت لنفسي: «يا لها من طريقة أصيلة ملائمة لعرض الوحي!!» فبدلاً من سرد تاريخ شعب، أو سيرة معلم عظيم، أو مجموعة من أقوال نبي، قام مؤلف الكتاب الذي افترضت أنه محمد بوضعه على صيغة خطاب مباشر من الله إلى البشر. فاعتقدت أن هذا هو بالضبط ما نتوقه من وحي إلهي؛ وكأنه الوصايا العشر وسعت حتى صارت كتاباً.

وكنت كلما تقدمت في القرآن ازداد احترامي لمهارته، لقد تأثرت بوجه خاص بالطريقة التي تجعلني أكرر الإحساس الذي تحدثت عنه آنفاً بيد أنه- على المستوى الأعمق- تولد لدي شعور غريب بأن القرآن كان يخاطبني فعلاً؛

في الفكر والروح، بل أكثر من ذلك، ولكنني أفتقر للكلمة التي تعبر عن هذا الشعور. تبين أن المؤلف قد أدخل إلى النص عدداً من المقاطع يعلم أنها ستثير أسئلة وردود فعل معينة لدى القارئ، ومن ثم يجيب على ردود فعله المتوقعة سلفاً في مقاطع تالية. إن مقدرة القرآن هذه في إشغال القارئ بحديث ذهني وروحي - أو كما قال فريدريك ديني (Fredrick Denney) «قدرته على قراءة القارئ»^(١) - تمنحه طاقة نفسية هائلة، وهذا، على ما أعتقد، هو سبب حماس المسلمين الديني المعروف. أحسست أنه لا بد أن يكون المؤلف ذا بصيرة نافذة في الطبيعة البشرية، خصوصاً وأن مقدرة القرآن المتأصلة فيه ما زالت - من وجهة نظري وبفضل خبرتي - قوية جداً بعد أربعة عشر قرناً من ظهوره أول مرة.

تلخص الآيات التسع والعشرون من السورة الثانية موضوعات القرآن الكبرى ببلاغة وفصاحة نادرتين؛ هذه الموضوعات هي: حاجة الإنسان إلى التسليم الذاتي لله، ونبوة محمد، واليوم الآخر، واستخدام القرآن الرمزية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦/٢]، وبعث الإنسان، وسيادة الله المطلقة. وتصف هذه الآيات كذلك المستمعين المحتملين للكتاب. القراء الذين هم أكثر استفادة من القرآن هم المؤمنون المخلصون. والقراء الأقل انتفاعاً بالقرآن هم مُغلَقو العقول الرافضون للقرآن. وفيما بين الفئتين الأدعياء والمخادعون (المنافقون)، الذين يدعون الإخلاص في الإيمان ولكنهم يضعون مصالحهم الدنيوية والذاتية فوق الإيمان. هؤلاء لا ينتفعون من قراءة القرآن ما لم يغيروا بنيتهم الفكرية.

من حيث الشكل لا تختلف مقدمة القرآن عن مقدمات كثير من النصوص التعليمية، التي تصف محتويات الكتاب والشروط اللازمة لتعلمها.

(١) فريدريك ديني، الإسلام (نيويورك هاربر و رو، ١٩٨٧)، ص ٨٨.

إنك تحدثني

تعرض الآيات ٣٠ - ٣٩ من السورة الثانية (البقرة) ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَلَيْسَ لَهَا اسْمَآءٌ مِّمَّا عَلَّمْتَهُمْ قَالُوا بَلَىٰ أَلْبَسْتَهُمْ فَعَرَضُوا إِلَيْهِمْ سَبَإًا فَذَكَرَ لَهُمْ مَا تَلَّوْنَا فَنَبَّحْنَاهُمْ لَهَا فَغَاثُوا لَهُمُ النَّارَ ﴿٣٣﴾ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٤﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا لَا تُخْزِنَا فِي بُحُورٍ وَلَا تُجْعِلُنَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ مَذْمُومًا وَلَا تُؤْخِذْنَا فِي نَارٍ قٰتِلَةٍ إِلَّا بِأَمْرٍ مِّنْكَ لَا تَجْعَلْ لِّغَايِبِنَا سَبَبًا وَلَا تَكُنْ لِّغَايِبِنَا مَعْبُودًا ﴿٣٥﴾ فَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ نَوَاسِيبًا مِّنْهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا لَا تُخْزِنَا فِي بُحُورٍ وَلَا تُجْعِلُنَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ مَذْمُومًا وَلَا تُؤْخِذْنَا فِي نَارٍ قٰتِلَةٍ إِلَّا بِأَمْرٍ مِّنْكَ لَا تَجْعَلْ لِّغَايِبِنَا سَبَبًا وَلَا تَكُنْ لِّغَايِبِنَا مَعْبُودًا ﴿٣٧﴾ فَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ نَوَاسِيبًا مِّنْهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا لَا تُخْزِنَا فِي بُحُورٍ وَلَا تُجْعِلُنَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ مَذْمُومًا وَلَا تُؤْخِذْنَا فِي نَارٍ قٰتِلَةٍ إِلَّا بِأَمْرٍ مِّنْكَ لَا تَجْعَلْ لِّغَايِبِنَا سَبَبًا وَلَا تَكُنْ لِّغَايِبِنَا مَعْبُودًا ﴿٣٩﴾

كان في جملة يعرض رؤية متماسكة ومتراصة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠/٢].

فاجأتني الآية الثلاثون من سورة البقرة هذه، ليس لأنها تبدأ بقصة رمزية تتعلق بأول رجل وأول امرأة، بل بالطريقة التي تعرض بموجبها هذه الحكاية. وعندما قرأتها هذه المرة، شعرت أنني وحيد (منزول) وكان مؤلفها دفعني جانباً، وألقى بي في فضاء خال صامت كي يحدثني وحدي مباشرة.

تساءلت بادئ ذي بدء ما إذا كان المؤلف قد سمع بحكاية آدم وحواء التقليدية خطأ أو أنه أساء فهمها، لأن هذه الآية تنفي مغزاها وجوهرها. ولكن بعد أن قرأت الآية للمرة الثانية والثالثة والرابعة بدأت أدرك أن المؤلف قد غير ترتيب تفاصيل الحكاية القديمة أو عدّلها.

مسرح أحداث الآية هو السماء حيث يعلن الله للملائكة أنه سيضع إنساناً على الأرض ليمثله هناك: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. فاعترضت قائلاً لنفسي: لقد أخطأ، فالبشرية لم توضع في السماء لتقوم بوظيفة إيجابية؛ بل وضع البشر على الأرض عقوبة لهم على خطيئة آدم. ومع ذلك فليس في هذه الآية أي إشارة إلى أي خطيئة ارتكبها آدم أو ارتكبتها حواء، والآيات التالية تبين أنه لم تُرتكب أي خطيئة بعد.

إن الملائكة هم الذين اعترضوا قائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ويبدو أن الملائكة هم الذين يريدون إرجاع الحكاية إلى معناها التقليدي - إلى الحكاية التي نشأت على سماعها. فسؤالهم في الأصل كان: لماذا تخلق أكثر المخلوقات عنفاً واقترافاً للذنوب؟ لماذا تضع على الأرض من يحدث فيها خراباً ودماراً؟ ويكتسب هذا السؤال قوة أعظم، لأنه طرح في السماء. لأن الله كان على وشك أن يصنع بشراً من أكثر المخلوقات نقصاً في بيئة يبدي فيها أسوأ دوافعه الإجرامية، ويتصرف تحت وطأة وهم كونه بعيداً عن الله. وبعبارة أخرى كان السؤال: لماذا يخلق الله هذه الأنواع الفاسدة ويضعها على الأرض، في حين أنه قادر على جعلها ملائكة تكون في السماء؟

كان هذا هو سؤالي!! هذا هو اعتراضي!! لقد غُلّفت حياتي كلها في هذه الأسطر الثلاثة أو الأربعة!! شعرت وكأن القرآن يعبثُ بعواظي، يتلاعب بهذه الحكاية ليستفزني. ولكي تسوء الأمور أكثر، يجيب الله الملائكة قائلاً: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وكأنه يقول: «أنا أعرف ماذا أفعل تماماً».

فصرخت في عقلي: لا، إنك لا تستطيع أن تفعل بي ذلك. إنك لا تستطيع

أن تأخذ أذيتي وغضبي وحياتي، وتضعها كلها أمامي وتقول لي: إنك تعرف ما تفعل!! لا يمكنك الإفلات من ذلك بسهولة، أنت صنعتني على هذه الشاكلة.

ثم لمعت في ذهني فكرة، هي أنني كنت أشكو الله الذي لم أومن به بعد.

افتح عينيك

بعد أن طرح الملائكة سؤالهم مباشرة كان من المفروض أن يعود المؤلف إلى رواية الكتاب المقدس التقليدية لتكتمل الحكاية. فعند تلك النقطة كان بإمكانه أن يجعل الله يجيب الملائكة بقوله: «نعم، أنتم أيها الملائكة محقون في وصفكم للطبيعة البشرية، ولذلك سأعاقب بني البشر بأن أجعل هذين الزوجين وسلالتهما كلها يعانون في الأرض عندما يقع هذان الاثنان في الخطيئة حتماً». ومع ذلك لا يعد هذا جواباً كاملاً على سؤال الملائكة، لأنه لا يوضح في المقام الأول السبب الذي من أجله خلق الله هذا الكائن الفاسد، ولكنه على الأقل يعود إلى فكرة أن الحياة على الأرض عقوبة على الخطيئة البشرية وليست فرصة لنا، لنكون ممثلين لله على الأرض.

لقد بدا لي على الفور أن للقرآن برنامجاً آخر، وأن له رؤية ورسالة مختلفتين كلياً. فبدلاً من أن يعود إلى الخطوط التقليدية، فإنه يبدأ جوابه على سؤال الملائكة بالتركيز على ذكاء الإنسان ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢٢) قَالَ يَكَادُمُ إِلَهُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٢٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (البقرة: ٣١-٣٤)، ومن ثم على الخيار الأخلاقي ﴿وَقُلْنَا يَكَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٥) فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (البقرة: ٣٥-٣٦)، وأخيراً على الهداية الإلهية ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ

كَلِمَتِ قَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٣٧-٣٩﴾.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١/٢].

تذكرت أن آدم، بموجب الكتاب المقدس، سُمي المخلوقات التي حوله، ولكن ذلك لم يرق إلى أن يصبح جزءاً من تعليل صنع البشرية وخلقها. لقد بدأ القرآن، على أي حال، جوابه عن سؤال الملائكة بلفت الانتباه إلى هذه النقطة.

تعجبت للطريقة التي يجمع فيها هذا الكتاب هذا القدر الكبير من المعنى في كلمات قليلة. ولنلاحظ أن آدم لم يُسمَ الأشياء المحيطة به فحسب، بل إن الله علّمه، الأمر الذي يؤكّد على مقدرة الإنسان على التعلّم، وعلى ذكائه، ولنلاحظ أيضاً ما يتعلمه آدم. إنه يكتسب القدرة على تسمية كل الأشياء، وعلى وضع رموز لفظية لما يدركه كله، ولأفكاره جميعها، وخبراته، ومشاعره. ويؤكد القرآن على موهبة اللغة من دون مواهب الإنسان الأخرى، لأنها على ما يبدو هي الأداة الفكرية المتطورة جداً التي تميز الإنسان من بقية المخلوقات الأرضية. فبفضل اللغة ينمو بنو الإنسان، أكثر من أي موهبة أخرى، ويتقدمون ويتعلمون فرادى وجماعات، لأنها تزودنا بوسيلة التعلّم ممن لا صلة لنا بهم، بما في ذلك الأشخاص الذين يعيشون في زمن غير زماننا وأمكنة غير مكاننا يتلقون تعليماً غير تعليمنا، الأمر الذي يضيفي على التعلّم البشري (الصفة التراكمية) المتفوقة^(١).

(١) قال محمد أسد في تعليقه على (سورة العلق) في كتابه (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبرالتر، ١٩٨٠، ص ٩٩٣، الحاشية ٣: إن القرآن يؤكد مراراً وتكراراً على هذه النقطة. ويبرز مهارات القراءة والكتابة بصورة خاصة ويصفها بأنها من أعظم المواهب الفكرية التي منحها الله للإنسان. انظر على سبيل المثال ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

إذن وضع الله الأشياء التي سماها آدم أمام الملائكة، ﴿فَقَالَ أَنُؤْمِنُ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وتبين هذه الآية بوضوح بروز الذكاء البشري في الجواب عن سؤال الملائكة. إذ سأل الملائكة لماذا يخلق الله مثل هذا المخلوق العنيف الضار؟ في حين أنهم، حسب رأيهم، أسمى من الإنسان وأكثر تفوقاً، لأنهم مستسلمون كلياً لإرادته، يمجّدونه ويسبحونه ويقدسونه. أما القرآن فيقول في هذه الآية وما يليها مباشرة: إن للبشر سمات أخرى، من بينها الذكاء، تشكل الإنسان، وهي عند الله أعظم من سمات الملائكة، بصورة كامنة على الأقل.

﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢/٢].

اعترف الملائكة بعجزهم عن مواجهة التحدي. فهم يفتقرون إلى الأهلية الفكرية التي تمكنهم من ابتكار رموز ومفاهيم لما يشهدونه. ويشرحون ذلك بأن مثل هذه الأهلية تتطلب ذكاء (معرفة وحكمة) بعيدة عن منالهم. واعترفوا أن هذه المهمة هيئة لله لأنه هو (العليم الحكيم)، أما الملائكة فهم يفتقرون إلى مثل هذه الصفات.

﴿قَالَ يَاقَادُمْ أَنُؤْمِنُ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أُنْبِأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣/٢].

نجح آدم حين أخفق الملائكة مبيناً ذكائه المتفوق عليهم. وعلى الرغم من أنه (آدم) لا يمتلك حكمة الله وعلمه، لكنه وهب من الحكمة والمعرفة أكثر مما أعطي الملائكة.

بدأت أعتقد أن المؤلف ما أساء فهم صيغة الكتاب المقدس لهذه الحكاية، بل كان يعيد سبكها ليجعل لها معنى أصيلاً. فيقول: صحيح أن الله خلق في الإنسان القدرة على ارتكاب الخطأ، ولكنه منحه صفات أخرى، لم يستطع الملائكة فهمها ولا تقديرها حق قدرها، وهذا يلائم تصحيحاً أبعد منالاً، ولذلك يقول الله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم ينته هذا السؤال الموجه إلى الملائكة، عند هذه النقطة بل استمر... ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

فتساءلت في نفسي: «ما الذي يخفيه سؤالهم؟» إن ما كشفه سؤالهم كان واضحاً. لقد كشف النزعات التخريبية الشريرة عند البشر، ولكن ما الذي أخفاه؟ ثم خطر لي أن الملائكة أكدوا على جانب واحد من جوانب الشخصية البشرية، وهي قدرته على ارتكاب عنف شديد وخطأ جسيم، ومع ذلك كان الملائكة يجهلون، مثلي، الجانب الآخر من الطبيعة البشرية. صحيح أن بعض الناس يستطيعون ارتكاب أخطاء فادحة، ولكن آخرون يستطيعون فعل خير عظيم. وبعض الأفراد قادرون على التضحية بالنفس، وعلى القيام بأكثر الأعمال عدالة ونبلًا، وأوسعها إحساناً وكرماً، وأشدّها دفئاً ولطفاً. ويستطيع ناسٌ أن يبدو أعلى درجات الرحمة والعطف تجاه أقرانهم البشر. ومع ذلك، كان مثلي كمثلي الملائكة، لم أفكر بهذا. إذ كنت لا أرى، لزمن طويل، سوى الجانب المظلم من الشخصية البشرية. صحيح أن بعضنا يمكن أن يكون مدمراً جداً، ولكن في الناس من يمكن أن يكونوا خيرين جداً ولطفاء، ونحن نعرف نماذج عظيمة من كلا الاتجاهين. وغالباً ما يظهرون على مسرح الدراما البشرية ذاته، لأن ظهور أحدهما يحفز ظهور الآخر. ويبدو أن الخير عند بعض الناس ينتج الأسوأ، وأن الشر عند بعضهم ينتج الأفضل. لذلك يمكن أن ينشأ الخير والشر من المحيط نفسه والظروف ذاتها، وأحياناً يتعايشان في البلد نفسه والمدينة نفسها، أو في المنطقة المجاورة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

[البقرة: ٣٤/٢].

لو كان لدي أدنى شك في أن القرآن يعدّ الشخصية البشرية أعظم من الشخصية الملائكية، فإن هذه الآية قد أزلت كل شك. فعندما نجح آدم وأخفق الملائكة قال الله لهم: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فسجدوا مظهرين اعترافهم بتفوقه. والسجود رمز للخضوع، وهكذا يبدو أن القرآن الكريم يشير إلى أن الملائكة سيخدمون البشر في تطورهم ونموهم على الأرض.

ومع ذلك، رفض إبليس (الشيطان) أن يسجد، وبرفضه يبين الله أن أصل نشوء الخطيئة. فليس أصل الخطيئة - كما في القرآن - هو المال أو الطمع، أو

الشهوة، بل الكبر الزائف المدمر للذات. وهكذا يُدخل القرآن الشيطان، عنصراً رئيساً آخر إلى الدراما وإلى جوابها على سؤال الملائكة الأصلي: ولكن لماذا؟ ما سبب الحاجة إلى الشيطان؟ لماذا يخلق الله مخلوقاً مهمته الوحيدة إبعاد الرجال والنساء عن فعل الخير؟

حتى هذه النقطة نجد أن القرآن قد جمع عناصر جواب ذكي عن سؤال الملائكة. أما الآن فقد بدا لي أنه بدأ يعود إلى حكاية الكتاب المقدس: الشيطان يغوي الإنسان، يرتكب الإنسان الخطيئة فيحكم على الإنسان ونسله كله بالعيش على الأرض. ومع ذلك وعدت نفسي أن أبقى عقلي مفتوحاً، ولا أقحم تفسيراتي غير اللازمة للكتاب. سأعطيه فضيلة الشك. فسألت نفسي: «ما غاية الشيطان؟».

لكل ثقافة معتقداتها المتميزة من غيرها بشأن الشيطان، ولكنه في الأيديولوجيات الدينية كلها يلعب دور المضلل، المغوي الخفي الذي يسرب إحياءات شريرة إلى أفكارنا. وكما أن الملائكة، بالنسبة إلينا، هم مصدر الحوافز الشهمة الخيرة، فإن الشيطان يحثنا على ارتكاب الخطأ، نعتقد أنهما كليهما صوتان متعارضان في عقولنا عندما نتصارع مع معضلة أخلاقية.

فتساءلت في نفسي: هل الأمر هكذا؟ هل يقول القرآن: إنه بالإضافة إلى موهبة الذكاء التي منحنا الله إياها، قد جعل كلاً منا كائناً أخلاقياً، يفهم الصواب والخطأ؟ هل يقول القرآن إن الله زودنا كذلك بإلهام ملائكي وإغواء شيطاني ليعزز من وعينا الأخلاقي^(١)؟ هل القرآن يبرز أهمية كوننا مخلوقات نستطيع، بل يجب أن نمارس خيارات أخلاقية؟ على الرغم من أنني لم أستطع إدراك أي غاية منطقية يخدمها هذا التكوين، فإني كذلك لم أستطع أن أرى كيف يخالف هذا ما عرضه القرآن حتى الآن. ﴿وَقُلْنَا يَكَادُمْ أَسْكَرُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَعَدًا حِينَ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَآ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥/٢].

(١) لقد تأكدت هذه الفكرة في عدد من النصوص، مثل: ﴿وَنَقَّسَ رَمَّا سَوَّيَهَا ۖ فَالْتَمَهَا لَؤُورَهَا وَتَقَوَّيَهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيَهَا﴾ [الشمس: ٧/٩١-١٠].

ما أزال أفقد ثقتي بالكتاب. فعلى الرغم من البدايات الرائعة فإن القصة، على ما يبدو، تعود إلى نسخة الكتاب المقدس: آدم وحواء يأكلان من الشجرة ويعاقبان بالحياة على الأرض. ومع ذلك فهناك أمر غريب في هذه الآية، ففي حكاية الكتاب المقدس يبدو الله غاضباً من آدم وحواء اللذين تحدياه فأكلا من الشجرة، لأنها شجرة المعرفة والخلود، فإذا أكل منها البشر يصبحون آلهة وينافسون الله.

أما في هذه الآية فقد خاطب الله آدم برحمة وعبارات جليّة ليس فيها ما يوحي بأنه سيكون للشجرة أثر كبير في آدم وحواء. بل يبدو أن الشجرة قد اختيرت عشوائياً، وسوف يبين القرآن فيما بعد أن الشيطان هو الذي أغوى الزوجين بقوله لهما: **إِنَّهُمَا إِذَا مَا أَكَلَا مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَسِيخْلِدَانِ**، ويكون لهما مملكة لا تزول: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى ۖ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ٢٠/١٢٠-١٢١].

ولكن صفة الشجرة هذه اختلقها الشيطان من عنده. إذ لا تدل أي إشارة على أن الله كان قلقاً من عصيان الزوجين له، بل يخبرهما فقط أنهما إن أكلا منها، فإنهما يقتران خطأ.

لا بد لنا، في ضوء الآيات السابقة، أن نستخلص أن الزوجين قد ارتكبا خطأ في النهاية. فلماذا جعل الله الإنسان كائناً أخلاقياً خاضعاً للإغواء؟ كل ما حكته لنا القصة حتى الآن، بدءاً بطرح الملائكة لسؤالهم حتى ظهور الشيطان، يوحي بأن الله يعلم أن الزوجين سيخطئان، وأنه خلقهما على هذه الشاكلة عمداً.

كذلك لا نعلم إن كان هذا هو الأمر الأول الذي أصدره الله للزوجين. لم يخبرنا القرآن بذلك. ربما تكون أوامر قبله. وكل ما نعرفه أن هذا هو الأمر الأول الذي يعصيانه. ولا أدري إن كان مغزاه الحقيقي الوحيد هو أن يكون هذا هو أول اختيار مستقل يمارسه الزوجان فيها وهي المرة الأولى التي يختاران،

أن يفعل غير ما أخبرهما به الله . ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦/٢].

كنت، لدى وصولي إلى هذه الآية، على وشك إغلاق القرآن وتنحيته جانباً إلى الأبد، لأنني اقتنعت بأنه قد ترك مساره الأولي، وعاد إلى الموضوع التقليدي الذي مفاده أن حياتنا في الأرض عقوبة تقوم أساساً على خطيئة آدم وحواء. ولكن الصياغة الذكية الحصيفة لها أدخلتني في لغز وحيرتي. إذ لم تشر الآية إلى أعظم خطيئة في تاريخ البشرية، الخطيئة التي يعاني بسببها جنس البشر كلهم من الآلام ويواجهون الصعاب والموت، بوصفها مجرد (زلة)؟

إن كلمة (Slip) الإنكليزية التي هي ترجمة لكلمة (زلة) العربية لا تعني أكثر من فقدان آتي للتركيز، انزلاق مؤقت لموطئ القدم، خطيئة صغيرة بسيطة لا يترتب عليها نتائج هامة أو خطيرة. فظننت في البداية أن الترجمة خاطئة. ولكنني اكتشفت أن كلمة (زلة) العربية تعطي المعنى نفسه. فسألت نفسي: كيف يكون ذلك، ألم يدرك المؤلف فداحة خطيئة آدم وحواء؟

فعدت وقرأت هذه الآية وما قبلها عدة مرات. ثم خطر لي ما يأتي: هل ارتكب الزوجان جريمة خطيرة إلى هذا الحد؟ ربما أنا ممن لا يستطيعون التخلي عن التفسير التقليدي. ربما كنت أقاوم رسالة القرآن. ولكنهما، بعد ذلك كله، لم يقتربا جريمة قتل أو اغتصاب، أو زنى، أو هجوم!! فلا يعدو الأمر أنها شجرة، ليس إلا!!

فتبين لي أن وصف هذه الخطيئة بـ (زلة) مناسب جداً، وهذا يفسر لهجة النص الهادئة، فبدلاً من أن يقول النص للزوجين إنكما ستعانيان معاناة قاسية على الأرض، يقول لهما: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾. ليس في هذه الكلمات أي نعمة غضب أو توبيخ من الله. صحيح أن الله يقول لهم - للبشر أجمعين على ما يبدو - وربما للشياطين والملائكة كذلك ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ولكن سؤال الملائكة في الآيتين ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي

الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنْ أَعْلِمْتُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٣٠/٢﴾ و ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤/٢] من سورة البقرة قد توقع هذه الحالة مسبقاً.

كنت مهتماً كذلك في بيان أن (الزلة) هذه أدت إلى خروجهما من الحالة التي كانا عليها. فأي حالة تلك التي خرجا منها؟ كل ما يكشفه النص هو أنهما لم يعودا في حالة الامتثال التام لإرادة الله، أي أصبحا الآن قادرين على اختيار الخطأ والصواب على حد سواء. ولكن هل هذه الحالة إيجابية؟ كيف يمكن لتلك الحالة أن تساعد الرجال والنساء على أن يتصرفوا على الأرض ممثلين لله؟ يمكنني - في الغالب - أن أجيب عن هذه الأسئلة ولكنني لا أستطيع جمع أجزاء الإجابات وتاليها معاً. فهناك أسئلة أخرى كثيرة جداً تندفع إلى ذهني، وهناك أجزاء كثيرة جداً للأحجية.

ظل الشك يتسلل إلى أفكاري، أيضاً، ربما أكون كريماً جداً مع القرآن، مانحاً إياه الكثير من منافع الشك. ربما تصور هذه الآية الحياة على الأرض عقوبة للبشر. وربما يقص القرآن علينا حكايتين متناقضتين بأن واحد. وربما لم يستطع المؤلف أن يفرز أي رسالة يريد إيصالها إلينا.

شعرت أن الآيات القليلة التالية ستحسم الأمر. فإن صوّرت الله غاضباً منتقماً ومعاقباً يكون القرآن قد ابتعد عن حوارهِ الأصيل في رده على سؤال الملائكة. وإن لم تُصوره كذلك، فإنه يتوجب عليّ عندئذ إعادة النظر في تفكيري.

﴿قُلْ لَّيْسَ بِأَدَمُ مِنْ رَبِّي كَلِمَةً فَكَانَ عَلَيْهِ إِذْنُ هُوَ الْقَوُّبُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧/٢].

إن لهجة الآية بعيدة عن الإدانة وتؤكد على رحمة الله وعفوه. وتدل الآية التالية على أن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي كلمات عزاء وأمل: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨/٢].

ترسم هاتان الآيتان صورة ودية تعاطفية؛ أرسل الزوجان إلى الأرض ليشعرا في إقامتهما الأرضية. ولا بد لنا من الافتراض أنهما مفعمان بالندم على ما فعلا، ويعتريهما الخوف من حياة في بيئة لا يألفانها. فيلتفت الله إليهما ليحيطهما بالعفو والرحمة، وليطمئنهما بأنه سيرسل لهم (آدم وحواء وذريتهما) هداية من السماء لثلاثا يخشوا شيئاً إذا ما اتبعوا تلك الهداية، تماماً كما يواسي الأب أو الأم ابنتهما بحنان، يقول الله لهم: «أنا أعرف أنكم خائفون، وأعلم أن تلك الحياة صعبة عليكم، ولكن ستكونون بخير. إذ سأكون معكم أهديكم باستمرار. وما عليكم إلا أن تفتحوا أعينكم وآذانكم وقلوبكم على آياتي الكثيرة، وعندئذ لن يكون ما تخشونه».

وهكذا نرى أن الله يعفو عن الزوجين، ويساعدهما. ولكن نتساءل مرة أخرى، لماذا لم يعدهما إلى الجنة؟ لنفرض، على سبيل المثال، أن ابنتي أخطأت فحسنت من مصروفها خمس دولارات عقوبة لها على خطيئتها. ولنفرض أنها اعتذرت لي بعد ذلك وسامحتها، ولكني قلت لها سأظل أحسم الدولارات الخمس من مصروفك، فسيكون ردها الطبيعي، ولكنك عفوت عني، ومع ذلك ما زلت تعاقبني!! احزم أمرك. وهكذا، إذا كان الله قد عفا عن الزوجين، فلماذا يتركهما في الأرض؟

جاءني الجواب بسرعة ورود السؤال إلى ذهني: لأن الحياة في الأرض، حسب مفهوم القرآن، ليست عقوبة. إذ يؤكد الله منذ بداية الحكاية أن لوجودنا في الأرض غاية أعظم. فظلت الحكاية مترابطة منسجمة ما دمت محتفظاً بهذا الرأي. ولنلاحظ أن القرآن يكرر بيانه: «قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا» ولكنه هذه المرة يحيط العبارة بخطوط تؤكد عفو الله وعزاه وتطمينه لهما. وكان الكتاب يقول لي آخر مرة: «لم يضعك الله على الأرض ليعاقبك».

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩/٢].
ما الذي جعله يقول ذلك؟ أحسست بدفقة من السخط والنقمة، كنت معجباً بمقاربة القرآن الذكية، وإذ به يلجأ إلى أسلوب الترهيب. فقلت لنفسي شاكياً:

تلك ضربة تحت الحزام، ومع ذلك صممت على الاستمرار بالقراءة دون تهديدات، ولو من باب الفضول. لقد تلقيت التهديد في حياتي بما فيه الكفاية ولم تسفر تلك التهديدات إلا عن مزيد من المقاومة والاشمئزاز. ربما يستطيع القرآن تهديد الآخرين، أما أنا فلن أخاف. سأستمر بتحليل هذا الكتاب صحيفة صحيفة، وسطراً سطرًا.

ربما أكون قد انزعجت من هذا البيان، بيد أن تاريخي القصير مع الكتاب علمني أنه عندما يغضبني نص ويشيرني، فإنه غالباً ما يتضمن دليلاً هاماً على وجهة نظره. فعندما نظرت إلى هذه الكلمات عن كذب، وجدت، مرة أخرى، أن الصياغة محيرة. فحتى هذه النقطة من الحكاية كان القرآن يروي حكاية آدم وحواء، وقصة بداية تجربتهما على الأرض. أما هذه الآية، فتحمل القارئ، بفضل الانتقال المفاجئ إلى صيغة الماضي، إلى المستقبل البعيد، إلى خلاصة الدراما البشرية في الآخرة حيث تعيد عرض حالة أولئك الذين رفضوا ووجدوا بآيات الله وهم في الأرض. إنه ابتكار بالغ الذكاء لأن البيان ينهي حديث الله مع الزوجين الأولين حول العزاء والعطف، وفي الوقت نفسه يطرح تحذيراً للقارئ في الآية التالية دون أن يحدث ذلك انقطاعاً في انسياب الأفكار.

لنفرض، جدلاً وجود إله حقاً. فهل يرفض أيّ امرئ آياته عن علم ويكذبها، أو أن الناس لا يدركونها بسبب غموضها؟ هل يرفض الناس عن وعي ما يشعرون أنه حق؟ هل يتعجلون في عقولهم ما يحسون أنه صحيح؟ هل يخالفون ضميرهم عناداً؟

قلت لنفسي - طبعاً - : نعم إنهم يتعجلون، وأنا كذلك. فكم من مرة أنكرت الحقيقة وتلاعبت بها لأنغمس في رذيلة شخصية؟ وكم من مرة سوغت أفعالاً تبدو بوضوح وجلاء أنها مدمرة ومحطمة للذات، رافضاً أن أعترف بأخطائي حتى لنفسي؟ وحتى إذا كان استمراري فيما أشعر أنه خطأ يجعلني خاوياً، جاحداً، قلقاً، فإني أركب رأسي وأتابع السير في الطريق نفسها. فقلت

لنفسي : إذا كان الله موجوداً، فإني بالتأكيد قد تجاهلت آياته، ولكن (إذا) هذه كبيرة.

كما صعقتني عبارة (أصحاب النار) لأن صاحب هو العزيز علينا، وهو من نسعى إلى صحبته. فهل يقول القرآن إن هناك من الناس من يسعون إلى شقائهم الذي سيعانونه في اليوم الآخر ويتوددون له؟ وعندما يقول القرآن: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فهل يلوح إلى أن جهنم التي سيدخلونها في الآخرة قد بدأت، بمعنى من المعاني، في حياتهم الدنيا؟ حتى وإن تدفقت مئات الأسئلة إلى ذهني، ولم أستطع بعد رؤية الصورة الكبيرة، فإني أدركت أنني أخوض معركة. فإن قادني هذه الآيات العشر إلى هذا الكرب، فلا بد أن التحدي الذي ينتظرني سيكون كبيراً. لا يعني ذلك أنني آمنت بالله، أو أن هذا المؤلف ليس بشراً، بل يعني أنني أواجه خصماً فائق القدرة.

اسئلة

لم أقرأ بحياتي شيئاً سبب لي تشويشاً أكثر من هذه الآيات العشر ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَيَحْنُ نُسُجُوحٌ مِنۢ مَّعَدِنِ ۖ وَتُقَدَّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٥﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ١٦ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِهَآ ۖ إِنَّا مَا عَلَّمْنٰكَ ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ١٧ قَالَ يٰٓأٰدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ١٨ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ۖ إِلَّا إِبْرٰٓهٖمَ ۖ أَبٰى ۖ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ١٩ وَقُلْنَا يٰٓأٰدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّٰلِمِينَ ٢٠ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٢١ فَلَفَّحَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ ۖ كَانَتْ قَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوْبُ الْرَجِيمُ ٢٢ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبَعَ هُدَاى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٣

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ [البقرة: ٣٠/٢-٣٩]
 من سورة البقرة. إذ لم أستطع التوقف لحظة عن التفكير فيها. كنت أفكر فيها ليل نهار - في أثناء الطعام، وخلال ذهابي إلى عملي وإيابي منه، وعندما أجلس وحدي، وحين أشاهد التلفاز، ووقت آوي إلى فراشي. وظللت أقلبها وأراجعها في ذهني محاولاً تجميعها معاً كقطع الأحجية. وغدت هي المحك عند قراءتي لبقية القرآن. وكلما أتيت إلى نص يبدو أنه ذو علاقة بموضوع غاية الحياة، أقارنه بالأفكار التي طرحت في هذه الحكاية. بدأت أشعر رويداً رويداً أنني كنت أحل شيئاً من عقدة الأسئلة المتشابكة التي أوجدتها لي هذه القصة، ولكنني لم أستطع تجميعها في تفسير معقول لوجود الإنسان على الأرض.

كنت تواقاً لمتابعة تحقيقاتي وتفصيلاتي، ولكن كان ينقصني الصبر. فالقرآن لا يبحث فقط في غاية الحياة، بالرغم من أن كل شيء يبحث له علاقة بها بطريقة أو بأخرى، بل يشتمل كذلك على حكايات، وأمثال، وتحذيرات، وأنباء سارة. إنه يحتوي أوصافاً درامية للجنة وللجحيم، وليوم الدينونة الأخير، ولحوادث الطبيعة. ويقدم توصيات ومناقشات ضد من ينتقصون من قدره، وبراهين على أصوله الإلهية. ويحتوي مناشدات عقلية وعاطفية وروحية. إنه يبحث في استخدامه للرمزية وأهمية العقل البشري وحدوده. ويتحدث عن الحقائق والوقائع الخفية وراء إدراك البشر. ويخبرنا بأسماء الله الحسنى وعلاقتها معه، وينسج ذلك كله في الكتاب دون الإطالة في أي موضوع، بل يرسم صوراً قوية واضحة، ويبعث إلينا برسائل جليلة خاطفة، وينقل تركيزنا من أحد جوانب الحقيقة إلى الجانب الآخر.

وقبل أن أعود إلى بحثي في الجواب عن أسئلة الملائكة، فكرت في أن هذا المكان هو المكان المناسب لدراسة بعض الأسئلة التي طرحت علي بشأن مواجهتي الأولى للقرآن.

■ السؤال الأول (من طالب أمريكي مسلم في مدرسة ثانوية)

أواجه صعوبات في فهم حكايات القرآن. إذ يبدو بعضها منافياً للعلم أو التاريخ. وهذا يشير في نفسي الشكوك. نصحني والذي أن ألجأ إلى شيخ كانوا يعتقدون أنه ربما يشفيني مما أنا فيه، ولكن ذلك لم ينفع. إذ قال لي الشيخ: إن من يحمل هذه الشكوك فهو كافر، وما علي إلا أن أطردهما من ذهني، ولكنني لم أستطع التوقف عن التفكير فيها رغم محاولاتي الكثيرة. هل حدث لديك إشكالات مماثلة عندما قرأت القرآن؟ إن كان الأمر كذلك، فكيف تغلبت عليها؟

لا بد لي من الاعتراف أنني لم أكن، في أثناء قراءتي الأولى للقرآن، مهتماً بتاريخ أحداثه وحكاياته، بقدر ما كنت مهتماً أساساً فيما سيقوله بشأن غاية الحياة. إن مقارنتي لحكايات القرآن - بل مقارنتي للقرآن كله - قد تحددت بفضل خبرتي المكتسبة من آيات سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٢٥ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ إِن كُنْتُمْ صٰٓدِقِينَ ٢٦ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِهٰٓذَا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٢٧ قَالَ يٰٓأَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٢٨ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ٢٩ وَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰٓذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْفٰٓلِغِينَ ٣٠ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٣١ فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٣٢ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَابُ النَّآرِ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ ٣٤﴾. بدا لي جلياً، من منظوري وخلفيتي، أن القرآن كان يعيد سرد حكاية من أكثر حكايات البشر إثارة واستحواذاً على العقول، ليس بهدف إرضاء فضول القارئ

بشأن أصول الإنسان البيولوجي الحديث، بل بهدف استخدامها وسيلة لتصحيح أكثر المفاهيم خطأ في التاريخ. لقد استحوذت علي تضمينات هذه النسخة من قصة أول زوجين بشريين. شعرت أنه كان وراء هذا الوحي رؤية منطقية عقلانية عميقة لغاية الحياة، وأن كل كلمة من هذا الكتاب تدور حول هذه الرؤية. فصممت أن ألتقط قبساً من تلك الرؤية عن طريق البحث في كل آية عن مفاتيح لحل هذا اللغز. وهكذا عندما قرأت الحكايات ركزت على ما يمكن أن تقوله بشأن الوجود البشري؛ أما قضية دقة الحكايات وأحداثها التاريخية فلم تكن ذات أهمية عندي.

وبعد اعتناقي الإسلام ازداد اهتمامي بهذه المسألة. اكتشفت، من جهة، أن الأكثرية الساحقة من المسلمين يعتقدون أن كل قصة من قصص القرآن تمثل أحداثاً واقعية حقيقية، وقعت في الماضي؛ واكتشفت، من جهة أخرى، أن كثيراً من مفسري القرآن يشعرون أن بعض القصص تتضمن حكايات رمزية وأمثالاً، بالرغم من أنهم لا يتفقون على التفاصيل. في حين أنني أميل إلى الرأي الثاني، فما زلت أشعر بالحاجة إلى دراسة قصص القرآن بعناية أكثر باذلاً جهدي قدر المستطاع لتحديد ما عُرض منها على أنه تاريخ^(١).

ليس القرآن، كما قلت سابقاً، كتاب تاريخ ولا كتاب سيرة. تتخلل القرآن قصص بعض الشخصيات المشهورة عند العرب في القرن السابع بما فيها شخصيات توراتية وإنجيلية^(٢)، ولكنه لا يحدد لها تواريخ ولا يعطي نقاطاً تاريخية مرجعية، الأمر الذي يجعل من المستحيل تحديد موقع هذه الأحداث

(١) القرآن نفسه يشير باستمرار إلى الحكايات بوصفها (قصصاً) أو (أنباء) وهما صفتان تختلفان عن وصفهما (تاريخاً). إن وصف القرآن لرواية عيسى بأنها (قصة حقيقية)، وتوجيهه لسرد حكاية معينة على أنها حقيقة يمكن اعتباره تأكيداً لتاريخيتها.

(٢) يفترض القرآن أن شخصيات الكتاب المقدس التي يذكرها مألوفة عند السامعين، ويبدو أن اليهود والمسيحيين والوثنيين في الجزيرة العربية قد تبنوا من خلال قرون من التبادل الثقافي التراث الشفهي لبعضهم البعض.

في التاريخ دون العودة إلى مصادر خارجية. ولا يقدم من القصص المتواصلة إلا قليلاً. فهناك حلقات تشمل معظم الأشخاص المذكورين في القرآن موزعة على النص كله دون الإشارة إلى تسلسلها التاريخي إلا ما ندر. لم تُعرض القصص أبداً في سياقها التاريخي، بل تبدأ مفاجئة بصيغة تقحم القارئ في سرد متواصل مثل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾ أو ﴿وَإِذْ أَنْتَقَلَ إِبْرَاهِيمَ رَأْيَهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ أو ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ في حين أن تحاشي ذكر التفاصيل الزمنية ربما يعزز التوجه غير الزمني للحكايات، ويسر على القارئ معرفة شخصياتها الرئيسية فإنها تجعل من الصعب نقدها تاريخياً. إن ما يجعل ذلك أصعب هو أن القرآن يصير في مواضع عديدة على استخدام الرمزية، ولكنه لا يقدم وسائل صارمة وسريعة لتحديد أي الآيات رمزية وأيها غير ذلك رغم أنه يؤكد أن كليهما يكشف حقيقة^(١). وهذا يترك الاحتمال مفتوحاً أمام بعض الحكايات للاستفادة من الرمز، كما أن صياغة بعضها تقر بالتأكيد هذه الحقيقة. ولننظر في هذين النصين من قصة آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١/٧]. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢/٧]. ففي الآية الأولى انتقال من صيغة الجمع المخاطب في العبارتين الأولى والثانية إلى (آدم) في العبارة الثالثة موحياً أن البشر يعرفون بآدم. الصياغة بالتأكيد، ليست حرفية ملتزمة بالتسلسل الزمني، وإلا فإننا نفهم من الآيتين الأوليين أننا خلقنا ثم صورنا، ثم صدر الأمر إلى أول إنسان. أما الآية الثانية فتفصح عن نفسها، إذ من الصعب أن نفهم لها تفسيراً حرفياً.

ويمكن أن تكون قصة ذي القرنين في سورة الكهف مثلاً آخر على الحكايات الرمزية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْنَؤُا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَمُوتَ وَمِمَّا أَنْ نَخْذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦/١٨].

(١) انظر السؤال الثالث في هذا الفصل.

منذ القِدَم، أريكت هذه الآية، المفسرين والمؤولين الذين بحثوا في التاريخ عن نبي فاتح وصل إلى مشرق الشمس ومغربها. بعضهم قال: إن ذا القرنين هو الإسكندر الكبير، وهو أمر مشكوك فيه، لأن الإسكندر كان وثنيًا. فضلاً عن وصفه بأنه وصل إلى مغرب الشمس في عين حمئة، ووجد أناساً عندها، ربما يكون دليلاً على السمة الرمزية للنص.

لقد تركتني دراستي لقصص القرآن حيث بدأت تقريباً، عاجزاً عن القول بثقة مطلقة: إن هذه تاريخية أو تلك رمزية. لم أنزعج من ذلك على أي حال، بل بالعكس جعلتني هذه المسألة أشعر أن حدسي الأصيل تجاه قصص الصراع الأخلاقي والروحي الملحمية هو حدس دقيق؛ أي إن غايتها الأساسية ليست التاريخ بل عرض الحقائق الجوهرية. يوضح القرآن هذه الحقيقة في سورة الكهف حيث يريد للقارئ ألا يضيع في المجادلات الحمقاء حول تفاصيل الأحداث الدقيقة: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ وَفُتُورٌ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجَعُوا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرًا وَلَا تَسْتَفِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢/١٨].

ثم، مرة أخرى، بعد بيان ثانوي ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا وَشَدًّا﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] ينهي القرآن نقده لهذا النمط من التأمل العبثي بهذه الملاحظة: ﴿وَلْيَتُوبَا فِي كَهْفِهِمَا ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسَاءً ۖ (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّنِينَ وَالْأَرْضُ أَبْصَرَ مِنْهُمْ وَأَسْبَغَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ لَوْلِي وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٥-٢٦].

ما يراد ببيانه هنا هو أن الجدال في أمور تافهة مخالف لغاية الحكاية وأسلوبها.

والواقع أن رواية القصص بطريقة غير تاريخية واضحة توحى بأن القرآن يقصد ألا يفصح عما يتعلق بتاريخية القصص، وهو أمر معاكس للنزعة البشرية

الطبيعية لتأريخ مثل هذه الحكايات. ظن بعض المستشرقين أسلوب القرآن غير التاريخي في سرد القصص يعكس الثقافة الشفوية السائدة التي انبثق منها، وكذلك فإن التفاصيل التاريخية تهمل في مثل هذا الوسط، ولكن الكتاب المقدس والحديث النبوي النابعين من البيئة ذاتها يعطيان أمثلة مناقضة تماماً لهذه الفرضية. أما بالنسبة إلي على الأقل فإن أسلوب القرآن السردى دليل على عبقرته وحنكته، لأنه يعرض القصص بطريقة لا يكذب فيها افتراضات السامعين الأوائل، الذين يتقاطع لديهم التاريخ مع الأسطورة والشعر والمثل تقاطعاً كبيراً، ولا يطعن فيمن يأتون في زمن الريبة والشك الذين يهتمون بالتمييز بين هذه الأنماط.

■ السؤال الثاني (من طالب جامعي أمريكي مسلم):

سمعت أنك أسلمت بعد أن قرأت القرآن. وأتساءل عما إذا كانت آيات القرآن هي التي أقنعتك بحقيقة الإسلام. وبما أنك متخصص بالرياضيات، هل اكتشفت أي عجائب رياضية في القرآن أقنعتك به؟

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَوْمِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تُبِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَالنَّارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٠-٣٣].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّنٌ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّكَ بِوَجْهِ الْقَيْمَةِ تَبْعُوثٌ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿٢١﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقْدَرُونَ ﴿٢٢﴾ فَالْأَنسَاءُ لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ تَحْتِهَا أَعْنَابٌ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٣﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَبْتَاءُ تَبْتَثُ بِالْدُّهْنِ وَيَصْنَعُ لِلْأَكْلَيْنِ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً

تَشْفِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِنَا وَلَكَّرَ فِيهَا مَنَفَعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَيْنَا عَلَى الْفَلَاحِ تَحْمِلُونَ ﴿المؤمنون: ٢٣/١٢-٢٢﴾.

﴿سَرَّيْهِمْ مَا بَيْنَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٤١/٥٣].

كما قلت في جوابي السابق لم أكن مهتماً بالبحث عن معلومات في القرآن تتفق مع العلم الحديث أو تختلف معه. إذ لم أكن في ذلك الحين مؤمناً، لم أكن مؤمناً حتى بالله نفسه، ولم أتوقع أن يكون الكتاب - بوصفه ذا أصول قديمة - على حالة من المعرفة العلمية الحالية. وبدلاً من ذلك كنت أركز على اكتشاف المعنى الذي يضيفه القرآن على الوجود البشري. ولدى متابعتي قراءة القرآن اكتشفت فيه أموراً جعلتني أشكك في إلحادي؛ الأمر الذي قادني في النهاية إلى اعتناق الإسلام. ومع ذلك حيرتني بعض التأكيدات الواردة في القرآن عن عجائب الطبيعة التي يصفها بكلمة (آيات)، فمثل تلك الآية التي اقتبستها آنفاً والتي تتحدث عن أن السماء والأرض كانتا متصلتين (رَتْقاً)، وأن كل شيء حي أساسه من الماء، وأن الشمس والقمر يسيران في فلكين دائريين، وتصف كذلك نمو الكائن البشري قبل الولادة. لم تثبت مثل هذه التأكيدات شيئاً بالنسبة إلي، لأن صياغتها ملغزة أحياناً، وتتجنب الشروح التحليلية التي تفرض النتيجة القائلة بأن هذه المعلومات تتفق مع المكتشفات الحديثة، ولكنها لفتت انتباهي. فهناك بضعة بيانات في القرآن يشكك فيها العلماء المحدثون بالتأكيد (مثل كون آدم أبا البشر أو كون عمر نوح تسع مئة وخمسين سنة) ولكنني استطعت أن أجدها فقط في الحكايات وليس بين الآيات الطبيعية. إذ لم يكن واضحاً، بناء على ما قلته قبل قليل بشأن القصص والحكايات الرمزية في القرآن، أن المطلوب التعامل مع هذه القصص بوصفها تاريخاً.

لم أدرك عجائب نوعية معينة ذات طبيعة رياضية في أثناء قراءتي الأولى، ومع ذلك لا بد لي من القول: إني كنت أحترم العبقرية التي أنتجتها وأخشأها إجلالاً. فإيجازها العجيب واقتصارها في التعبير أوحيا منطقاً محيراً. إن الحكمة

الجليلة المغلفة بعبارات رائعة الإتقان تشير إلى معرفة تتجاوز خبرة أي إنسان. كما أن مقدرة هذا الكتاب على الوصول إلى الناس متعلميهم وأمييهم والتأثير فيهم حتى يسلّموا بدعوته باستخدام الكلمات نفسها لا يمكن أن تتأتى إلا من لدن خبير بالنفس البشرية. كنت أشعر وأنا أقرأ القرآن أنني أزداد ثقافة باستمرار، وأنه يرفعني إلى آفاق من التفكير أعلى وأسمى - تتعلق بالحياة والإنسانية والمحاكمة والروحانية - حتى إن لم أقبل مقولته المركزية بشأن وجود الله.

عندما اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٢ كانت الجالية الإسلامية الأمريكية منشغلة بدراسة معجزات القرآن وآياته الكونية، وكانت توزع مطبوعات عديدة حول التوافق بين المعطيات العلمية القرآنية والعلم الحديث، وهيمنت أنشطة إلقاء المحاضرات حول هذا الموضوع على جهود المهتمين والهادين. وشعر كثير من المؤمنين أن هذه المعلومات سوف تقنع بالتأكيد الأمريكيين بحقيقة الإسلام. هذا الحماس لإثبات الأصل الإلهي للقرآن أفسح المجال أمام نزعة تدعو لرؤية مفادها أن القرآن يستبق كل المكتشفات العلمية والنظريات الحديثة. وكان كثير من هذه الدراسات أبعد من أن تحمل على محمل الجد، وكانت سيئة الحظ، لأنها مالت إلى التعقيم على بحث آخر ذي مصداقية في هذا المجال، هو كتاب موريس بوكاي (Maurice Bucaille) بعنوان: (الكتاب المقدس والقرآن والعلم) الذي ما زال هو العمل الرّشيمي باللغة الإنكليزية حول معجزات القرآن^(١). أما أنا فأرى أنّ من أهمّ العلامات المقنعة ليس وجود أي علاقة محددة، بل هي حقيقة أن أيّاً منها لا يمكن إثبات تعارضها مع ما تمّ توطيده من علوم اليوم حتى وإن كانت تشير إلى مصفوفة واسعة من الظواهر، ورغم انتشار المعتقدات الخاطئة حول حوادث الطبيعة التي سادت في زمن النبي وبعده بقرون عديدة. وعلى الرغم من أنني لم أركز على معالم الإعجاز في القرآن عند قراءتي الأولى، إلا أنني أوليتها اهتماماً شديداً في القراءات التالية وأصبحت بالنسبة إلي من دعائم قراري اعتناق الإسلام.

(١) دار سيفرز (Seghers) للنشر، باريس، ١٩٧٧.

■ السؤال الثالث (من أمريكي اعتنق الإسلام في العشرينات من عمره):

لم أقرأ القرآن قبل اعتناقي للإسلام، ولكنني أقرؤه الآن. لقد فهمت مراده بوجه عام، ولدي أمور لم أفهمها. كنت أتساءل هل في القرآن أي بيانات تشعرك أنها تتعارض مع العقل، وإن كان فيه مثل هذه البيانات، فكيف تعاملت معها؟

أكذب لو قلت: إنني لم أشك في آية واحدة من آيات القرآن على أساس عقلي، ولكن هذه الأمثلة قليلة جداً ومنطقها الإجمالي حازم ومؤكد، بحيث اعتقدت أن المسألة ربما تكون مسألة تفسير أو ترجمة، وليست مسألة صراع أصيل مع العقل. ووجدت بالوقت المناسب أن المسألة فعلاً هي مسألة تفسير أو ترجمة بقدر ما يتعلق الأمر بالنصوص التي وجدت فيها صعوبة.

من المهم أن تميّز بين الصراع مع العقل والصراع مع العواطف والآراء الشخصية. فقد بدت لي بعض العقوبات القرآنية قاسية في البداية، بيد أن ذلك كان تقويماً شخصياً، وليس موضوعياً، ربما يعكس الخلفية الليبرالية والأكاديمية الغربية. ومن ناحية أخرى رأيت أن هذه العقوبات تساعد على عدم تشجيع السلوكات المستهدفة، ومن ثم فهي منسجمة مع أهدافها، ومن ثم لم أجد أي تناقض منطقي في ذلك. وهكذا عندما نتكلم عن التناقضات مع العقل في القرآن فإننا نشير إلى البيانات الموجودة في الكتاب التي تتعارض مع بيانات أخرى في النص أو مع حقائق موطدة جيداً. تتألف الفئة الأخيرة من مكتشفات تاريخية وعلمية لا خلاف عليها، ولكن كما قلت في جوابي السابقين لم أر حواراً جاداً صارماً ضد القرآن في هذا المجال.

إن بعض التأكيدات القرآنية المتعلقة بالغيب - أي الحقائق والوقائع التي تقع خارج نطاق الإدراك البشري أو الخبرة الإنسانية - مثل الآخرة، والجنة، والنار، وأسماء الله الحسنى وأفعاله، وغير ذلك - ربما تبدو عرضة للتساؤل، خصوصاً إذا ما أخذت بحرفيتها، على أي حال لا يشجّع القرآن على الخوض في هذه القضايا في مواضع عديدة: في مطلع سورة البقرة نجد دفاع الكتاب عن استخدامه للرمزية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونُ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦/٢].

من الجدير بالملاحظة أن هذا البيان يبدو صحيحاً بعد الوصف الحسي للجنة التي تنتظر المؤمنين المخلصين في الآخرة ﴿وَيَبَيِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَنْدَادٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥/٢]، وهو وصف يناسب بصورة خاصة تصورات العرب في القرن السابع. ومن المهم أيضاً أن هذا النص قد ورد بين الآيات التسع والعشرين الأولى من سورة البقرة التي تعد تلخيصاً لموضوعات القرآن الكبرى.

وفي سورة آل عمران، يؤكد القرآن أنه يستخدم باستمرار لغة رمزية، ويحذر أولئك الذين يسعون إلى نفسه، فيأخذون بالمعنى الحرفي لنصوصه الرمزية، ويلومهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧/٣].

وهناك، أيضاً إشارة هامة إلى معركة بدر حيث هَزَمَ المسلمون -الضعفاء عُذَّةَ، القليلون عدداً- أعداءهم الذين اضطهدوهم من قبل. إذ يبدو أن القرآن يصرح بأن علينا ألا نتوقع دائماً اختبار وحي الله بصورة واقعية ملموسة. ﴿إِذْ تَسْتَفِئُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكِكُو مُرَدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩/٨-١٠].

هنالك بيانات أخرى في القرآن، كالتصريح المتعلق بالأوصاف التصويرية النابضة بالحياة بجهنم والتهديدات بعقاب الكافرين: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحِثُّ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣/٢٠].

فضلاً عن أنه يستخدم باستمرار عبارة التشابه (أو ضرب مثل الجنة وجهنم وحالة الكافرين، وغير ذلك) عندما يتحدث عن وقائع وحقائق تقع خارج نطاق الخبرة البشرية. وهكذا فإننا نقرأ في سورة النور بعد الوصف الرائع لنور الله، قوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥/٢٤].

إن مثل هذه التأكيدات بشأن استخدام الكتاب للرمزية والحكايات الرمزية تدحض أكثر الاعتراضات عقلانية على شرح القرآن للحقائق والوقائع التي تقع خارج نطاق الخبرة البشرية. بل يجعل نقد هذا النمط أكثر صعوبة بفضل إدخال مصطلحات ملغزة إلى هذه المناقشات. إذ إن القرآن لدى إدارته وتوجيهه للصياغات التقليدية، يتجنب إلزام نفسه بأي من مواقف المجادلات اللاهوتية الشهيرة. ومن الأمثلة الجيدة على ذلك مسألة القضاء والقدر.

ترى معظم الأديان التوحيدية أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، والقرآن يشير إلى ذلك. ومع هذا إذا كان الله يعلم المستقبل، فإنه يبدو أن هذا المستقبل ينبغي أن يكون ذا كيان ثابت. فإذا ما كان هذا الأمر كذلك، فهل من العدل أن نحاسب على ذنوبنا؟

بالطبع، لا يعني علم الله بالمستقبل أنه يتضمن فرض حدوثه. ولا تتناقض قدرة الله علينا مع تزويده لنا بحرية الاختيار وتنفيذه. لكن القرآن يتحاشى الوقوع في شرك استخدام العبارات والكلمات المرادفة حقاً للقضاء، والتقرير والتحديد سلفاً عندما يبحث الإرادة الإلهية والإرادة البشرية، لأنه لدى استخدام مثل هذه المصطلحات فإنها تقحم تناقضاً منطقياً مع الافتراضات المتعلقة بالله، وهي مسألة لا مفر منها.

إن المقولة الإشكالية التي مفادها أن القضاء والقدر يفترض لدى تطبيقه على الله أن الله موجود في زمن مثلنا، وأنه هو الذي يحدد المستقبل، يقرره سلفاً. على أي حال، إذا كان الله يسمو فوق مخلوقاته - ويشير القرآن إلى أن الله يسمو فوقهم في مواضع عديدة - فإنه عندئذ لا يكون مقيداً بحدود الزمان والمكان التي تقيدنا نحن؛ ليس الله مستقبل أو ماض، كما لنا نحن. فهو مستقل

عن عوالم الزمان والمكان التي يخلقها ولا يخضع لقيودها. فعندما يقال: إن الله يقضي المستقبل ويقدره يبرز على الفور افتراضان متناقضان يتعلقان بالله، هما أنه يتجاوز الزمن ويسمو عليه وأنه موجود فيه. ومن ثم سيكون من الخطأ تطبيق كلمة (يقضي، يقدر) على الله؛ لأنها تضع الله في زمن وتفترض أنه يتعامل ليس مع مستقبلنا، بل مع مستقبله هو كذلك^(١).

هناك تأكيدات في القرآن بشأن معرفة الله التامة بكل ما يُعَدُّ بمنظورنا مستقبلاً وبشأن تقرير الله للعديد من الأحداث، بيد أن الكلمات والصياغة المستخدمة غير مألوفة وغير تفسيرية، فأحياناً يذكر القرآن: أن مثل هذه الأحداث (مكتوبة)^(٢)، وكأنه يريد القول: إن الحياة على الأرض أشبه بكتاب، والأيام التي نقضيها فيها هي صحف هذا الكتاب التي نسهم في واحدة منها فقط في وقت واحد خلال عيشنا، ومع ذلك فإن الله يراها كلها بأن واحد. أما القول، بأن الله قد كتب لا يعني أنه قد فرضها سلفاً. يمكن للبعض - طبعاً - أن يفسر هذه العبارة بهذه الطريقة، ولكن لا يمكن، استناداً إلى القرآن وحده، إثبات أن هذا هو التفسير الوحيد المقبول. فبفضل الصياغة المميزة وغير المباشرة يتخطى القرآن التناقض الظاهري للقضاء والقدر، بينما يوصل فكرة معرفة الله التي تسمو على معرفة بقية المخلوقات وسيادته للخلق كلهم^(٣).

- (١) لمزيد من البحث في هذا الموضوع انظر السؤال السابع في هذا الفصل.
- (٢) كما في الآيات الآتية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابُ الَّذِينَ نَفَوْهُمْ مِنْهَا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابُ الْأَخْصَرِ نَفَوْهُمْ مِنْهَا وَسَنَبِّحُ الثَّانِيِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٤٥]؛ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَنتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٨/٦٨]؛ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [الحجر: ١٥/٤]؛ ﴿سَاقُوا إِلَى مَقَرِّهِمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّتْ عَرَضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢١].

- (٣) هنالك أمثلة أخرى على هذا النوع. إذ يذكر القرآن أحياناً أن الأمور «قد قررت» أو «أنجزت من قبل»، بمعنى (قضاء من الله) وأن هناك مصطلحات وأحداثاً قد (سميت) أو (حددت).

وبالمثل، عندما يؤكد القرآن أنه ما من شيء يكشف إلا وفق إرادة الله، إذ يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨/١٣]، ربما يكون هذا مكاناً آخر ملائماً للاستعاضة عن كلمة (القضاء) أو ما يعادلها من الكلمات المعروفة جيداً، إذا كان الكتاب يؤيد مسألة التقرير المسبق، ولكنه مرة أخرى يدخل مصطلحات جديدة دون تحديد ما تعنيه بالضبط^(١). وبذلك، يفتح القرآن الباب للقارئ كي يفسر العبارة وفق منظوره الفكري.

إن استخدام القرآن للمصطلحات غير التقليدية في بحثه (الغيب) متطابق ومتزامن باستمرار. فغموض القرآن بشأن ما يقع خارج نطاق الخبرة البشرية وفهمها يعد معتمداً بوضوح، وهكذا، بالإضافة إلى احتوائه نصوصاً لا تؤخذ بحرفيتها، فإنه يصوغها بطريقة تجعل من الصعب أخذها حرفياً.

كما أن قراءة القرآن مترجماً تجعله مصدراً محتملاً للتناقض العقلي المنطقي. إذ إن اللغة محدودة بصورة معقدة بالتاريخ وبالثقافة اللذين نشأت فيهما، تعكس

(١) الآيات: ﴿اللَّهُ يَتْلُمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَحْمِلُ الْأَرْكَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨/١٣]؛ ﴿وَلَا يَنْفَعُ الْإِنْسَانَ إِذَا عَلَّمَهُ مَا لَا يُفْقَهُ إِذَا بَلَغَ الْأُسُوسَ وَنَسَىٰ مَا عَلَّمَهُ إِلَّا يُدْعَىٰ بِمِقْدَارٍ﴾ [الحجر: ٢١/١٥]؛ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهٖ الْوَادِيَّ وَنَالَىٰ عَلَىٰ ظُلُمٍ لِّهٖ لَقَدِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ١٨/٢٣]؛ ﴿وَالنَّشْءُ يُجْرَىٰ إِمْتَقَرًا لَهُمْ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [القمر: ١٨/٢٣]؛ ﴿وَالْقَمَرُ قَدَرْتَهُ مَتَازِلًا حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: ٣٨/٣٦-٣٩]؛ ﴿وَلَوْ سَئَلَ اللَّهُ الرَّزَاقَ يُبَايِعُهُ لَبَعَثَ فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِنْ يَتَزَلَّدَقُدْرَةً مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِبَايِعِهِ خَيْرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧/٤٢]؛ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١/٤٣]؛ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الأنعام: ٥٤/٥٤-٥٥]؛ ﴿مِنْ أَمْرِ أَنَّىٰ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٥٤/٥٤-٥٥]؛ ﴿يَنْفُخُ فِي نَفْثَةٍ فَتَقْدَرُ فَتَدْرُكُ﴾ [عبس: ٨٠/١٨-١٩]؛ ﴿سَٰحِبَ أَسْمَٰرِكُ الْأَطْلَ ۖ الْوَيْلُ لِمَنْ خَلَقَ سَوْنٌ ۖ وَالْوَيْلُ لِمَنْ هَمَزَ﴾ [الاعلى: ٨٧/١-٣]. لقد اخترت هذا المثال بعينه على استخدام القرآن لعبارة ملغزة، لأنني وجدت غالبية المسلمين يساؤون الكلمة العربية (قدر) مع (القضاء والقدر) رغم أن هذا التفسير يبدو غير ملائم في هذه الآيات. وتبين أن قضية (القضاء والقدر) قد جرى حولها جدال حاد في القرون الإسلامية الأولى. يمثل هذا التفسير الخاص لكلمة (قدر) موقفاً عقائدياً تبناه، حتى غدا اتجاهاً سياسياً في الفكر الإسلامي.

تراثاً مميزاً وُتِنَى اجتماعية، وآراء عالمية خاصة بها. ففي كل لغة كلمات وتعابير عديدة ليس لها ما يطابقها في لغات أجنبية. وهكذا فإن الترجمة ليست - في الواقع - عملية تحويل مجموعة من العبارات إلى مجموعة مطابقة لها من العبارات في لغة أخرى؛ تتضمن أخذ المعنى المتأصل فطرياً في ثقافة ما وإسقاطه على لغة أجنبية. فال مترجم أساساً مفسر يتضمن عمله اختيار معنى من بين المعاني المحتملة في كلا جانبي العملية. وبغض النظر عن أمانة المترجم وسعة معرفته، فلن تكون الترجمة سوى نقل تقريبي. وكلما كان الاختلاف بين ثقافتين كبيراً كانت الترجمة بينهما أصعب. ومن الصعب أن يتصور المرء ثقافتين أكثر بعداً بعضهما عن بعض من الثقافة العربية في القرن السابع الميلادي والثقافة الغربية الحديثة.

ففي العربية تشتق الكلمات من جذور صحيحة. وتتألف الغالبية العظمى من الجذور من ثلاثة حروف صحيحة، والقلة القليلة جداً تتألف من حرف واحد، أو حرفين أو أربعة، أو حتى خمسة. ويقترب بأي جذر معنى أساسي تحمله الكلمات المشتقة منه كلها. وأول ما يكتشفه دارس العربية الطيف الواسع من المعاني المقترن بمعظم الكلمات. ففي معجم لين (Lane) العربي - الإنكليزي تغطي معظم قوائم الكلمات والمعاني المقترنة بجذر واحد صفحات عديدة، لأن كثيراً من المصطلحات والعبارات تقبل ظلالاً مختلفة وكثيرة من المعنى. فهذا الثراء وهذه المرونة اللذان تتمتع بهما المفردات العربية هما اللذان منحاهما هذه الطواعية المشهورة، الأمر الذي جعلها وسيطاً مثالياً للشعر، ذلك الفن العربي السائد منذ أقدم العصور^(١).

يعترف العرب دائماً بجمال القرآن وفصاحته اللذين لا يضاهيان. وهكذا فإن أي ترجمة ستكون بالتأكيد أدنى بكثير من الأصل، ولكن الأهم وخصوصاً من الناحية الجمالية أنها ستكون أدنى مقدرة على إيصال الرسالة، لأن المدى

(١) ما زال إلقاء الشعر والمباريات الشعرية في العالم الناطق بالعربية يحظى بشعبية كبيرة جداً. فالأفلام والمسرحيات، والمسلسلات التلفزيونية التي تعالج الحياة العائلية، والعروض المختلفة والاحتفالات الجماهيرية تتضمن غالباً فقرات لإلقاء الشعر.

الواسع للمعاني المحتملة سيُضحى به لدى اختيار المترجم معادلاً أجنبياً. وربما يقود ذلك، على ما يبدو إلى تناقضات عديدة^(١).

ومن الأمثلة على ذلك ترجمة علي يوسف للآية التالية:

"Many are the Tinns and Men We have made for hell: They have hearts wherewith they understand not, eyes wherewith they see not, and ears wherewith they hear not. They are like Cattle - ney misguided: fii they are heed less (of Our signs).

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُفُودٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَشْجَارِ أَلَّا أَتَاكَ مَا كُنْتَ تَصِفُ أَلَهُمْ أَشْجَارًا فَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فِئْتَانٍ يَنْظُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩/٧].

يبدو أن السطر الأول - المترجم - يدل بالتأكيد على أن بعض الأشخاص مقدر لهم الجحيم، لولا الحقيقة التي مفادها أن بقية الآية تشير إلى أن مثل هؤلاء الأشخاص كان مصيرهم جهنم لأنهم كانوا غافلين عن آيات الله. ومع ذلك فإن فاتحة الآية تبدو أنها تؤيد مفهوم القضاء والقدر الكلي. إن الكلمة العربية التي ترجمها علي إلى كلمة (made) هي (ذراً). وترجم بعض المترجمين هذه الكلمة إلى كلمة أشد حدة وهي (خلق) إن (معجم اللغة العربية المكتوبة الحديثة)^(٢) لمؤلفه هانس ويهر (Hans Wehr) الذي يعد أكثر المعاجم (العربية - الإنكليزية) انتشاراً واستخداماً، لم يدرج أيّاً من هذه المعاني أو ما يقاربها تحت مادة هذا الفعل. بين كتاب (انسجام القرآن) لقسيس أن كلمة (ذراً) وردت في القرآن ست مرات، وردّها في كل هذه المواضع، ما عدا في الآية [١٧٩] من سورة الأعراف الأنف ذكرها إلى معنى (بعثر / نثر) أو (كثر) وهي معانٍ تتفق مع مضامين الكلمة الأساسية ودلالاتها^(٣). كما أن معجم لين العربي - الإنكليزي

(١) بالنسبة إليّ، كان هذا هو المصدر الرئيسي للتناقضات التي لوحظت مع العقل.

(٢) معجم العربية المكتوبة الحديثة، هانس ويهر، مطبعة جامعة كورنيل (Cornell)،

١٩٦١، إيثاكا (Ithaca)، N.Y.

(٣) حنا، قسيس (Hanna E. Kassis)، انسجام القرآن، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٣،

الهام يدرج معنى (يخلق)، ولكن ليس كمعنى أولي، ولكنه يقتبس من المفسرين الكلاسيكيين للقرآن، (وللآية ١٧٩ من سورة الأعراف) كمثال على هذا المعنى. ومن ثم، لم يكن هذا المعنى، على ما يبدو، مقترناً بكلمة (ذراً) في عصر الجاهلية، ولكنه أدخل فيما بعد بزمان طويل، وعكس الاتجاهات العقائدية لبعض المذاهب الفكرية. وتشير كل المراجع والمصادر إلى أن المعاني الأولية المقترنة بكلمة (ذراً) هي أقرب إلى (ينثر)، (يعثر)، (ينشر)، (يرش)، (يلقي)، (يذر)، (يكثر)، (يضاعف). إضافة إلى أن الآية تبدأ بكلمة (لقد) التي هي أداة تأكيد لفعل منجز. ومن الترجمات الطبيعية لكلمة (ذراً) ما يأتي:

"We have already cast into hell many of the jinns and hummans. they have hearts....".

لذلك، يبدو أن هذه الآية لا تتحدث إطلاقاً عن القضاء والقدر، خصوصاً وأن السياق يبين أن هذا النص وما سبقه مباشرة يشير إلى أولئك الذين يرفضون آيات الله (أو وحيه) متعمدين ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢/٧]، وأرى أن هذه الآية تعد مثلاً رائعاً آخر على ما يفعله القرآن دائماً، وهو أنه يشير أحياناً إلى الأحداث في اليوم الآخر بصيغة زمنية غير صيغة المستقبل. يقول المعلقون: إن هذا ابتكار قواعدي للتأكيد على حتمية وقوع هذه الأحداث، ولكنني أشعر أنها تشرح كذلك وتدعم فكرة أن الله يسمو على الزمان والمكان، وأن الآخرة تحصل في خلق آخر مختلف جداً.

= ص ٣٧٧. وترد الكلمة كذلك في الآيات التالية: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ ذُرّاً مِنَ الْحَرَبِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَيْكُمْ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦/٦]؛ ﴿وَمَا ذُرّاً لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مِثْلًا الْقُرْآنِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ﴾ [النحل: ١٣/١٦]؛ ﴿وَقَدْ آتَيْنَا ذُرّاً فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩/٢٣]؛ ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهَا لَيْسَ كَيْفَ لَيْسَ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١/٤٢]؛ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٤/٦٧].

لقد بحثت آنفاً ما أعتقد أنه بعضٌ من أكثر مصادر التناقض الظاهر بين القرآن والعقل. وتبين لي من المراسلات مع الشباب الأمريكيين المسلمين أن معظم المشاكل من هذا النوع تنشأ من الحرفية المفرطة لفهم الكتاب، ومن طبيعة العيوب والقيود التي تفرضها الترجمة. ومع ذلك، بغض النظر عن معرفة المرء باللغة العربية والتاريخ العربي القديم والثقافة العربية القديمة، فإنَّ علينا أن نظل مدركين لحدود اللغة البشرية المتأصلة عندما نتكلم عن (الغيب)، وخصوصاً عن (الله). وكما قلنا من قبل، تتأصل اللغة في الخبرة البشرية، ولكن بما أن الله يتكلم غالباً عن حقائق ووقائع تتجاوز الخبرة البشرية، فإن لغات البشر كلها، بما فيها العربية، تعد محدودة المقدرة على إيصالها إلينا. وهكذا، مهما بلغت أنظمة التواصل لدينا، ومهما بلغت فلسفتنا من تعقيد وتطور، فلسوف تظل هناك مسائل لا نستطيع بلوغها. وهذا هو مضمون الآية الآتية، كما أعتقد: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحَرٍ مَا فِدَتْ كُلُّنَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧/٣١].

■ السؤال الرابع (من جوزفي كندي، أحد الملحدين الغربيين الكثيرين الذين كتبوا لي يطرحون علي أسئلة):

لم أفكر أبداً في الإيمان بالله، أو حتى في أن يكون لي إحساس غامض في روحانيتي. ومع ذلك، وقعت مؤخراً في حب امرأة مسلمة وقعت هي الأخرى في حبي. كانت تشعر بأن مستقبلنا سيتعزز لو شاركتها بعقيدتها، ولكنها لا تريدني أن أعتنق الإسلام إلا عن قناعة تامة. قرأت كتابك (حتى الملائكة تسأل)، وأقوم الآن بقراءة القرآن، ولدي بعض الأسئلة أود طرحها عليك، ولكن دعني أبداً بأمر مباشر، وهو وصايا القرآن. لقد وجدت بعض تشريعات القرآن قد أكل الدهر عليها وشرب، ووجدت بعض العقوبات التي ينص عليها قاسية جداً. وفيما يخص العقوبات، ألم يعلم الله أن زمناً أكثر لطفاً ورفقاً سيأتي؟ وكنت دائماً أتساءل: هل كانت تشريعات القرآن عقبة كأداء أمام اعتناقك الإسلام؟

لم تدخل وصايا القرآن في قراري اعتناق الإسلام. بل إن الفضول هو الذي دفعني إلى قراءة القرآن، بيد أن ذلك سرعان ما تحول إلى التزام بمعرفة المعنى الذي يضيفه على الحياة البشرية. أذكر أنني كنت أمر على الآيات التشريعية مرور الكرام، لأنني كنت أظن أن لا علاقة مباشرة لها بهذه المسألة. وأظن أنني ما إن بدأت آخذ دعوة القرآن إلى التوحيد مأخذ الجد حتى تجاوزت تشريعاته تقريباً، لأن معظم التشريعات قد وردت قبل ذلك. ربما يكون هذا هو أحد الأسباب التي لم تجعل لتشريعات الكتاب وزناً ثقيلاً في قراري. كما أنني لم أكن أعرف كثيراً من المسلمين العائدين عندئذ، ولم أكن أعرف كيف يفسر المشرعون المسلمون هذه الوصايا، ولا كيف يطبقونها. كما أنني قليل الدراية بالقانون، ولكنه كان يبدو لي أنه علم شخصي جداً، فهو خلافاً للرياضيات - حيث يكون الحل الصحيح فوق المنازعات بغض النظر عن مشاعرك المسبقة - في حين يبدو أن المناقشات والبراهين في القانون تعتمد إلى حد كبير على التفسير. وأعتقد أن هذا هو سبب آخر جعلني لا أبه كثيراً بوصايا القرآن لأنني، كذلك، لم أكن أعرف كيف يرد المسلمون المعاصرون عليها.

ومع ذلك كانت تذهلني دقة كثير من توجيهات القرآن. كما يبدو أن وصايا القرآن التي تشكل ٣٪ من النص تقريباً تختلف عن أسلوب القرآن إجمالاً، إذ إن القرآن، فيما يتعلق بالموضوعات الأخرى، لا يحصر نفسه في مكان محدد وزمان معين، لكن غالبية أوامره الإلهية تخاطب قضايا فورية كان الرسول وصحابته قد واجهوها، وكثير منها كانت محددة بظروفهم وبيئتهم. وتقدم العلاجات القرآنية غالباً مواصفات عالية المستوى غير مألوفة. إذ يشير الكثير منها إلى أمور تتعلق بالثقافة العربية في القرن السابع الميلادي، كالشروط المفروضة على لباس المرأة التي تعود إلى بعض أصناف ألبسة النساء العربيات في ذلك الزمن ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُوا مِنْ أَجْسِدِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٥) وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضُنْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولَى

لم أستغرب تعمد القرآن الغموض بشأن العديد من القضايا، واعتماد التحديد والتقنية بشأن نصائحه وتحذيراته القانونية. لماذا لم يقدم القرآن أحكام سلوك قليلة كالوصايا العشر لموسى أو كالموعظة على الجبل للمسيح، يرجع إليها الناس كافة في كل زمان ومكان بصورة مباشرة؟ ومع ذلك تبين لي جلياً أنني عندما طرحت هذه الأسئلة كنت ساذجاً.

من الواضح أن من مهام القرآن الفورية إصلاح المجتمع العربي في القرن السابع الميلادي وحشد العرب. وبالحكم على المجتمع العربي في ذلك الزمن من خلال قواعده وقوانينه نجد أنه كان مشلولاً وآسناً بسبب انتشار الفوضى السياسية لانعدام وجود أي نظام حكم، وانتشار العنف والرذيلة والفساد. ولكي يصبح المجتمع العربي هو المسؤول عن حمل هذا الوحي الذي أريد له أن يكون للناس كافة ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧/٨١] كان لابد أن يخضع إلى عملية تحويل كاملة لتخليص نفسه من عناصر العادات التي تضعفه وتدمره، وإلا لبقى القرآن محصوراً في قطاع من شبه الجزيرة العربية، وعندئذ

= كِبَرًا ﴿٥٧﴾ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ رَوِّكْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٥٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوٍّ تَعْتَدُونَهَا فَيَعْتَمِدُنَّ رِجْلَهُنَّ مَخْشَوَاتٍ مِمَّا جَاءَ بِكُمْ جَمِيعًا ﴿٥٩﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْنَاكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي مَا أَتَيْتَ لِحُرُومَةٍ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آتَاكَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَكَاتِ عَمَتِكَ وَنَكَاتِ خَالَكِ وَنَكَاتِ خَالَاتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَمْلَكَ وَأَمْلَأَهُ مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسًا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٠﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٠-٣٣/٣٣]؛ ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْيَسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ يَهْنَ مِنْ أَزْوَاجِكَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٦١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَبِطٍ لَهُنَّ إِنْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرِفُوا وَلَا تُسْتَفِيدُونَ مِنْ دِينِهِمْ إِنْ دُلُّوا عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ عَمَلٍ قَدْ يَكُونُ لَكُمْ مِنْهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ دِينِهِمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ لَفَقَهُمْ مِنْ دَوْلَةِ جَاهِلِيَّةٍ لَكُنْهُمْ أَهْلُهَا لَكُونُوا مِنْهُمْ وَنُفَرِّقُهُمْ عَنْكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِرُوا آيَاتِهِ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٦٤﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٢-٥٣].

سيغيب في عالم النسيان. وهذا يفسر جزئياً تلك الطبيعة التقنية الواضحة لأحكام القرآن، لأن النصائح المجردة نادراً ما تؤدي إلى إصلاح سريع شامل^(١).

ومن جهة أخرى، رغم أن معظم التنظيمات والقوانين القرآنية، نجيب عن مشاكل نوعية تنشأ في بيئة ثقافية تاريخية خاصة، فإن أنماط المشاكل التي خاطبها القرآن تعد في غالبيتها جوهرية وأساسية للمجتمعات البشرية كافة، فتوجهاته العديدة للمرأة، على سبيل المثال، تهدف كلها إلى تحسين وضعها، ولو ضمن إطار معقد وقيود طبيعية مماثلة للبيئة الاجتماعية القائمة حينذاك. فالقرآن يوفر للمرأة مستوى من الاستقلال المالي الذاتي، إذ خصص لها حصة ثابتة من الإرث، وإن كانت نصف ما خصص للرجل ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِيْنٌ مَّا بَاؤَكُم وَابْتَاؤَكُم لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْمًا حَكِيْمًا﴾ [النساء: ١١/٤] لأن الرجال كانوا هم الذين يجنون رزق الأسرة ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمًا﴾ (٣٣) وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَتَاوَهُمْ نَصِيبُهُمُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٤) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْفَلِحَتْ فَمَنْتَتْ حَظُّنَّتْ لِلْغَنِيِّ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَصَاحِجِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِن أٰطَعَكُم فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيْلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْمًا كَبِيْرًا﴾ [النساء: ٣٢-٣٤/٤]. وأمر الرجال بتقديم المهر عند كتابة عقد الزواج ﴿وَمَا تَوْأٰهُ النِّسَاءِ صَدَقَتَيْنِ يَخْلَعُ فَإِن طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَبًّا مَّزِيًّا﴾ [النساء: ٤/٤].

(١) برأيي أن النصائح والتوجيهات العامة نادراً ما تسفر عن إصلاح مجتمعي حتى على المدى الطويل.

كما أن القرآن أدخل المرأة عالم المال فأتاح لها أن تكون شاهداً على عقود عمل عالية المستوى، ولما كانت النساء عموماً غير خبيرات بمثل هذه الصفقات، فقد طلب القرآن أن تكون شهادة امرأتين مقابل شهادة رجل ﴿أَنْ تَشْهَدَ إِحْدَاهُمَا فَتُكْفَرُ بِحَيْثُهَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢/٢٨٢]. وسن القرآن قوانين طلاق مفصلة، ليضمن لهن حقوقهن العادلة كالرجال ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُؤْتَيْنَهُنَّ لَمَتًى يَرْتَوْنَ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٨]. وبما أن على المرأة المسلمة المطلقة أن تنتظر، خلافاً لمطلقها، نحو ثلاثة أشهر قبل الزواج ثانية، لمعرفة ما إذا كانت حاملاً، ومعرفة نسب الجنين، فإن القرآن يعترف ﴿وَاللرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٨]^(١). ويقف ضد الاستغلال الجنسي والمضايقات الجنسية بأن يطلب من الرجال والنساء على حد سواء أن يغض كل منهم بصره عن الجنس الآخر، ويطلب إلى المرأة أن تحتشم في لباسها ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضٌ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ وَحَفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُوهِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ مَبْأَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِ النَّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١/٢٤].

وبالمثل، فإن الأحكام القرآنية التي تتعلق بالرق، والتي ينبغي أن تلغي مؤسسة الرق برمتها في زمن السلم^(٢) يجب أن تؤدي في العصور الحديثة إلى

(١) وكما ذكرنا سابقاً يحصل الرجال على حصة أكبر من الإرث.

(٢) إن القرآن الذي لم يسمح باسترقاق أحد سوى أسرى الحرب ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ يَخْرُجُ فِي الْأَرْضِ فَيَرْبُوتَ عَرَضُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧/٨]؛ ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَغْتَمَقُوا فَنُذُوا الزَّوْكَاءَ فَمَا مَنَّا

لهم في المجتمع الإسلامي الأول - كمشكلة الأمهات الوحيدات المحرومات اليوم - ينسج الرجال على الزواج من الأرامل من أجل إعالتهم وأطفالهن إعالة مالية وعاطفية، ولكنه يحدد عدد الزوجات اللاتي يجوز أن يحتفظ بهن الرجل في زمن واحد بأربع ﴿وَلَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْبَيْنِ فَنُكْرُوا بِمَا طَابَ لَكُمْ مِنَ الشَّيْءِ مَنَىٰ وَتُكَلِّمَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسِطُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنُكُمْ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣/٤]^(١). ويواجه القرآن مسألة الغش والاحتيايل في العمل فيطلب إلى المتعاملين في أي عمل أن يكتبوا عقوداً بينهم، ويقدم تعليمات مفصلة حول كيفية صياغة هذه العقود التي تحوي حماية للطرف الأضعف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَمَرَّقِ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلِهُ فَهُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ وَالْعَدْلُ وَأَشْهَدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَفْسَسُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَجْدَةٍ حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَعَلَّوْا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ وَلَنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَمَرَّقِ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢-٢٨٣]. وفي القرآن تنظيمات بشأن الحرب تحرم العدوان العسكري، ولا تسمح بالقتل إلا دفاعاً عن النفس، وضد

= [البقرة: ١٧٧/٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧/٢]؛ ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُهَيِّمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢/٤]؛ ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاجْتَدُوا هَؤُلَاءِ وَلَكِ الْأَمْرُ لِلَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ [المائدة: ٥٨/٥].

(١) لم يكن عدد الزوجات محدداً قبل نزول هذه الآية.

الاضطهاد^(١). وفيه كذلك عدد من التعليمات بشأن أمور الدولة وإدارتها وسياستها، بعضها غريب تماماً على العرب القدماء، تؤكد على احترام القيادة، واحترام حقوق الآخرين، واحترام القانون وقرارات المجتمع التي تُتخذ عن طريق مشاورات مشتركة^(٢). وقد عالج القرآن مشكلة المدمنين على الخمر

[illegible]

(٢) انظر مثلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَأَمَّا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
 ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ
 لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ آمُودَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّفُورِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتَادَرُونَ مِنْ دُونِ
 الْمُحْجَرِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُغِيبُوا قُوتًا يَمُوتُ بِهَا نَفْسٌ فَأَنْصِتُوا إِلَى مَا
 قَالَتْ ثُمَّ تَدْبِرُونَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ ظَلَمَكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ لَسَمْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ
 إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾
 فَضَلَّكَ مِنْ اللَّهِ وَفَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا

والقمار بأن حظر شرب الخمر وممارسة الميسر مبتدأ بالقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾
[البقرة: ٢١٩/٢].

في حين أن أحكام القرآن تجيب عن إشكالات فورية في المجتمع الإسلامي
الأول، فإن غالبية هذه المشاكل التي تخاطبها هذه الأحكام موجودة في أي
مجتمع. فمثل هذه القضايا، كقضية ظلم المرأة، واستغلال اليد العاملة، والرفاه
الاجتماعي، والأمهات الأرامل المحرومات، والأطفال المهجورين، والحرية
الدينية، والصفقات التجارية الاحتياطية، والحرب العادلة، وتنظيم الدولة،
 وإعادة تأهيل المدمنين، والقمار، والبغاء، والقتل والتشهير، كلها تهم في
الواقع كل ثقافة. ومن ثم فإن تشريعات القرآن -فضلاً عن تقديمها علاجات في
بيئة تاريخية معينة- تعد أمثلة ونماذج يمكن تعميمها على بيئات أخرى.

وعندما يقدم القرآن حكماً، فليس من الصعب فهم الغاية الكامنة وراءه.
وعندما لا يكون الأمر كذلك، فإن القرآن غالباً ما يوضح غاية أكبر من الأمر أو
الحكم. ومن ثم فإن أمره للنساء أن يدين من جلابيبهن على جيوبهن يعود إلى
نص يتعلق بالحشمة والحياء ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ

= فَإِنْ بَدَتْ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقِيلُوا إِلَيْهِ تَبَيَّ حَقَّ تَبَيَّ إِلَهُ أَمْرُ اللَّهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا
بِالْعَدْلِ وَأَقْبِلُوا إِنَّ اللَّهَ يُبْغِ الْمُتَّقِينَ ﴿١٦٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٦١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءَ مِنْ
يَسَاءَ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُّ الشُّعُورُ بَعْدَ
الْإِيمَانِ رَمَى لَمْ يَنْبَغْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّا نَسَى اللَّهُ إِلَيْكَ بَعْضَ
الَّذِي إِذْ لَا يَجْسُرُوا وَلَا يَنْتَبِ بِمَنْكُمْ بَعْضًا أُخْبِرَ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٦٤﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ
تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِسْلَامُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُبْلِغُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلْعَنُوا لِمَا
أَمَرْتُمْ سَبَّحُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَعَلُوا دِينَهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ وَأَقْبَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٦٦﴾ قُلْ أَصْلَحُوا اللَّهُ يُدِينُكُمْ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السُّبُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦٦-١/٤٩].

ذَٰلِكَ أَزْكٰهُ لَمْ يَنْزِلْ إِلَّا اللَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٢٩﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُنَّ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَبَعْضُهُنَّ فُجُورُهُنَّ وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يَبْدِيكَ زِينَتُهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ مَبَايِعَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِ الْأَرْوَاحِ أَوْ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ الْإِنْسَانِ وَلَا يَضْحَكُنَّ يَأْخِذُهُنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿النور: ٢٤/٣٠-٣١﴾. وعندما يأمر المؤمنين أن يعدوا ما يستطيعون من قوة ومن رباط الخيل استعداداً للحرب ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠/٨] فإن القرآن يبين أن الغاية من ذلك هو إدخال الخوف في قلوب الأعداء المعروفين وغير المعروفين، أي ردهم عن القيام بأي عدوان. وبعد أن يحدد القرآن الفرق بين ما يرثه الرجل وما يرثه المرأة، ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِ يَوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ مَّآبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١/٤] يبين أن السبب هو كون الرجال مكلفين بإعالة الأسرة والإنفاق عليها من مالهم ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَحَاثُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٧﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْمُتَصِلَاتُ فَمِنْكُمْ خَفِضْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيَّاتُ تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاجْزَوْهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ إِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ مَكِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٣٣-٣٤].

ومع ذلك فعندما تلخص أحكام القرآن مقاصد أساسية معينة ومبادئ قانونية، فإنه يعني بذلك توسيعها وتكييفها مع التغيرات والتحولات التي ترتبط بالزمن،

والتي ستحصل بالتأكيد. وبعد أن دخلتُ الإسلام، اكتشفت أن علماء الشريعة الإسلامية يقرون بهذا الرأي من حيث المبدأ، ولكنهم متشددون ومحافظون جداً في تطبيقه. فهم عندما يوسعون نطاق أمر قرآني أو يكيفونه فإنما يفعلون ذلك باتجاه مزيد من القسوة الأشد. فالتفكير السائد بين المسلمين هو أنه من الأفضل الأخذ بالتشدد. وأنا لا يمكنني مشاركتهم هذا الشعور.

دعني أختم بتأملات موجزة تتعلق بإنسانية عصرنا والعقوبات الإنسانية. أنا لست مقتنعاً أن زماننا اللطيف وأرق من الزمن الذي أنزل فيه القرآن. فالقرن العشرون كان أكثر القرون عنفاً. ربما يبدو العالم من زاوية ستارة الحرم الجامعي الآمنة والساكنة، مكاناً رحيماً، ولكنه لا يبدو كذلك من زوايا الشوارع الوضيعة في المدن الأمريكية الداخلية أو إذا ما نظرنا إليه من أمكنة أخرى في العالم تواجه عنفاً متطرفاً وظلماً فادحاً بصورة روتينية وكجزء من حياتها اليومية.

صحيح أن قليلاً من العقوبات القرآنية لا تنسجم مع المشاعر الغربية الحالية، ولكن ليست المشاعرُ الغربية الحالية هي المعيارُ الموضوعُ الذي تقاس به إنسانية النظام الاجتماعي إجمالاً. فكل مجتمع يستخدم عقوبات ليردع أفعالاً يعدّها إجرامية، بل يبذل جهداً لتحقيق توازن بين المتطلبات، لا ليكون مفرطاً في العقوبة مقابل حماية البريء. وربما يبدو أن النظام القانوني المثالي هو ذلك الذي يسفر عن حد أدنى من الآلام البشرية التي تعانيها ضحية الجريمة، ويعانيها المجرم عند إنزال العقوبة به^(١). فإذا أمكن سن قانون مثلاً، يلغي الجريمة كلياً ولا يسبب أي متاعب أو معاناة للمواطنين، فسيكون أفضل قانون ممكن بغض النظر عن نظام العقوبة فيه، ما لم يتضرر أحد بسبب هذا القانون، وبما أنه لا يوجد نظام قانوني قادر على إزالة الجريمة، ومع غياب المعايير التي تقيس المعاناة الإنسانية الإجمالية، فإن المسلمين يعتقدون أن المجتمع الذي يعكس شرائع القرآن وروحه بصورة أوثق سيكون من وجهة النظر الكمالية أكثر إنسانية

(١) إذا كانت هناك وسيلة لقياس المعاناة البشرية ومعايرتها، فإنه يمكن اعتبار كمية المعاناة الإنسانية الناجمة عن الجريمة ومعاينة المجرمين مقسومة على حجم السكان في مجتمع ما مؤشراً جيداً على تقويم الإنسانية الإجمالية لأي نظام قانوني.

من غيره. بالطبع، الإيمان بهذا شيء، وخلق مجتمع شيء آخر، ولكن ذلك يعيدنا ثانية إلى مسألة التفسير.

عودة إلى الملائكة

نبدأ قصة آدم ﴿وَاذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَتَّخِذُ أُنثِيَتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذْ مِنْكُمْ أُنثَى وَلَئِنْ كُنْتُمْ عَلَّامِينَ ﴿٣٠﴾ فَارْزُقُوهُمَا مِنْهَا كَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٣٢﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٣٣﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٣٨﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٣٩﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤٤﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا أَهْبَطَا السَّجْدَ قَالَ لَهُمَا رَبُّهُمَا سَمِعْتُمَا الْأَمْرَ فَأَقْبَرَا وَكَانَ بَيْنَهُمَا نَهَجٌ فَكَرِهَ لَهَا شَيْئًا فَاعْتَصَمَ ﴿٥٠﴾

وأدل نقطة يضعها القرآن - والبدء بهذه النقطة يعد أسلوباً فاتناً وساحراً - هي أن البشر مخلوقات فائقة الذكاء، ويشكل ذلك إشارة بارزة إلى الغاية من خلقه. ثم يشير القرآن إلى أن الناس - رجالاً ونساءً - كائنات أخلاقية، مخلوقات ذات ضمير، تملك حساً عميقاً بالخطأ والصواب. وأنهم معرضون إلى إغراءات خيرة وشريرة وعليهم أن يختاروا بينها. وهكذا فإن الله قد منح الإنسان موهبة إدراك الخطأ والصواب، وزوده بالقدرة على التصرف بناء على قراراته الأخلاقية. وبين القرآن كذلك أن للبشر قدرة على إدراك الخطأ من الصواب بأنفسهم. ومن النقاط الهامة التي تبرزها هذه القصة هي أن البشر سوف يعانون في الأرض، إذ قال الملائكة: إن الإنسان سيفسد فيها ويسفك الدماء، ويأمر الله الإنسان أن يهبط إلى الأرض، ليكون بعض الناس لبعض عدواً. على أي حال، يبدو واضحاً من قصة أول رجل وأول امرأة من البشر في القرآن أن الحياة على الأرض والمتاعب التي سيلقاها الإنسان فيها لا تعني عقوبة للبشرية. والمعاناة التي سيلقاها الإنسان إنما هي من خطة الله. وتؤكد القصة كذلك على دور الهداية الإلهية وعفو الله في حياة البشر، والنتائج الرهيبة التي تترتب على رفض هذا الدور.

عرفتُ أنني قرأت القصة كثيراً، وأن بعض الموضوعات التي اعتقدت - بسبب تكويني - أن القصة تطرحها جواباً عن تساؤل الملائكة لا تعدو كونها سراباً. ربما أكون قد أطلقت العنان لخيالي على غاربه. وربما أكون قد أسقطت صراعاتي التي عانيتُها في أثناء طفولتي على الحكاية، ومع ذلك لم يمض وقت طويل حتى وجدت ما يؤكد افتراضاتي؛ لأنني وأنا أشق طريقي في القرآن اكتشفت أنه يؤكد بالفعل أن العقل، والضمير، والإرادة والاختيار، والخطأ، والندم، والمعاناة، وهداية الله، والعفو كلها تلعب دوراً جوهرياً في تطور البشر على الأرض ونموهم. على أي حال، لا أتصور أبداً كيف يمكن أن تجتمع هذه العناصر كلها لتخدم غاية نهائية لا يمكن بلوغها بكفاءة أكثر إذا لم يكن هناك إله.

ألا يستخدمون عقولهم؟

«الرَّبُّ لطيف ومحِب، يا بني».

«إن كان كذلك، فلماذا يسمح بهذه المعاناة الكبيرة والعنف الشديد على الأرض؟».

هذه محادثة جرت بيني وبين أمي مرات عديدة من قبل، ويبدو أنها كانت تتكرر أكثر عندما أعلنت إلحادي لأسرتي. قالت لي: «هنالك أشياء لا تستطيع عقولنا المحدودة إدراكها».

فقلت لها ساخطاً: «لقد سمعت ذلك آلاف المرات، وفي كل مرة يثار اعتراض منطقي عقلاني على الإيمان بالله، يقال لنا: إن فهمنا محدود جداً، بحيث لا يستطيع إدراك الحكمة من أعمال الله وفهمها. إن ما استحوز علي حقاً هو أن الناس يستمرون في إيجاد مختلف أنواع المناقشات المنطقية ضد وجود الله، والجواب الوحيد عليها كلها هو أن عقولهم صغيرة جداً فلا تستوعب ذلك - ومن ثم يقبلون بهذا بوصفه نقاشاً مضاداً! وربما يظن المرء أن ذلك يشكل لديهم شكوكاً كبيرة».

فأجابتني قائلة: «لكل امرئ شكوكه في وقت ما. فأنا كانت لدي شكوك وأنا في عمرك».

فأجبتها: «إذن، لماذا بقيت على الإيمان؟ فإن كان لدينا شك في الطيار، فإننا لا نركب الطائرة، وإن كان لدينا شك في سلعة، فإننا لا نشتريها. وإن كان لدينا شك في تكامل شخصية سياسي وصدقه، فإننا لا نصوت له. ولكن الدين تحوم حوله شكوك عديدة معقولة صحيحة، ومع ذلك يؤمن به الناس، فهل يغسلون عقولهم بأنفسهم، أو أنهم يتحاشون العقوبة الخالدة بتسليم أنفسهم على نحو أعمى إلى شيء لا معنى له؟».

فردت أمي قائلة: «الإيمان هبة من الله، يا جيف. فما إن تؤمن حتى تتبدد الشكوك كلها».

فأجبت: «إذن لماذا لا يمنح هذه الهبة للناس أجمعين؟ لماذا لم يهبني إياها؟».

«فقلت: حاول أن تكون مؤمناً، يا ولدي».

«فقلت: أنا لا أعرف. وكأنك تقولين عليك أن تنزع الشكوك من رأسك، وأن تتجاهل ميولك الطبيعية وتجبر نفسك على الإيمان. أليس ذلك نوعاً من غسل الدماغ الذاتي؟» فطمأننتني أمي قائلة: «لا تقلق، يا جيف. سوف تجد الله يوماً ما». فأجبتها ضاحكاً: «وما الذي يجعلك متيقنة هكذا؟» فأجابتنني بابتسامة واثقة: «كانت جدتي تقول لي: حيث يميل الغصن تنمو الشجرة».

عندما احتج الملائكة على إعلان خلق البشر، فإن أول ما أشار الله إليه لبيّن لهم مدى سطحيّتهم، هو (الذكاء البشري). يؤكد القرآن - أساساً - على أن السمة البشرية هذه يكرمها الله أكثر من تكريمه لعدم ارتكاب الملائكة الخطأ^(١). وهكذا يوضح القرآن من البداية أن الله لا يريد أساساً، للبشر أن يكونوا ملائكة، وأن البشر بكل ما فيهم من أخطاء وتعقيدات وتناقضات فإن لديهم القدرة على أن يكونوا أعظم من الملائكة، وأن الذكاء البشري يلعب دوراً جوهرياً في ذلك. لقد فاجأني إبراز العقل في البحث الروحي البشري. إذ كنت أعتقد دائماً أن العقل ينسف الإيمان في النهاية، بيد أن هذا الكتاب يقول إن الإيمان يزول عندما يتجاهل العقل، وعند تطبيقه تطبيقاً ضعيفاً.

تعدّ اللهجة العقلية المنطقية، التعليمية -في غالب الأحيان- من أكثر معالمه بروزاً، فمن أهم موضوعاته الجوهرية هي أن الناس يتجاهلون آيات الله أو يرفضونها ويفسدون الدين لأنهم لا يستعملون عقولهم. «فهم لا يعقلون»^(٢). ينعي

(١) يوضح القرآن فيما بعد أن إبليس الذي رفض السجود لآدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٤] والذي جعل الزوجين ينزلان ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٦] لم يكن ملاكاً، بل كان من الجن، مخلوقاً حساساً واعياً خفياً، وهكذا فإنه قابل لارتكاب الخطيئة.

(٢) ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَنْتَعِ إِلَّا دُعَاؤَهُ وَنِدَاؤُهُ صُمُّ بِكُمْ عَنِّي فَهَمْ لَا

القرآن على الذين ينتقصون من قدره: فيسألهم مستغرباً: «أفلا تعقلون؟»^(١).
إن الله يكشف آياته، ودروسه، ونصائحه «لعلكم تعقلون (أيها الكفار)!!»^(٢).

= يقولون ﴿البقرة: ١٧١/٢﴾: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا مَزْزًا وَلَبِثَ ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٨/٥]: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢/٨]: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ زَلَّ يَدَ السَّمَاءِ مَاذَا فَجَأَ بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المنكبروت: ٦٣/٢٩]: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤/٣٩]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مِنْ دِينِهِ لَعِبْرَةً أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤/٤٩]: ﴿لَا يَتَّبِعُونَكُمْ جَيْمًا إِلَّا فِي قَرَى مُخِصَّةً أَوْ مِنْ دُونِ جُنْدٍ بِأَسْهُمٍ يَتَّبِعُهُمْ شَؤِبُهُمْ مُحْسِبُهُمْ جَيْمًا وَقُلُوبُهُمْ شَقَى ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤/٥٩].

(١) ﴿أَتَأْتُونَ النَّاسَ بِالْبَرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤/٢]: ﴿وَإِذَا نَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِمَعْشُرِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُخَذُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُخَاجِرَكُمْ بِهِ. عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦/٢]: ﴿يَتَّخِذُ الْكِتَابَ لِمَ تُخَاجِرُونَ فِي دِينِهِمْ وَمَا أُنزِلَ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ٣/٦٥]: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَهْوٌ وَلَهُوَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢/٦]: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْعُدُونَ عَنْهُمْ هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَنْهُمْ شَيْءٌ يَقُولُوا أَلَمْ يَأْعُدُوا أَنْ يَخُذَ عَلَيْهِمْ يَتَّقُوا الْكِتَابَ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩/٧]: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ١٦/١٠]: ﴿يَتَّقُوهُ لَا تُنْكِرْ عَلَيْهِ لَجْرًا إِنْ أَجْرَكَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١/١١]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَكِنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩/١٢]: ﴿أَنْ لَكُمْ وَلَسَا تَعْقِلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧/٢١]: ﴿وَمَنْ أَلَّيَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠/٢٣]: ﴿وَمَا أَوْفَوْهُ مِنْ نَفْسٍ فَتَنَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠/٢٨]: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢/٣٦]: ﴿وَمَنْ لَعَنَ تَنَكَّبْنَاهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨/٣٦]: ﴿وَمَا لَيْلٌ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٨/٣٧].

(٢) ﴿فَلَتَقُلْ آدَمُ مِنْ رَبِّي كَيْتُ قَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧/٢]: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ. لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢/٢]: ﴿قُلْ تَسَاءَلُوا أَتَى مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفٌّ

وفي القرآن يعد العقل والإيمان حليفين، كما أنَّ اللامنطق والإيمان الزائف حليفان، ويظهر الصراع بوضوح في هذه الآيات^(١): ﴿قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾. الذين ينتفعون بالقرآن هم العقلاء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾^(٢) ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي

[illegible]

(١) ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْقِصَامَ لَهَا ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]؛ «سَامِعُوهُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْوَلِيِّ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُفْلًا يَأْتُوا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/١٤٦]؛ «خَلَفَ مِنْ بَينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا» [مریم: ١٩/٥٩].

(٢) ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩/٢]، ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ رَمَسَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَيْبَ وَلَا شُكَّ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَسْمُهُ اللَّهُ وَكَرَّهَوا فَلَا حَرَّ إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا وَأَتَوْا بِعَتَادِي الْأَنْبِيَاءِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٩/٢]؛ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ بَيِّنَاتٌ لَعَلَّكَ تَمْنَحُكَ مِنْهُ أُمُّ الْكِتَابِ وَأَنْعَرُ مَتَّكِهَتُهُ فَاثًا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رَيْبٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَسْلَمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [آل عمران: ٧/٣]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقِ الْإِنْبِالِ وَالتَّهَارِ لَا يَبْتَغِي

الْمَلِئَةِ^(١)، وَ«يَقُولُونَ»^(٢)،

= لِأُولَى الْأَلْبَابِ» [آل عمران: ١٩٠/٣]؛ «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْرُ وَالْأَلْبَابُ وَلَوْ أَغْنَيْكَ كَثْرَةُ الْخَيْرِ فَأَتَقُوا اللَّهَ بِأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [المائدة: ١٠٠/٥]؛ «لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [يوسف: ١١١/١٢]؛ «أَفَمَنْ يَمُنُّ أَتَمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْقُرْآنَ كَمَا هُوَ آتَمُّ إِلَانَا بِتَذْكَرٍ أُولَى الْأَلْبَابِ» [الرعد: ١٩/١٣]؛ «هَذَا بَلَّغُ الْبَلَاءِ وَلَيْسَ دُونُهَا بِهِ وَلَيْسَلُوا أَتَمَّا هُوَ إِلَهُ وَجِدْ وَلْيَذْكُرْ أُولَى الْأَلْبَابِ» [إبراهيم: ٥٢/١٤]؛ «كَتَبَ آيَاتِهِ إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَتَذَكَّرَ أَتَمِّينَ وَلْيَتَذَكَّرْ أُولَى الْأَلْبَابِ» [ص: ٢٩/٣٨]؛ «وَرَبَّنَا لَكَ أَهْلٌ وَنَفْلٌ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ» [ص: ٤٣/٣٨]؛ «أَتَمُّ هُوَ قَبِيْثٌ أَتَمَّا إِلَيْ سَابِقًا وَقَابًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَى الْأَلْبَابِ» [الزمر: ٩/٣٩]؛ «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولَى الْأَلْبَابِ» [الزمر: ١٨/٣٩]؛ «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ بِسَبْعٍ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ جُعِلَ مِنْهُ نَبْهٌ وَرَعَا فَنَزَّلْنَا أَبْوَابَهُ ثُمَّ جُعِلَ مِنْهُ حَبْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ» [الزمر: ٢١/٣٩]؛ «هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ» [صافر: ٥٤/٤٠]؛ «أَمَدَّ اللَّهُ لَكُمْ عَمَلًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ بِأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا» [الطلاق: ١٠/٦٥].

(١) «لَكِنَّ الْأَرْسِيحُونَ فِي الْوَلَدِ وَهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُسِيئِينَ الصَّالُوتُ وَالْمُؤْمِنُونَ الرَّكْعَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُعْطِيهِمْ لَبًّا حَبِيلًا» [النساء: ١٦٢/٤]؛ «وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَلَدَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخَفَّيَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَكَاوِلٌ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [الحج: ٥٤/٢٢]؛ «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَلَدَ وَيَتَكَّمُ قُرَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَقِيلَ صَدِيقًا وَلَا يُلْقِيَنَّهَا إِلَّا الْمَكِيدُونَ» [الفصص: ٨٠/٢٨]؛ «بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَتَنَبَّهُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَلَدَ وَمَا يَحْكُمُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْفَلَّاحُونَ» [المنكحوت: ٤٩/٢٩]؛ «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْوَلَدَ وَالْإِيمَنَ لَقَدْ بَلَّغْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيْكَ يَوْمَ الْبَقِيَّةِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَقِيَّةِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [الروم: ٥٦/٣٠]؛ «وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْوَلَدَ الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [سبا: ٦/٣٤]؛ «وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِجِلُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْوَلَدَ مَاذَا قَالَ نَائِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَمَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَأَتَمَّوْا أَمْرَهُمْ» [محمد: ١٦/٤٧]؛ «يُنَاقِشُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَنْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْوَلَدَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» [المجادلة: ١١/٥٨].

(٢) «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَغَيْرِهَا لَآيَاتٍ لِّالَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ» [البقرة: ١٠٤/١٠٤]؛ «وَالَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ فِي الْبُحْرِ وَمَا يَنْفَعُ

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١) في حين أن الذين يعارضون الوحي فهم «مغرورون»^(٢)

= النَّاسَ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَالْتَمِسَا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِنَا وَبَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ كُلِّ ذَاتِ عِلْمٍ وَتَضْرِبُ الْيَمْعُ وَالشَّعَابُ السَّعْجَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَتَوَقَّعُونَ لِقَوْمٍ يَقُولُونَ ﴿الْبَقَرَةُ: ٢/ ١٦٤﴾: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْجٌ وَمُسْتَوَجٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨/٦]: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَتٌ رَجَعَتْ مِنْ أَغْشَى دَرَجٍ وَفِيهِ صِنَانٌ وَفِيهِ صِنَانٌ يَتَّقِي بِمَلَأَ وَجِلُهُ وَيُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ١٣/٤]: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّجِيلِ وَالْأَغْشَى لَنَجِدُونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧/١٦]: ﴿كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ أَتَوْا أَلْهُنَّ﴾ [طه: ٥٤/٢٠]: ﴿أَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ أَتَوْا أَلْهُنَّ﴾ [طه: ١٢٨/٢٠]: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهَا آيَةً يَسْتَكْبِرُونَ يَقُولُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٣٥]: ﴿وَمِنْ آيَاتِنَا يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤/٣٠]: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ بِهِ سَوَاءٌ تَعْمَلُونَهُمْ كَيْفَ تَعْمَلُونَ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨/٣٠]: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَالْتَمِسَا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِنَا وَتَضْرِبُ الْيَمْعُ وَالشَّعَابُ السَّعْجَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَتَوَقَّعُونَ لِقَوْمٍ يَقُولُونَ﴾ [الجاثية: ٥٠/٤٥].

(١) ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَنْ أَنْصَرُوا فَلَنْفِيهِ وَمَنْ عَمِيَ فَلْيَهْجُرْهَا وَمَا آتَا عَلَيْكُمْ مِنْ بَصَائِرٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤/٦]: ﴿وَلَا تَم تَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آتَيْنَاهُمُهَا قُلْ إِنَّمَا آتَيْتُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣/٧]: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ اللَّهِ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسِعَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨/١٢]: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أُنْزِلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ وَإِلَى لَأُطْلِقَنَّكَ بِبَرْقَتِ مَشْجُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢/١٧]: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٢٨/٤٣]: ﴿هَذَا بَصَائِرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠/٤٥]: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤/٧٥].

(٢) ﴿وَكَيْفَ يَأْتِيهِمْ قَوْلًا لَنْ نَسْخِكَ الْقُرْآنَ وَلَا إِنَّمَا فَتَنَّاهُمْ وَهُمْ فِي دُجَاهٍ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٤/٣]: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُمْ وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنْ تَحْسَبُونَ أَنَّ قُرْآنًا وَسِيلًا وَأَنْتُمْ لَا تُؤْمِنُونَ قُلْ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَأْتِيكُمْ يَوْمًا مَكْمُومًا يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ كُفْرُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠/٦]: ﴿يَتَمَتَّعُونَ لِمِثْرٍ وَالْإِنْسَانُ أَنْتَ يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ

و﴿ فِي صَلَاتِي مُبِينٌ ﴾^(١) ،

= يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ مَا بَيْنَ رُسُلِهِمْ إِنْ لَكُمْ مِنْكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَخَرَجْنَاهُمْ مِنَ الدِّينِ وَنَسُوا آلَ الْأَنْعَامِ: ١٣٠/٦؛ ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَوَافًا وَخَرَجْنَاهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَلَيْلَمَ نَسِيتُمْ كَمَا كُنْتُمْ تُوعَدُونَ هَذَا وَمَا كُنْتُمْ بِبَالِيْنَا بِمَعْدُونِ﴾ [الأعراف: ٥١/٧]؛ ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَالْتَكِ اللَّهُ غَيْرُ حَكِيمٍ﴾ [الأنفال: ٤٩/٨]؛ ﴿ذِكْرُ الْآلِ الْعُقَدَةِ مِنَ اللَّهِ هَذَا وَخَرَجْنَاهُمْ مِنَ الدِّينِ فَلَيْلَمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنَّا وَلَا هُمْ يَسْتَعِينُونَ﴾ [الحاشية: ٣٥/٤٥]؛ ﴿يَتَادَّبَرُونَ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَقْتُلُونَ وَتَرْفَعُونَ الْأَمَانَةَ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَخَرَجَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٤/٥٧]؛ ﴿أَمَنْ هَذَا إِلَهِ هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَصُدُّكُمْ مِنْ دُونِ الرِّحْتَيْنِ إِلَى الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرَبٍ﴾ [الملك: ٢٠/٦٧]؛ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ [الانفطار: ٦/٨٢].

(١) ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَتْلُو عَلَيْهِمْ وَيُفَسِّحُ لَهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا مُبِينٌ﴾ [آل عمران: ١٦٤/٣]؛ ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَزِلْ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَمَنَّوْا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠/٤]؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦/٤]؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦/٤]؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧/٤]؛ ﴿فَلْيَذَكِّرُوا اللَّهَ رِجَالًا لَوْ كُنَّا بِمَدِّ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنَّ الضُّلُوكَ ضَرُوفُونَ﴾ [يونس: ٣٢/١٠]؛ ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَبِعَثْوَتِهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣/١٤]؛ ﴿أَتَمِيعَ يَوْمٍ وَتَصِيرَ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الْفَالِطُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مریم: ٣٨/١٩]؛ ﴿قَالَ لَقَدْ كُتِبَ أَمْرُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤/٢١]؛ ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ٢٢/٢٢]؛ ﴿قَالُوا رَبَّنَا خَلِّتْ عَلَيْنَا مِثْقَلَتَنَا وَخَلِّتْ قُلُوبَنَا ضَالَّةً﴾ [المؤمنون: ١٠٦/٢٣]؛ ﴿قَالَ اللَّهُ إِنْ كُنَّا لَنَافِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧/٢٦]؛ ﴿إِنَّ إِلَهِكَ قَرِيبٌ مَلِكٌ الْقُرْآنُ لَرَأْفَتُهُ إِلَى مَعَاذٍ قُلْ رَبِّيَ أَكْبَرُ مَنْ جَاءَ بِالْمُنْتَهَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [القصاص: ٨٥/٢٨]؛ ﴿هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرْوَفَ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [القصص: ٣١/٣١]؛ ﴿وَمَا كَانَ لِلَّذِينَ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِنَّا فَضَّلْنَا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْحَيَاةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ

و«قوم يجهلون»^(١)،

= يتبين الله ورسوله فقد ضلّ ضلكا مبينا [الاحزاب: ٣٦/٣٣]؛ «أفدئ على الله كذبا أم به
جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والعقاب لعبد [سبا: ٨/٣٤]، «قل من يرزقكم
رب السموات والأرض قل الله ولنا أو إناكم لكل هدى أو في ضلالي مبين» [سبا:
٢٤/٣٤]؛ «إني إذا لقي ضلالي مبين» [يس: ٢٤/٣٦]؛ «إني أنفوا عابدة حر ضالين»
[الصافات: ٦٩/٣٧]؛ «أمن شرع الله صذر للإسلام فهو على ثور من ربه قول للقيصة
قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلالي مبين» [الزمر: ٢٢/٣٩]؛ «فلما جاءهم بالحق من
عينا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحبوا إساءة لهم وما كبد الكافرين إلا في
ضلالي» [غافر: ٢٥/٤٠]، «قالوا أولم تك تأيكم رسولكم بالبينت قالوا بلى قالوا
كاذبوا وما دعوا الكافرين إلا في ضلالي» [غافر: ٥٠/٤٠]؛ «يستعمل بها الذين لا
يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلنون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة
لبي ضلالي بعيد» [الشورى: ١٨/٤٢]؛ «ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض
وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلالي مبين» [الأحاف: ٣٢/٤٦]؛ «إن العجرب في
ضلالي وسعرو» [القمر: ٤٧/٥٤]؛ «هو الذي بعث في الأميين رسولا ينهوا عنهم يصلوا عليهم وأذنيه
ورؤيتهم ويعلمهم الكتب والحكمة وإن كانوا من قبل لبي ضلالي مبين» [الجمعة: ٢/٦٢]؛ «قل
هو الرحمن أمانا به وعليو توكلنا فستعلمون من هو في ضلالي مبين» [الملك: ٢٩/٦٧].

(١) «وإذا قال مؤمن ليقوم إن الله يأمركم أن تدبوا بقره قالوا ألتدبوا هروا قال أهو بالله أن أكون
من المجهولين» [البقرة: ٦٧/٢]، «للقراء الذين أحسروا في سبيل الله لا
يتقبلون ضرا في الأرض يحسبهم الجاهل أفريا رب المتلف تصريفهم يريهم
لا يتقبلون الناس إلكا وما شفقوا من خير فإت الله به عليهم» [البقرة: ٢/٢].

[٢٧٣]؛ «وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استظمت أن تبقي نفقا في الأرض أو سلكا في
السماء فتأنيبهم يأنر ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكون من الجاهلين» [الأنعام: ٦/٦].

[٣٥]، «ولو أنا زلقنا إليهم الشهابكة وكنهم النوق وحسنا عليهم كل شئ فلكا ما كانوا يؤمنوا
إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون» [الأنعام: ١١١/٦]؛ «وجوزنا ببحر أمسهل
البحر قاترا على قور يعلفون على أضناهم لهم قالوا ينموس أجمل لنا إنها كما لهم والله قال
لكنهم قوم يجهلون» [الأعراف: ١٣٨/٧]، «ولقد ذرنا ليهتم كثيرا من الجن والإنس فلم
قلوب لا يفتقرون بها ولم آمن لا يبيرون بها ولم ماكان لا يستون بها أولئك كالأقنير بل هم أضل
أولئك هم الغفلون» [الأعراف: ١٧٩/٧]؛ «وتفكر لا أنلكم عليه مالا إن أجرى إلا
على الله وما أنا بطايد الذين آمنوا إنهم ملقوا ربهم ولكنك قوما تجهلون» [هود:
٢٩/١١]، «قال ينوح إنهم ليس من أهليك إنهم عمل غير صالح فلا تنال ما ليس لك به علم إني

و«سفهاء»^(١)، و«لا يفقهون»^(٢)، و«إنما يتبعون الظن»^(٣)،

= أَظْلَكُ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْجَاهِلِينَ [هود: ١١/٤٦]؛ «قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً مِمَّا يَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كِبَدهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِمْ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ» [يوسف: ١٢/٣٣]، «قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتَ جَاهِلُونَ» [يوسف: ١٢/٨٩]؛ «وَيَعَاذُ الرَّحْمَنُ الَّذِيكَ يَتَشَوَّرُ عَلَى الْأَرْضِ قَرِيحًا وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا» [الفرقان: ٢٥/٦٣]؛ «أَلَيْسَ لَكُمُ الرَّجَالُ شَتْوَةٌ مِنْ دُونِ آلِيسَاءَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ جَاهِلُونَ» [النمل: ٢٧/٥٥]؛ «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُكُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ» [القصاص: ٢٨/٥٥]؛ «قُلْ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» [الزمر: ٣٩/٦٤]؛ «قَالَ إِنَّمَا إِلَهُمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَتَّبِعُكُمْ مَا أَمْسَكَ يَدِي وَلَكِنِّي أَرْتَكِبُ قَوْمًا جَاهِلُونَ» [الأحاف: ٤٦/٢٣].

(١) «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَائِيُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ الشُّعْبَةُ آيَةً إِنْهُمْ هُمُ الشُّعْبَةُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ» [البقرة: ٢/١٣]، «وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَا فِي الْأَدْنَىٰ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكِنَّ الْقَتْلِيِّينَ» [البقرة: ٢/١٣٠]؛ «وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ مَيِّتًا عَلَىٰ اللَّهِ سَطَطًا» [الجن: ٧٢/٤].

(٢) «أَيُّنَا تَكُونُوا بِدِينِكُمْ التَّوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُبْعٍ تُشْكِنُونَهُ لَنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَلْ يَدْعُو مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَلْ يَدْعُو مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَقِيقًا» [النساء: ٤/٧٨]؛ «فَمَنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعِ إِلَهَكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَلَا يَذَرُوا كَلًّا مَائِيُوا لَا يَقُولُوا يَأْتِ حَقٌّ إِلَّا جَاءَهُمْ بِجُودَةٍ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ» [الأنعام: ٦/٢٥]؛ «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَمْ تَلْبِسْ قُلُوبَ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آفَافَةٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَفْئِدَةِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ» [الأعراف: ٧/١٧٩]؛ «يَأْتِيَا النَّبِيَّ حَرِيضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَسَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبْرُونَ يَتْلِبُوا بِمِثْلِهِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ نَافَةٌ يَتْلِبُوا النَّاسَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» [الأنفال: ٨/٦٥]؛ «رَشُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُجِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» [التوبة: ٩/٨٧]؛ «وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَشَرٌ مِنْهُنَّ إِلَهُ بَشَرٌ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرِكَ اللَّهُ قُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» [التوبة: ٩/١٢٧]؛ «لَأَنَّهُ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ» [الحشر: ٥٩/١٣]؛ «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُجِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» [المنافقون: ٦٣/٣]؛ «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُبْعِدُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَقَدْ خَرَجَ الْأَسْوَاقُ وَالْأَرْضُ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» [المنافقون: ٦٣/٧].

(٣) «وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَلَكِنَّ الَّذِينَ أَخْلَلُوا بِوَيْلِهِمْ سَلَكَ مِنْهُ مَا لَمْ يَدْرِ مِنْ غَيْرِهِ إِلَّا إِتْبَاعُ الظُّلَمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا» [النساء: ٤/١٥٧]؛

ويتبعون ما كان عليه آباؤهم ﴿بَلْ نَسِجُ مَا آفَقْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا﴾ (١).

= ﴿وَلَوْ تَطَّلَعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦/٦]، ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَفْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرْمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَنْ تَتَّبِعُوا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦]، ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقِينُ مِنَ الْقَوْلِ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦/١٠]، ﴿إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْجِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦/١٠]، ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠/٤٣]، ﴿وَلَا يَدْرِي إِنْ وَدَّ اللَّهُ حَقَّ وَاسْطَاةَ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْ مَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ﴾ [الجاثية: ٢٢/٤٥]، ﴿إِنْ مِنْ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيحُوا أَتَمُّ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [النجم: ٢٣/٥٣].

(١) ﴿وَلَا يَدْرِي قِيلَ لَهُمْ أَتَمُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَسِجُ مَا آفَقْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوَّلُو كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠/٢]، ﴿وَلَا يَدْرِي قِيلَ لَهُمْ مَسَالُوا إِنْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرُّسُلِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوَّلُو كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤/٥]، ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَفْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرْمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا أَنْ تَتَّبِعُوا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦]، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا كُنَّا لَا نَعْلَمُ وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا وَاللَّهُ آمَرًا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى شَيْءٍ قَاتِلُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨/٧]، ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّبِعَ اللَّهَ وَنَعْبُدَ وَنَذَرُ مَا كَانَ يَتَّبِعُ ءَابَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا قَدَّمْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠/٧]، ﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَفْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَيْنِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبِطُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣/٧]، ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَا عَنْ وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا وَنَكُونَ لَكُمُ الْكِرْبَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨/١٠]، ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْْبُدُ هَؤُلَاءَ مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ ءَابَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ لَنَقُولُهُمْ فَيُحْيِيهِمْ غَيْرَ مُتَوَسِّمِينَ﴾ [هود: ١٠٩/١١]، ﴿قَالُوا بِصَلْبِكَ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُومًا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا وَإِنَّا لَكِنَّا شَاكِرُونَ﴾ [هود: ٦٢/١١]، ﴿قَالُوا بِشَيْعَتٍ أَتَمُّ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدَ ءَابَاؤَنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْثَلِنَا مَا نَسْتَعِزُّ بِكَ لَأَنْتَ الْعَلِيُّ الرَّحِيمُ﴾ [هود: ٨٧/١١]، ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِيعُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَذَرُوكُمْ لِخَيْرِ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَلَوْ أَنَّكُمْ إِلَى آجُلٍ تُحْسِنُونَ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَتِ يَعْْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾

• • • • •

[الفصص: ٢٨/٧١]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ مَكْرَمًا إِلَّا بِوَرِّ الْقِيَمَةِ
مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ بِأَيِّكُمْ يَلْبِسُ تَشْكُوتُ فِيهِ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الفصص: ٢٨/٧٢]؛ ﴿وَلَئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ
اللَّهُ بِضَرٍّ هَلْ هُنَّ كَافِفَاتُ ضَرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُمْ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ
عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٣٨]؛ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثَمٌّ
كَافَرْتُمْ بِهِ مَنْ آمَنَ لِمَنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/٥٢]؛ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَنَسِيَ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [المالك: ٦٧/٢٨]، ﴿قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [المالك: ٦٧/٣٠]؛ ﴿أَوَلَيْتَ الَّذِي يُنَادِي
[العلق: ٩٦/٩]، ﴿أَوَلَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْمُنْتَنَ﴾ [العلق: ٩٦/١١]، ﴿أَوَلَيْتَ إِنْ كَذَّبَ ثَوَّتُكَ﴾
[العلق: ٩٦/١٣].

(١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ بِعَذَابٍ بَيْنَنَا أَوْ بَيْنَهُمَا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ بِهِ السَّاجِدُونَ﴾ [يونس: ٥٠/١٠]،
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ مِنْ حَرَامٍ وَحَلَالٍ قُلْ اللَّهُ أَوْتَىٰ لَكُمْ أَدْرَ
عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوْنَ﴾ [يونس: ٥٩/١٠]؛ ﴿قَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/
٧٥]؛ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي
السَّمَوَاتِ أَمْ لَآ تَابِعْتَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْ بَلِّ إِنَّ يُعَذِّبُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُودًا﴾
[فاطر: ٤٠/٣٥]؛ ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ رَّغَمَ عَلَىٰ سَبِيلِهِ وَيَعْلَمُ
عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مَّنْ يَّهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣/٤٥]؛ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا
نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ افْتَرَوْا يُكْتَبُ مِنْ قَبْلِ
هَذَا أَوْ أَتَقَرُّوْنَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مَكِيدِينَ﴾ [الأحقاف: ٤/٤٦]؛ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَآءِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ نَبِيِّهِمْ فَقَامَتِ الْآيَةُ لَكَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠/٤٦]؛ ﴿أَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْأَزْوَاجَ﴾ [النجم: ١٩/٥٣]؛
﴿يَتَقَفَّرُ الْمُنَىٰ وَالْإِنبَىٰ إِنْ اسْتَفْقَمْتَ أَنْ تَفْقَدُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْقَدُوا لَا تَفْقَدُوا إِلَّا
يُحْلَلْنَ﴾ [الرحمن: ٣٣/٥٥]؛ ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨/٥٦]؛ ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا
تَدْعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣/٥٦]؛ ﴿أَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١/٥٦]؛ ﴿أَرَأَيْتَ
الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْآيَاتِ﴾ [الماعون: ١/١٠٧].

(٢) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَافَةُ وَفَلَّوْا حَتَّى يَأْتِيَ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَقَىٰ نَصْرِ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢/١٢١٤] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢/٣] ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ

و﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١)، الرسالة واضحة تماماً: لكي نكون مؤمنين حقيقيين صادقين لابد من تحرير أنفسنا من التصورات والمفاهيم الموروثة، ولا بد من فحص معتقداتنا عقلياً.

يلعب التعلم دوراً جوهرياً في التطور البشري الروحي. يحث القرآن القارئ على التلاوة فيقول له: ﴿اقْرَأْ﴾، و﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. [العلق: ١، ٣، ٤، ٥]. في الحياة، والطبيعة، والتاريخ، والقرآن (آيات) (ودروس) ﴿لِأَوَّلَى الْأَلْبَابِ﴾^(٢). ويبين أكثر من مئة مرة بأنه أنزل ليفصل الآيات.

= يَتَذَكَّرُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [التوبة: ٩/١٦]؛ ﴿الْمُشِيرُ أَمَّا خَلَقْتُمْ عِبَادًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥/٢٣]؛ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤/٢٩]؛ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَجْعَلُهُمْ وَمَنْ يَسْتَأْذِنُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١/٤٥]؛ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَمَزٌ أَنْ لَنْ يَخْرُجَ اللَّهُ أَصْفَتَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩/٤٧].

(١) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٤/٨٢]؛ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤/٤٧].

(٢) ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حِكْمَةٌ يَتَذَكَّرُ الْأَلْبَابُ لَكُمْ تَنْقُوتٌ﴾ [البقرة: ١٧٩/٢]؛ ﴿الْحَسْبُ أَنتَهُرُ مَعْلُومَتٌ مِمَّنْ رَضِيَ فِيهِمْ لَنْجٌ فَلَا رَفْعَ وَلَا سُوءَ وَلَا جَدَالَ فِي الْحَقِّ وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَزُوا فِيكَ خَيْرَ الرَّاوِ الثَّقَوِيَّ وَالْقَوِيَّ يَتَذَكَّرُ الْأَلْبَابُ﴾ [البقرة: ١٩٧/٢]؛ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩/٢]؛ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ فِيهِ آيَاتٌ تُفَكِّكُ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ وَأَنْتُمْ مُتَشَبِّهَاتٌ قَالُوا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ نَجَسٌ فَتَجْعَلُونَ مَا تَحْبِبُ مِنْهُ آيَةً الْوَسْوَ وَالْإِنْفَاءَ وَالْإِنْفَاءَ تَأْوِيلُهُ وَمَا يَسْمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧/٣]؛ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَتَيِّبِ التَّقَاتِ إِنَّهُ تَفَكُّلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرًا بِرَبِّهِمْ وَيَتْلُوهُ رَأَى الْغَيْبِ وَاللَّهِ يُوَفِّيهِمْ مَنْ يَشَاءُ مِنْ ذَلِكَ لَسَبْرًا لَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٣/٣]؛ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَالنَّجَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠/٣]؛ ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْغَيْبُ وَالظَّاهِرُ وَلَوْ أَصْبَحَ كَثْرَةُ الْخَبَرِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ الْأَلْبَابُ لَكُمْ تَنْقُوتٌ﴾ [المائدة: ١٠٠/٥]؛ ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ قَصَصًا حَقًّا الَّذِي يَبْدُو بِكَذِبِهِ وَتَقْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ وَهُلْكَ وَرَحْمَةُ لِقَائِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١/١٢]؛ ﴿أَنَّهُنَّ =

وهكذا فإنه يختبرنا بطرق عديدة^(١).

= الأَمْرُ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَحْشَرُوا أَنْ تَكْفُرُوا بِهِ أَوْ تُبَدِّلُوا إِلَهُ أَلِهِيكُمْ ذَلِكَمْ
أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحِيرَةً كَاشِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ
فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْفُرُوا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَاعُوا
فَلَا تَنْسُوا بَيْنَكُمْ وَأَتُوا اللَّهَ رِعَايَتَكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ يَكْفُلُ عَنْهُ عَالِمٌ [البقرة: ٢/٢٨٢]؛
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرَزَقَهُمُ
وَرِزْقَهُمْ وَلِيَّائِهِمُ الْكِتَابَ وَالْحِسَّةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَيْ سَافِلِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٦٤]؛
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ
تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/١١٣]؛ ﴿قَالُوا نُزِذُ أَنْ نَأْكُلَ مِنَّا
وَنَقْلَمِينَ فَلَوْ بَدَأَ قَوْمًا أَنْ قَدْ مَدَقْنَا وَكُنُوا عَلَيْهَا مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [المائدة: ٥/١١٣]؛
﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمُ طَعَامٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَّا تَبَايَعْتُمْ يُتَوَلَّوْهُ قِيلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ذَلِكَمَ مِمَّا عَلَّمْنِي رَبِّي إِنْ
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٣٧]؛ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا
مِنْ عِبَادِنَا عَلَيْهِ رَحْمَةً مِنْ رَبِّنَا وَطَلَبْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عَلَمًا﴾ [الكهف: ١٨/٦٥]؛ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ
صَنْعَةَ لَبِيسٍ لَكُمْ لِنُخِصَّنْكُمْ مِنْ أُولِي الْبَأْسِ قَدْ قَبِلْتُمْ شُكْرَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٠]؛ ﴿عَلَّمَهُ
شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥٣/٥]؛ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ٥٥/٢]؛ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾
[الرحمن: ٥٥/٤]؛ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَرِزْقَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَيْ سَافِلِينَ﴾ [الجمعة: ٦٢/٢]؛ ﴿الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ ۖ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَّمًا﴾ [العلق: ٤/٩٦-٥].

(١) ﴿وَإِذْ خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَارٍ فَزَعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ يُدَبِّقُونَ أَثْقَالَكُمْ وَيَسْتَعْيِرُونَ زِينَتَكُمْ وَفِي
ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/٤٩]؛ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشِدَّةٍ مِنَ الْفَقْرِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ
مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّوَارِثِ وَبَشِيرٍ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/١٥٥]؛ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ
وَعَدَهُ إِذْ تَحَضَّرْتُمْ بِأَذْيَابِهِ حَتَّى إِذَا قِيلَ لَهُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَصَحَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا
أَرْنَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ مَرَرْنَاكُمْ
عَنْهُمْ لِيَبْلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٢]؛
﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَدٍ أَمَّا لِمَا بَشَرْنَا بِكُمْ وَمَا كُنَّا عَالِمِينَ قَدْ أَهْمْتُمْ
أَنْفُسَهُمْ يَطْلُبُونَ بِاللَّهِ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ
كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانِ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا
قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ
وَلِيَخْصِصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٤]؛ ﴿لَنَبْلُوَنَّكُمْ فِي

[illegible]

وبما أن الحياة على الأرض قد صُورت كمرحلة تربية تعليمية من مراحل خلق الإنسان، فليس غريباً أن يُلوّن يوم القيامة، كما هو موصوف في القرآن باللون الأكاديمي. إنه لا يختلف عن نهاية فصل دراسي أو عن يوم التخرج في الجامعة. إذ سوف يصنف البشر إلى ثلاث فئات ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ (٧) فَأَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ۖ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ۝ (٨) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ (١٢) ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ (١٥) مُّتَّكِفِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۝ (١٦) يُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدَنٌ مُّطَهَّرُونَ ۝ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ (١٨) لَا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ وَلَا يَسْتَفْخِرُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفَرُونَ ۝ (١٩) وَفَكَهَنُوا مِنَّمَا يَتَخَضَّعُونَ ۝ (٢٠) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَاقِبُ يُنَادُونَ ۝ (٢١) وَهُمْ فِيهَا فِيهَا لَوَاقِحٌ ۝ (٢٢) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ (٢٣) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۝ (٢٤) وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ۖ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝ (٢٥) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ (٢٦) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ (٢٧) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ (٢٨) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ۝ (٢٩) وَفَكَهَنُوا كَثِيرًا ۝ (٣٠) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝ (٣١) وَفُورٌ مَّرْقُوعَةٍ ۝ (٣٢) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً ۝ (٣٣) يُجَالِسْنَ أَبْنَكَارًا ۝ (٣٤) عُرَىٰ أَرَاكًا ۝ (٣٥) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ۝ (٣٦) ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ (٣٧) وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝ (٣٨) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ۖ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝ (٣٩) فِي سَمُورٍ وَحِمِيرٍ ۝ (٤٠) وَظِلٍّ مِّن يَمِينٍ ۝ (٤١) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝ (٤٢) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝ (٤٣) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَىٰ لَغْوِ الْعَظِيمِ ۝ (٤٤) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ (٤٥) أَوَ مَا بَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝ (٤٦) قُلْ إِنَّكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝ (٤٧) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِقْدَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ۝ (٤٨) ثُمَّ إِنَّكُمْ إِنِّي أُنَاقِلُونُ الْكَذِبُونَ ۝ (٤٩) لَأَكُونَنَّ مِن شَجَرٍ مِّن دَقْقٍ ۝ (٥٠) قَالَتِ ابْنَتَا الْبَطُونِ ۝ (٥١) فَتَنِيُونِ عَلَيْهِ مِن لَّغِيمٍ ۝ (٥٢) فَتَنِيُونِ شَرِبَ الْإِيمِرِ ۝ (٥٣) هَٰذَا تَزَلُّمٌ يَوْمَ الدِّينِ ۝ (٥٤) [الواقعة: ٥٦/٧-٥٦]: السابقون السابقون في الإيمان، وهم الذين يفوزون بفضل استسلامهم وخضوعهم لله، ولذلك سيكونون الأقربين لله، ثم أصحاب اليمين؛ وهم الذين عملوا من الصالحات في الدنيا

= وَلَوْ أَنَّهُ اللَّهُ لَأَنْتَمَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَّبَطَلَا بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُبَدِّلَ أَعْمَالُكُمْ [محمد: ٤٧/٤]، ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ حَتَّىٰ تَخْرُجُوا إِلَىٰ الْغَيْبِ سِرًّا وَالْمُتَّقِينَ يُبَلِّغُوا لَكُمْ الْخَبْرَ﴾ [محمد: ٤٧/٣١]؛ ﴿إِلَىٰ عِلَاقِ النَّوْتِ وَالْحَيَاةِ يُبَلِّغُكُمْ إِلَيْكُمْ أَمْسَنَ عِلَاقًا وَهُوَ الْمَرْيُ الْقَوْرُ﴾ [الملك: ٦٧/٢]؛ ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْبَيْتِ إِذْ أَقْبَمُوا بِمِثْلِهَا مُصِيبِينَ﴾ [القصم: ٦٨/١٧]؛ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن طَلْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّئًا يَّعِيدًا﴾ [الإنسان: ٧٦/٢]؛ ﴿وَأَنَّا إِذَا مَا ابْنَكُهُ فَقَدَرْنَا مَقِيَّةً يَقُولُ رَبِّ أَهْتَنِي﴾ [الفجر: ٨٩/١٦].

ما يؤهلهم لدخول الجنة، ولكنهم لم يبلغوا مستوى الامتياز والفوز الذي بلغه السابقون. ثم أصحاب المشأمة وهم الذين أخفقوا في الدنيا وسوف يعانون في الحياة الآخرة. وسوف يعرض سجل الأعمال، لا يترك صغيرة ولا كبيرة. وسيهلع المذنبون في هذه اللحظة عندما يدركون مصيرهم ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رِيكًا أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩/١٨]. إذ ستكون يومها وجوه الذين خابوا في الحياة الدنيا خاشعة، عاملة، ناصبة، أما وجوه الذين أفلحوا في دنياهم فستكون ناعمة لسعيها راضية ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ وَجُوهُ يُورِثُهَا خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝ فَتَلَّهَا نَارًا حَالِيَةً ۝ تُثْقَلُ مِنْ عَيْنٍ عَابِثَةٍ ۝ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ لَا يَسِينُ وَلَا يَقْنِي مِنْ جُوعٍ ۝ وَجُوهُ يُورِثُهَا نَاعِمَةٌ ۝ لَيْسَ بِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ لَا تَتَّعِبُ فِيهَا لَمِينَةٌ ۝ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝ وَزَكَرَاتُ غُلَامٍ ۝ وَنُفُوسٌ مُتَوَكِّلَةٌ ۝ وَالْغَاشِيَةُ: ١/٨٨- ١٦. وسوف يؤتى المفلح، كتابه بيمينه في الآخرة ويقول ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾؛ أما الخاسر فسوف يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره ويقول ﴿يَلْبِسُنِي لِرَ أَوْتٍ كِتَابِي﴾، ﴿فَإِنَّمَا مِنْ أَوْتٍ كِتَابِي بِيَمِينِي﴾ فيقول ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ ﴿إِنِّي كُنْتُ أَنَّى مَلَكِي حَسَابِي﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُلُوبُهَا دَآئِبَةٌ ۝ كَلُوا وَآشْرُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّآئِلَةِ ۝ وَإِنَّمَا مِنْ أَوْتٍ كِتَابِي بِشِمَالِي﴾ فيقول ﴿يَلْبِسُنِي لِرَ أَوْتٍ كِتَابِي﴾ ﴿وَلَرَّ أَذْرٍ مَا حَسَابِي ۝ يَلْبِسُنَا كَانَتْ الْقَاضِيَةُ ۝ مَا أَفْقَى عَنِّي مَالِي ۝ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۝ خَذُوا قُلُوبَهُ﴾ [الحاقة: ١٩/٦٩-٣٠]؛ و ﴿أَوْنَا لَتَرُدُّوْنَ فِي الْخَافِرَةِ﴾، ﴿فَإِنَّمَا مِنْ أَوْتٍ كِتَابِي بِيَمِينِي﴾ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَنَنقَلِبُ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ مَسْرُورًا ۝ وَإِنَّمَا مِنْ أَوْتٍ كِتَابِي وَرَاءَ ظَهْرِي ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرًّا﴾ [الانشقاق: ٧/٨٤-١١].

يستخدم القرآن وسائل أخرى لتشجيع مقارنة الإيمان مقارنة عقلية ومنطقية. إن الحافظ العام في القصص هو الجدال الكبير بين النبي أو المؤمن والمعارضين، مع اكتساب المنطق اليد العليا. وقصة إبراهيم تشتمل على كثير من هذه المواجهات^(١). فعندما قال إبراهيم للطاغية: إن ربه هو الذي يحيي ويميت،

(١) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زِدْ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي آنَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ١١]

١٧٤/٦: ﴿وَذَكَرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَاحِبًا نَبِيًّا ١٦١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَبْتَائِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ١٦٢ يَبْتَائِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْإِلَهِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْلَكَ صِرْطًا سَوِيًّا ١٦٣ يَبْتَائِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ١٦٤ يَبْتَائِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَسْكَدَ عَذَابِي مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ١٦٥ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ نَادِيًّا بِكَ بِإِزْمِهِمْ لَبِثَ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجِعَنَّ وَأُخْبِرَنَّ مَلِيًّا ١٦٦ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ١٦٧ وَأَعِزَّنِي لَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شُعِيًّا ١٦٨ فَلَمَّا أَعَزَّنَاهُمْ وَمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ١٦٩ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ١٧٠﴾ [مريم: ١٩/٤١-٥٠]: ﴿وَلَقَدْ مَآئِنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُودًا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلَىٰ عِلِّيِّينَ ١٧١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقُلُوبُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ١٧٢ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْكَ لَهَا عَابِدِينَ ١٧٣ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٧٤ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِآلِهَةٍ أَمْ أَنْتَ مِنَ الضَّالِّينَ ١٧٥ قَالَ بَلْ زَكَّيْتُ رَبِّي النَّصُورِ وَالْأَرْضِ الَّتِي فَطَرْتُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذِكْرِ مِنَ الشَّاهِدِينَ ١٧٦ وَقَالُوا لَا كِبِدْنَاكَ بَعْدَ أَنْ تُولَدَ مُدْرِينَ ١٧٧ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذَاًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ١٧٨ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ١٧٩ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ١٨٠ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ١٨١ قَالُوا يَا نَذَّلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا بِإِزْمِهِمْ ١٨٢ قَالَ بَلْ فَكَلَّمَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَنَّا لَهُمْ إِنْ كَانُوا يُطْفِقُونَ ١٨٣ فَرَجَعُوا إِلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ فَفَالُوا إِيَّاهُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ١٨٤ ثُمَّ لَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ حَلَمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِفُونَ ١٨٥ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ١٨٦ أَوْ لَكُم بِهِمْ قَبِيلٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَلَا تَقُولُوا ١٨٧ قَالُوا حَقُّهُ وَأَصْرُوا إِلَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ نَبِيِّينَ ١٨٨ فَلَمَّا يَنْتَازِ كُرْبَىٰ وَسَلَّمَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ١٨٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ١٩٠ وَنَبَّيْنَاهُ وَلَوْلَا إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١/٢١-٧١]: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٢١٥﴾ قَالُوا تَعْبُدُ آثَانَا فَتَقُلُ مَا نَقُلُ ٢١٦ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ٢١٧ أَوْ يَبْصُرُونَكَ أَوْ يَعْلَمُونَكَ أَوْ يَعْلَمُونَ ٢١٨ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٢١٩ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْلَامُونَ ٢٢٠ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْمَالِكِينَ ٢٢١ أَلَيْسَ خَلْقِي فَهُوَ حَبِيبٌ ٢٢٢ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِي ٢٢٣ وَلَئِنْ مَرَضْتُ فَهُوَ يَئْتِينِي ٢٢٤ وَالَّذِي يُبْسِئُ لِي بِحَبْلٍ ٢٢٥ وَالَّذِي أَلْطَمَ أَنَّهُ يَفْعَلُ لِي خَلِيقًا يَوْمَ الْآزِيمِ﴾ [الشعراء: ٧٠/٢٦-٨٢]: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُعْلَمِينَ ٢٢٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّكَ مِنَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِنَّهُ إِلَهُكُمْ ٢٢٧ وَلَهُ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْبَيِّنُ

قال الطاغية : إنه هو الآخر يحيي ويميت ، فزجّه إبراهيم في زاوية حرجة ، إذ قال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨/٢] . وبالإسلوب ذاته ، عندما اتهم زعماء القوم إبراهيم بتحطيم آلهتهم - وهو الذي حطمها فعلاً - وطلبوا منه أن يبين من فعل ذلك ، أشار إبراهيم إلى كبير الأصنام الذي لم يكسره ، فأدركوا على الفور ورطتهم المنطقية ؛ لأنهم لو اعترفوا بأن بيان إبراهيم مضحك ومدعاة للسخرية ، لكانت عبادتهم لهذه الآلهة المصنوعة بأيديهم مدعاة للسخرية كذلك ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿ ٥٢ ﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿ ٥٣ ﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿ ٥٤ ﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿ ٥٥ ﴾ قَالَ بَلْ زَجَّيْتُ رَبِّي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿ ٥٦ ﴾ وَقَالُوا لَا كِبِدْ أَصْنَعْتَكَ بَعْدَ أَنْ تُولَدَ مُدْبِرِينَ ﴿ ٥٧ ﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كِبْرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿ ٥٨ ﴾ قَالُوا مَنْ فَجَلَ هَذَا بِإِلَهِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿ ٥٩ ﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿ ٦٠ ﴾ قَالُوا فَأَتَوْا بِهِ عَلَىٰ آتِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿ ٦١ ﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلَهِنَا يَا ابْنِ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ٦٢ ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ

= ﴿ ٦٣ ﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿ ٦٤ ﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ الْآخِرَةُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ ٦٥ ﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَةٍ وَمَنْ يَشَاءُ رَزَقْنَاهُ قُلُوبًا ﴿ ٦٦ ﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿ ٦٧ ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَكُونُ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ٦٨ ﴾ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَمْسَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿ ٦٩ ﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ يَتَلَامِئُ الْمُكَفِّرُونَ بَعْضُهُمْ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ ﴿ [المنكوث : ١٦/٢٩ - ٢٥] ﴾ ﴿ ٧٠ ﴾ مِنْ شِعْبِهِ إِبْرَاهِيمَ ﴿ ٧١ ﴾ إِذْ جَاءَهُ وَدُّهُ يَقُولُ سَلِّمْ عَلَيَّ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿ ٧٢ ﴾ أَفَبِكُلِّ عَالَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿ ٧٣ ﴾ فَمَا عَلَيْكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ٧٤ ﴾ فَظَنَرَ نَغْرَهُ فِي الْأُسُجُودِ ﴿ ٧٥ ﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿ ٧٦ ﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿ ٧٧ ﴾ فَرَأَىٰ إِلَهُ الْبَنِينَ فَقَالَ آلَا تَأْكُلُونَ ﴿ ٧٨ ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿ ٧٩ ﴾ فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ سَمًّا بِالْبَيِّنِ ﴿ ٨٠ ﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرُونَهُ ﴿ ٨١ ﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿ ٨٢ ﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَسْمَعُونَ ﴿ ٨٣ ﴾ قَالُوا أَبْنَاؤُا لَنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْغَيْبِ ﴿ ٨٤ ﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿ [الصافات : ٨٣-٩٨] .

هَذَا فَسْتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٧٦﴾ فَرَجَعُوا إِلَيْ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٧٧﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٧٩﴾ أَمْ أَنْتُمْ لَكُمْ عِبَادَةٌ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٨١﴾ قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفٍ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٨٢﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٨٣﴾ وَجَعَلْنَاهُ نَازِلًا وَقَوْمًا إِلَى الْأَرْضِ أَلْقَى بَرَكَاتٍ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٩].

ويضرب القرآن باستمرار الأمثال ويستخدم الأمور المتناقضة ظاهرياً، لبيان الأخطاء الشائعة في تفكيرنا. ويضرب لنا المثل الآتي على كيفية استخلاص النتائج المغلوطة، بناء على دليل ظرفي. والتشابه المضروب هو الكلب ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦/٧].

فالمفكر المهمل ربما يصر على أنه ينبغي لكل الكلب الذي يلهث مادامت الكلاب تلهث في مثل هذه الحالة، دون أن ينتبه إلى أن الكلاب تلهث أيضاً، وإن تركت بحالها دون أن يركلها أحد.

وبين القرآن في سورة الكهف كيف يجادل الناس في تفاصيل تافهة:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادُسُهُمْ كَلْبُهُمْ وَهُمْ بِالْغَيْبِ سَاقِلُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِبَادِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢/١٨].

وفي حكاية موسى مع الخضر ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُنَبِّئُكَ حَقَّ أَنْبَأٍ مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمَضَى حُقْبًا ﴿١٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسَاء حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿١١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِّيَا غَدَاةَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿١٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّيْنَا إِلَى الْصَخْرَةِ فَوَاقِي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَكْسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آمِنًا رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿١٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَنْبَأَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّا عَلِمْتَ رُشْدًا ﴿١٦﴾ قَالَ إِنْكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٧﴾ وَكَيْفَ نَصْبِرُ عَلَى مَا نَرَى يُحِطُّ بِهِمْ خَبَرًا ﴿١٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا

﴿٦٦﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٦٧﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ أَلَمْ أَنْتَ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ لَا تُؤَلِّمُنِي بِمَا نَيْسْتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٠﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾ قَالَ أَلَمْ أَنْتَ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٣﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْرِحْ فَمَاذَا بَلَغْتَ مِنَ لَنِِّ عَذْرًا ﴿٧٤﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَمَدَدْتَ عَلَيْهِ جَنَاجِرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٦﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُعْيَبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٧﴾ وَأَمَّا الْكُلْبُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٧٨﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿الكَهْف: ٦٠-٨٢﴾ يضرب الله مثلاً على معاناة البشر ويبين أن موسى، مثله كمثل غالبتنا نحن البشر، يقفز مراراً إلى استنتاجات مغلوطة مبنية على دليل غير كاف.

ربما يكون المثال الآتي المتعلق بأصل الشر أكثر الأمور التي يطرحها القرآن تناقضاً ظاهرياً: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدِينَ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٨-٧٩].

المسألة التي يريد القرآن إبرازها هنا هي أن كل شيء من عند الله في النهاية، حتى مقدرة الإنسان على فعل الشر والخوض فيه. ومع ذلك فما دام الله قد وهبنا مقدرة اختيار وفعل، فإن ذلك الخيار في النهاية هو خيارنا. وعندما نختار القيام بعمل خير، بأننا نكسب -بدلالة نمونا الشخصي- المنافع الناجمة عن ذلك الخير، وأن هذه المنافع من عند الله، وبفضل الطريقة التي

خلق الله بموجبها شخصية الإنسان. وعندما نختار الشر فإننا نحرم أنفسنا من المنافع الشخصية التي يمكن أن نحصل عليها، بل نؤذي أنفسنا، وبالمقابل فإن الشر الحقيقي الذي نعاني منه - وهو التدمير الذاتي - إنما حصل بأيدينا.

وهناك مظهر آخر من مظاهر القرآن التي تميز صفته العقلية والمنطقية هي أن فيه حوارات عامة وما يدحضها بالبينة والحجة. ولا بد أن نلاحظ أن هذه المجادلات ذاتها ما زالت تدور اليوم في دوائر عديدة. فالرأي القائل بأن القرآن قد ابتدعه شخص ممسوس، أو ابتكره من عقله ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِجْنٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤/٧]؛ ﴿فَسَتْبِعْهُ وَبَصُرُونَا ۖ يَأْتِيَكُمْ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦٨-٥/٦٨]؛ ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢/٨١] أو أنه تزوير ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧/١٠]؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١١/١٣] دحض القرآن بتحدي المرجفين بعمق بيانه الذي لا يضاهي، وبتماسكه الذي لا يماثله تماسك وانسجام، وبفصاحته التي لا تجاريها فصاحة.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣/٢].

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢/٤].

فهذا القرآن كتاب لا يقدر على مثله غير الله، بل بالعكس هو تأكيد للوحي الذي أنزل من قبله، وبيان أكثر تفصيلاً للكتاب - لا ريب فيه - من رب العالمين.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧/١٠-٣٨]؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧/١٠-٣٨].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١١/١٣].

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ آلَافٌ وَآلَافٌ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨/١٧].

إن تنويه القرآن بفصاحته العربية الفائقة، يعد دحضاً للتهمة القائلة: إن رجلاً أعجمياً مسيحياً أو يهودياً هو الذي علم محمداً ولقنه الكتاب ﴿وَلَقَدْ تَمَلَّأْنَاهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣/١٦].

ودفعاً للادعاء بأن محمداً لم يكن مخلصاً، وأنه كان يسعى لذاته، يؤكد القرآن أنه يمجّد الله ويسبحه وحده ولا يسأل لقاء ذلك في الدنيا أجراً للنبي^(١). بل على العكس، يؤكد القرآن الحقائق الأخلاقية والروحية فيما أنزل من وحي قبله، بحيث لا يستطيع اليهود ولا النصارى اتهام القرآن دون أن يتهموا كتبهم.

خطأ ما، في هذه الصورة

إن الأهمية التي يوليها القرآن للعقل سعياً للوصول إلى الإيمان تعد مذهلة، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما القرآن أول مرة^(٢). إن شبه الجزيرة العربية كانت في تلك الأيام، وبكل المقاييس،

(١) ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ لِي رِزْقاً سَيِّئاً﴾ [الفرقان: ٥٧/٢٥]؛ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبا: ٣٤/٤٧]؛ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ﴾ [ص: ٨٦/٣٨]؛ ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ هَامُوا وَغَلَبُوا الصَّالِحِينَ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرِضْكُمْ حَسَنَةً فَرِّدْ لَهَا فِيهَا حَسَنَةً إِنَّ اللَّهَ يَفْقَهُ شُكْرَهُ﴾ [الشورى: ٢٣/٤٢].

(٢) حتى في العصر الحديث يعد إصرار القرآن على أن العلم ضروري للدين تصوراً راديكالياً. إذ إن صراع العقل والدين قد أصبح أمراً بدعياً في الفكر المعاصر، وليس أن مثل هذا الصراع قد تمت (برهنته) بمعنى أنه قد تبين بصورة قياسية أن الإيمان بالله يقود دائماً إلى تناقض منطقي، بل إن هذا الصراع يعد مفهوماً إذا تولد عن طريق التجربة التاريخية والخبرة الشخصية. فلدينا - من جهة - تاريخ طويل من اضطهاد الفلاسفة والعلماء من قبل المؤسسة الدينية؛ ومن جهة أخرى، لدينا الإحباط العام الذي حل بالعقلانيين العاجزين عن الحصول على إجابات مرضية عن أسئلتهم اللاهوتية. لذلك

بعيدة عن كونها موطناً للتعلُّم أو الفلسفة. كان العرب قساة، فقراء، أميين، غير مثقفين، يصارعون دائماً ببيتهم الفاسدة، ويتصارعون فيما بينهم على ما يمكن أن يمد حياتهم بأود العيش. وإذا كانت الأديان الكبرى الأخرى في العالم ظهرت في مجتمعات متطورة ومشذبة، فقد ظهر القرآن أول مرة فيما يمكن وصفه بحق صحراء ثقافية. ويتفق المؤرخون على أن العرب كانوا بدائيين، ليس لديهم ميراث فني أو أدبي أو علمي يستحق الذكر. لم يكن لهم مذاهب فلسفية ولا أعمال فنية بصرية أو أدبية بارزة؛ ولم يكونوا على علم بالرياضيات العالية، وليس لديهم كتاب إلهي أو كتابات مقدسة. لم يعرفوا أي شكل من أشكال الفن المتطور سوى الشعر الذي كانوا يتداولونه شفويًا. . في مثل هذه البيئة لا يتوقع أن تنتج عملاً يمثل هذه العبقرية وهذه القوة الأدبية. ربما نفترض أن نضجاً ثقافياً تدريجياً قد حصل على مدى طويل قبل ظهور القرآن.

ليس لدينا ما يدل على أن محمداً قد تلقى تعليمًا رسمياً. ربما يكون قد قاد رحلات من القوافل في العشرينات من عمره، بيد أن ذلك لا يهيئ له فرصة تنمية مهاراته الفكرية إلى مثل هذا المستوى. فأسلوب القرآن كله، وتأكيده على العقل، وانسجامه المنطقي، واستخدامه العبقرى للغموض والرمزية، وجماله، وإيجازه، كل ذلك يوحي بأن مؤلفه ذو بصيرة وحكمة أنت من وراء حدود شبه الجزيرة العربية البدائية المتخلفة المعزولة حينذاك.

ظننت أنه اجتمع للقرآن أكثر من مؤلف واحد، ولكن، خلافاً للكتب المقدسة الأخرى، ليس فيه ما يؤيد ذلك. إذ من الواضح أن الشخصية الكامنة وراء الوحي هي واحدة وانسجامها عظيم جداً، لدرجة أنه لا يمكن أن يكون عملاً جماعياً، كما يقول الكتاب المقدس.

= من الأدق والأصوب القول: إن العقل والإيمان قد استخدما دائماً ضد بعضهما البعض بدلاً من القول: إنهما بالضرورة متناقضان. هنالك اليوم، في التراث التوحيدي، من يُصرّ على وحدة العقل والإيمان. ولا بد من بيان أن غالبية مسلمي اليوم، خصوصاً علماء الدين، مدركون للمقاربة العلمية إلى الإسلام ويعونها. يبدو أنهم يعتمدون على التراث أكثر من اعتمادهم على العقل. ليست هذه هي الحال دائماً في العالم الإسلامي، خصوصاً في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

[النساء : ٨٢/٤].

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَلَوْ

كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء : ٨٨/١٧].

إن التفسير الوحيد الذي توصلت إليه هو أن محمداً؛ هو أعظم عبقرية بشرية؛ لأن التاريخ قد عرف موهوبين بصورة فائقة، ولكن أحداً لم يستطع تجاوز الزمان والمكان مثل محمد، فأنشتاين كان عالماً فيزيائياً مذهلاً؛ بيد أن تطويره لنظرية النسبية كان مسبوقاً لقرون من الاكتشافات في علم الفيزياء تسير كلها في هذا الاتجاه. فلو لم يتوصل أنشتاين إلى النظرية النسبية لتوصل إليها أحد أقرانه، ربما بعده بوقت قصير. وبراين أندرو وايلز (Andrew Wiles) الحديثة على نظرية فيرمات (Fermat) الأخيرة يعد إنجازاً رائعاً، إلا أن مئات من سنوات التقدم في الرياضيات والعمل في هذه المسألة أسهمت في وصوله إلى هذا الحل. وكان كل من موزارت وكوخ. وشكسبير شخصية استثنائية، لكن أعمالهم قامت على اتجاهات ضمن بيئتهم الثقافية وعكستها. أما ظهور القرآن المفاجئ في الحجاز فيبدو كأنه شجيرة ورد تظهر فجأة كاملة التفتح في أكثر قطاعات الربيع الخالي من شبه الجزيرة العربية قحطاً.

شعرت أن لو كان محمد هو مؤلف القرآن لكان إلى جانب كونه ألمع عقل في التاريخ، شديد الورع والإخلاص والغيرة؛ إذ يعد القرآن أصفى وأنقى شهادة على التوحيد في الوجود، ويبيدي التزاماً عاطفياً رحيماً عميقاً بمساعدة البشرية، يرشد الرجال والنساء إلى محبة الله والحياة الورعة. ويبدو كذلك أن النبي كان متواضعاً ناكراً للذات بصورة ملحوظة؛ لأن الكتاب يؤكد على أن محمداً ليس سوى واحد من الناس، وأن دوره لا يعدو إيصال الرسالة، وأنه لا يتمتع بقوى خارقة، وأنه كغيره من بني البشر، عليه أن يدعو ربه كي يهديه ويغفر له^(١)، وينتقده القرآن ويقومه في مناسبات عديدة.

(١) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام : ١٠٧/٦]؛

خيار صعب

أذكر ذات يوم من أيام السنة الخامسة، في أثناء درس الديانة، عندما كنا نتلو بصورة جماعية نصوصاً من كتاب الديانة، أتينا إلى عبارة تقول: «العقيدة الكاثوليكية هي الدين الصحيح الوحيد» فرفعت يدي، فقالت الأخت بيرناديت (Bernadette): «نعم، يا جيفري؟» قلت لها: «ألا تقول لنا كل معلمة ديانة إن دينها هو الدين الوحيد الصحيح؟ أعني أنني لا أتصور أن تقول لنا: إن ديناً آخر هو الدين الوحيد الصحيح. فكيف نعرف أي دين هو الصحيح؟».

حملقت الأخت بيرناديت في وجهي شاردة مدة ثانيتين، ثم قالت ببطء وحذر: «سوف أسأل الأب هانوفر (Hanover) عن ذلك، وأعود إليك».

لم تعد إلي أبداً، وربما تكون قد نسيت الموضوع كله. لم أطرح السؤال ثانية، ولكنه ظل يؤرقني.

قال لي أحد الأصدقاء ذات يوم: «كلما كبر العقل، ازدادت الخيارات صعوبة»، ويبدو أن القرآن يوضح هذه النقطة في قصة أول زوجين [البقرة ٢/٣٠ - ٣٩] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكِئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾ قَالَ يَكَادُمُ الَّذِينَ هُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ وَقُلْنَا يَكَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ جِزْنٍ ﴿٣٧﴾ فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٨﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٠﴾﴾. إذ ما إن توطد تفوق البشرية بذكائها على الملائكة حتى أعد القرآن المسرح لبيان أول عرض للإرادة

الحررة التي يتمتع بها الزوجان: آدم وحواء. فبين أن البشر سيكونون عرضة لوسوسة الشياطين وإيحاءات الملائكة، وأن حالتهم في الآخرة تتقرر بناء على خياراتهم التي يقومون بها الآن. ومن المعقول جداً أن تكون الإرادة البشرية قد ظهرت مباشرة بعد عقل الإنسان، لأنه لا يمكن لأي منهما أن يكون دون الآخر. فالذكاء لا يمكن أن يستخدم من دون اختيار، والاختيار عمل فكري.

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦/٢].

يؤكد القرآن ضرورة أن يكون الإيمان طوعياً. فالإيمان الصحيح خيار. وينبغي أن يكون إرادياً وعقلياً؛ لأنه ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦/٢]. يؤكد القرآن أن الله قادر على أن يجعل الناس أمة واحدة، ويجعل دينهم ديناً واحداً، ولكن، لله في خلقه شؤون أخرى.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨/٥].

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمُلْكُ الْكَافَّةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩/٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩/١٠].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣/٣٢].

يستطيع الله أن يجعل البشرية متجانسة مؤمنة به - كل فرد من أفرادها نسخة روحية عن الآخر - ولكنه بدلاً من ذلك منحنا الطاقة الفكرية للاختيار ومكننا من ممارسة خياراتنا لغاياتها المتوقعة بصورة طبيعية. وعلى الرغم من أن خياراتنا يمكن أن تؤثر في الآخرين، فإننا نحن المستفيدون الأساسيون منها.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤/٦].

﴿وَأَن آتَلُوا الْقُرْآنَ فَأَنَّىٰ أَسْمَأُ فَلَئِمَّا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [النمل: ٩٢/٢٧].

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْتْ فَلَيْفَسِيدٌ وَمَنْ صَلَّ فَإِنَّمَا يَنْفِلُ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر: ٤١/٣٩].

ربما يبدو من الآيات المقتبسة آنفاً أن الناس - رجالاً ونساء - أحرار تماماً، وأن الله يترك العالم يسير في مساره دون تدخل. وعلى الرغم من إلحادي فإنني أود لو يكون هذا هو موقف القرآن، بيد أن الأمر ليس كذلك، بالتأكيد. إذ يقول لنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، بحيث لا يحدث شيء من دون إذنه، وإنه يؤثر في مفهومات الناس وتقديراتهم ويهدي المؤمنين، ويتيح للكافرين أن يضلوا، ويدير الدراما البشرية، بحيث يضع الأفراد في مواقف حرجة أو يُعرضهم للامتحان. ولذا فإن قدرة الله على الخلق - كما في القرآن - كله شاملة، بحيث يترك انطباعاً بأن ما من شيء يحدث مصادفة، وأن في صميم كل مواجهة أو حدث دينوي فرصاً إلهية للنمو الروحي. وعلى الرغم من أن القرآن يؤكد أن الناس أحرار فيما يختارون، فهم ليسوا مستقلين كما يظنون. إذ تُهيأ لهم الفرص دائماً ليمارسوا اختياراتهم الأخلاقية والروحية.

ربما يكون وهم الاستقلال هذا ضرورياً لنمو البشرية وتعلمها، لأننا لو أدركنا باستمرار حضور الله المهيمن فسيكون من المستحيل تقريباً أن يحصل إغواء أو أن يحدث نمو روحي. إذ من الأسباب التي تجعل الخيار بين فعل الخير وفعل الشر ممكناً جزئياً ظننا أننا بعيدون عن الله. ومن ثم فإن أول إغواء للزوجين حصل في الجنة عندما نسيا الله.

وبالمثل فهما عندما كانا جاهزين للانتقال إلى المرحلة الثانية من الخليقة، قال الله لهما: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ مشيراً إلى أنهما سينفصلان عن الله. ومع ذلك ينبئنا القرآن الكريم أن الله دائماً معنا في واقع الأمر: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦/٢]. ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رِيشٌ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبا: ٥٠/٣٤]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَرْتَوِي بِهِ فَتَسْمِعُهُ نَحْنُ

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦/٥٠﴾. ﴿قُلْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُمُومَ ﴿١٧﴾ وَأَنْتُمْ حِينِلٌ
نَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾ وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُحَيْرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥].

إن وهم الاستقلال الذاتي يعزز ويقوي مقدرتنا على الاختيار والتعلم من تجارب الحياة. ويتيح لنا فرصة تطبيق ما نتعلمه بصورة مستقلة. فللتعلم - سواء كان داخل الصف أم خارجه - مرحلتان جوهريتان: التعليم والتجربة، وتصل المعرفة إلى مستوى آخر عندما توضع تحت الاختبار. ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالسَّرَاةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ ﴿١٩٩﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦]. ﴿لَتَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَمُوتُنَّ مِنْ الَّذِينَ آوُوا إِلَيْكُم مِّن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَلَئِن قَصَرْتُمْ وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَذَابِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦/٣]. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَكُم فَاسْتَفِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨/٥]. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَكُم﴾ [الأنعام: ١٦٥/٦]. ﴿وَقَطَعْنَاهُ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَلَيُؤْتِيَنَّهُم بِلُحُسْنِ الْأَسْمَاءِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨/٧]. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَا لَبِئْتُمْ بِهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧/١٨]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥/٢١]. ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدُو إِلَيْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠٠﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَكْثَرُ لَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١/٦٧-٢].

يتعزز إدراكنا بالاستقلال الذاتي بفضل إحساسنا بالزمن الذي يتيح لنا الشعور بأن نتائج اختباراتنا الشخصية ولقائنا مع الله في الآخرة بعيدة فيما يأتي من الزمان. ومن ثم لا نشعر فقط أننا بعيدون عن الله مكاناً، بل زماناً أيضاً. ومرة أخرى فإن القرآن ينبئنا، على أي حال، أن إدراكنا للزمن ليس حقيقياً من ناحية موضوعية، وسوف ندرك ذلك عندما ندخل الحياة الآخرة. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ

يَزُونَهَا لَوْ يَسْأَلُونَ إِلَّا عَنِّيَ أَوْ حَتَّىٰهَا [النازعات: ٤٦/٧٩]. ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّرَ يَلْشُرُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥/١٠]. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِجَسَدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢/١٧]. ﴿يَتَخَفَتُونَ يَتَنَبَّهُونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٣٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٣/٢٠-١٠٤]. ﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٣٣﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَنَّا آلَ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٤﴾ قَالُوا إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢/٢٣-١١٤].

فالزمن الذي ندرکه إذن هو وهم آخر من أوهام هذه الحياة. فما يعد بطيئاً وسيراً تاريخياً عنيداً ليس إلا ومضة عين عند الله^(١). وعلى الرغم من أننا نشهد إرادته تتحقق عبر أيام أو سنين، فإنه عند الله مجرد أمر: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢)، ويبين القرآن السمة الوهمية للزمن بمقارنة يوم الله بيوم الأرض، حيث اليوم عند الله بألف سنة مما نعد على الأرض ﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مَنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥/٣٢]، بل بخمسين ألف سنة مما نعد ﴿تَرْجِعُ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤/٧٠]، ومن ثم فالزمن الذي ندرکه ليس إلا موضوعاً آخر من موضوعات الخلق الذي نعيش فيه، ليس له وجود أو فاعلية خارج عالمنا، هناك حيث تحيط إرادة الله وعلمه بالزمان والمكان (بلحظة) خالدة واحدة خارج الزمن. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿١٥٠﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٤/٤٩-٥٠].

(١) على الرغم من أن يوم القيامة بعيد من منظور البشر، فهو أقرب من لمح البصر كما يقول القرآن: ﴿وَلَوْ عِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] [النحل: ٧٧/١٦].

(٢) ﴿يَذَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا فَضَعَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧/٢]؛ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠/١٦]؛ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢/٣٦]؛ ﴿هُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا فَضَعَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨/٤٠]؛ ﴿فِيهَا جَبَانٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: ٥٥/٥٠].

إن وهم الانفصال عن الله زماناً ومكاناً ليس هو الإدراك الخاطئ الوحيد الذي نخضع له. إذ يؤكد القرآن في آيتي ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحَّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥/٣] و﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُمْصِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠/٥٧] أن الحياة ليست إلا متاع الغرور: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾. ومع كل صحيفة من القرآن أقرؤها تتعزز لدي صورة الحياة بأنها اختبار وامتحان، مثلها كمثل مسألة رياضية خلقت لتتحدى البشر وتحثهم على النمو الأخلاقي والفكري والروحي. وكما أن المعلم يغادر غرفة الصف ليراقب الطلبة من مرآة خلفية ذات اتجاه واحد، كذلك خلق الله لنا وهم الانفصال عنه ليغذي نمونا الشخصي وبرعاه. وبفضل تسليحنا بالعقل والاختيار، وضعنا في بيئة معادية، برغبتنا على ما يبدو، لكي نصنع مصيرنا بأيدينا. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جِئِمًا فَانْتَرَسَ لَكُفْرُهُ الْإِنسَانُ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٩٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩-١٠٠].

يقدم هذا النص خلاصة لاذعة لموقف القرآن فيما يتعلق بالإرادة الإلهية وإرادة الإنسان. فليست مشيئة الله إجبار الناس على الإيمان، بل ينبغي أن يؤمن الناس بمحض إرادتهم. ومع ذلك، رغم ضرورة كون الخيار حراً فإنه ليس مستقلاً عن الله أبداً. لأنه هو الذي يرعى ذلك الخيار ويتلقاه ويجب عنه بطرق واضحة أو خفية بارعة. أما أولئك الذين يرفضون ذلك الخيار عناداً وبطريقة غير عقلانية، فإن الله ستركهم في الكفر يعمهون. فالخيار، والعون الإلهي، والعقل هي مفاتيح الإيمان الأصيل.

ولكن لماذا يكون ذلك؟ وكيف؟ ما الإيمان الذي يجمع بين العقل والخيار؟ كنت أعتقد أن الإيمان هو اعتراف بحقيقة مفترضة ثم التوافق

معها، الأمر الذي يكون مغروساً في الجنس البشري. والواقع أن القرآن يشير إلى أن لدى المخلوقات الأخرى نزعة طبيعية مسبقة أو غريزة لخدمة الله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨/٢٢]؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَنَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١/٢٤]. أما البشر فينبغي أن يكون إيمانهم أكبر وأعظم وأعقد، ولكن ما هو؟

شعرت وكأنني أشاهد شاشة تلفاز تصفو صورته تارة، وتشوش أخرى. أظن أحياناً أنني على وشك رؤية الصورة الكبيرة، ولكنني أراها مغلفة باعتبار آخر. ومعاناة البشر على الأرض، برأيي، ليست سوى لهو كبير. فما الدور الممكن الذي تستطيع القيام به؟

لماذا أنا؟

قالت غيردا (Gerda) لراجية (Ragia) غاضبة: «لماذا كان ينبغي أن يحدث هذا لي؟ أنت تدخين علبة سجائر يومياً، ومع ذلك تتمتعين بصحة جيدة. وأنا لم أدخن مرةً في حياتي، ومع ذلك فأنا مصابة بسرطان الرئة. أنت التي يجب أن تصابي بسرطان الرئة، ولست أنا».

غضبتُ مما قالته غيردا لراجية. إذ إن آمياتها لزوجتي - وهي الطف وأرق مخلوق عرفته - أن تصاب بالسرطان لم يكن لها داع أبداً.

فقلت لراجية: «هذا قول غريب يصدر عن ملحة متطرفة، فلمن نشكو؟ للطبيعة؟ أتعني، أنها عاجزة عن معرفة كيف أدت نتيجة واحدة قريبة من نتائج الأسباب والمؤثرات التي حدثت منذ الانفجار الكبير إلى إصابتها بالسرطان؟ ولا تريد أن تُستثنى من حوادث الحياة التي لا حصر لها، إذا لم يكن هناك إله؟».

تلقينا نداء من غيردا عندما كانت في ألمانيا للعلاج. وصعقت إذ طلبت مني أن أصلي من أجلها وأدعو لها بالشفاء. وعلى الرغم من أنني قلت لغيردا: إنني سأفعل، فقد كنت أظن أن الصلاة ستكون أجدى لو أدتها هي ودعت لنفسها.

قالت متأثرة بحماس وصوتها يتقطع عاطفة: «إن تجاوزت هذه المحنة فسوف أدرس الدين دراسة جادة».

إن أطباء غيردا في ألمانيا أخضعوها لمعالجة جديدة تماماً. فعلى الرغم من أن السرطان قد وصل عندها إلى درجة متقدمة بحيث كان أملها في الشفاء ضعيفاً، فقد كان العلاج ناجحاً وعادت إلى لورنس (Lawrence) بارثة من أي أثر للمرض. لقد أحدث فيها هذا الصراع مع المرض تحولاً عميقاً، ولكن ليس في الاتجاه الذي يتوقعه المرء.

فعلى ما أعلم، لم تفِ بوعدِها القيامَ بدراسة الدين بصورة جادة، وظلت ملحدة صخباءً عدوانية كما كانت. ليس هذا غريباً، إذ يخطر ببال كثير من الملاحدة أفكار أخرى مؤقتة عندما يقعون في محنة^(١). بيد أن نظرتها إلى الحياة

(١) ﴿وَلَمَّا مَسَّ الْإِنْسَانُ الضَّرَّ دَعَا لِيَحْيِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَالِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضَرْمَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْمِهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُتَرَفِّينَ مَا كَانُوا يَسْتَلُوتُونَ﴾ [يونس: ١٠/١٢]؛ ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ يَّعْتَمِرَ فِيمَنَ اللَّهُ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْهَرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فِرَيقٌ مِّنْكُمْ يَبْتَهِمُ بَشْرَكُمْ ﴿٥٣﴾ يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَسْتَعُوذُ فِسْقًا مُّقْتَصِدًا﴾ [النحل: ١٦/٥٣-٥٥]؛ ﴿وَلَمَّا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن دَعَا إِلَىٰ آتَاءِهِ فَلَمَّا تَجَنَّزَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/٦٧]؛ ﴿فَلَمَّا رَكِبُوا فِي الْفُلِكَ دَعَاُ اللَّهُ تَحْلِيصِينَ لَهُ الْيَوْمَ فَلَمَّا تَجَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يَبْتَهِمُونَ ﴿٥٥﴾ يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَسْتَعُوذُوا فِسْقًا يُقَالُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٥-٦٦]؛ ﴿وَلَمَّا مَسَّ النَّاسَ ضَرْرٌ دَعَا رَبُّهُمْ ثُبُيَّينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فِرَيقٌ مِّنْهُمْ يَبْتَهِمُ بَشْرَكُمْ ﴿٥٦﴾ يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَسْتَعُوذُوا فِسْقًا يُقَالُونَ﴾ [الروم: ٣٠/٣٤-٣٣]؛ ﴿وَلَمَّا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلُمِ دَعَاُ اللَّهُ تَحْلِيصِينَ لَهُ الْيَوْمَ فَلَمَّا تَجَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَبِهِمُ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ كَفُورٍ﴾ [الفصاح: ٣١/٣٢]؛ ﴿وَلَمَّا مَسَّ الْإِنْسَانُ ضَرْرًا دَعَا رَبَّهُ ثُبُيَّيَا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُ يُعْمَةُ مِنْهُ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ اللَّهُ لِيَنَّاسًا سَبِيلَهُ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٣٩/٨]، ﴿فَلَمَّا مَسَّ الْإِنْسَانُ ضَرْرًا دَعَا ثُمَّ إِذَا حَوْلَانُهُ يُعْمَةُ يَنَاقِلُ قَالَ إِنَّمَا أَوْتَيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٤٩].

انكفأت إلى الداخل بصورة درامية. كانت غيردا قبل مرضها تحسن إلى أصدقائها وصديقاتها، كما كانت مخلصة لهم، كريمة معهم. وعندما تطرقنا إلى هذه النقطة في حديث بيننا، قالت لي: «كانت تلك خطيئة كبرى من خطاياي. لقد تعلمت قيمة الحياة ورأيت كم هي ثمينة. كنت بلهاء إذ كنت أعطي إلى الآخرين من نفسي كثيراً. لن أفعل ذلك ثانية».

بعد سنة من تسلمها تقريراً بسلامة صحتها، اكتشف الأطباء أن المرض قد عاودها. وأكدوا على عجزهم من أن يفعلوا شيئاً ما دام المرض قد تقدم كثيراً جداً. فقالت لزوجتي شاكية بصورة غير متوقعة: «أي إله هذا الذي يفعل بي ذلك؟» لم تجب راجية عن سؤالها الساخر المناهض للدين، وإذا كانت غيردا راجية في بحث الدين بهدوء واحترام كانت راجية أكثر رغبة منها، ولكنها عندما سمعت كلاماً ساخراً كهذا، فضلت تجاهلها. فقالت راجية دون تفكير، وبصورة مفاجئة: «ربما يكون قد منحك فرصة أخرى».

لم يكن من عادة غيردا أن تترك خصمها يقول الكلمة الأخيرة، خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالدين، ومع ذلك ظلت صامته مستغرقة في التفكير. ربما بسبب تدهور حالتها الصحية والجسمية.

عزلت غيردا نفسها عن أصدقائها خلال الأشهر القليلة المنصرمة من المرض، وقالت لراجية عبر الهاتف: إنها لا تريد أن ترى أحداً «هكذا». كانت غيردا وزوجها يعلّمان الرياضيات في جامعة كنساس. وعلمت بوفاتها من مذكرة القسم. التي جاء فيها: إن أسرتها لن تقيم عزاء لها، والذين يرغبون في تقديم العزاء، يمكنهم أن يتبرعوا لصندوق المنحة الدراسية الذي أسسه زوجها إحياء لذكراها.

تطرح المعاناة الإنسانية دائماً معضلة للفكر الديني. فهل هي لتسلية آلهة متنافسة ضجرة، متقلبة المزاج؟ هل هي عقوبة على طبائعنا الخاطئة؟ هل هي شيء ينبغي أن ننقذ أنفسنا منه؟ هل هي مظهر ضروري من مظاهر الخلق، لا بد من تجاوزه بفضل التدريب الروحي والتأمل؟ هل هي نتاج حوادث تقع مصادفة في عالم لا إله فيه؟

كل هذه الأسئلة تسلم من دون جدال أن المعاناة البشرية ضارة وغير مرغوب فيها^(١). هذا طبيعي ما دامت تعكس المنظور البشري، أي تعكس رأي من يشعر أنه ضحية. على أي حال، للقرآن حكمٌ مختلف تماماً في معاناة البشر على الأرض. إذ يقول: إن المعاناة عنصر ضروري وجوهري لعملية النمو البشري، وإن على البشر جميعاً - أختياراً وأشراً، خاطئين وأتقياء، مؤمنين وغير مؤمنين - أن يجربوا هذه المعاناة. ﴿وَلَنَبْلُوَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْفَقْرِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالسَّعَةِ وَبَشِيرِ الْغَيْرِ الْمُنِيرِ ۚ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَلَئِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

إن انهيار أُمي الذي لم تعد بعده كما كانت عليه أبدأ، قد حصل بعد اعتناقي للإسلام بسنوات عديدة. ربما كنت أراها تذوي في صراعها ضد الذهان الذي بدا وكأنه يحصرها ويستولي عليها بعد أن تحملت والذي هذا العمر كله. ولكنني بعد انهيارها العقلي، كنت أرى لمحات القوة الروحية ما زالت متوطنة فيها.

وقبل أن ترحل من الدنيا، قالت لي في لحظة وضوح ذهني وصفاء عاطفي: «أنا لست خائفة من الموت، هل أنت خائف يا جيف؟» فأجبته قائلاً: «الموت لا يخيفني، ولكنني قلق على أفراد أسرتي، ومع ذلك أعلم أن الله سيرعاهم». فقالت: «أفهم ذلك، ولكن أسرتي لم تعد بحاجة إليّ، وأنا جاهزة للرحيل». فأدركت عندئذ أن هذه هي المرة الأخيرة التي ربما أراها

(١) تطرح المعاناة، في نظري، مشكلة عقلية منطقية فلسفية أكثر مما هي شخصية عاطفية. نظرت إليها في كتابتي هذه من منظور كوني وليس من زاوية فردية، ومع ذلك أشعر أن الله في كثير من الحالات لا يفرض المعاناة على الأفراد، بل يسمح بالكارثة أن تحل وفق قوانين الطبيعة المتمثلة في الأسباب والنتائج المتأصلة في الخلق. ويتجلى ذلك بواقعة أن المخلوقات نفسها - نباتات وحيوانات - تصارع من أجل البقاء بالطريقة ذاتها التي يتبعها البشر. فبالنسبة إلينا، على أي حال، يقدم هذا الصراع اختبارات وامتحانات يتمكن فيها الأفراد من النمو أو التراجع في أسماء الله الحسنى حسبما يستجيب كل شخص إلى صراعه الشخصي.

فيها. فقلت لها: «سأفتقدك جداً، يا أمي» محاولاً منع دموعي من التساقط. فأجابتنني قائلة: «أعرف أنك ستفتقدني، ولكن لا بأس ستكون الأمور على ما يرام. فرأيت في وجهها تلك اللحظة قوة هائلة وسلاماً عظيماً مما ألفت رؤيته فيها جيداً».

على الرغم من أن الله يسمح للناس أن يبتعدوا عن قوانينه، ويُنزّلوا الأذى بالآخرين، ويسببوا لهم المعاناة، فإنه يمكن أن يحوّل مثل هذا الشر إلى خير لأولئك الصابرين. ويقدر ما يتعلق الأمر بمعاناتي وأنا طفل أستطيع القول بصدق: إنني انتفعت كثيراً من تلك المعاناة. إن تجاوزي محنة الأب المسيء والعيش وسط جيران عنيفين، قد أثر في تشكيل شخصيتي ومنحني رؤية للحياة فائقة الجمال. والواقع أنني أشكر الله على طفولتي، لأنها أتاحت لي أن أتذوق حبّ الله ورحمته بطرق لم أكن بقادر على التمتع بهما دون ذلك.

إذن لابد أن يعاني كل امرئ ألماً أو خسارة أو صعوبة أو كارثة خلال وجوده على الأرض بغض النظر عن دينه. شعرت بأن ذلك كان إيماناً صريحاً، لكن عبارة «وَيَسِّرْ الصَّعِيبَ» بدت لي في الوهلة الأولى متفائلة جداً أو غير معقولة في نص يتحدث عن شقاء البشر. هل القرآن غافل عن الأذى الذي تسببه المعاناة القاسية لشخصياتنا؟ بل يؤكد القرآن عكس ذلك، أي إن بإمكاننا الحصول على فائدة كبيرة من الطريقة التي نردّ بموجها على مصائب الحياة. وهذا الرد مرتبط بحالنا في الحياة الآخرة ارتباطاً وثيقاً. «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» [البقرة: ٢١٤/٢].

توقفت عند هذا النص وقرأته مرات عديدة. ما علاقة المعاناة بالجنة؟ هكذا خطر لي. لماذا لا يمررنا في هذه المرحلة الأرضية ثم يضعنا في السماء؟ «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ» لم لا؟ لم لابد من المعاناة؟ ما العلاقة بين المعاناة والسماء؟ لماذا لم يوضح الأمر؟ «أَمْ حَسِبْتُمْ

أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ» ما الذي تقوله هذه الآية؟ ما الذي يفوتني فهمه منها؟ «مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ».

نلاحظ أن تصوير المعاناة البشرية هذا يتضمن المؤمنين المتقين - «الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ» - وكان كربهم شديداً، وزلزلوا زلزالاً شديداً جداً حتى إنهم صاحوا قائلين: «مَتَى نَصُرُ اللَّهُ؟» لماذا ينبغي أن يتحمل أهل الخير كرباً وخوفاً؟ هكذا تساءلت. لماذا علينا أن نحيا حياة مخوفة بالمخاطر لا استقرار فيها ونعرض للعطب؟ «لَتَبْلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ» [آل عمران: ١٨٦/٣]. لماذا نموت إذا كنا سنعاد إلى الحياة كرة أخرى؟ كل هذه الأسئلة دارت في رأسي. «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْخَيْرِ فَتَنَةٌ وَإِنَّا لَتَرْجِعُونَ» [الأنبياء: ٣٥/٢١].

يكرر القرآن تذكيرنا بعد هذه الآيات التي تؤكد ضرورة المعاناة على الأرض، بأننا إليه راجعون. فهل المعاناة تقربنا أكثر من الله بطريقة جوهرية ما؟ «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ» [الانشقاق: ٦/٨٤]. كيف نكدح إلى ربنا كدحاً؟ كيف تقربنا مصائبنا من الله أكثر؟ استطعت أن أرى تأكيد هذه الفكرة، ولكنني لم أستطع أن أجِد الجواب أو الرد. استطعت أن أرى بوضوح أن الكتاب يلح على أن المعاناة عنصر حاسم في ارتقاء البشر وتطورهم، ومع ذلك لم أستطع أن أجِد سبب ذلك. «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ» ① «يَحْسَبُ أَنَّ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ» ② «يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَلَاءَ» ③ «يَحْسَبُ أَنَّ لَمْ يَرَوْهُ أَحَدٌ» ④ «أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ» ⑤ «وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ» ⑥ «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» ⑦ «لَّا أَفْتَحُمُ الْمَقَبَةَ» ⑧ «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ» ⑨ «فَكُ رَقِيبٌ» ⑩ «أَوْ يُطْعَمُ فِي يَوْمٍ مَسْفُورٍ» ⑪ «يَسْمَا ذَا مَقَرَّبَةٍ» ⑫ «أَوْ مَشْكِيْنَا ذَا مَرَبَرٍ» ⑬ «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَوَاوَاوَا بِالْأَمْرِ وَوَاوَاوَا بِالْمَرْحَةِ» [البلد: ١٧-٤/٩٠].

كان هذا النص بالنسبة إلي من النصوص الكثيرة التي يكثر تردادها وفتح العيون، مع انتقالها المفاجئ من زاوية رؤية غير متوقعة إلى زاوية أخرى،

وهو نموذج تصارعت معه مصارعة قاسية. فآية ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ صعقتني بصراحتها الصارمة، على الرغم من أنني رأيتها، تتلاءم مع كل شيء طرحه القرآن حتى الآن. سواء بالمصادفة، أم بفضل التصميم العظيم، لا أنكر أن البشر ملائمون بصورة جلية للكفاح والكدح. إذ يبدو أن نوعنا البشري ينتعش ويرتقي على الكدح تماماً، كما كانت المأساة والكفاح من معالم تطورنا ومن عناصر توجيه هذا التطور عبر التاريخ. حتى عندما لا تكون الصعوبة من نصيبنا فإننا نسعى إليها من باب التحدي الذاتي والمنافسة الذاتية. ومع أن «الإنسان خلق في كبد» فإن القرآن لا يركز هنا على الدور الذي لعبه هذا الكدح في تقدم البشر الدنيوي. إنه مهتم أكثر بنتائجه الأخلاقية والمعنوية والروحية، ويبدأ بالتحذير من نتائجه السلبية المحتملة، إن الصراع الذي ينتهي بالنماذج يؤدي إلى الكبرياء والشعور بالأمن، والذي ينتهي بالإخفاق يؤدي إلى اليأس، وكلتا الحالتين يمكن أن تؤدي إلى فقدان الإيمان بالله أو إلى الثقة بقدرة الله أو إلى كليهما معاً، وأحياناً قد تؤدي إلى اللا أدبية أو إلى الإلحاد. لذلك يقول القرآن: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ لَّنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ

⑤ يَقُولُ أَهْلَكَ مَا لَا بُدَّ لَهُ ⑥ يَحْسَبُ أَنْ لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ.

إن عبارة الندم التعجبية التي يقولها الإنسان: ﴿أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ تمثل صورة مصغرة عن حياة الصراع من أجل الدنيا فقط.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَىٰكُمُ الْبَحْرَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ . نقرأ عبارات عديدة مماثلة في القرآن تتحدث غالباً عن نعمة السمع والبصر والقلب (الذي يمثل، على ما يبدو، العقل البشري في معناه العام)^(١) بوصفها نعماً يسيء

[illegible]

الإنسان استخدامها غالباً. ويخبرنا القرآن هنا أنه بفضل الملاحظة والتواصل تنجلي أمام الإنسان طريق السعادة والخير، وأنه بفضل دراسة الحياة من حولنا، سيتبين لنا بوضوح ما الذي يجعل الناس راضين مطمئنين حقاً.

لدى قراءتي لهذا السطر تذكرت أمي. فبالرغم من كل الصعوبات والمتاعب التي واجهتها كانت دائماً في سلام مع نفسها (مطمئنة). وكانت تعلمنا أن مفتاح السعادة هو في إعطاء الآخرين، ولدى التفكير بآخرين مطمئنين كنت أعرفهم تيقنُ أنهم كانوا يعيشون على المبادئ نفسها.

عندما استولى عليّ التفكير في أمي انتابني شعور بالحزن لأنني أدركت أنني لم أنصفها. فعلى الرغم من حبي لها وإعجابي بها كنت أعتقد أنها تعيش في وهم وأنها كانت نمطاً من دون كيشوت الأنثى. وكنت أستغرب من تعاميتها عن الحقيقة، كيف لا ترى أن الحياة ليست كلها عطاء، ولكنها صراع على البقاء، ومنافسة، وحماية للنفس من مصائب الحياة وصروف الدهر. أما الآن فقد عرفت -من حياتي وحياة الآخرين ممن أعلم أنهم يعيشون على هذا المعتقد- أن صفات الحياة هذه التي ذكرتها ليست هي السبيل إلى السلام الذاتي الداخلي. فلو توقفت لأفكر فيما يجري حولي لتبين لي بسهولة أن في الحياة طريقتين فحسب، وأني كنت أسير في الطريق القاحلة، إذ تجاهلت، كغيري، صعود الهضبة: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةُ ۖ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۖ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ۖ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْبَغٍ ۖ ﴿١٤﴾ بَلَسًا ذَا مَقَرَبَةٍ ۖ ﴿١٥﴾ أَوْ وَسَكِينًا ذَا مَفَرَةٍ ۖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۖ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١١/٩٠-١٧].

«العقبة»^(١) اختيار للكلمات رائع، فهي، من جهة، تعني العمل المضني

= [٩] ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمَآً وَابْصَرَآً وَلَأَوْدَعَهُمْ فَمَا أَقْبَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْعَلُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦/٤٦]؛ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣/٦٧].

(١) ترجمت كلمة «العقبة» هنا بصعود التل / الهضبة. ولكنها تفيد أيضاً «الطريق المنحدر»، أو «النزول الشديد الانحدار» أو «الممر الجلي».

الذي يحتاج إلى كفاح وصبر، وهذا منسجم مع كل ما يقوله القرآن بشأن الحياة الناجحة. ومن جهة ثانية، يمكن أن ترمز إلى طريق السمو الروحي، الصعود الشاقولي نحو الاقتراب من الله.

الفضل للقرآن في أنني فهمت المعنى الأول بسهولة. إذ أرى أن الحياة المخصصة لمساعدة الآخرين صعبة ولكنها مجزية، والسعي للمصلحة الذاتية ربما يبدو أكثر سهولة، ولكن ليس هو السبيل إلى الرضا والاطمئنان الحقيقي. ومع ذلك لم أستطع رؤية العلاقة بين ارتقائنا الشخصي وعلاقتنا بالله. فهل هناك رابطة عضوية بينهما؟ هل تضحياتنا الذاتية تقربنا أكثر من الله بطريقة جوهريّة؟ وإلا، فإنه يبدو أن بالإمكان تجنب هذه المرحلة الأرضية من وجودنا، وأن بالإمكان الاقتراب من الله دون المعاناة والكفاح في الأرض. ومع ذلك يبين القرآن لنا أن حياتنا على الأرض تخدم غاية جوهريّة: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ يُرَٰفِقُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١/٣]. ﴿أَلَمْ يَبْدَأْكُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَادًا وَأَنكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥/٢٣]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨/٤٤].

أفترض أن النبأ الطيب هو أنني اكتشفت في أثناء قراءتي للقرآن أن كثيراً من اعتراضاتي على وجود الله لم تكن صارمة كما ظننت. إذ جعلتني أشك بالمقولة التي بنيت عليها إلحادي. أما النبأ السيئ فهو أنني لم أستطع من خلال قراءتي ما يقارب ثلاثين صحيفة منه، اكتشاف الغاية الحقيقية التي تقوم عليها الحياة. لقد أعانني أصدقاؤني المسلمون قليلاً. إنهم لم يفهموا حقاً أسئلتي، والجواب الوحيد الذي كانوا يقدمونه هو أننا موجودون هنا فلا بد من تقويمنا، عشوائياً في الظاهر، عندما ندخل الحياة الأخرى. يبدو أن هذا الحد من المعرفة كان كافياً لهم ولم يحاولوا قط التعمق أكثر، ولكن ذلك لم يكن يكفيني ويثبت من إيجاد تفسير معقول. ومع ذلك جعل القرآن الأمر يبدو سهلاً، تماماً كما أشرح لطلبتي شيئاً واضحاً كان غائباً عن أذهانهم عندما يستصعبون مسألة ما. وتساءلت هل فاتني شيء ما، عندما استصعبت

الأمر. فقررت أن المكان المناسب للبحث هو في وصف القرآن للعلاقة بين الله والبشر. كيف وصف القرآن العلاقة بين الله والمؤمنين، وهل هو يصف المؤمنين الصادقين؟ وكيف يصف الله؟ وما العلاقة بين هذه العناصر إن وجدت؟

وقبل الالتفات إلى هذه الأسئلة لابد لي من القول: إن وصف القرآن لسمة الحياة الخادعة قد انتزع شيئاً من اعتراضي على المعاناة البشرية في الأرض. ولنذكر أن الناس عندما يدخلون الحياة الآخرة ويسألون عن المدة التي أقاموا فيها على الأرض فإنهم لا يتذكرون إلا صوراً خافتة بعيدة وكأنهم قد صحوا من نومهم. إن صورة الحياة هذه الشبيهة بالحلم تعززها أوصاف عديدة في القرآن ليوم القيامة. حيث ينفخ في الصور لإيقاظ الموتى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْكُمْ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣/٦]. وسيندفع الكافرون من قبورهم -التي يشير إليها القرآن بوصفها «أمكنة نومهم»- مذعورين. وسوف يكون الناس سكارى وما هم بسكارى، وكأنهم في حالة إغماء ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَكُوتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِيكُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٦٨]. سيكونون كالتائهين؛ وتبدو لهم الحياة الدنيا خيالات وهماء ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَخَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨/٢٧]؛ وسيكون بصر الناس مضطرباً مثلما يكون عند استيقاظهم من النوم ﴿إِنَّا بِرَأْيِكَ آخِزُونَ﴾ [القيامة: ٧/٧٥]، وسوف يقوى البصر، ويرون الحقيقة الحالية التي أصبحوا فيها ﴿وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ ﴿١٥﴾ وَهَلَّاتِ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٥٠/٢٢-٢٢] وفي [الآية ٤٢] من سورة الزمر ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَازِلِهَا فِيمِنْكُمْ أَلَّتِي قَفَّيْ عَلَيْهَا أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُونَا يَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُرْجَوْنَ﴾ [الزمر: ٤٢/٤٢] يقرن القرآن الاستيقاظ من النوم بالانبعاث من الموت.

توحي هذه الأوصاف -بغض النظر عما نعانيه ونتحملة في الأرض من آلام ومعاناة- بأننا نكون في الحياة الآخرة أشبه بنائم يستيقظ من كابوس حلم به. وكل الآلام والكروب التي بدت لنا في الحياة الدنيا شديدة وواقعية ستبدو في الحياة الآخرة عندما ندخل المرحلة الثانية من حياتنا مجرد وهم بعيد أشبه بالخيال. لا يقول القرآن: إن الحياة في الأرض ليست حقيقة واقعة، بيد أن المعاناة التي نخوضها فيها ستبدو لنا غير واقعية عندما ندرك الحقيقة الأكبر للحياة الآخرة.

ما شان الحب بنا؟

يتحدث القرآن دائماً عن حب الله. الله يحب الذين يعملون الصالحات ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥/٢]؛ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّيْفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤/٣، ١٤٨]؛ ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعِظْ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣/٥]، ويحب التوابين ﴿رَسَّالُونَكَ عَنِ الْمَجِيزِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعِزُّوا النَّسَاءَ فِي الْمَجِيزِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢/٢] والمتطهرين ﴿لَا تَقَدْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُتِيَ مِنَ الْقَوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨/٩] والمتقين ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦/٣]؛ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْصَرُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَيْتُمُ إِيَّاهُمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤/٩]، ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧/٩] والصابرين ﴿وَكَايْنِ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/٣]

١٤٦] والمتوكلين على الله ﴿فَمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُ لَمَن كُنْتَ ظَنًّا غَلِيظًا عَلَى الْقَلْبِ
لَأَنفُسُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩/٣] والمقسطين ﴿سَتَجِدُ بِالْكَذِبِ
أَكْثَلُونَ لِلْحَقِّ إِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ
يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:
٥/٤٢] ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلَا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى
الْأُخْرَى فَتَلَاوُمَا إِلَى تَبَيعِي حَتَّى تَفْقَهُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩/٤٩] ﴿لَا يَتَنَكَّرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ
وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ يَبَرِّدُوهُمُ وَفَقِّطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٦٠/٨]
والذين يقاتلون في سبيله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
بُتَيْنٌ مَرْصُومٌ﴾ [الصف: ٦١/٤] وبالمقابل يحب المؤمنون الله. ﴿وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:
٢/١٦٥]. ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/٣١]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهَ
بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥/٥٤].

لا بد من ملاحظة أنه حيث يذكر القرآن محبة الله يكون ذلك حصراً في سياق العلاقة بين الله والمؤمنين المخلصين الذين يلزمون أنفسهم بحب الله وبالعيش التزاماً بذلك الحب. وبالمقابل، يتجرد من علاقة الحب هذه أولئك الذين استسلموا للشر، كالطغاة والمعتدين والفاستدين والخاطئين، والكافرين، والأشرار، والمتكبرين، والآثمين، والمبذرين، والخائنين، والظالمين^(١). ومع

(١) ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَسُدُّوا إِتَاءَ اللَّهِ لَا يُحِبُّ الْمُشْكِينُ﴾ [البقرة: ١٩٠/٢]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ كُنْزُكُمْ فِي الْأَرْضِ يَنْفِيهِمْ إِلَيْهَا وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفٰكِرَ﴾ [البقرة: ٢٠٥/٢]، ﴿يَمْسَحُ اللَّهُ إِلَيْنَا ذُرِّيَّةَ الصَّدَاقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦/٢]؛ ﴿قُلْ أَلْبِسُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢/٣]، ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا مَنَّ عَلَيْهِمَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْصَرِمُ أَنْ لِيَ لِهَذَا مَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ

[illegible]

(١) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
[البقرة: ١٠٧/٢]؛ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠/٤]؛ ﴿ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ﴾ آيَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ

معروف إنه بالتأكيد يمنح لأولئك الذين يشاركون الله هذا الحب ويحبونه. وبعبارة أخرى، عندما يتحدث القرآن عن حب الله، فإنه يتحدث عن علاقة متبادلة يشترك فيها الله والمؤمنون، ويرفضها كثيرون^(١).

ويؤكد القرآن كما أشرنا آنفاً، أن أعمالنا لا تنفع الله، بل الإنسان هو الذي ينتفع بها أو يخسر. ومع ذلك، يبين القرآن أن الله يريد من خلال التجربة الأرضية التي يخوضها الإنسان أن يرفع الأشخاص الذين يحبونه^(٢). إذ يمكن لأي فرد أن يتبع هذا السبيل أو لا يتبعه، والقرآن يؤكد أن هناك من يسلكون هذا السبيل وأن ارتقاءهم وتطورهم هو موضوع الحياة على الأرض^(٣).

= ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي هَذِهِ أُنْثَىٰ حَسَنَةً فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا لِإِنَّكَ قَالِ عَذَابِ أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكُنُّهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦/٧]؛ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ بِتِلْكَ الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَبِّحْوهُ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١/١٠]؛ ﴿وَسَتَجِدُونَكَ بِالنِّفَةِ بَيْنَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَلْبِهِمُ الْمُنْتِفَةُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ غَلِيظِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ١٣/٦]؛ ﴿وَإِنَّا مَسَّ النَّاسَ شَرٌّ دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ بَيْنَهُ رَحْمَةً إِذَا فِيقَ مِنْهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٣٣/٣٠]؛ ﴿وَمَنْ يَأْمُرْهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ فَيُغْشِيَهُمْ وَيُلْهِفُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَتَجَرَّى الْكَلْبُ بِأَمْرِهِ وَيَتَنَفَّسُ مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُلَّ تَفَكُّرٍ﴾ [الروم: ٣٠/٤٦]؛ ﴿قُلْ يَكِيدُ الَّذِينَ أَتَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣/٣٩]؛ ﴿الَّذِينَ يَحْلِلُونَ الْعُرْسَ وَمَنْ حَوْلَهُمْ يَسْعَوْنَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٤٠/٧]؛ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْعَقَبَ عَنْ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨/٤٢].

- (١) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَلْكَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩/١٧]؛ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَلْكَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٥٠]؛ ﴿وَلَكِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٢٧/٧٣].

(٢) انظر السؤال التاسع من هذا الفصل.

- (٣) ﴿يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤/٥]؛ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ لِي دِينِي أَوْ أَنْ يُجْعَلَ لِي آيَةً﴾ [النمل: ٢٧/٧٣].

ثم أصبح السؤال، بالنسبة إلي: «كيف تعزز حياة التقوى العلاقة مع الله؟» أفهم كيف تسهم في فهمنا لليسر والسعادة والرفاه، وكيف تمنحنا نمواً ذاتياً، وسلاماً داخلياً، ولكن كيف تجعلنا أقدر على الاتصال بالله؟ ألا نستطيع - كذلك - أن نحصل على هذه الرابطة من دون كفاح ومعاناة على الأرض؟ ألا يمكن أن نُبرمج كي نحب الله؟ ما زلت أدعو إلى القضايا ذاتها.

ماذا تريد مني؟

ليس من الصعب أن يجد المرء في القرآن ما يريده الله من المؤمنين الصادقين. فهو يكرر وصفهم بـ «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»^(١)،

= إِنْ يَكَادُكَ مِنْهُمْ الْمُخَلَّفِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٦﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَمَرَكَ مِنَ الْغَايِبِ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦٨﴾ [الحجر: ٣٩/١٥-٤٣]؛
 ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥/١٧].
 (١) «وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَمْ يَجْنِ عَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كَلِمًا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ شَمَرِ زَيْفَا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنَّا بِهِ مُنْتَشِبُونَ وَلَهُمْ فِيهَا أَنْدَجٌ مُطَهَّرٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [البقرة: ٢٥/٢]، «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [البقرة: ٨٢/٢]، «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [البقرة: ٢/٢٧٧]؛ «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَنْدَجٌ مُطَهَّرٌ وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا» [النساء: ٥٧/٤]، «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا» [النساء: ١٢٢/٤]، «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَكْبَرُ عَظِيمٌ» [المائدة: ٩/٥]، «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [الأعراف: ٤٢/٧]؛ «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَتَذَكَّرُونَ رَبَّهُمْ لَئِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ» [البونس: ٩/١٠]؛ «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَتَجِدَنَّ أَكْبَرًا مِنْهُمْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [هود: ٢٣/١١]؛ «يَسْمَعُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَرَبُّهُمْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» [الرعد: ٣٩/١٣]؛ «وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْذِنُ رَبُّهُمْ لِيُخْرِجَهُمْ فِيهَا سَلَامًا» [إبراهيم: ٢٣/١٤]؛ «فَيَا لَيْسَ لَكَ شَيْءٌ مِنْ لَدُنْهُ وَيُخَبِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا» [الكهف: ٢/١٨]، «وَأَمَّا مَنْ

=

مَأْمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ لِمَسَّقٍ وَسَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ إِتْرًا [الكهف: ١٨/٨٨]، (إِنَّ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْإِدْرَيسِ نُزُلًا) [الكهف: ١٨/١٠٧]؛ (إِلَّا مَنْ تَابَ
 وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) [مريم: ١٩/٦٠]، (إِنَّ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوْجَدُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وَثًا) [مريم: ١٩/٩٦]؛ (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
 عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْأَعْلَى) [طه: ٢٠/٧٥]، (وَلَقَدْ لَقْنَا لِيْن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) [طه: ٢٠/٨٢]، (وَمَنْ يَمَسَّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَاقُ ظُلْمًا وَلَا
 هَضْمًا) [طه: ٢٠/١١٢]؛ (فَمَنْ يَمَسَّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدِهِ
 وَلَقَا لَهُ كَثِيرُونَ) [الأنبياء: ٢١/٩٤]؛ (إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) [الحج: ٢٢/١٤]، (إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْرُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
 مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) [الحج: ٢٢/٢٣]، (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ رَوْحٌ كَرِيمٌ) [الحج: ٢٢/٥٠]، (الْمَلِكُ يُوسِّمُ اللَّهُ بِحُكْمٍ يَسْمُهُمْ
 فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) [الحج: ٢٢/٥٦]؛ (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا مِنْكُمْ وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَنَسْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَلَفْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَنُمَكِّنَنَّ
 لَهُمْ مِنْهُمْ زَوْجًا مَخْرُوجًا وَلَنَجْعَلَ لِكُلِّ فِتْنَةٍ مَخْرُوجًا) [النور: ٢٤/٥٥]؛ (إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
 عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) [النور: ٢٥/٧٠-٧١]؛ (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا
 كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) [الشعراء: ٢٦/٦٧]؛ (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ قَوَابِلُ اللَّهِ
 خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْغَاثُ وَالْغَابِ) [القصص: ٢٨/٨٠]؛ (وَالَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَمْسِكُونَ) [المنكبات: ٢٩/٧]،
 (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) [المنكبات: ٢٩/٩]،
 (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ
 رَبِّهِمْ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا) [المنكبات: ٢٩/٥٨]؛ (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ فِي
 رَوْحٍ يُفْرَجُونَ) [الروم: ٣٠/١٥]، (لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَمْسِكُونَ) [الروم: ٣٠/٤٥]؛ (إِنَّ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) [القمان: ٣١/٨]؛ (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَمْسِكُونَ)
 [السجدة: ٣٢/١٩]؛ (لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَمْسِكُونَ) [السجدة: ٣٢/١٩]؛ (وَمَا أَمْرُكُمْ إِلَّا مِنْ عِنْدِنَا فَلْيُفَكِّرُوا وَلَا يَخْلَعُوا) [سبا: ٣٤/٤]،

=

= وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَمْ يَجَرَ لَهُمْ فِي الْعَذَابِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْفِرْقَةِ الْكَبِيرِ [سبأ: ٣٤/٣٧]؛
 ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَاجْرُ كَبِيرٌ﴾ [فاطر:
 ٣٥/٧]؛ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَنَّمَكُم بَسُوفًا تَهَيَّيْكُمْ إِلَيَّ بَلَاءٌ وَأَنْ كَبِيرًا مِنْ لَقَلَّالَةٍ يَنصِبُمْ عَلَى بَعْضِ الْأَشْيَاءِ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنْهَا قَتَلَتْهُ فَاسْتَقَرَّ رُؤْيَاهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾
 [ص: ٣٨/٢٤]؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٤١/
 ٨]؛ ﴿قَرَأَ الْقُلُوبِيبِ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فِي رَوْحَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢/
 ٢٢]؛ ﴿ذَلِكَ الَّذِي يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا عَاقِبَةٌ إِلَّا الْبَرَّةُ فِي
 الْآخِرَةِ وَمَنْ يَفْرُقْ حَسَنَةً لَزِدْ لَهُ نَبِيًّا حَسُنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٤٢/٢٣]؛
 ﴿وَمَنْ يَجِبِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَرْيَدُ مِنْ قَبْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾
 [الشورى: ٤٢/٢٦]؛ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَعَهُمْ فِي مَقَادِيرِ الْآثَامِ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٤٥/٢١]؛ ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَدْخُلُونَ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْبَرُّ﴾ [الجاثية: ٤٥/٣٠]؛
 ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَسْلَحَ
 لَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٢]؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمِعُونَ وَآكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَوْجِيَةٌ لَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/١٢]؛
 ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ زُلُمًا سُبْحًا يَتَقُونَهَا فَعَلَّاءٌ مِنَ اللَّهِ
 وَرِضْوَانًا يَبْتَغَاهُمْ فِي رُحْمِهِمْ مِنْ أَنْ يَرَى الشُّجْعُونَ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَنَحْنُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِيمٌ أَخْرَجَ
 مَطْلَقَهُ فَتَازَنُوا فَاسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُمْسُبُّ الْزُرَّاعَ يَعْصِطُ بِيَمِّ الْكُفَّارِ وَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩]؛ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْمَجْزِ ذَلِكَ
 يَوْمَ الْقِتَابِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِالْحَقِّ بِمَا نَزَّلَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٦٤/٩]؛ ﴿رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ
 يُبَيِّنُ لَكُمْ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يَدْخُلْهُ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ٦٥/١١]؛ ﴿إِلَّا
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٨٤/٢٥]؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ٨٥/١١]؛ ﴿إِلَّا
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [النبن: ٩٥/٦]؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرَّةِ﴾ [البينة: ٩٨/٧]؛ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا
 بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١٠٣/٣].

وبما أن غاية وجودنا الأساسية، كما رأينا، هي أن نحب الله وأن يحبنا الله، ومن الواضح أن الإيمان أمر جوهري، لأننا لا يمكن أن نقيم علاقة حميمة مع من ننكر وجوده. ومع ذلك فإنه ليس واضحاً كيف يجب أن تعزز حياة التقوى علاقتنا بالله. الجواب العام هو أن الله صالح وأعمالنا الصالحة ترضيه وأعمالنا الطالحة تغضبه، ومع ذلك فإنه بإمكانه أن يجنبنا الخطيئة، ويجعلنا نجتاز هذه المرحلة الأرضية، وأن يُسكننا على الفور في الجنة، ويرضى عنا منذ البداية. فإذا كان الإيمان بالله والعيش في الأرض حياة تقوى تقربنا من الله فلا بد أن يتم ذلك بطريقة جوهريّة ما؛ لأن الله لا يفعل شيئاً باطلاً^(١).

تقع الأعمال الصالحة في القرآن ضمن ما يسمى بالقانون الذهبي القائل: «عامل الآخرين كما تحب أن يعاملك الآخرون». وعلى الرغم من أن الكتاب يحتوي على أمثلة عديدة من الأعمال الصالحة، فإنه لا يحتوي إلا على قليل من المفاجآت، ولا يحتوي على ما يلقي ضوءاً مباشراً على العلاقة بين فعل الخير وحب الله. ولقد دُهِشت بإصرار القرآن الشديد على النشاط الاجتماعي، على «الجهاد في سبيل الله» و «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». ورغم أنني لم أعترض أخلاقياً على الحملة من أجل العدالة، فلاني لم أتوقع أن يؤكد القرآن تأكيداً على ضرورة الانخراط في الحياة السياسية والاجتماعية، لأنني كنت أعتقد أن الدين شأن خاص وشخصي. فالتصور بأن الإيمان يجب أن يتضمن عملاً قوياً لخير المجتمع وإصلاحه جعلني أتساءل حول تعاطف العلاقة بين الإيثار والاقتراب أكثر من الله.

لقد وضعت قائمة قصيرة بالأعمال الصالحة التي يشجع عليها القرآن، أملاً في أن أجد دليلاً على تعاطف هذه العلاقة. ولم يكن غريباً أن تتألف القائمة من

(١) «الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ رَبَّنَا تُفَكِّرْهُمْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قَوْلًا عَذَابٍ ثَلَاثًا» [آل عمران: ١٩١/٣]؛ «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمَعِينَ ﴿١٧﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نُنْزِلَهُ لَوْ لَمْ نَلْمِذَةً لِّمَنْ لَا تُخْذَلُ لَمْ نَلْمِذَةً لِّمَنْ لَا تُخْذَلُ» [الأنبياء: ٢١/١٧-١٦]؛ «أَلَمْ يَخْلُقْنَاكُمْ عَبَادًا وَلَكُمْ لِمَنَّا لَا تُرْجَعُونَ» [المؤمنون: ٢٣/١١٥]؛ «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَمَعِينَ» [الدخان: ٤٤/٣٨].

الأعمال التي يعترف العالم كله بأنها فضائل؛ إذ على الإنسان أن يكون رؤوفاً ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيُولِّدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣/٢]، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِیَتَامَىٰ وَلِلْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَأَيْنَ السَّبِيلُ وَمَا نَفَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥/٢]، ﴿وَلَا يَحْضُرْ عَلَىٰ طَعَامِ الْيَتَامَىٰ﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٤]، وأن يكون رحيماً ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧/٩٠]، وأن يصفح ويعفو عن الآخرين ﴿وَالَّذِينَ يَجْنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧/٤٢]، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤/٤٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَذَا لَكُمْ فَلَا تَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤/٦٤]، وأن يكون مقسطاً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَهُ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَبَأُ يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨/٤]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأُولُوا الْكَيْبِلِ وَالْيَمْرَأَانِ بِالْقِسْطِ لَا تَكِلْفَ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢/٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠/١٦]، وأن يحمي الضعيف وأن يسعى للمعرفة والحكمة ﴿فَقُلْ لِلَّهِ الْمُلْكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْبَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/١١٤]، ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤/٢٢]، وأن يكون كريماً ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَُا الْفَقْرَةَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَتُكْفَرُ عَنْكُمْ مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١/٢]، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥/٤٩]، وأن يكون لطيفاً ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَالْمَجَارِ ذِي

الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا [النساء: ٣٦/٤]، وأن يكون مسالماً ﴿وَلَا يَجْرُمُوا لِلَّهِ فَاجْتَنِبُوا مَا وَكَّلَ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١/٨]؛ ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣/٢٥]؛ ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَهْزِمَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥/٤٧]؛ وأن يحب الآخرين. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسِعًا ﴿١٩﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا﴾ [مریم: ٩٦/١٩-٩٧].

ينبغي أن نعلم الآخرين هذه الفضائل ونشجعهم على ممارستها ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْمَةِ﴾ [البلد: ١٧/٩٠]؛ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣/١٠٣] علينا أن نتعلمها ضمناً وننشأ عليها كذلك.

تتضمن قصص الأنبياء أوامر رسل الله إلى مجتمعاتهم وأسرههم كي يتبنوا هذه الأخلاق، ولكن أكثر الناس كانوا يُعرضون.

ليس في قائمتي ما هو بارز بصورة خاصة، وليس فيها ما يشير إلى سبب عدم إمكانية تلافي المعاناة البشرية، وليس فيها مفتاح لفهم السبب في عدم برمجتنا بحب الله، فكل ما في هذه القائمة هو: «علينا أن نكون مقسطين، صادقين، رؤوفين، رحماء، لطفاء، كرماء، حماة للآخرين، غفورين، مسالمين، حكماء، ساعين للمعرفة، محبين.. إلخ».

ما زالت أفكارنا تدور في دوائر. فأننا قادر على الفهم بأن هذه الصفات تجلب الصفاء والسكينة، أما كيف تيسر الاتصال بالله، فهذا ما لم أفهمه.

لو كان الله واحداً منا

لو كان الله واحداً منا لهانت الأمور أكثر، لأنني عندئذ سأستطيع فهمه فهماً يمكنني - على الأقل - من إدراك العلاقة بين الأعمال الصالحة وحب الله. إذ يمكنني فهم الآخرين لأنني أشاركهم خبرات وتجارب، ومخاوف متماثلة، وأمالاً

وأحلاماً متشابهة، وحاجات ومصاعب وأفراحاً متقاربة. يمكنني أن أنتمي إليهم وأرتبط بهم، لأننا كائنات من نوع واحد لا نختلف إلا بفروق طفيفة. أما الله فليس كأحدنا. إذ يذهب القرآن إلى القول بأننا لا يمكن أن نفهم الله، وأن الله يتعالى عما يصف الناس ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠/٦] وأنه ليس كمثله شيء ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَأَيْسَ كَيْمَلِيهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١/٤٢] ولا يقارن بشيء، وليس له كفؤ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤/١١٢]. ولا يمكن أن يكون الأمر سوى ذلك. إذ كيف للكائنات البشرية الفانية والمحدودة والمادية، والمعتمدة على غيرها، والمعرضة للمخاطر والضعيفة والمقيدة والمخلوقة والمحدودة بالزمان والمكان، أن تفهم من هو خالد، وغير محدود، وغير عادي، ومستقل تماماً، غير معرض لأي مخاطر، القوي العليم الحكيم خالق كل شيء ومتجاوز لكل شيء. ليت القرآن أعطانا مزيداً من أوصاف الله؛ بحيث نستطيع ملء الفراغ في السطور. فانا لم أسر في هذا الطريق الطويل فقط لاكتشف أن الله لا يمكن فهمه ولا إدراكه، وأنه سر غامض ولغز لا يحل، وأنه لا أمل لي.

لا عجب في أننا نحن البشر ننزع إلى تأليه أنفسنا وإلى أنسنة الله. وبالرغم من أن هذا يخلق لي معضلات عقلية منطقية أكبر فإنها قابلة للحل؛ إذ يُضفي ذلك شيئاً من الواقعية الملموسة على الله. أظن أنني أحب أن أمتلك كعكة، وأكلها أيضاً. وأريد أن يكون الله منزهاً عن الخلق، مختلفاً كلياً عن البشر الذين أنا واحد منهم، وأن نستطيع الوصول إليه في الوقت نفسه.

يالبلاهي، إذ كنت أوهم نفسي بأن القرآن يمكن أن يجسّر الهوة اللامحدودة بين الله والبشر، وبأنه سيربط منطقياً بين المعاناة البشرية والحب الإلهي. إننا لا نفهم الشخصية البشرية؛ فكيف يُعقل أن نفهم العلاقة بين الله والإنسان. لقد قرأت القرآن كله لأبرهن لنفسي أنني كنت محقاً دائماً في افتقار أي نوع من العقلنة اللاهوتية للوجود البشري.

وأخيراً بدأت أرى الأمور بوضوح ثانية. كنت مخطئاً عندما قلت: إننا نفهم - نحن البشر - بعضنا بعضاً. فنحن لا نفهم إنسانيتنا، ولا نعرفها إلا من خلال التجربة. فأنا لا أفهم من أنا تماماً، ولا ما دوافعي ونوازمي، ولا أفهم حالات القلق التي تنتابني، ولا أحلامي، ولا عواطفني، ولا ضميري ولا نفسي. فأنا لا أفهم البشرية فكرياً. بل أفهمها من خلال كوني بشراً. ومن ثم فإن معرفتي بالبشرية معرفة شخصية لا موضوعية. فإذا ما كنا عاجزين عن الاقتراب من معرفة الإله، وهذا هو موقف القرآن، على ما يبدو، فإننا لا نستطيع فهم الله بطريقة واقعية ذات معنى. وبما أن القرآن يصر على أن الله لا يماثل شيئاً من خلقه، وأنه لا شيء مما نعرفه يستطيع الإحاطة به، فإن القرآن يجعل من المستحيل عملياً إقامة علاقة معه. وعلى الرغم من أن المؤلف قد شقَّ حملة رائعة وقدم قطعة أدبية منطقية رائعة، فإنه لم يعرض تفسيراً متناسقاً كاملاً لسبب وجودنا على الأرض. ومع ذلك فإنه لا يوجد ما يخجل منه، لأنه قصّر فيما يقصر فيه حتماً هو وغيره، إذا ما وقعوا في الفضاء غير المحدود بين الله والإنسان.

كان هذا بالنسبة إلي إدراكاً أجوف، فلم أشعر بالنصر في أي شكل من الأشكال. فقد مرّت علي أوقات وأنا أقرأ فيها القرآن، وأكون على وشك الاستسلام، أشعر أن كلمات المؤلف -صوته- تغمرني وأن الله هو الذي يكلمني من خلال هذا الكتاب. ولا أرتبك إن قلت: إنني كنت متأثر بحيث تنهمر دموعي على وجعتي في مناسبات عديدة، وأشعر أنني في حضرة قوة هائلة ورحمة غامرة. كانت اللحظات الروحية هذه تأخذني دائماً على حين غرة. وكنت أحاول مقاومتها، وإبعادها عني، ولكنها كانت أقوى من أن تقاوم، وكانت مؤثرة جداً بحيث لا يمكن دفعها، لذلك كانت مقاومتي تضعف أكثر كلما توغلت في النص أكثر. وأنت عليّ لحظات تيقنت فيها من وجود الله، عندما كنت أشعر بوجود إله أعرفه، ولكنني كنت أحاول نسيانه. لم أعرف إن كنت في حالة أفضل أو أسوأ لدى قراءة القرآن، ولكنني عرفت أنني تغيرت، وأني لم أعد أثق بالحدادي.

حتى في هذه الحالة، فقد آن الأوان لأن أستمّر في حياتي، آن الأوان أن أتوقف عن تعذيب نفسي بشأن وجود الله، وأن تعيق هذه المسألة سعادتي. من

الأمور التي جذبتني إلى سان فرانسيسكو هي أنها مكان يعيش الناس فيه حياتهم بكل أبعادها. وبعد إحدى وعشرين سنة من التعلّم في المدرسة، أصبحتُ جاهزاً لجني منافع عملي. آن الأوان لأنفع نفسي. لدي الدوافع ولدي الفرصة والوسيلة. كنت شاباً، أعزّب، يقال: إني وسيم، وحياتي العملية المهنية جيدة. فقد آن الأوان لأبدأ المرح.

اذكر اسمي

ثم، بعد قراءتي للقرآن بوقت ليس بطويل، ربما بعد أسبوعين، أخذت أفكر فيه. كان يخطر ببالي على صورة سلسلة غير متوقعة، أفكر فيه وأنا أشاهد مباراة كرة قدم على شاشة التلفاز، وعندما اغوص في عالم وعي.

ليس صحيحاً أن القرآن لا يخبرنا عن الله إلا قليلاً، بل إنه يخبرنا كثيراً كثيراً، ولكني، لسبب ما، لم أنتبه إلى ذلك. فلو ألقيت نظرة سريعة على مطلع أي سورة، أو انتقلت إلى أي صحيفة من القرآن لوجدت ما كنت أبحث عنه إن قرأت الآيات بتروّ وعناية؛ لأن القرآن يحفل بالآلاف الأوصاف لله، التي تربط بين العمل الصالح بالاقتراب أكثر من الله.

وعلى الرغم من أنني قرأت القرآن من الغلاف إلى الغلاف، وتأملت في كل آية وحللتها، فقد أهملت في ذهني الإشارات الوفيرة إلى صفات الله في القرآن. إنها تكاد تثقب الصحائف، وترد على هيئة بيانات وصفية ثنائية بسيطة، مثل: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٤/١٢٩]، و ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٢٦/٦٨] و ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١٧/١].

يشير القرآن إلى هذه الصفات بالأسماء الحسنى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٨٠]. ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١٧/١١٠]. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨/٢٠]. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَيْكَ الْفُؤَادُ أَسَلَّمُ الْأُمُورِ الْمُهِيمِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ الْمُتَكَبِّرِ سُبْحَنَ اللَّهِ

عَمَّا يُتْرَكُونَ ﴿٣٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الحشر: ٢٣-٢٤].

كنت أعتقد أن القرآن يستخدم الأسماء الحسنى هذه كابتكار أدبي يتوج بها صفحات القرآن، ويجعل فواصل بين الموضوعات. ولهذا السبب كنت أقفز عنها في كثير من الأحيان دون أن أوليها اهتماماً جاداً. أما الآن فقد شعرت أنني لا أقدرها حق قدرها ولا أفهم مغزاها، فبدأت أدونها على عجل. يمكنني أن أتذكر منها ما يأتي: «الله الرحمن الرحيم الغفور الرؤوف السلام الودود المقسط الكريم المحسن العظيم العزيز الحفيظ الحق العليم الحكيم الحي.. إلخ».

أرى أمامي مباشرة تلك الرابطة التي كنت أبحث عنها، فهذه القائمة تتقاطع كثيراً مع القائمة التي جمعت فيها من مثل الفضائل التي يحتاجها الرجال والنساء لكي يتطوروا ويرتقوا وتكملها. وفيها التضمين واضح؛ بما أن الله هو كمال الفضائل التي ينبغي أن نكتسبها، فإننا كلما نمونا فيها ازدادت قدرتنا على معرفة الله والإحساس به. وكلما ازددنا نمواً في الرحمة تعاظمت مقدرتنا على معرفة رحمة الله غير المحدودة. وكلما ازددنا رافة، ازددنا مقدرة على معرفة رافة الله. وكلما تعلمنا الصفح والغفران أكثر، ازددنا مقدرة على معرفة غفران الله وعفوه غير المحدود. ويمكن أن نقول هذا أيضاً، في الحب والصدق، والحقيقة، والعدالة، واللطف، وما إلى ذلك. فكلما ازداد نمونا في هذه الأمور، ازدادت مقدرتنا على تلقي أسماء الله الحسنى الكاملة واستيعاب مضامينها.

ربما يفيدنا استخدام القياس التمثيلي؛ كنت أملك سمكة ذهبية، وكلباً رائعاً، ولدي الآن ثلاث بنات. أما السمكة، فلكونها محدودة الذكاء والنمو يمكنها معرفة حبي لها وتعاطفي معها، وتحس بهما على مستوى متدنٍ نسبياً، بغض النظر عن مقدار اللطف الذي أوجهه لها. في حين أن الكلب، الحيوان الأكثر تعقيداً وذكاء من السمكة يستطيع الإحساس بالدفء والعطف نحو الآخرين على مستوى أعلى بكثير من مستوى السمكة، وبذلك يستطيع الإحساس بالحب والعطف الذي أوليه له بدرجة أكبر. ومع ذلك، فإن لدى بناتي - حتى

قبل أن ينضجن - مقدرة على الإحساس بشدة حبي ورعايتي لهن على مستوى لا يمكن لكلي أن يدركه. ذلك لأن لقدرتهن على الإدراك والحصول على المعرفة مباشرة، بفضل عواطفهن وعلاقاتهن ومشاعرهن الأعمق والأغنى من كلي. فبالقياس، كلما كان مستوى الخير عندنا أعلى، كانت مقدرتنا على إدراك الخير اللامتناهي، الذي هو الله، والارتباط به أكبر.

ولكي نزداد قرباً من الآخرين، فإننا نتوجه إليهم بما نشاركهم فيه. فعندما نوّد الاقتراب من الآخرين مادياً فإننا نقرب أجسادنا من أجسادهم أكثر. ولكي نصل الآخرين فكرياً فإننا نتوجه إليهم عن طريق العقل في أثناء محاولتنا الارتباط بهم عقلياً لتحقيق تفاهم متبادل. ولمزيد من الاقتراب العاطفي للآخرين فإننا نتوجه إليهم بمشاعرنا محاولين تحقيق تقارب بين عواطفنا. وبما أن الله هو النبع المتعالي للخير كله فإننا نتوجه إليه عن طريق الخير الذي يغرسه فينا. يخبرنا القرآن أن الله ينفخ من روحه في النفس البشرية ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَحَمَلَ لَكُمْ أَلْسُنَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩/٣٢] الأمر الذي يدل على أن كل من يأتي إلى هذا العالم منا يحمل في ذاته بذرة من صفات الله. على أي حال، يعود الأمر إلينا، إلى خيارنا، في أن نفتتح أنفسنا على رعاية هذه البذرة وتغذيتها بفضل تلقي إشعاع الله وإدراكه والعمل بموجبه.

أخذت قطع اللوحة كلها تتجمع، ففي حين أننا لا نستطيع الاقتراب من فهم الله فإننا نستطيع الإحساس بأسمائه الحسنی - بوجوده - إحساساً وثيراً بوصفنا متلقين لخير الآخرين، وحتى بصورة مباشرة أكثر بوصفنا فاعلي خير ومن الذين يعملون الصالحات. وفي كل مرة نبدي لطفاً أصيلاً إلى الآخرين، نحسّ بشيء من اللطف غير المحدود المتأصل في الله الكريم. وفي كل مرة نصفح عن أخطاء الآخرين نشعر بشيء من العفو غير المحدود الصادر عن الله الغفور. وفي كل مرة نقف فيها مع حقوق المضطهدين، نحسّ بشيء من الرعاية غير المتناهية التي يقدمها لنا الله الحفيظ. وفي كل مرة نكون فيها أمناء صادقين نشعر بشيء من الحقيقة الصادرة عن الله الحق. بفضل هذه الطرق نغدو أدوات يدرك بفضلها الآخرون وجود الله. فرحمة الله ورأفته، ولطفه، وسلامه وغير ذلك

من صفات الله تناسب من خلالنا لتغمر الآخرين من حولنا، فنصبح بذلك مساهمين في هذا التوزيع الإلهي. وهكذا فلدينا إمكانية لمعرفة الله على مستوى أعمق مما نستطيع فهم أي من الرجال والنساء؛ لأن الله يصل إلى الآخرين من خلال كينونتنا، ونحس بشيء من خيره غير المتناهي وكأنه خيرنا. وهذا يجعلنا قادرين على الوصول إلى مستوى من المحبة الحميمة لله، لا تستطيع أي علاقة بشرية أن تصل إليها.

حتى إن كنا لا ندرك إحساسنا بالإله - ولو كنا نكفر بوجوده - فإننا، مع ذلك، نمارس أسماءه الحسنی، ولكننا نصم آذاننا، ونعقد ألسنتنا، ونعمي أبصارنا عن مصدر هذه الأسماء. هذه هي المأساة الكبرى - الخسارة القصوى - حسبما ورد في القرآن، لأننا نجرد أنفسنا من وسائل الاقتراب من الله. إننا نعرف شيئاً من الخير، في حين نحجب أنفسنا عن الرحمة غير المتناهية التي هي أصل الخير، الرحمة التي تذكرنا دائماً بأهمية الإيمان إضافة إلى أنها تردنا دائماً إلى الأعمال الصالحة.

ينبغي رعاية الإيمان وتغذيته باستمرار، ليس فقط بعمل الخير مع الآخرين، ولكن بالتدريب الروحي الذي يتضمن الشهادتين، والصلاة، والصوم والزكاة والحج، والتأمل والتفكير والدراسة، وعلينا تنمية روحانيتنا بحيث نغدو أكثر معرفة بوجود الله العميم في حياتنا. وعلينا أن نعمل لنصبح أكثر إدراكاً لآيات الله التي لا حصر لها وهي تحيط بنا، وتنتشر في الطبيعة، والأهم من ذلك الآيات الموجودة في أنفسنا وفي الآخرين لأن كل عمل لطيف، وكل عمل نبيل، وكل إظهار مخلص للفضيلة يكشف عن وجود الله. ربما لا نراه بأم أعيننا، ولكننا نعرفه وندركه بقلوبنا التي تُعدُّ موطن الفضيلة والروحانية داخلنا.

لذلك فإن الشعائر الدينية عنصر هام في برنامج القرآن للتنمية البشرية. وأستخدم كلمة (شعائر) بدلاً من (عبادة) لأن للعبادة في القرآن مفهوماً شاملاً يمتد إلى ما وراء الشعائر. فكلمة (عَبَدَ) العربية التي تترجم عادة إلى (to worship) بالإنكليزية تعني حرفياً (يخدم) أو (يتوفر على...) وتتضمن أي عمل صالح يؤديه

(٣) مثالها الأضاحي التي تقدم في الحج، إذ يقول القرآن بوضوح: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لَحْوَهَا وَلَا دِمَازُهَا وَلَكِنَّ يَبَالُهُ النَّفْسُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٢٢/٣٧].

المؤمنين خلال الشعائر، يركزون بوجه خاص على علاقتهم بالله. ومع ذلك، فإن بعض المؤمنين، خصوصاً أولئك الذين وصلوا إلى درجة عالية من التقوى والتواضع والسلام الداخلي الذاتي، يشعرون بهذا الحب ويستمتعون به بقوة أكبر، وفي مرات أكثر من سواهم. ويبدو - للمرة الثانية - أن النمو في الخير والعمل الصالح يزيد من قابلية تلقي المؤمنين لأسماء الله الحسنى، سواء على صعيد مقدرتهم على استيعابها في ذواتهم، أو على صعيد مقدرتهم على الإحساس بها في أثناء أدائهم للشعائر الدينية. ومع ذلك فإن الإحساس بالحب الإلهي في هذه الحياة لا يكاد يشير إلى الإحساس به في الحياة الآخرة عندما تنزع الأقنعة والمغويات الدنيوية.

قام في تراث أديان كثيرة، جدال واسع حول مسألة الأولوية: الإيمان، أم العمل؟ هذا السؤال خاطئ من وجهة نظر القرآن، لأنه يلح على الخيار، حيث ينبغي ألا يكون هناك خيار، لأن الاثنين ضروريان وجوهريان، يعزز كل منهما الآخر ويزيده. فالإيمان يدفع إلى الأعمال الصالحة التي تزيد بدورها مقدرة تلقي أسماء الله الحسنى والإحساس بمدلولاتها؛ وهذا الإحساس بدوره يزيد إيمان المرء، الذي يزيد من رغبته في القيام بالأعمال الصالحة، وهكذا، فإن كلاً منهما يعد وظيفة للآخر، صعوداً إلى الأعلى بحركة حلزونية مستمرة نحو مصدر الخير والصلاح كله. فعندما نرتقي في الفضائل التي يعود مصدرها غير المحدود إلى الله، فإننا ننمي مقدرتنا على معرفة الله وننتهي إليه بفضل الحب.

تبدأ قصة آدم في القرآن بالإعلان عن أن الله سيجعل في الأرض خليفة يمثله ويتصرف نيابة عنه ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠/٢]. عُرِضَ الإعلان كتفويض خاطف، كمهمة أعلنت على الملائكة. إنه اصطفاء مشرف لما خلقنا من أجله. عندما قرأت هذا المقطع أول مرة صعقت بشدة كما صعق الملائكة؛ إذ كيف يمكن لهذا المخلوق الأكثر تمرداً وتدميراً أن يمثل الله في الأرض؟ لقد رأيت، كما رأى الملائكة، جانباً واحداً

من جوانب البشرية، ألا وهو النزعة إلى فعل الشر، و «نشر الفساد وإراقة الدماء». بالطبع هناك رجال ونساء كثير لا يمثلون الله خير تمثيل. ولكن مقدرتنا على فعل الشر والضلوع فيه جاءت مع مقدرتنا المتبادلة والمعاكسة لها على فعل الخير والاضطلاع فيه، ويبدو أن الخير أكثر من الشر في هذه الدنيا بوجه عام، وإلا كان جنسنا قد دُمّر نفسه منذ زمن بعيد. ولا بد من وجود أشخاص يُعدون مثلاً أعلى في الخير يتوفرون على مساعدة الآخرين في سبيل محبة الله. هذه هي الخلافة التي يدعونا إليها القرآن. فالخلافة تعني أكثر من مجرد تبليغ رسالة أو تنفيذ أمر، إنها تعني أن يحس الآخرون بأسماء الله الحسنى ويتذوقوا دلالاتها من خلال الإنسان. مثل هؤلاء الأشخاص يصيحبون مَصافي (إذا جاز التعبير) ومرشحات للنور الإلهي لأن خير الله يصل إلى الآخرين من خلالهم. وكلما ازداد نموهم في الخير بفضل توفرهم على فعل الخير، والتضحية بالذات، والتعلم، تعاظمت مقدرتهم على تلقي أسماء الله الحسنى وإدراك دلالاتها، وتمثيلها؛ وما شعورهم بوجود الله وحضوره في هذه الحياة إلا إيذاناً صغيراً بما ينتظرهم في الحياة الآخرة.

تَراجُح

فتنني محمود قنديل. كان كريم الوفاة جداً، كان وسيماً، ذكياً، ساحراً، شهماً، محباً للمزاح، وعلى الرغم من أنه كان صغيراً، وليس ثرياً - وإن حاول أن يبدو كذلك - فقد نجح في أن يصبح جزءاً من الجمهور الداخلي في سان فرانسيسكو. وعندما كنا نتجول في المدينة، كنت أبدو كأني مع شخص مشهور شاب، دونالد ترمب (Donald Trump) شرق أوسطي. وحيثما ذهبنا كان الناس يتحلقون حوله، كان محمود يحب لفت الانتباه ويتمتع بالرفاء، لكنه لم يكن يخشى أيّاً منهما. إذ لم يكن ذلك الغريب الذي تجحظ عيناه دهشة لما يرى من نمط حياة الأغنياء والمشهورين؛ لم يكن يظهر عليه أي انطباع تجاهها وكأنها مألوفة جداً إليه. وعندما يكون في مجتمعات راقية يبدو عليه الاطمئنان ولا يقلق ولا يتوتر.

كان محمود قادراً على الوقوف إلى جانب الدين. كان يتحدث أحياناً عن الإسلام ويدافع عنه بحماس. وكان - بين حين وآخر - يعزل نفسه عن دائرته لينصرف للصلاة والصوم. وكان في بعض المرات يلوح إلى الإثم الذي يشعر به جزاء أسلوب الحياة السريع الذي يعيشه. كان محسناً كبيراً وحساساً جداً تجاه معاناة الفقراء، يفرغ محفظة نقوده ليعطي ما فيها إلى سائل، وقد يشعر بالندم لأنه لم يعطه ما يكفي. كنت أجد سهولة في بحث الدين مع محمود لأنه كان صديقاً رائعاً ولا يهمه أن يعتنق الآخرون دينه، وكنت بحاجة للانفراد به، بعيداً عن الجمهور.

دعاني محمود ذات ليلة لتناول العشاء في شقته مع أسرته. وعندما وصلت أدخلتني أخته راجية، إذ كان محمود يغير ملابسه في غرفة النوم.

جلست في غرفة الاستقبال بانتظاره، كان محمود يحب الموسيقى، كل أنواع الموسيقى - روك - أند - رول، ريدم أند بلوز، كلاسيك - أما الليلة فقد سمعت صوتاً غريباً صادراً عن جهاز الاستيريو. كان بطيئاً، إيقاعياً، دقيقاً، ينشد على ما يبدو باللغة العربية لا ترافقه موسيقا، بل مجرد صوت فريد خفيض يؤكد على كل حرف صامت وكل مقطع. كان للترنيل إيقاع متكرر ذو لحن قوي، معقد منضبط، بدا وكأنه يكبح جماح حماس غامر. لم أسمع بحياتي شيئاً كهذا.

عندما دخل محمود توجه فوراً إلى جهاز الاستيريو وأطفأه. وعندما سألته عن الموسيقى التي كنت أصغي إليها قال: إنها ليست موسيقا، ولكنه شريط مسجل لشخص يقرأ القرآن. فسألته: «هل للقرآن كله مثل هذا البناء القوي وزناً وقافية؟ إنه يبدو كالغناء - فهل هو شعر؟».

قال: نعم إنه غناء، ولكنه ليس شعراً. وقال: إن للشعر العربي أسلوباً مميزاً جداً، وإن للقرآن أسلوباً مختلفاً عنه كلياً.

لم أعد أسأل (محمود) عن القرآن تلك الليلة، إذ كنت متأثراً بروعته وقوته في الترجمة، ولم أكن أتصور أبداً أن يكون للقرآن مثل هذه الجمالية الغنائية الأصيلة.

عندما بلغت الثامنة والعشرين من العمر كنت أقمت قلعة حصينة من النقاش ضد وجود الله، ولكن عندما أخذت أشق طريقي عبر القرآن، بدأت أرى هذه القلعة تنهار حجراً بعد حجر. وما إن أنجزت قراءة القرآن حتى بقي لدي اعتراض واحد هو أنني لم أستطع أن أجد رابطة بين عمل الخير والاقتراب من الله. وعندما اكتشفت أخيراً هذه الرابطة الجوهرية بفضل التأمل والتفكير في أسماء الله الحسنى، تبين لي أن الأمر بسيط جداً بحيث عجت كيف لم أستطع استنباطها وحدي. ومع ذلك، ساعدتني قراءة القرآن على إضاءة أفكارتي وتنظيمها وترتيبها حسب الأولويات وتحليلها. لقد نفذ القرآن ما وعد به، إذ أرشدني من خلال أسئلتي - شريطة أن يكون لدي الرغبة في مواجهة الأجوبة - ولكنني لم أعد متأكداً ما الذي تعنيه هذه التجربة، لأن نظرتي كانت تختلف عن نظرة القرآن فيما يتعلق بما نسعى إلى تحقيقه، كنت أسعى لأكسب النقاش، بيد أن القرآن يسعى لكسب النفس عن طريق تحذيراته المستمرة من العواقب الوخيمة التي تترتب على رفض آيات الله.

كنت أشعر خلال مواجهتي للقرآن أنني كنت المعتدي دائماً، إذ أ طرح قضيتي ضد الكتاب بجرأة. وكنت أشعر دوماً أنني أحتفظ على الأقل بشيء واحد في موقع الدفاع، وكان يغرر بي كجورج كستر (George Custer) إلى مواجهة خلافات وفروق غامرة. لقد ظهرت معضلتي في تلك اللحظة من العواطف القوية الغامرة عندما تذكرت أسماء الله الحسنى، حيث شعرت أن التيار أصبح ضدي في تلك اللحظة. ومع ذلك فإني الآن في حالة تراجع، لست على وشك الاستسلام. كنت بحاجة إلى تجميع أفكارتي ومراجعة موقفتي ودراسة بعض الأسئلة والقضايا.

يبدو لي أن للقرآن رؤيةً شاملة للحياة. وأهم فكرة يطرحها القرآن فيما يتعلق بهذا الموضوع هي أن الحياة على الأرض ليست عقوبة على خطيئة أحد أو على أي إثم، بل هي مرحلة تنموية تطورية في خلقنا. لم تقع الكائنات البشرية في الخطيئة، إذ ربما كانوا في زمن ما من الماضي بدائيين لم يصلوا بعد إلى النضج الفكري الذي يؤهلهم للتفريق بين الصواب والخطأ والاختيار بينهما، ولكن

القرآن لم يطرح هذه الصورة كمرحلة مفضلة. إلا أن ما يميّز البشر من بقية المخلوقات هو عقلهم وذكاؤهم، الذي يجعلهم متعلمين متفوقين؛ وهذه السمة جعلتهم متفوقين على الكائنات المخلوقة الأخرى. يخبرنا القرآن منذ البداية في قضية آدم أن البشر سوف يقدرّون على تمثيل الله في الأرض. وعليهم أولاً أن ينمّوا مقدرتهم على التفريق بين الخير والشر - أي إنهم بحاجة لأن يكونوا عناصر أخلاقية. - ولم يتم ذلك حتى اكتسب الرجال والنساء القدرة على الاختيار بين الخير والشر والصواب والخطأ، وأصبحوا جاهزين للاضطلاع بمسؤولية الخلافة.

إن تمثيل الله في الأرض تعد مهمة ثقيلة وخطيرة تتطلب مقدرات عالية من التواضع والتضحية الذاتية والصبر. ويعني هذا التمثيل بذل أقصى الجهد ليصبح المرء أداة لله توصل ما يوحي به من خير إلى الآخرين. وتتطلب النمو في الفضائل التي ترجع أصولها وكمالها إلى الله، ومشاركة كل من نستطيع في الخير الذي نملكه. ويؤكد القرآن أن هذه المهمة ليست سهلة - فهو يصفها ويشبهها بصعود الجبل (الكدح)، ولكنه يعد بأن تكون المكافأة كبيرة. وليس على التقي أن يصل إلى السلام الداخلي والصحة النفسية، فحسب، بل عليه أيضاً أن ينمي مقدرته ليشعر بحب الله غير المتناهي ويمارسه، لأنه كلما خبرنا جمال الله وأدركناه أكثر، ازدادت قدرتنا على الانتماء إليه، في هذه الحياة الدنيا، وفي الحياة الآخرة.

يتصف مفهوم الحياة وغايتها بتوجه عقلائي محدود، ولكن هل يفسر وجودنا الأرضي؟ ألا نستطيع خلق الخير، وبرمجة أنفسنا لتكون رحماء عطوفين، لطفاء، عاملين، صادقين من دون أن نعيش من خلال آلام الكفاح الدنيوي وصعوباته؟

ليس الزمن هو القضية هنا. فأننا لا أبحث مسألة طول مرحلة خلقنا هذه، لأن الزمان، كما ينبئنا القرآن، شيء وهمي، ولأن الله يتجاوز ويتجاوز المكان ويسمو عليهما - أي البيئة الزمنية التي نعيش فيها، لأن الله دائماً واحد - لحظة فريدة خالدة خارج الزمن - وهكذا، سواء نَمَّ خلقنا عبر قرون عديدة أو في جزء

من الثانية فتلك مسألة لا صلة لها بالموضوع ما دام الأمر عند الله ليس سوى أمر واحد: «كن فيكون»^(١). وعلى الرغم من أنني لا أعترض على الزمن، فإني تفحصت ضرورة وجود مظاهر معينة أخرى من مظاهر الخلق، وخصوصاً المعاناة البشرية.

من أهم الأفكار التي يطرحها القرآن هي أن الله يخلق باستمرار وعلى مراحل. فالأشياء لا تظهر في شكلها النهائي من لا شيء، بل تسير في مساق مستمر من النمو والتطور. ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٤/١٠]. ﴿أَنْ يَبْدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [النمل: ٦٤/٢٧]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفُوسَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلَمَّةً مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ١٤ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ نَسِيتُونَ ۝ ١٥ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا الْقَبَسَ بُعْثُوتَ﴾ [المؤمنون: ١٦-١٢/٢٣]. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ ١٨ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْفِثُ النَّفْثَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٩/١٩-٢٠]. ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَنِينَةً أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦/٣٩]. ﴿يَتَخَسَّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُرَكَّبَ شَيْءٌ ۝ ٣٦ أَلَمْ يَكُنْ نَفْسًا مِنْ مَعْيِ يَتَنَّى ۝ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً مُخَالٍ فَسَوْىٰ﴾ [القيامة: ٣٨-٣٦/٧٥]. ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤/٥٩]. ﴿إِنَّهُ طَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ۝ ١٤ يَلَقَ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝ ١٥ فَلَا أَقْسَمُ بِالشَّفَقِ ۝ ١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ ١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ ١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ۝ ١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠-١٤/٨٤].

بالإضافة إلى أن الله يخلق الكائنات، فإنه يوجه تطورها ويرعاه. وهكذا فإن

المخلوق يصبح كينونة متغيرة باستمرار. فالعالم المدرك بالحواس خاضع للجريان والتغير، الله وحده، فقط هو المطلق.

يبين القرآن، في معرض إشارته إلى آليات عمل الطبيعة، كيف أن الله يزود كل مخلوق حي بالبيئة والتكوين والقوانين الملائمة لوجوده ونموه. فالشجرة مزودة بالتربة، والشمس، والمطر، والهواء، والقانون الوراثي، وكل ما يلزمها لتعيش وتنمو. وهذا نفسه ينطبق على أي مخلوق آخر بما في ذلك الإنسان. على أي حال، يذكرنا القرآن بأن نمونا الأولي والجوهري في هذه الحياة ليس نمواً مادياً، بل هو نمو روحي، فنحن هنا على الأرض لكي ننمو في الفضائل التي تعكس أسماء الله الحسنى وكماله، ومن ثم يصبح السؤال على النحو التالي: هل نحن مزودون بالبيئة والقانون الملائمين لنمونا الروحي؟ وإن كان الأمر كذلك، هل ستكون ملائمة كذلك لو أزيلت الآلام منها؟

إن مفتاح الوصول إلى الحقيقة هو إيجاد الأسئلة الصحيحة، الأسئلة التي تعزل القضايا الجوهرية. فعندما بدأنا تحقيقاً كانت أسئلتنا عامة وتحتوي أسئلة فرعية في ذاتها، ولكن إن كنا مفلحين، فسوف نتمكن من تقسيم بحثنا إلى عدد من الأسئلة التي لا تتقّلص ولا تُختزل، ومن ثم نجيب عنها واحداً تلو الآخر. هذا ما ساعدني القرآن على عمله. لم يزودني دائماً بأجوبة واضحة، ولكنه كان يرشدني من خلال عملية التساؤل. وعندما وصلت إلى السؤال المذكور آنفاً قبل لم أتعجب في البحث عن جوابه. فالأمر واضح بأننا مزودون ببيئة وقانون ملائمين لنمونا في الفضيلة. وهناك أمثلة كثيرة عَنَّا، وعبر تاريخ الشعوب التي وصلت إلى أعلى مستوى من الخير والعمل الصالح. وهناك أمثلة عديدة لحالات درامية تتعلق بمجرمين انقلبوا في النهاية إلى صالحين يضرب بهم المثل في الفضيلة. ففي حياتي الخاصة واجهت فرصاً عديدة للاختيار بين الصواب والخطأ، عرفت بفضلها نتائج الشر المدمرة، ونتائج الخير المعمرة. وعلمت بفضل ملاحظاتي وخبرتي أن السلوك الخاطئ والسلوك الصحيح يغيّدان عادة تتأصل في شخصية المرء.

وأصبح الأمر واضحاً لي الآن بأن المعاناة ضرورية لنمونا في الفضيلة. وينطبق القول نفسه على العقل البشري والإرادة البشرية. إذ يؤكد القرآن على كل من المعاناة والعقل والاختيار، بصورة متكررة، ويؤكد أن لها جميعاً أدواراً في تطورنا الروحي. إن عملية تعلم كيفية النمو في الرأفة، مثلاً، لا يمكن أن تدرك من دون المعاناة. وتحتاج كذلك إلى ميزة الخيار - أي المقدرة على الوصول إلى من هو بحاجة أو أن تتجاهله. والعقل ضروري ليتمكن المرء من تقدير ما يجب توظيفه من طاقات المرء في إبداء الرحمة والرأفة إلى الذين يعانون. وبالمثل كون المرء صادقاً يتضمن اختيار الصدق، كما يتعزز الصدق عندما يؤدي إلى خسارة شخصية ومعاناة يمكن التنبؤ بهما باستخدام العقل. فالزواج الشهير الآن الذي يطلب من الزوجين أن يلتزم بعضهما ببعض في المرض والصحة، في الغنى والفقر حتى يفرق الله بينهما، يعترف بدور الخيار والمعاناة والعقل في الحب. لأن القسم يطلب من الزوجين البقاء معاً بغض النظر عن المعاناة التي ربما يواجهانها مدركين تماماً ما الذي يستدعيه ذلك. والعفو يعد خياراً للصفر عن خطيئة ارتكبتها آخر حتى وإن أدركنا مدى الشر الذي أحدثه. وينطبق القول نفسه على الفضائل كلها مثل العقل، والإرادة، والمعاناة حيوية لتجرب هذه الفضائل ونذكرها.

على الرغم من أن الفضائل أمور مجردة وصعبة التحليل فإنه من المستحيل تخيلها مبرمجة، ومن المستحيل وجودها على مستويات عالية في مخلوق لا يملك القدرة على الاختيار، ولا العقل، وليس لديه معرفة بالمعاناة إلا قليلاً. فعمل الفضيلة أكثر من مجرد عمل، إذ له غاية، وفهم، ومحسن يرتبط به. يمكن برمجة الحاسب ليكون صحيحاً دائماً، ولكننا لا نستطيع وصفه بالصادق أو بالحكيم. وسמاعة الطبيب تساعد المريض، ولكننا لا نستطيع وصفها بالجهاز الرحيم. والقرآن يبين أن الملائكة لا يملكون إرادة حرة، وأن الرجال والنساء قادرون على الارتفاع فوقهم.

إن ما يجعل العمل فاضلاً وصالحاً هو إرادة فعله، واستحسان الحاجة التي يتوجه إليها ذلك العمل. فإن ألقىت بقشرة موز في الطريق، وبعد بضع ساعات

زلقت بها قدم لص وهو في طريقه ليسرق شخصاً مستأً فمنعه انزلاقه هذا من ارتكاب جريمة السرقة، فإنه لا يمكن أن يعد إلقائي لقشرة الموز سلوكاً عادلاً أو رحيماً من جهتي. إذ إن منعي للجريمة كان غير مقصود أبداً، ويفتقر للإرادة والفهم. وإذا أرسلت خمسة دولارات من دون بيان المرسل إلى ملياردير، فإنه لا يكون إحساناً لأن هذا العمل وُجّه إلى من ليس بحاجة إلى المال. ولا يعني هذا أن الإرادة والعقل والحاجة المدركة، هي المكونات الوحيدة للعمل الصالح - فهو أكثر تعقيداً وعمقاً من ذلك - إذ لا بد من وجود هذه العناصر الثلاثة قبل القيام بأي عمل صالح.

علق مدرب الرياضة بجامعة إعلناً في غرفة ملابس الرياضيين مفادها: «لا ألم، لا فوز» بمعنى أن تحسين الأداء الرياضي يتطلب منا الرغبة في المعاناة. واعتاد أستاذي أن يقول دائماً: إن التعلّم يتطلب اجتهاداً وصبراً. وقال لنا مدرس الرياضيات ذات مرّة: إن المسائل الصعبة هي التي نتعلم منها أكثر. لم أشك أبداً في أي من هذه البدهيات، لأنها واضحة وطبيعية. ويشير القرآن إلى أن القانون الطبيعي نفسه ينطبق على التنمية الروحية، فالكائنات البشرية مخلوقات متفوقة العقل الذي ينمو بالتعلّم، ولكن التعلّم يستلزم الاختبار، وهي نقطة يكررها القرآن دائماً. إن النمو الأخلاقي والروحي يتضمن تدريب إرادة المرء، واستخدام العقل وتنميته، ومعاناة المحن.

إن ممارسة الاختيار الأخلاقي يتطلب كذلك معرفة الصواب والخطأ في خياراتنا التي تبين إن كنا قد تعرضنا للإيحاءات الملائكية أو للوساوس الشيطانية. فكلهما (الشياطين والملائكة) يمارسان نشاطهما علينا بأن واحد ليثبتوا ويعززوا أخلاقية كثير من قراراتنا، ويقدموا معاً دوافع ومحفزات للتنمية الروحية. وللوحي دور تكميلي لأنه يصف السلوك التقوي والسلوك الشرير، ويضيء الطريق للنمو الروحي.

كنت قد بدأت أرى العناصر كلها التي قدمها القرآن في قصة آدم منسجمة مع

ما يقوله القرآن بشأن غاية الحياة. وكانت مناقشاتي ضد وجود الله آخذة في النفاذ بسرعة. ذلك بحد ذاته لا يبرهن على شيء، ولكني ألقت التفكير بأن لدي سبباً وجيهاً يجعلني ألا أومن. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَكَادُمُ الَّذِينَ هُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقُلْنَا يَكَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣١﴾ فَلَمَقَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتًا فَثَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٢﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٤﴾

[البقرة: ٢/ ٣٠-٣٩].

الممارسة، الممارسة، الممارسة

نشأت في بيئة إجرامية نوعاً ما؛ فكل ما عرفته كان غير شرعي. فانا لم أتعاط المخدرات ولا المشروبات الروحية، لأنني رأيت الإدمان يدمر والدي، وإخوتي الأربعة وعمي وكثيراً من أصدقائي. لم أتورط أبداً في اغتصاب جنسي ولا في ممارسة الجنس مع قاصر، رغم توافر الفرص. وكنت أتحاشى قدر الإمكان مشاحنات الغوغاء وعنف الجيران، لأنني لم أكن أخطط كي أقضي حياتي في بريدج بورت (Bridgeport) أو في كونيتكتك (Connecticut) أو في إصلاحية الولاية. لقد قضيت حياة مستقيمة إجمالاً، ولكنني لم أكن محصناً ضد الرذيلة.

فقد اقترفت أول سرقة في عمري من سوبرماركت عندما كنت في الحادية عشرة من عمري. إذ أخذت علبتين من العلكة تزن كل منهما ثمانين أونصات،

ثمن كل منهما خمسون سنتاً؛ كنت يومها عائداً إلى البيت من مدرسة القديس أندرو (St. Andrew). كنت متوتراً جداً بحيث استغرقت خمس عشرة دقيقة حتى نزعنا المسروقات. كنت أود حمل العلبتين إلى المخرج، ولكنني خشيت أن يراقبني أحد، فحملتهما عائداً إلى قسم الحلويات. وبعد أن فعلت ذلك عدة مرات، قررت إخفاءهما قرب باب المدخل الآلي على الأرض داخل المخزن. كانت خطتي أن أترك المخزن خالي اليدين، ثم أعود وأطأ على المدخل المطاطي لأفتح الباب الآلي، وأتناول العلبتين المخبأتين وأعود خارجاً من المدخل قبل أن يغلق خلفي. شعرت أن هذه الطريقة أسلم فيما لو خرجت من باب الخروج والعلبتان تحت قميصي، وقدرت أن موظفي أمن المخزن يراقبون أبواب الخروج ولا يراقبون أبواب الدخول. إضافة إلى أنني إذا لم أجد العلبتين مكانهما عندما أعود إليهما، سأدرك أنني كنت مراقباً.

إن خطتي - التي تبدو مضحكة عندما أفكر فيها الآن - قد مرّت من دون عقبات، والتقيت أصدقائي في المتزّه خارج المخزن. كان قلبي يخفق بقوة وأنا أصف لهم مآثرتي. شعرت بالراحة لأنه لم يُقبض علي، وكان أصدقائي لا يقلون عني فرحة بنجاحي، وعاملوني كبطل فاز بالضربة الحاسمة في لعبة كرة قدم. ولكن نشوتي وحماسي تلاشيا لحظة دخولي البيت. فمجرد رؤية أمي جلبت لي الشعور بالذنب. كانت أنموذجاً للأمانة، وكانت تثق بي كثيراً. وأدركت كم أسيء إليها، وأسبب لها الأذى إن علمت بما فعلت.

وجدت صعوبة في النوم تلك الليلة. شعرت بقلق ثقيل مستبد. لم أستطع التوقف عن التفكير في جريمتي، ولم أستطع التوقف عن التفكير في الله. شعرت كأنه يحيط بي، ينظر إلي، ليس بغضب، بل يراقبني بصورة حيادية غير آبه بي، وشعرت بخجل مريع. تمنيت لو أستطيع تخليص نفسي من ذلك اليوم، ومحوه من حياتي أو غسله ومسحه كلياً. تمنيت لو أستطيع إعادة علتي العلكة، ولكنني تصرفت بهما كليتهما. فكرت أن أشتري علبتين من السوبر ماركت وأعيدهما إلى الرّف، ولكنني لم أفعل.

تابعت سرقة أشياء صغيرة طيلة عشر سنوات تالية تقريباً. أعتقد أنني لم أسرق شيئاً ثمنه أكثر من عشرة دولارات، وكنت أفعل ذلك حوالي ست مرات في

السنة لا أكثر. وقد أصبحت في الوقت المناسب ماهراً في السرقة، لم يُقبَض عليّ أبداً.

عندما بلغت الحادية والعشرين من العمر دعوتُ صديقتي إلى وجبة بيتزا في مطعم إيطالي قرب الجامعة. وعندما انتهينا من الطعام، وضعت الشيك في جيب بنطالي وذهبت إلى أمين الصندوق، وطلبت منه علبة علكة ودفعت له ثمنها بفاتورة دولار، فأعاد إلي عدة كوينات (Coins) ثم خرجت والصبية دون أن ندفع ثمن العشاء.

تعجبت صديقتي كيف سرقْتُ مطعم البيتزا بهدوء. وقد تأثرت خصوصاً بالتهور الذي أبدته في ذهابي إلى أمين الصندوق طالباً علبة علكة بدلاً من مغادرة المطعم بأسرع ما يمكن. فشرحت لها أن النادلات والخدم في المدن الجامعية يراقبون الطلبة المتسكعين والمتهربين من الدفع، ولكنهم عندما يرون المرء يصرف نقوداً عند أمين الصندوق يظنون أنه يدفع الفاتورة. سألتني صديقتي إن كنت أشعر بالقلق والاضطراب من الإثم، فأجبتها كنت كذلك في الماضي، أما الآن فلم أعد أشعر بشيء، فبالممارسة يسهل كل شيء.

كان ذلك في وقت قريب جداً من الوقت الذي سرقته فيه آخر مرة. ورغم أنني أفكر في الماضي، فلنني لا أعرف ما الذي جعلني أكف عن السرقة. ربما لأن وضعي المالي قد تحسّن قليلاً. ربما كان لذلك علاقة بابتعادي عن بريدج بورت أربع سنين تقريباً. ربما بدأت أشعر أن الأمر لم يعد جديراً بمجازفة تؤدي إلى إلقاء القبض علي. كل ما أعرفه أن الأمر بدأ يقلقني ويزعجني.

إذا كانت غاية حياتنا أن ننمو في الفضائل التي منبعها وكمالها في الله، بحيث نمارس أسماءه الحسنی والحب الإلهي إلى درجات أكبر وأعلى، وإذا كانت الأعمال الصالحة تعزز هذا النمو، والأعمال الطالحة تحبطها، فإن الذي يريح أكثر من فعل الخير، أو يخسر أكثر من فعل الشر هو الفاعل، وبذلك يقول القرآن: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا

عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ [الأنعام: ١٠٤/٦]. ﴿فَمَنْ أَهْدَىٰ لَنَا سَبِيلَ إِنْشَاءِ وَمَنْ ضَلَّ فَعَلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢/٢٧]. ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦/٢٩]. ﴿فَمَنْ أَهْدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١/٣٩].

إن الأذى الذي يصيب فاعلي الشر نتيجة لارتكابهم أفعال الشر باستمرار يُعد أذى حقيقياً جوهرياً. إذ إن الشرور تعيق النمو في الفضيلة وتسبب تآكلاً في الروحانية بحيث يصيب الذين يرفضون الصلاح والتقوى معاندين أذى عنيف، ويعانون من الاضمحلال الروحي، فبدلاً من اكتساب ما يلزم لمعرفة الهدوء والسكينة في الحياة الآخرة، فإنهم يكتسبون عكس ذلك تماماً؟ إنهم ينمون صفات مناقضة لتذوق الجمال الذي ينتظرهم في الآخرة لولا فعالهم الشريرة. كما يسيطر عليهم الشر الذي ألفوه بحيث يصبحون هم الشر بذاته، وذلك هو الخسران العظيم؛ لأن النفس وحدها فقط هي التي تذهب إلى الحياة الآخرة.

يصور القرآن هذه الرابطة بين أعمال المرء وحاله في الآخرة برمزية مثيرة ممتعة. ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمَّتْهُ طَسِيرٌ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣/١٧]. ﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْدَلَ فِي أَغْنَايَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سبا: ٣٤/٣٣]. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاةً فَهُمْ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨/٣٦].

وسوف تشهد ألسنتنا وأيدينا وأرجلنا وجلودنا على حياتنا التي عشناها في الدنيا ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤/٢٤]. ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥/٣٦]. وسوف نأكل ثمار أعمالنا ﴿وَمَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُفُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٩] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَرَوْا مَعْلُومٌ ﴿٢١﴾ فَوَكَّدَ وَهُمْ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٢٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَنِيعِينَ ﴿٢٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ فَرْسٍ ﴿٢٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٢٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٢٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الْغُرُفِ عِينٌ ﴿٢٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٣١﴾ يَقُولُ أَهْلَكَ لَمَنِ الْمَصْدِيقِينَ ﴿٣٢﴾ لَوْذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَاكًا وَعَظَمْنَا أَنَا لَنَدِينُونَ ﴿٣٣﴾ قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّطْلَعُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَطْلَعَ قَرَاءٌ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٣٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرَوِّينِ ﴿٣٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ

الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلَيْنَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَا نَلَّكُمُ الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ
 الْفُورُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِيَسْلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ مُّزَلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّاقِمِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا
 جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبَّارِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ
 الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَكَائُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ ﴿٦٧﴾
 ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَكِلَى الْجَبَّارِ ﴿الصفات: ٣٩-٦٨﴾. إن العمى الروحي في
 هذه الحياة سيكون عمى وضللاً في الآخرة ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي
 الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/٧٢].

والذين يعيشون في نور الله في الحياة الدنيا سيجدون يوم البعث نوراً يسعى
 بين أيديهم وبأيمانهم ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرُكُمُ
 الْيَوْمَ جَنَّتْ بَحْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفُورُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ٥٧/١٢]،
 ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا نُورًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
 وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُمْ
 نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا نُورَكَ وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨/٦٦].

وما من عمل أخلاقي أو معنوي صغيراً كان أم كبيراً إلا وتظهر نتائجه في
 الآخرة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا
 يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧/٨-٧/٩٩].

توحي هذه الأوصاف بأننا عندما ندخل الحياة الآخرة تجسّد أشخاصنا
 حالتنا الروحية التي وصلنا إليها في آخر الحياة الدنيا. كما تبين حالة الوليد
 الفيزيائية عندما يأتي إلى هذا العالم تطوره ونموه الفيزيائي في رحم أمه، كذلك
 سوف يبين المرء عندما يدخل الحياة الآخرة مدى الخير والشر الذي اكتسبه في
 الحياة الدنيا. ومثلٌ من يدخل الآخرة شريراً كمثّل من يولد مشوهاً مجرداً مما يلزم
 للراحة الجسدية والمادية.

إذن ليس غريباً أن يكون الإثم مساوياً لتدمير الذات. ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا
 أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧/٢]، ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ أَثْنَائِ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ
 مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ ابْنِ صَرْبًا لِّعَصَاكَ الْخَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَثْنَا عَشْرَةَ

عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ
وَالسَّلَوَاتِ كُلًّا مِنْ طَيبَاتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿[الأعراف: ١٦٠/٧]﴾. «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [البقرة:
٢٢٩/٢]، «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ
رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَذَلِكَ حُدُودُ
اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَذَرِي لَاحِدٌ أَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا»
[الطلاق: ١/٦٥]، «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ» [آل عمران: ١١٧/٣]،
«فَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» ﴿آلَ يَاسِينَ نَبَأُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ ثُوجِ وَعَادٍ وَهُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٩/
٧٠]، «هَلْ يَظُنُّونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [النحل: ٢٣/١٦]، «فَكَلَّا
أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ
خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [العنكبوت: ٢٩/٤٠]، «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ
مِمَّا عَمَرُوهَا وَهَمَّائِهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»
[الروم: ٩/٣٠]، «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ» [هود: ١١/١٠١]، «قُلْ
يَتَّبِعُوا اللَّهَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا»
[الزمر: ٥٣/٣٩]،

لا يؤكد القرآن على الكمال قبل نيل السعادة العظيمة في الآخرة. إنه يعرض
هذه الحياة كطور من أطوار تطورنا ونمونا، ذلك الطور الذي لابد أن نرتكب فيه
أخطاء، وأن نتعلم من هذه الأخطاء. ومن الرموز الإسكاتولوجية^(١) التي تربط
النمو الأخلاقي والنمو الروحي بحالتنا يوم البعث هو الميزان الذي يزن الأعمال

(١) أي الإيمان بالآخريات كيوم القيامة وغيرها من عوالم الغيب (المترجم).

الصالحة يوم الحساب. فأما من ثقلت موازينه - الذي عمل الصالحات - فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه - الشرير - فأمه هاوية^(١).

التجربة والخطأ يؤديان دوراً جوهرياً في تطورنا خلال تعلمنا من خياراتنا ونموننا فكرياً وروحياً. عندما يكون للخطأ الذي نرتكبه تداعيات أخلاقية فإنه يصبح إثماً، وتزداد خطورته وأذيته مع إدراكنا الخطيئة ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُؤْمِنُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْثَى وَلَا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَهُمْ كَفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧/٤-١٨]. ومع ذلك إذا ما أدركنا أخطاءنا وندمنا وعملنا الصالحات بعد ذلك تكون الدروس التي تعلمناها مفيدة بوجه خاص، وبهذه الطريقة يتحول الذنب الذي ارتكبناه ذات مرة إلى مصلحة، ويسهم في نمونا في الفضيلة. ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٠].

إن الإحجام عن ارتكاب خطيئة لأننا حُذِرنا من ارتكابها شيء، وعدم العودة إلى الخطيئة لأننا لمسنا ضررها شيء آخر. إذن في الحالة الثانية تصبح الحكمة الكامنة وراء التحذير مطبوعة في القلب والعقل، لا نقرب من الشر لأنه محرم، بل لأن الذات تتراجع عنه غريزياً عند مشهد العودة إلى الاضطراب الداخلي الذي عانت النفس منه ذات مرة.

تماماً كما أن التجربة والخطأ ضرورتان حيويتان لتطورنا الفكري، كذلك هما ضرورتان حيويتان لتطورنا الروحي. إذ من دون احتمال الوقوع في الخطيئة

(١) ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩]، ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَاللِّبْرَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَمَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧/٤٢]، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ١﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٣﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٤﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ﴾ [القارعة: ١٠١/٦-١٠].

ليس لكل الخطايا التي نرتكبها وزن واحد، إذ يسبب لنا بعضها أذى وضرراً أكثر من بعضها الآخر. إضافة إلى أن الأعمال الصالحة تعوض النتائج السيئة للأعمال الطالحة، وأن المكافآت الإيجابية للخير تفوق كثيراً نتائج ارتكاب الأخطاء. ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ مُدْخِلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١/٤]. ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ فَحْشٍ لَمِيَوزَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا عَصَوْا هُمْ يَقْتَرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦-٣٧/٤٢]. ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّطَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْغَفْرِ هُوَ أَغْلَى بِكَ إِذْ أَنشَأَكَ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتَ أَجَنَّةٌ فِي بَطْنِ أُمْهَتِكَ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَغْلَى بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢/٥٣]. ﴿وَأَمِرَ الصَّلَاةَ طَرَفِي الثَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَلْبَلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١/١١٤]. ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا أَلْسِنَاتٍ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٢٨/٨٤].

تؤكد هذه الآيات مرة أخرى أن الإحجام عن ارتكاب الخطيئة إطلاقاً ليس مطلوباً لدخول الجنة في الآخرة، لأنه لا يخلو أي منا من عيب، فالإنسان ليس كاملاً، لذلك نرى أن الآية (٣٢) من سورة النجم تقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَغْلَى بِمَنِ اتَّقَى﴾ إنه لا ينبغي لأحد أن يدعي النقاء والصفاء. وبدلاً من ذلك يحثنا القرآن على الكفاح وبذل الجهد، كي ننمو في الفضيلة؛ لأن رحمة الله ورافته هما اللذان يُطهرانا في النهاية.

ومع ذلك هناك ناسٌ يخفقون في تخلص أنفسهم من الرذائل الخطيرة (الكبائر) التي ارتكبوها، بالرغم من أنهم يحبون الله ويتعذبون بالندم. ويوحى القرآن أنه حتى مثل هذه الخطايا الخطيرة لا تقود دائماً إلى المعاناة في الآخرة. ﴿قُلْ يَكْفِ بِكَ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْقِرُونَ الرَّجِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

= نَكْرِهُنَّوْهُوْ وَالْقُرْآنُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ [الحجرات: ١٢/٤٩]، ﴿سَيَجْزِي بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُمْ كَانُوا تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣/١١٠].

ومع ذلك فهناك إثم خطير يقود حتماً إلى الهلاك، ذلك هو الرفض الإرادي في التخلي عن الآلهة المزيفة، لأننا إذا ما وضعنا الثروة والقوة والشهوات والكبرياء والناس ومنجزاتنا أو إبداعاتنا فوق الله فإننا نضع أنفسنا في معارضة مباشرة وكاملة للغاية من خلقنا. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَقْبِضُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨/٤] (١).

من أكبر المخاطر التي يتعرض لها الأثم غير الثائب أنه يجلب الأذى لمركزه الروحي والأخلاقي، أو إلى ما يشير إليه القرآن بـ(القلب). ليست عيونهم هي التي تصاب بالعمى، كما يقول القرآن، بل قلوبهم التي في صدورهم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٦]. إذ يؤكد القرآن أن قلوب هؤلاء تغدو مظلمة، محجوبة، صدئة، قاسية، لا يصل إليها الهدى، في حين تغدو قلوب الصالحين لينة، حساسة، تستقبل نور الله الهادي (٢)، وكلما زاد إصرارنا على ارتكاب الخطيئة، تعاظم تحجر عاطفتنا وعدم إحساسنا بالشر الذي ينجم عن الخطيئة. وعلى الرغم من أن الله يعزو تغليف قلوب المذنبين المتمردين إلى الله، فلا ينبغي أن نستخلص أن الإثم لا أثر له في ذلك. لأن القرآن دائماً يعزو إلى الله ما يحصل وفق قوانين الطبيعة المتمثلة بـ(العلّة والمعلول) التي أخضع الله الخلق كله لها. إن الله يفلق حبة القمح ونواة الرطب، ويفلق الصباح، ويسوق الغمام وينزل المطر، ويغرس الجبال في الأرض، ويمسك الطير في السماء، ويعلم القلم كيف يكتب، ويعلم الجنين في الرحم (٣). وفي الوقت نفسه

(١) انظر كذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَقْبِضُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦/٤].

(٢) الآيات: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ أَلْمَاءً وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشَبَةٍ اللَّهُ وَمَا اللَّهُ يُغْنِي عَنْكَ تَمَتُّونَ﴾ [البقرة: ٢/٧٤]، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/١٤].

(٣) الآيات: ﴿يَتَأْتِيهَا الْوُحُودُ مَاتُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينِكُمْ إِلَىٰ أَكَلِ ثَمَرِهِمْ وَأَنْتُمْ لَا تَكْتُمُونَ﴾ [النساء: ٤٨/٢٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَأْتِ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلِيُمَلِّكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ كَاتِبًا بِالْكَذِبِ وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلِيُمَلِّكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ كَاتِبًا بِالْحَقِّ﴾ [النساء: ٤٨/٢٤].

تتبع هذه الظواهر قوانين ثابتة يشير إليها القرآن بـ(سنن الله)^(١)، وينطبق القول

= وَلَيَقْنِي اللَّهُ رَبُّهُ وَلَا يَنْصَحُ مِنْهُ شَيْئًا إِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَيِّئًا أَوْ ضَافِعًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ رَبُّهُ بِالْعَدْلِ وَأَنْتَهُدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِبَالِكُمْ إِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَاتْرَاكَايَا وَمَنْ رَضَوْا مِنْ الشَّهَادَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَهُمَا فَتُحْكَرَ لِمَنْ هُمَا الْأَخْرَجُ وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَقْرَبُوا أَنْ تَكْتُبُوا مَعِيًا أَوْ كَذِبًا إِلَى أَهْلِهِ دَلِيلُكُمْ أَفَسَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْنَهُمَا حَاضِرًا يُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَنْتَهُدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُغْنَاكُمْ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَلُّوا فَإِنَّهُ شُورَا بِكُمْ وَأَنْتَهُدُوا اللَّهُ رَسُولَكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [البقرة: ٢/٢٨٢]، (وَرَجَبِي مِنْهُ وَتَقَرُّوْا رِجْعًا وَكَانَ اللَّهُ عَقْرًا رَجِيمًا) ٢٨٢ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ التَّلَاجُكَةُ طَالِيَتْ أَنْفُسَهُمْ قَالُوا يَمُومُ كُفُّهُمْ قَالُوا كَمَا مَسْخُوفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَبِهِمْ قَتْلَاهُمْ فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٢٨٣ إِلَّا السَّخَنِيَّةُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِرْمًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ سَبِيلًا ٢٨٤ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَمُومَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَقْرًا عَقْرًا ٢٨٥ وَمَنْ يَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْوُفْقُ فَقَدْ رَفَعَ أَهْرُؤَ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَقْرًا رَجِيمًا [النساء: ٩٦/٤-١٠٠]، (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ الْأَرْضِ فَأَرْسَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَالْتَبَثَكُمْ وَكَمَا أَنْشَأْ لَكُمْ بَحْرَيْنِ) [الحجر: ١٥/٢٢]، (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) [النحل: ١٦/١٠]، (وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَدًى أَنْ نَبِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [النحل: ١٦/١٥]، (فَأَرْجَحْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنْ يَصْنَعَ اللَّهُ بِأَعْيُنِنَا رَوْحَنَا فَإِذَا دَعَا أَهْلَهُ فَأَنصَرَفُوا فَاسْتَأْذَنُوا فَادْخُلُوا فِيهَا مِنْكُمْ كَلَّا نَبَيِّنُ لَكُمْ آيَاتِنَا وَأَعْلَامَ الْآيَاتِ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلَهُهُمْ تُعْرَفُونَ) [المؤمنون: ٢٣/٢٧]، (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُيغُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ نَجَّجْ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُخْضَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْبًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ) [الزمر: ٣٩/٢١]، (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَنْدَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) [الزخرف: ٤٣/١٢]، (وَالْأَرْضُ مَدَدَتْهَا وَأَلْبَنَّا فِيهَا رَوْسًا وَأَلْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ دَجٍّ يَنْبَجُ ٧ تَبِيرًا وَذَكَرْنَا لِكُلِّ عِبْدٍ مُبِينٍ ٨ وَرَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَلْبَنَّا بِهِ جَبْنَوتَ وَجَبَّ الْعَمِيدِ) [ق: ٥٠/٧-٩].

(١) الآيات: (اللَّهُ يَتْلُمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا يَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّوا وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) [الرعد: ٨/١٣]، (وَلَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) [الحجر: ١٥/٢١]، (الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَكُمْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَلَمْ يَخْزَ وَلَكِنْ لَمْ تُشْرِكْ فِي الْفَلَاحِ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ قَدَرًا قَدِيرًا) [الفرقان: ٢٥/٢]، (وَالنَّاسُ بَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٨) وَالْقَمَرُ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيرِ [يس: ٣٦/٣٦]

نفسه على تغليف قلوب الكفار ما دام القرآن يبين باستمرار أن ذلك يحدث بسبب إنكارهم العنيد للحقيقة. إنه هذا الشر الذي يكتسبه الكفار هو الذي يغلف قلوبهم كالصدا ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤/٨٣]. ذلك لأن الكافرين يتبعون شهواتهم وقلوبهم غُلف ﴿أَفَنَ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ نَزَّلَ الْبُحْرَةَ إِلَى وَجَدِ الشُّعُونِ فِيهَا أَتَاهُمْ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنَّهُمْ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَغْيَرَ طَعْمُهُ وَأَنَّهُمْ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنَّهُمْ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّرَوَاتِ وَمَنُفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٧٤/٢]. وكما اعتادت أمي أن تقول: «إذا كذبت مدة طويلة من الزمن فإنك تصدق كذبتك». هذا هو الجانب السيئ مما لاحظناه من قاعدة مفادها أنه كلما ازداد نمونا في الخير، ازدادت قابليتنا لتلقي أسماء الله الحسنى، وبصورة خاصة، لتلقي الحقيقة.

لا إنكار له

كنت، ومازلت، أكره التردد. لم أكن أهتم بوجود هذه الصفة عند الآخرين، ولكن لم أكن أتحمّل مثلها عندي. ومع أنني لم أفعل شيئاً بشأن تجربتي مع القرآن مدة أسابيع بدت لي وكأنها سنوات عديدة. فذلك لا يعني أنني لم أفكر بمواجهتي مع الكتاب - بل بالعكس، كان دائماً يشغل بالي - ولكن لم يكن

= [٣٩-٣٨]، ﴿إِنَّا كَلَّمْنَاهُ فَلَمْ يَفْقَهُ﴾ [القمر: ٤٩/٥٤]، ﴿مِنْ أَوَّلِهِ فَوَهِ حَلَقَهُ ۖ﴾ [١٨/٨٠]، ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۚ﴾ [الأعلى: ١٩/٨٠]، ﴿إِنَّا كَلَّمْنَاهُ فَلَمْ يَفْقَهُ﴾ [١٨/٨٠]، ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۚ﴾ [الأعلى: ١٩/٨٠]، ﴿إِنَّا كَلَّمْنَاهُ فَلَمْ يَفْقَهُ﴾ [١٨/٨٠]، ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۚ﴾ [الأعلى: ١٩/٨٠].

لدي خيار أتخذه، إذ لم تُطرح أمامي خيارات عملية. ما الذي ينبغي فعله، وإلى أين يجب أن أذهب الآن؟ لو فرضنا جدلاً أن القرآن هدائي - بالرغم من أنني ملحد - إلى ما يعد في نظري على الأقل عقيدة منسجمة منطقية، فقد كانت لدي الرغبة في الاعتراف بأن الوحي قد أثر فيَّ بطرق لم أتوقعها من قبل، إذ بدا وكأنه أيقظ فيَّ روحانية كنت أنكر وجودها في نفسي وسيطر عليها. وصحيح كذلك أنني لم أكن أستوعب أن كتاباً بهذه القوة وهذا الجمال وهذه العبقرية يمكن أن ينشأ من أرض بدائية يباب في العالم القديم. بيد أن أياً من هذه الأمور لم يبرهن لي على وجود الله حقاً وأنه هو الذي أنزل القرآن.

لم يكن هنا أحد يأخذ بيدي إلى الخطوة التالية. انتهى القرآن بالنسبة لي فجأة، وربما يكون عوناً لو شرح كيف أنتقل من كوني منفتحاً على احتمال وجود الله إلى الإقناع بوجوده. ولكن بدلاً من ذلك تركني في برزخ، في حالة انتقالية، ليس لدي ما أجادل فيه ضد وجود الله، ولا ما أجادل فيه لصالحه، وبدلاً من أن ينتهي القرآن بتوجهات منطقية تركني مع ثلاث نصائح، هي: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥]. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكٍ ۝ الْقَائِمِ ۝ إِلَهُ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْغَيْثِ وَالْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

تساءلت في نفسي: هل ذلك سهل؟ مجرد أن تقول ما أمرت به هذه السور؟ مجرد أن يذعن المرء؟ مجرد أن تناشد؟ وماذا بعد؟ هل سيفتح الله قلبي فأرى؟ هل يوحي لي القرآن أن خوفي من شر الآخرين هو الذي يحول دوني واتخاذ الخطوة التالية؟ هل يقول لي القرآن: إن تحفيز النفس الأمارة بالسوء وحشها لي هو الذي يغويني؟

حتى لو كان الله موجوداً، ما الذي يفترض أن أفعله؟ كنت وحيداً في مواجهة كل هذه التساؤلات. كنت أعلم أنه ما من أحد خاض مثل هذه التجربة غيري.

فأصدقائي المسلمون قاربوا القرآن من منظور عقلي مختلف. إذ بدا لي أن طريقة قراءتهم للقرآن وفهمهم له ورد الفعل عليه كان معداً ومتفقاً عليه منذ زمن طويل، وما زال يُعلّم ويحفظ عن ظهر قلب. وكانوا قلقين بشأن الردود غير الرسمية وغير المؤهلة على كتابهم. كان يبدو أنهم يقبلون فقط قراءات الأقدمين المخولة رغم أن القرآن يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْ بَعْدِهِ مَبَوعَةٌ أَجْبَرُوا مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧/٣١]^(١).

ليس في خلفيتي من ينتمي إلى ما أنا بصده، كنت لا أعرف أمريكياً واحداً قد قرأ القرآن. إذ لم يكن ذلك جزءاً من حركة، ينبغي معها على شعبي مواجهتها كما كان الحال في الجزيرة العربية أيام النبي. لم يكن لي خيار بين جانبيين متنازعين، فقد عثرت على هذا الفكر مصادفةً كمن يجد زجاجة فيها رسالة على شاطئ معزول، ربما لا أكون أنا المقصود بها. ماذا لو اقتنعت بوجود الله، فهل من المفروض عندئذ أن أعتنق الإسلام، وأتشابه مع ثقافة ووجهة نظر عالمية أجنبية؟

لقد خرج ذلك كله من يدي. لقد سبحت بعيداً عن الشاطئ وجُرت إلى مسافة بعيدة بغض النظر عن صعوبة مقاومتي. لقد حدث ذلك كله ببراعة، بدأت دراستي للقرآن كتحقيق منطقي عقلي بسيط، ولكنها بدأت تأخذ بالتدرج أبعاداً روحية. واكتشفت، في أثناء قراءتي للقرآن، أن مناقشاتي الفلسفية ضد وجود الله - وكنت أعتقد أنها قوية منيعة - أضعف بكثير مما كنت أظن. وجدت أنها كانت مبنية على مجموعة مقولات لم يقبلها القرآن. ومن جهة أخرى عرض القرآن تفسيراً للوجود البشري - قائماً على افتراضات لم أفكر بها من قبل أبداً ومع ذلك بدت لي طبيعية - إذ اكتشفت تماسكاً ملفتاً للنظر. وعندما تبددت معارضاتي لوجود الله بدأت تنتابني الشكوك - الحقيقة أولاً - بشأن الإلحاد. وأعتقد أنه منذ ذلك الحين بدأت الخوض في اللحظات الروحية التي كانت غامضة في أولها ولكنها أخذت تزداد قوة وشدة كلما ازداد انفتاحي على احتمال

(١) كذلك في سورة الكهف الآية ١٠٩ تقول: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِحِيرَةٍ مَدًا﴾.

كان من الصعب علي توضيح اللحظات الروحية التي كانت تتناوبني في أثناء قراءة القرآن. لم أكن أعرف شيئاً كهذا. ولم أشعر بالحضور الملموس لما لا أستطيع وصفه إلا برحمة مهيمنة. لم أبحث عن هذه اللحظات ولم أسع إليها ولم أطلبها، بل - على العكس - كنت أقاومها وأبعدها عني فترة من الزمن، والذي صدمني هو أنني لم أتوقعها مسبقاً ولم أرغب فيها، ولكنها حدثت عفواً.

ربما يكون الفراغ الذي كنت أعيشه هو أكثر ما أزعجني. ما الذي دفعني إلى مشاعر العزلة هذه التي تتناوبني باستمرار، بالرغم من أن حياتي الاجتماعية كانت كاملة ومليئة؟

سألت نفسي: ما الذي أريده أكثر من ذلك؟ كم من الآيات أو المناقشات أو النصوص التي وصلت إلى قلبي وألهمتني؟ كم كان يلزمني من الوقت للنظر في مرآة نفسي قبل أن أعرف نفسي؟ ألم أكن ذلك الظمآن، الضائع، المتجول بلا مرشد في صحراء المطالب الدنيوية أكافح للوصول إلى سراب خال بعد سراب؟^(١)

لم كنت أنكره؟ لِمَ لَمْ أقبل ما حدث لي وأنا أقرأ القرآن؟ لم لا أسلم بأني فوّتُ فرصة تجربتي مع القرآن، ولم أغتني فرصة الصوت الذي خاطبني بصورة شخصية، وبأنني اشتقت إلى الخوف، والإثارة، والكفاح، والراحة، والألم، والكرب، وبأنني أتوق إلى أن يثار ذلك الحديث في نفسي، لم أعترف بأني افتقدت الحميمية والحب اللذين شعرت بهما ثم نبذتهما؟ ما الهدف من الاستمرار في إنكار ذلك؟ لم لا أعترف بأن هذا الذي كنت أتوق له توقاً موجعاً، وأن هذا الذي كنت أفقده وأسعى إليه، ليس سوى الله؟

لأن ذلك لم يحدث لي، أخذت أفكر. إن هذا لا يحدث لشخص يرفض الدين، وينكر الروحانية ويسخر من الإيمان، إذن لماذا أكتب؟ لماذا لا أتخلى عنه ولماذا لا يتخلى عني؟

(١) انظر الآية: ﴿إِنَّا مُبْلِغُونَكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٣٤].

في الثامن من تشرين الثاني / نوفمبر من عام ١٩٨٢ نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ذهبت إلى المسجد الذي كان في قبو كنيسة القديس إغناطيوس (Sh. Ignatius) في جامعة سان فرانسيسكو. قلت لنفسي: إنما أنا ذاهب لأطرح بعض الأسئلة، لأن اعتناقي للإسلام كان مستحيلاً، وبعد نصف ساعة خرجت من المسجد مسلماً^(١).

أسئلة

■ السؤال الخامس: (موجه من ابنتي الكبرى في نزهة أخرى من نزهاتنا)

كان مساء بارداً منعشاً من أمسيات الخريف، وأظنتني كنت أحدث ابنتي جميلة عن القرآن عندما قاطعتني قائلة: بابا، أفهم أنك عندما كنت ملحداً كان لديك أسئلة معينة حول الله لم تستطع الوصول إلى أجوبة عنها، وأنت وقعت لها على إجابات في القرآن، ولكن لم أستطع معرفة ما الذي جعلك تعتق الإسلام؟.

فسألتها لدى تباطؤ خطواتنا: ماذا تعنين؟

فأجابت: أعني أن افتقارك لحجة في إنكار وجود الله فقط، لا يثبت وجود الله.

فقلت لها مبتسماً ابتسامة إعجاب: تلك بصيرة رهيبة!! إذ لم أتوقع مثل هذا السؤال من شخص في عمرك!!.

كانت التعليقات التي قدمتها لها عن كيفية اعتناقي للإسلام متمشية مع الخطوط التي ذكرتها في المقطع السابق. فشرحت لها أنني عندما أصبحت منفتحة على احتمال وجود الله، بدأت أمارس تجربة روحية مكثفة في أثناء قراءتي للقرآن، فسألتني: ما الذي جعلك تظن أنها من عند الله؟ فقلت لها: لم

(١) تحدثت عما جرى في المسجد ذلك اليوم في كتابي: (الصراع من أجل الإيمان)، منشورات أمانا، بتسفيد، MD، ١٩٩٤، . ودار الفكر ١٩٩٨.

أعتقد في البداية أنها من عند الله، ثم بدأت أشك أنها من عند الله، ثم ظننت أنها ربما تكون من عند الله، ثم أدركت أنها من عند الله. وبعد فترة عرفت من أين جاءت. لقد بدا لي أنني كنت أعرف الله دائماً، ولكنني كنت منصرفاً عنه أو كنت أعاني من صدمة روحية، فنسيته. بدا لي الأمر وكأنني خارج من فقدان الذاكرة، وأعتقد أن لدينا جميعاً الإحساس الروحي الطبيعي الأساسي هذا بالله، ولكننا نتجاهله، أو ننكره، أو لا نتق به. فهل كان تعليلي مفهوماً؟

فنظرت إلي بعينيها الواسعتين العسليتين الجميلتين، وقالت: «بابا، هذا أوهي ما سمعته». فسألتها، وقد شعرت بالإحباط: «لم تقولين هذا؟». فقالت: «لأنني أعلم أنني لا أعرف الله أبداً، ليس لدي إدراك لله».

تابعنا المسير. فكرت كم كنت غيباً إذ طرحت مثل هذا التوضيح، فأنا لا أفهم تماماً تحولي من الرفض إلى الشك، ثم إلى الإيمان، فكيف أستطيع أن أفهم ذلك إلى من هي في الحادية عشرة؟ فهي لم تقض من عمرها ولم تخض من التجربة ما يكفي لفهم ما كنت أقوله. حتى وإن كانت أكبر من ذلك، أني لها أن ترتبط به ما دامت أنها لم تخض تجربة مماثلة لتجربتي؟ فهل كنت أعرف الله عندما كنت في سنها، هل كان لدي إدراك طبيعي بوجود الله؟ كل ما أذكره في حادثة سني أنني كنت أتوسل إلى الله أن يأخذ أبي.

ثم فكرت في أمر ما، فقلت لها: «جميلة، أتذكرين يوم نقلوني بسيارة الإسعاف إلى المشفى في تموز / يوليو الماضي؟» فأجابتنني، وبدا عليها الارتباك: «نعم». فتابعت سؤالاً: هل تذكرين كيف علّقوا بي تلك الأسلاك والأنابيب كلها، ثم وضعوني على المحفة ليخرجوني إلى سيارة الإسعاف، ولم أستطع حينها أن أتحرك وكنت أرتجف وأتنفس بصعوبة؟ فقالت حزينة: نعم. تابعت تساؤلاتي: وهل تذكرين كيف وقفت إلى جانبي وسألتنني بصوت مرتجف إن كنت ساموت؟ فأجابت والدمع يترقرق في مقلتيها: «نعم». استأنفت الكلام قائلاً: «عندما أخذوني إلى المشفى، هل صليت إلى الله في وقت ما ذلك اليوم كي لا يميت أباك، ويبقيه حياً؟ هل طلبت من الله عوناً؟».

فقلت ساخطة، ربما متسائلة في نفسها لماذا أضياعها باستمرار: «نعم». فقلت لها: «وهل صليت في اليوم التالي؟» فأجابت وكأنها شاهدة كارهة في قفص محكمة: «نعم». فسألتها: «وفي الأيام التي تلت؟» فأجابت: «نعم» بصوت كأنه يقول لي كفى. فسألتها: «من علمك حينها كيف تصلين إلى الله بتلك الطريقة؟ من علمك كيف تكلمين الله؟». صمتت لحظة، إذ ربما كانت تبحث عن جواب، ثم قالت وكأنها غير واثقة من نفسها: «أنت الذي علمتني كيفية الصلاة». فقلت لها: «أنا لا أتحدث عن أداء الصلاة الشعائرية الرسمية بالعربية. إنما أعني من علمك كيف تكلمين الله، كيف تتواصلين معه شخصياً؟ هل قلت لك أو قال لك أحد آخر: إن عليك أن تتصورني نفسك تكلمين الله، وإنك تفكرين بالكلمات التي تقولينها في ذهنك، وإن الله يتلقى منك هذه الكلمات ويسمعها؟». فأجابت: «لا». فسألتها: «هل بينت لك أو بين لك شخص آخر كيف تكلمين الله؟» فأجابت: «لا»، فسألتها: «هل أنت متأكدة؟» فقلت: «نعم». فقلت لها: «هل علمتك أمك أو إحدى جدتيك، أو أحد أعمامك أو عماتك؟» فقلت: «لا». فسألتها: «إذن، من علمك؟ كيف عرفت ما تفعلين بصورة آلية هكذا؟» فأجابت مصررة: «لم يعلمني أحد، إنما أنا أعرف، فحسب».

إن مظهر عدم الرغبة في الاستمرار التي بدت على محياها جعلني أتمنى لو لم أفتح الموضوع ذلك اليوم، لأنه ما من أحد في العالم أحب ألا أسبب له أدنى أذى مثلها.

لكني قلت لها: «حسناً، إذن، ربما يكون لديك إدراك طبيعي لله، ربما هكذا عرفت. على أي حال، كان ذلك ما جرى لي. وبعد فترة أدركت أن الله هو الذي كان يصلني من خلال آيات القرآن والأحداث الروحية، استغرقت وقتاً حتى أدركت ذلك - ربما لأنني لم أكن واعياً من الناحية الروحية خلال مدة طويلة - ولكنني بعد فترة أدركت».

■ السؤال السادس: (من لا أدريه من الجيل الثاني في العشرينات باحثة طبية، لديها أسئلة مماثلة عديدة من شباب من أبوين هنديين وباكستانيين).

لماذا يُعدُّ عبادة الأوثان خطأ؟ إذ لا أحد يعتقد أن الأصنام آلهة، فما هي إلا تمثيل لمساعدتك. وعبدة الأوثان يجدون الله في كل شيء حي وغير حي. فكيف يكون إيمانهم أقل؟ فالجدال ليس بين خالق لا شكل له، وخالق له شكل، إنهم يحاولون فقط إضفاء الصفة الزمنية والمادية على (الواحد الذي لا شكل له)، فأنا لا أرى في ذلك ما يعد خطأ.

يبدو أن السائلة تسأل عن البوذية لأن رسالتها تشير إلى خلق «ممثل يساعدك»، وإيجاد «إله في كل شيء حي وغير حي» و«خالق لا شكل له»، و«الواحد الذي لا شكل له». فالهندوسية دين واسع ذو نظام متعدد الوجوه وكي ننصف السؤال يتطلب معرفة أكثر مما أعرف، وأكثر بكثير من بضع صحائف^(١). ولكن في حين جرّدت نفسي من أهلية تقويم الهندوسية، أشعر أن لابد من قول بضع كلمات، على الأقل، بشأن نقد القرآن لعبادة الأصنام، ما دام ذلك يعد من مواضيعه الكبرى.

القول بأن القرآن يدين عبادة الأصنام يعدُّ قولاً مبسطاً للغاية، وينتقص من أهمية الفكرة. إن ما يعرضه القرآن هو الشرك (الذي يترجم عادة إلى الإنكليزية بـ idol worship) الذي هو أوسع وأعم من عبادة الأصنام. فكلمة (شرك) مقترنة بالفعل العربي (شَرَك) الذي يعني المشاركة و«أن تجعل شخصاً زميلاً لشخص

(١) لابد من الإشارة إلى أن غالبية الهندوس العارفين في الدين يعترضون على مساواة عبادة الصورة التي تحدث في الهندوسية بعبادة الأصنام (أي عبادة أشياء مادية كإله). وهكذا جاء في كتاب (الهندوسية) للكاتب ك. م. سين (K. M. Sen) منشورات بنغوين، ١٩٩٩، ص ٣٥، ما يلي: «ليس في الفلسفة الهندوسية أي تناقض بين الإيمان بالله الكلي الوجود، المهيمن، المحيط، وعبادة آلهة وآلهات متنوعة من الآلهة الهندية، إذ يمكن أن تساعد الصورة في الطقوس الدينية، على تركيز العبادة، ونظرياً لا تمثل سوى صور خيالية للمظاهر غير المحدود لله الواحد المهيمن».

آخر، «أن تقرر شيئاً أو شخصاً بآخر». «أن تجعل شيئاً أو شخصاً قريناً لآخر». يدل المصطلح في القرآن على تعيين حصة من ألوهية الله وسموه إلى آخرين. إن أقسى وأبشع دلالات (الشرك) هي تأليه الموضوعات الملموسة كالأصنام المنحوتة أو الأجرام السماوية. وربما يتضمن كذلك عبادة آلهة من ابتكارنا. وفيما يخص الآلهة التي يبتكرها الإنسان يقول القرآن للمشركين العرب: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ [النجم: ٢٣/٥٣]^(١). ربما تمثل الأصنام أحياناً صفات بشرية. وهكذا، عبد المشركون، في أيام النبي وذاً وسواعاً ويعقوب ويعوق ونسراً، وهي تمثل على التوالي الذكورة والجمال، والقوة الوحشية والسرعة (الرياضة) وحدة البصر (البصيرة) ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَاقُوتَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣/٧١]^(٢) وربما تمثل الأصنام كيانات روحية، أو أنبياء أو قديسين متوفين، يسعى المشركون إلى شفاعتها. فالوثنيون العرب، مثلاً، كانوا يتصورون الملائكة آلهة - إناثاً يصلون لها طالبين شفاعتها، وكثير من المسيحيين يصلون للمسيح، ومريم، وقديسين آخرين، معتقدين أنهم القديسين يستطيعون التوسط بين الداعي وبين الله. القرآن يرفض هذه التصورات لأن الأموات، -كما ورد فيه- لا يدركون ما يجري على الأرض ولا يقدرّون على الاستجابة لدعاء أهل الأرض^(٣)، ولأن

(١) النص الكامل للآية هو: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْبَيِّنَاتُ﴾. انظر كذلك: ﴿مَا تَقْبِذُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَقْبِذُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٤٠].

(٢) إن نقد القرآن العرب في الجاهلية يمكن أن يوجه كذلك إلى النزعة البشرية لتأليه هذه الصفات في الرجال والنساء.

(٣) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبُ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى إِنَّهُ مَرَمٌ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ تَقُولُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَقْلُمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبُ﴾ [النمل: ٢٥/١١٧]، ﴿أَنْزَلْتُ عَبْرَ أَحْسَنَ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ١٦/٢١].

الملائكة أدوات روحية لا تفعل إلا ما يأمرها الله به. فضلاً عن أن القرآن يؤكد أنه ما دام الله عادلاً ورحيماً بلا حدود أكثر من أي مخلوق خلقه فإن شفاعته المخلوقات لا لزوم لها^(١)، كما يبين أن الشرك يمكن أن يأخذ شكل عبادة الأحياء من الناس، كما كان حال المصريين والفراعنة. ويضرب أمثلة لأشخاص جعلوا من النجاح في الدنيا غاية عبادتهم، ويقول في من يؤلهون رغباتهم: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ [الفرقان: ٢٥/٤٣]، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَظْلَمَ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ رَخِمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣/٤٥].

بغض النظر عن كل مظاهر الشرك، فإن فيه عنصراً مشتركاً هو عبادة غير الله، وبما أن العبادة في القرآن تتضمن وقف النفس لآخر، فإن الشرك يتضمن، بشكل أو بآخر، استسلام النفس إلى شيء أو شخص آخر غير الله أو تخويله سلطة مطلقة، سواء أكان موجوداً في الواقع أم مُتَوَهِّماً من نسج الخيال. لذلك فإن السياسيين عندما يولون المصالح الوطنية والمالية والسياسية والعسكرية أسبقية وأولوية على الاهتمامات الأخلاقية فإنهم يمارسون شكلاً من الشرك. ويصح القول نفسه في أولئك الذين يرفضون مراجعة موقعهم الديني خشية أن تقلب

(١) يقول القرآن مثلاً في مسألة نبوة المسيح لله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَدُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ نَّظُنُّ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ لَّمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١/٤] وكلمة وكيل تعني حفيماً (الممثل الشرعي) أو «الذي يدافع عن حقوق الآخرين ومصالحهم». وفي اللغة العربية الحديثة مستشار الدفاع، أو محامي الدفاع يسمى (وكيلاً). وتضمن الكلام يعني أن الله ليس بحاجة إلى ابن ليتوسط بينه وبين البشر، وليس بحاجة لخلق مخلص للبشر. انظر كذلك: ﴿لَا يَلِكُونُ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ ﴿نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ فَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَرًّا﴾ ﴿أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ ﴿وَمَا يَلْبِغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا بِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ١٩/٨٧-٩٣]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٦].

نقاليدهم أو موقفهم الاجتماعي ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يَمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠/٧] ^(١).

إن الشرك، كما يبين القرآن، لا يتضمن إنكاراً لوجود الله بوصفه الكائن الأعلى، بل يضع شركاء له وأنداداً يُعتقد أنهم يتصرفون على أنهم مصادر سلطة إضافية من مصادر الإرشاد الإلهي. وكثيراً ما يُمنح الزعماء الدينيون والعلماء مثل هذا الدور. ومن ثم يبين القرآن أن اليهود والنصارى قد ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١/٩].

من أكثر أشكال الشرك سوءاً وانتشاراً ترويج الخطيئة على أسس دينية، فقد استخدم بعض الصهاينة الكتاب المقدس للدفاع عن طردهم الفلسطينيين من فلسطين، ومفهوم المهمة الإلهية استخدمه المستوطنون الأوريون لإضفاء الشرعية على طرد سكان أمريكا الأصليين الذين وصفوهم بأنهم (قوى شيطانية). وشتت اليابان حرباً وحشية على الصين باسم هيروهيتو (Hirohito) الإمبراطور المؤله ^(٢). كذلك شجّع بعض المسلمين العسكريين في العصر الحديث على قتل المدنيين باسم الله. وعذبت الكنيسة (الهرطقة) وأعدمتهم في أثناء محاكم التفتيش. وكان الناس في شبه الجزيرة العربية خلال القرن السابع الميلادي يضحون بالأطفال أحياناً لإرضاء الآلهة. مثل هذه الأمثلة كثيرة، وأعتقد أنني لا أجازف إن قلت: إنه ما من دين محصن من نمط ما من أنماط الشرك.

(١) انظر كذلك: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَنْ وِجْدَانَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَّةُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨/١٠]، ﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَدَكَّنْتُ فِينَا مَرْجُماً بَلْ هَذَا أَتْنَهْنَأُ أَنْ نُقْبِدَ مَا يَبْدُ ءَابَاءُنَا وَإِنَّا لَنَی سَلَوْنَا إِلَیْهِمْ﴾ [هود: ٦٢/١١]، ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَسْأَلُكَ تَأْمُرَكَ أَنْ تَقْرَأَ مَا يَبْدُ ءَابَاءُنَا أَوْ أَنْ تَقْعَلَ فِیْ أَمْرِنَا مَا نَسْتَوْأُ إِلَکَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧/١١]، ﴿وَإِنَّا قِیلَ لَهُمْ أَتَعْبُوهُمَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا أَوْلَوْ كَانِ الشَّیْطَانُ یَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١/٣١]، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أَثَرٍ وَإِنَّا عَلَى أَثَرٍ وَإِنَّا عَلَى أَثَرِهِمْ مُفْتَنُونَ ﴿٣١﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَرِیْنٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أَثَرٍ وَإِنَّا عَلَى أَثَرِهِمْ مُفْتَنُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٢/٤٣].

(٢) يبدو أن هيروهيتو كان ضد شن حرب على الصين، ولكنه لأسباب سياسية لم يعترض، وأعلن على الملأ عام ١٩٤٦ أنه يدين وصفه بالإله.

وبما أن الشرك يردع عن التسليم لله، فإن القرآن يحذر من البدع الدينية التي يمكن أن تؤدي إلى الشرك ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣/٧] حتى البدع غير الضارة في الدين يمكن أن تصبح عقبة أمام التوحيد.. ويضرب القرآن هذا المثل الواضح: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَتَنَّاَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَكُونُوا يَوْمًا يَكُونُونَ﴾ [التوبة: ٣٠/٩].

في التراث اليهودي يستخدم مصطلح (ابن الله) الذي يظهر كثيراً في العهد القديم، مجازاً يدل على العلاقة الوثيقة بالله^(١). وعند المسيحيين، عندما يطبق مصطلح (ابن الله) على عيسى المسيح فإنه يدل على وضعيته الفريدة كإله ابن، كشخص ثان من الإله الثالوثي. وهذا يبين أن عبارة ما استخدمت أساساً لتعبر عن مفهوم سليم تغدو في النهاية جوهر عقيدة، يقول القرآن إنها توحيدية^(٢). من المهم الإشارة إلى أن القرآن لا يبين ما يقصده اليهود والنصارى بهذه العبارة، لأنه ربما تكون لها تفسيرات مختلفة. بل يذكر فقط ما يقولونه ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠/٩] لأن تعبير (ابن الله) يقترب اقتراباً خطيراً من أقوال الكفار في العصور القديمة. وبذلك يمكن أن يؤدي إلى عبادة خاطئة، ويرفض القرآن كذلك، على هذا الأساس نفسه، استخدام كلمة (ثلاثة) عند التحدث عن طبيعة الله. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَزُوَّجْنَاهَا بِإِلَهِهِ

(١) قاموس اليهودية في فترة الكتاب المقدس، سيمون وشوستر (Simon and Sehuster)، نيويورك ١٩٩٤، ص ٥٩٦-٥٩٧.

(٢) يستنكر القرآن عبارة (أبناء الله) لأنها ربما توحي بأن هؤلاء هم أحب إلى الله من سواهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨/٥].

وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿النساء: ١٧١/٤﴾. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ ثَلَاثَةٌ وَكَانَ إِلَهُهُنَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣/٥]. ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مَضَلُوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧/٥].

تدل هذه النصائح والتحذيرات على أن البدع في الدين التي تتشابه مع الشرك، غالباً ما تنتهي إلى الانحراف عن عبادة الله، بغض النظر عن القصد الأساسي منها، ويمكن استخلاص الدرس نفسه من قصة العجل الذهبي حسبما يرويها القرآن، إذ طلب إلى بني إسرائيل أن يحطموا الصورة التي اختلقوها، وإن قصدوا من اختلاقها أن تكون تمثيلاً للإله الواحد (إله موسى) ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥) ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (٨٦) ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْدَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمُ فَفَدَقْنَاهَا فكَذَلِكَ أَفَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧) ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُمُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ (٨٨) ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (٨٩) ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ (٩٠) ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِهينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (٩١) ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (٩٢) ﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (٩٣) ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (٩٤) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعِي﴾ (٩٥) ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ (٩٦) ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِهًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (٩٧) ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٥-٩٨].

فالشرك، كما ذكرنا آنفاً، يمكن أن يتخذ أشكالاً عديدة، ولكن من وجهة نظر القرآن لا يمكن أن يكون حميداً أبداً، لأنه يحقن الدين بالكاذب، ومن ثمّ يظهر الباطل^(١). وعندما يأتي الباطل تشيع الشكوك بين المؤمنين، ويفقد الدين جاذبيته المنطقية والعقلية، ويفقد معها سلطته الأخلاقية وفعاليته الروحية، وأبرز مثل يضربه القرآن على هذا النمط من تآكل الدين واهترائه هو قريش الوثنية، وقرابة النبي ومعارضه الأساسي. ويذكر القرآن القرشيين بأن أجدادهم الأوائل: إبراهيم وإسماعيل وغيرهما كانوا مؤمنين بإله واحد وأقاموا الكعبة في مكة لعبادة الله الواحد الأحد، وعلى مر قرون غطيت عقيدة التوحيد بشرك تام وشديد، فقد القرشيون أنفسهم ثقتهم به، وأتاح للفساد والفسق الانتشار. يمثل إشراك قريش في القرآن أهم الأمثلة على إضعاف الشرك للدين. ولكن القرآن يبين -من خلال بحثه للمجتمعات المتدينة في الماضي والحاضر- أن هذه المشكلة عامة وعالمية وأن تحذيرات القرآن ضد الشرك ليست موجهة في الأساس إلى غير المسلمين فحسب، بل إلى المسلمين الذين يجب أن يكونوا يقظين وحذرين من أن يلصقوا بالله ما ليس منه في شيء. وكما يبين القرآن بإسهاب أن كثيراً مما ادّعي عبر التاريخ باسم الله لم يكن من الله في شيء، بل إنما هو ابتداع بشري، ويجب أن يحذر المسلمون، فلا يضيفوا سلطة إلهية على التقاليد الثقافية، والبدع الدينية، وآراء علماء الدين التي ليس لها دعم قطعي في القرآن، مثل هذه الأمور تظهر بالتأكيد في كل دين، فالمجتمعات الدينية تطوّر دائماً تقاليدها، وترد بصورة إبداعية على المشكلات التي تبرز أمامها، وسوف يبين علماء الدين رأيهم فيها، ويصفون عليها الصبغة الدينية، ولكن هذه كلها محاولات للتفسير، وينبغي ألا ينظر إليها على أنها مثالية وأنها تستثنى من النقد والتمحيص. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَّا اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩/١٠]. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦/١٦].

(١) ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١/١٧].

■ السؤال السابع: (من طالب جامعي أمريكي مسلم، مثل هذه الأسئلة حول القضاء والقدر شائعة)

قال الإمام في خطبة الجمعة الماضية: إن الله يقرر سلفاً أعمالنا كلها، بما في ذلك ما نختاره، وإن من لا يقبل ذلك فغير مسلم. ولكن إذا كان الله يقرر سلفاً أعمالنا وخياراتنا كلها، فلماذا يعاقبنا عليها؟ لا يبدو ذلك عدلاً في نظري، وأخشى أن أصبح ملحدًا.

العقيدة التي تحدث عنها الإمام في خطبة الجمعة تعود إلى الإيمان بالقدر الذي يشار إليه في الإنكليزية بعبارة (divine decree) أو (Predestination) كان هذا المبدأ موضوع جدال كبير ومناظرات واسعة جرت في مطلع التاريخ الإسلامي، وكان مفتوحاً على مفاهيم مختلفة، إن ما قاله الإمام بشأن هذه العقيدة يمثل أشد وأقصى صياغة لهذه الفكرة. لم تقبل المذاهب الفكرية كلها في العصور القديمة مفهوم التقرير المسبق لأعمال الناس وخياراتهم، ومن أبرز هؤلاء علماء العقيدة المعروفون بـ(علماء الكلام) الذين برزوا في القرون الأولى للهجرة^(١). ومن منافسيهم الرئيسيين (أصحاب الحديث) الذين قبلوا عموماً فكرة التقرير المسبق بشكل أو بآخر، بالرغم من أن الصيغة التي يعتنقها الإمام تعد وجهة نظر متطرفة.

يبدو أن مطابقة (القدر) مع التقرير المسبق جاءت نتيجة تطور تدريجي في الفكر الإسلامي، إذ لم تكن معروفة عن عرب الجاهلية، فعلى رأي المعجمي الكبير الراغب الأصفهاني تعني كلمة (قدر) ومرادفها كلمة (تقدير) إظهار مقدار الشيء، أو ببساطة (مقدار). ويقول: «إن الله يبين التقدير بطريقتين: منح القدرة، أو جعل الأمور بمقدار معين وبأسلوب معين، حسبما تتطلب حكمته»^(٢).

(١) الهجرة؛ هي هجرة الرسول (إلى مدينة يثرب التي سميت فيما بعد بمدينة النبي أو (المدينة) اختصاراً، وكانت الهجرة في عام ٦٢٢م، واتخذت مبدأ للتأريخ الهجري.

(٢) هذا الاقتباس في ترجمة عبد الحميد صديقي لـ(صاحب مسلم)، مطبعة أشرف، لاهور، ١٩٩٢، ص ١، ملاحظة ٣.

ويتوافق تفسيره هذا مع القرآن حيث يقرن القدر والتقدير بالتصميم والتنظيم للطبيعة. ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٧٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْشُونِ الْقَدِيرِ [يس: ٣٦/٣٩]. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتُهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩/٥٤]. ﴿مِنْ أَنَّىٰ شِئْءٍ خَلَقَهُ ٧٩﴾ مِنْ تُلْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ [عبس: ٨٠/١٩-١٨]. ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ [الأعلى: ١٨٧/٣-١].^(١)

فالرسائل اللاهوتية وتقارير الأوائل تبين أن الجدل بشأن الإرادة الحرة، والقدرية قد نشأ في زمن ليس قبل الثلث الأخير من القرن الأول للهجرة^(٢)، فرسالة (في القدر) للحسن البصري، مثلاً، كتبت، كما قيل، بطلب من الخليفة عبد الملك (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٤-٧٠٥م) تقول: إن الجدل بشأن القدر أمر جديد. ومن المهم معرفة أن الرسالة هذه لم توفق في الاستشهاد بأي حديث يخص هذا الموضوع بالرغم من طلب عبد الملك الواضح بتعزيز الرسالة برواية من أي صحابي من صحابة الرسول^(٣).

(١) انظر كذلك: ﴿اللَّهُ يَتَكَلَّمُ مَا نَحْمِلُ كُلُّ أُنْفٍ وَمَا يَنْبَغِي الْأَنْزَكَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِإِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨/١٣]، ﴿وَلَنْ يَنْ شِئْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١/١٥]، ﴿أَلَيْسَ لَكَ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَنْ يَنْجِيَّ وَلَكِنْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقَدْ رُفِعَهُ لِقَدِيرٍ﴾ [الفرقان: ٢٥/٢].

(٢) جوزيف فان إس: (عمر الثاني ورسالته ضد القدرية)، عبر النهرين (١)، (١٩٧١-١٩٧٢)، ف. ف. ميشيل كوك، (العقيدة الإسلامية الأولى) (كمبردج ١٩٨١)، ١٠٧-١٥٨، جون فانسبرو، (دراسات قرآنية) (أكسفورد ١٩٧٧)، دانيال براون (إعادة النظر في الحديث في الفكر الإسلامي الحديث) (كمبردج ١٩٩٦)، ص ١١-١٢.

(٣) على الرغم من عدم احتمال الرسالة أي حديث يتعلق بالإرادة الحرة والقدرية، هناك أحاديث صحيحة عديدة تبني أشكالاً متنوعة من القدرية وردت في المجموعات التشريعية. فإن كانت الرسالة صحيحة النسبة للحسن، فإن ذلك مدعاة للحيرة، خصوصاً وأن الحسن البصري كان عالماً هاماً في مطلع تاريخ علم الحديث، إذ ظهر اسمه في كثير من سلاسل الرسائل. وإن كانت الرسالة تاريخية، فهناك احتمالات عديدة تطرح، منها أن الأحاديث المتعلقة بالقضاء والقدر لم يجر تداولها حتى الثلث

بالرغم من أن مطابقة القدر مع التقرير المسبق كانت بعد وفاة الرسول، فإن الجدل الذي دار حول الإرادة الحرة والقدرية كان متوقفاً، فالقرآن وضح، من جهة، أن الله منح الإنسان رجالاً ونساء قدرة الاختيار الأخلاقية وغيرها، وأن ينفذ خياراته إلى نهاياتها المتوقعة، ويمكن أن يتدخل الله في هذا الخيار أو يؤثر فيه عندما يشاء، ولكنه أراد للأمور أن تسير وفق مسار العلة والمعلول الطبيعي^(١).

ويؤكد القرآن، من جهة ثانية، علم الله الشامل، إذ إن الله يحيط بكل شيء علماً وبكل ما يحدث بغض النظر عن زمان حدوثه أو مكانه. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠/٢٠]. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحج: ٧٦/٢٢]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْفَيْتَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْآرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤/٣١].

ومع ذلك، إذا كان الله يعلم كل شيء، فإن المستقبل بما فيه خياراتنا التي نتخذها لا بد أن تكون مقررة سلفاً. إذ ربما يبدو من غير المفهوم أن نختار ما يتعارض مع معرفة الله لهذه الخيارات، وبالمثل إذا كان الله يعلم حالنا في الآخرة فإن ذلك يعني أنه قد قرر لنا سلفاً دخول الجنة أو دخول النار.

مثل هذه الادعاءات مربكة إذ تتطلب القبول في آن واحد برأيين متناقضين جداً، الرأي الإلهي والرأي البشري. من المشاكل ذات العلاقة بهذه المسألة هي أن البيانين ليسا مكتملين تماماً، لأنهما لا يحددان بدقة من الذي قرر المستقبل

= الأخير من القرن الإسلامي الأول، أو حتى بعد ذلك، بعد أن أصبح الجدل بشأن الإرادة الحرة والقدرية سارياً، وهناك احتمال بديل، هو أن الحسن البصري لم يأبه بالأحاديث التي تدعم القضاء والقدر، لأنها تتعارض مع آرائه، أو ربما لم يكن الحسن على علم بكثير من الأحاديث التي تدافع عن القضاء والقدر، ولكن هذا الاحتمال ضعيف وغير ممكن.

(١) ربما توصف مقدرة الإنسان على الاختيار وتنفيذ ما يختار بأنها إرادة حرة محدودة، فهي محدودة لأنها كبقية الكيانات المخلوقة، تعتمد على الله بوجودها والحفاظ عليها.

ومتى اتخذ القرار المسبق وأنجز؟ وبما أننا نناقش هذه الادعاءات من منظور مسلم، فإنها تفترض بوضوح أن الله لا بد قد قرر كل شيء سلفاً، أما قضية متى يحدث القرار الإلهي فهو أقل وضوحاً، ولكن يعتقد عادة أن القرار الإلهي قد اتخذ قبل الخلق.

إن الاقتراح المذكور يفيد أن علم الله يتضمن إقراره سلفاً للأمور كلها يمكن بيانه على النحو الآتي: الله يعلم كل شيء، وهذا يتضمن أن الله يعلم المستقبل، وهذا بدوره يتضمن أن المستقبل ثابت، أي إن الله قرر المستقبل سلفاً، والرسم الآتي يمثل تضمينات هذا النقاش:

١- الله يعلم كل شيء

٢- الله يعلم المستقبل

٣- المستقبل ثابت

٤- قرر الله المستقبل سلفاً

من المناسب أن نحلل هذا البرهان على صعيد عملي، أي حادثة واحدة في زمن معين، ليكون (أ) يمثل حادثة ربما تحصل غداً. ربما تمثل (أ) الحادثة، مثلاً، وجيف يختار أن يأكل مقالي فرنسية مع العشاء، ثم يصبح النقاش المذكور آنفاً على النحو الآتي:

١- الله يعلم كل شيء

٢- الله يعلم أن الحادثة (أ) سوف تحدث غداً

٣- الحادثة (أ) ستحدث بالتحديد غداً

٤- الله قرر الحادثة (أ) سلفاً.

إن أضعف حلقة في هذه التدايعات هي التضمين الأخير: (٣) يتضمن (٤). المنطق لا يستدعي أن يجبر الله جيف على اختياره لمجرد أن جيف يختار أن يأكل مقالي فرنسية مع العشاء. الواقع أن حدثاً معيناً سوف يقع بالتحديد في المستقبل، لا يستلزم أن يفرض الله الحدث بالقوة.

إن أوضح حقيقة هي أن الله هو العادل، فمن غير المعقول ولا من العدل أن يقرر مصير امرئ إلى جهنم بسبب أعمال أجبره هو على القيام بها^(١).

إن إقامة عدل الله ضد عقيدة القضاء والقدر بكل مالها من جاذبية لأحاسيس البشر، كانت محور النقاش والمجادلة التي أجراها علماء الكلام.

قاد هذا بعض المدافعين عن القضاء والقدر إلى صياغة نظرية الخير والشر المستقلة عن العقل البشري والمفاهيم الإنسانية، إذ ادعوا أن الخير هو ما أمر به الله، وأن الشر هو ما يحرمه، الإرادة الإلهية وإملاءاتها تحدد ما هو خير وما هو شر، ما هو عدل وما هو ظلم^(٢). وهكذا إذا ما أدخل الله التقى النار وأدخل الشقي الجنة فإن ذلك يعد بالتعريف خيراً وعملاً صالحاً مع أنه من وجهة نظر الإنسان مرفوض أخلاقياً وعقلياً. وعلى الرغم من أن هذا التصور يحمي عقيدة القضاء والقدر، فإنه يجعل إلى حد بعيد، حث القرآن للناس على عمل الصالحات وإقامة العدل، لا معنى له.

قام أبو الحسن الأشعري (٨٧٤-٩٣٥) بمحاولة ذكية حقيقية للتوفيق بين القضاء والقدر والإرادة الحرة. إن نظرية الكسب التي غدت عنده موقفاً تقليدياً لا تحل المعضلة بقدر ما تحيطها بالغموض. مفاد هذا المفهوم أن الله هو الخالق الوحيد لأعمال البشر، ولكن الناس يكتسبون أعمالهم، ولذلك فهم مسؤولون عنها، لا تفيد الصيغ المبهمة في إيضاح المتناقضات، ولكنها تتميز بأنها مفتوحة على تفسيرات مختلفة، فمثلاً، إذا ما فرقنا بين الفكرة والعمل فإن الصيغة ربما تعني أن الله يسمح لنا بالتأثير في خياراتنا، ولكن إذا ما اعتبرت الأفكار أعمالاً، تصبح الصيغة عندئذ من أقسى أشكال القضاء

= لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا مَلَائِكُنَا وَلَا هَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ قَوْلَ الْكَلْبِ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [النحل: ١٦/٣٥]. ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَتْرَمُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠/٢٠].

(١) إن مفهوم القضاء والقدر يبدو كذلك أنه يناقض أسماء الله الحسنى: الرحمة والراقة.

(٢) إغناز غولدزيهر (Ignaz Goldziher) مدخل إلى اللاهوت الإسلامي والشريعة، ترجمة أندراس وروث هاموري (Andras and Ruth Hamari)، برنستون، ١٩٨١، ص ٨٥-٩١.

والقدر، الأمر الذي يجعل من الصعب علينا فهم كيفية اكتسابنا لأعمالنا، وسبب مسؤوليتنا عنها.

من صفات الله التي تبدو مناقضة لمفهوم القضاء والقدر (التعالّي / السمو). يعلمنا القرآن أن الخلق الزماني - المكاني الذي نعيش فيه ليس واقعاً موضوعياً خالداً. إنه بيئة مؤقتة لإتمام مرحلة من مراحل تطورنا ونموننا. فالمكان والزمان وهميان، والله غير محدود أو مقيد بأي منهما. فكينونته خارج نطاق الزمان والمكان اللذين خلقهما، ولهذا السبب فليس من الملائم الافتراض بأن الله موجود ضمن مكان محدد أو فترة زمنية محددة، تماماً كما ينبغي ألا أقول: إن الله محصور ضمن جدران مكتبي الأربعة، وينبغي ألا نقول: إنه موجود ضمن هذا اليوم ويتطلع إلى المستقبل. لأن المفهوم الأخير يفترض أن الله موجود في زمن بالطريقة التي يدركها البشر. كما أنه من غير الملائم التحدث عن إله له ماضٍ أو مستقبل. و(التقرير المسبق) يعني التقرير مسبقاً، ويتضمن أن الله في لحظة معينة من الزمن قرر أحداثاً مستقبلية، ولكي يحدث هذا فلا بد من الافتراض أن الله كان موجوداً في لحظة ما ضمن زمن، وأمر سلفاً بما كان سيأتي. إن وضع الله في زمن يعد مغالطة جوهرية تطرقها مفاهيم القضاء والقدر كلها، إن سمو الله وتعالّيه يتضمن أفضلية فريدة، وعلم الله وإدراكه ليس لهما حدود زمنية أو مكانية لأن الله العليم هو وحده يحيط بكل شيء بغض النظر عن مكان الأشياء في الزمان والمكان، يؤكد القرآن ما يأتي: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣/٦]. ﴿رَبَّنَا وَسِعَ رَبَّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩/٧]. ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣/٥٧].

وبما أننا نعيش ضمن حدود الخلق فإننا لن نقدر على فهم التعالّي الإلهي^(١). إن السمو على المكان ربما يكون أيسر فهماً من السمو على الزمان. إذ يمكن أن يتصور السمو على المكان وجوداً فوق الأرض حيث يمكن مراقبة الأحداث بأن

(١) يقول القرآن: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ. عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠/٢٠].

واحد. وتصور السمو على الزمان لسوء الحظ أصعب فهماً وإدراكاً، لأننا نفهم أنفسنا مثبتين في الزمن، ولكن النموذج المكاني يمكن أن يكون مفيداً، وبغض النظر عن حقيقة الصفة الوهمية للزمن فإننا نستطيع إدراك الزمن بوصفه بعداً مكانياً رابعاً، وعندئذ نستطيع تصور السمو أو التعالي على أنه بعيد خارج الخلق، حيث يمكن أن يراقب أحداثاً سحيقة البعد في الزمن والمكان.

يمكن أن يقال: إن القرآن نفسه يحوي تعابير تضع الله في حيز الزمان والمكان، القرآن يتحدث عن عرش الله، ويده، ووجهه، يتحدث عن إله يرسل أموراً إلى البشر وعن أشياء تصعد إلى الله، ويستخدم صيغاً زمنية مختلفة (الحاضر والماضي والمستقبل، إلخ) عندما يشير إلى أفعال الله. على أي حالة، من المستحيل تجنب مثل هذه الصياغات عندما تتخاطب وتتواصل مع البشر بسبب محدودية لغتهم وتجربتهم، إذن والمستحيل أن تشير إلى فعل من أفعال الله بالعربية، مثلاً دون استخدام صيغة زمنية ما^(١). وعلى الرغم من أن العلماء المسلمين كلهم تقريباً يرون أن السمو الإلهي يستلزم ألا تؤخذ الإشارات المكانية إلى الله في القرآن حرفياً، فإنهم لا يصلون إلى النتيجة ذاتها فيما يتعلق بالتعابير الزمنية، ربما لأن الزمان بالنسبة إلينا يبدو مطلقاً أكثر من المكان، ويبدو أن على المرء ألا يصر على وجوب أخذ الإشارات الزمنية إلى أفعال الله في القرآن حرفياً، ولا أن تفهم على أنها تتضمن خضوع الله للقيود الزمنية.

لقد خضع معنى (القدر) إلى تطور واسع وحاسم في فكر المسلمين، فهو في القرآن يعني «النظام والتصميم» اللذين وضعهما الله للخلق بما في ذلك الإنسان،

(١) ليس في العربية ولا في أية لغة أخرى، ضمن حدود معرفتي، صيغة زمنية متعالية، ولكن القرآن يلتف على هذه القضية بطريقة واحدة هي استخدام صيغ زمنية مختلفة عند بحث أحداث خارج هذا الكون المحدود بزمان ومكان، فالقرآن يتحدث عن وقائع اليوم الآخر، مثلاً، بصيغة الماضي أحياناً، وبصيغة المستقبل أحياناً أخرى، وبصيغة الحاضر في بعض الأحيان، والأمر نفسه ينطبق على الأحداث التي تقع في عالم الغيب.

والمعرفة البشرية، وقدرة الإنسان وإرادته كلها خاضعة لقيود فرضت على البشر بتقدير من الله، ولكن الإنسان ضمن هذه الحدود مزود بقدرة من الله يستطيع بها أن يختار ما يريد ويمارس ما يختار. وقد جاء وقت بعد زمن الرسول تطابق فيه مفهوم «القدر» مع مفهوم (القضاء والقدر) وأشعر أن ذلك كان خطأ دينياً حرجاً. فالقول: إن علم الله يتضمن القضاء والقدر قول غير مقبول ولا يدافع عنه. فضلاً عن أن هناك أسباباً مقنعة لدعم العقيدة، لأن مفهوم القضاء والقدر يتنافى مع تأكيدات القرآن المتعلقة بعديل الله ورحمته ورأفته وتعالیه وسموه، وتنشأ الصراعات العقلية حتماً عندما نحاول وصف العلاقة بين الله والزمان بدقة، وهي محاولة بحثية.

■ السؤال الثامن: (من طالبة من الجيل الثاني)

لا أظن الله عادلاً، لأنه لا يعطينا الفرص نفسها في الجنة، لي ابنة عم مسلمة توفي والدها وهي طفلة ورُبيت في بيت عمها، بدأ عمها يتحرش بها جنسياً عندما أصبحت صبية، وتابع التحرش بها واغتصابها حتى غادرت البيت في أواخر العشرينات من عمرها، وهي اليوم عامرة، تجامع أي شاب يتعرض لها، فكيف لفتاة نشأت في بيئة فاسدة فاسقة وأسوي إليها منذ نعومة أظفارها أن تُحمّل مسؤولية واحدة كمثلي، إذ نشأت في أسرة سليمة؟ لا يستقيم الأمر.

إن نشأتنا في الخير والصلاح في هذه الدنيا كما أشرت سابقاً مرتبط أساساً بحالنا في الآخرة^(١)، فالسؤال إذن يثير النقطة الحيوية، وهي أن بعضنا يأتي من خلفيات ذات امتيازات أكثر من خلفيات بعضنا الآخر. بعضنا يولد في أسر نموذجية من ناحية عملية، حيث نحاط بالسلام والحب والسعادة، وقسمٌ يوجهه إلى الأخلاقيات والروحانيات منذ الطفولة، وآخرون أنعم عليهم بطباع هادئة، وعقول مستنيرة، ومظهر حسن، ونمواً صورياً ذاتية إيجابية، وناسٌ، كالسيدة الشابة، المذكورة في رسالتك ولدوا في كابوس حي، فمن غير العدل، على

ما يبدو، أن تقاس نشأتنا في بيئة صلاح بنشأتنا في بيئة فاسدة بالمقياس نفسه، بغض النظر عن خلفياتنا.

فأنا وأسرتي كنا نتنزه مشياً ذات مساء، وإذا بابنتي الصغرى التي كانت تلحق بنا على دراجتها اجتازتنا بسرعة، وتوقفت أمامنا فجأة منتصبه على دواسات دراجتها وشعرها الأشقر الطويل المتموج يطير وراءها، وقالت بصوت عال مبتهجة: «أنا فاتن لانغ، وأنا أحب أن أكون كذلك!» انفجرتُ وزوجتي ضاحكين ثم التفتُ إلى راجية وقلت: «لا بد أننا نعمل عملاً صالحاً».

من المحير نمو الصورة الذاتية في وقت مبكر كهذا. فغالباً ما تشعرني بناتي بإحساسهن بجمالهن؛ كأن تقول إحداهن مثلاً وكلها ثقة بنفسها: «ألست جميلة، يا بابا؟!». وغالباً ما تقول زوجتي مثلهن عن نفسها، في حين أنها تعترف في الوقت نفسه أنه لا بد من إنقاص وزنها عشرين رطلاً. إذ تقول: «أعلم أن وزني زائد، ولكنني أعرف أنني جميلة».

النساء في حياتي جميلات حقاً، والجمال يتألق من داخلهن، ولكن عندما يتحدثن عن أنفسهن بهذه الطريقة، إنما يتحدثن عن شيء أكثر من صورهن في المرأة، إنهن يتحدثن عن الطريقة التي يرين بموجبها أنفسهن في عقولهن وقلوبهن، وأنا أيضاً قيل لي كثيراً: إنك وسيم، ولكنني لم أصدق ذلك أبداً، كنت أشعر أنني أخدع باستمرار، وأن الآخرين كانوا يسخرون مني، لأنني لم أر هذه الوسامة طوال حياتي، إذ كنت عندما أنظر إلى داخلي لا أرى شيئاً جميلاً أو وسيماً، بل أرى شخصاً مجروحاً مشوهاً، وأعرف أن ذلك الشعور سيصاحبني مدى الحياة، ولكنني أعلم أيضاً، أن الصورة تبهت بالتدريج.

كانت المدينة التي نشأت فيها تُعرف في الولايات كلها بأنها (إبط كونيكتيكت Connecticut)، كانت مدينة فاسدة عنيفة، وعندما كنت في العقد الثاني من عمري كانت المدينة تمر بالعنف العرقي الهائج والشغب وصراع العصابات والجريمة. وكانت قوة شرطتنا تعرض في برنامج الأخبار ستين دقيقة بوصفها أكثر قوة شرطة انحرفاً في البلاد. وانتهى بعض أصدقائي إلى السجن.

وتبين أن بعضهم مدان بجرائم عنف كبيرة، بعضهم صاروا لصوصاً وآخرون بائعين متجولين، وتحول معظمهم تقريباً إلى إدمان المخدرات بطريقة ما.

وحياتنا البيئية كانت أسوأ من الفوضى الخارجية، فوجود أحدنا في البيت كوجوده في صندوق أو كأنه مدفون في الحياة، كان والذي مدمن الخمر، عنيفاً، ومدمناً كذلك على إهانة والدتي والإساءة إليها، وإخوتي تبعوه في نفق المخدرات المظلم، وأدمن أخي الأكبر على الكحول، وهو في العشرينات من عمره، وكذلك أخي الذي يليه في العمر، أما أخي الذي يكبرني بسنة واحدة فقد غدا مدمناً على الهيروئين في المدرسة الثانوية، وبدأ أخي الأصغر الذي كنت ألصق به ممن سواه يدمن على المخدرات في الثالثة عشرة من عمره.

بعد دخول الجامعة بوقت قصير، لم أكن أعلم أن الإدمان على المخدرات مُعْدٍ، بل كنت أعتقد أن اليأس يولده. ومع ذلك، كان رد فعلي الأول دائماً هو الدهشة عندما يستغرب زملائي كيف (نجوت) بطفولتي، وأصبحت أحيا حياة طبيعية سعيدة كما يرون. لا يعني مجرد تعرضي إلى رذيلة أكثر منهم أنه ينبغي أن أتجرد من الأخلاق أو التطلعات السليمة. ربما يبالغون بتأثير البيئة على نمو الشخصية، فالواقع أن غالبية الذين نشأت معهم يحيون اليوم حياة صالحة محتشمة. لم أكن قديساً، ولست كذلك الآن، ولكن كان لدي إحساس قوي بالخطأ والصواب، بالحقيقة والصلاح، بالرغم من أنني كنت أحياناً أقاومه وأتيج لهذا الإحساس أن يتبدل. وأنا لا أؤمن بأن جيناتنا وبيئتنا هي التي تحدد شخصيتنا ومصيرنا، بل أعتقد أن البشر يتمتعون بإدراك أخلاقي وروحي يزداد أو يتناقص بسبب الخيارات التي يتخذونها، فأنا لا أقول: إن الجينات والبيئة لا تؤثر فينا - فذلك غير صحيح - ولكنني أشعر أن الإرادة وحرية الاختيار يؤديان دوراً محورياً في حياتنا.

لقد قيل: لا ننكر أن الحياة ليست ملعباً مستوياً، إذ يولد بعضنا في ظروف تقود أكثر إلى اكتساب الفضيلة، ربما لهذا السبب يسير القرآن إلى أن أجر العمل الصالح يختلف، في حين أن عقوبة ارتكاب الخطأ ثابتة تقريباً. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لَّذَرُّهُ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠/٤].

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثَافِلَةٍ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠/٦]. ﴿وَمَنْ يَتَرَفَّ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣/٤٢] ^(١).

فعلى الرغم من أن صاحب الشر يعجني ثماراً سيئة مثله، فإن جزاء العمل الصالح يختلف اختلافاً كبيراً، ربما لأن خير العمل الصالح ومنافعه الإيجابية تزداد بازدياد المقاومة التي تواجهه. ومن ثم كان جزاء الالتحاق بالرسول في بداية بعثته -عندما كان أتباعه قلة ومعارضته قاسية- أكبر من الالتزام بقضيته عندما أصبح النصر في متناول اليد ^(٢).

إن عملاً صالحاً صغيراً قام به من له مزايا عديدة يُحسب عملاً صالحاً صغيراً، أما العمل نفسه يقوم به من واجه معوقات هائلة فيمكن أن يعدّ إنجازاً روحياً وأخلاقياً هائلاً، وانسجاماً مع هذا التوجه، يؤكد القرآن أننا سوف نمتحن في الحياة حسبما أعطينا من قدرات وخصائص - بما في ذلك المعرفة، والشخصية، والثروة، والبيئة، والمكانة الاجتماعية - ولا تكلف نفس إلا وسعها. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآرْضَ رِزْقًا وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥/٦]. ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦/٢]. ﴿وَلَا تُكْفَى نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢/٢٣].

(١) انظر كذلك الآيات: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كُلَّمَا أَفْضَيْتَ يُؤْفِقُهُمْ فَلَمَّا يَنْزِلُ لَكُمُ الظُّلُمَاتُ الْأُولَى أَصْحَابُ الْأَنْفَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧/١٠]، ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩/١٦]، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤/٢٨]، ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ الْآيَاتِ الْمُبِينَا وَاعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَشْكُرُ عَلَيْكُمْ أَجْرًا إِلَّا الْوَدْعَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣/٤٢].

(٢) ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ لَعَلَّهُمْ دَرَجَةٌ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَأَنَّ اللَّهَ لَاسْتَعْتَابَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠/٥٧].

إن نجدة غريب في محنة تعد عملاً يستحق التقدير إذا كان في الضواحي الآمنة نسبياً، أما نجدة غريب في محنة في قلب المدينة حيث النجاة بالنفس هي القاعدة، وحيث من المألوف ألا يعار بؤس الإنسان وشقاؤه أي اهتمام، فإنها تعد أكثر نبلاً وشهامة، وبالمثل فإن صدقة بقيمة دولار واحد من فقير تزن أكثر من صدقة مماثلة من غني. إن مفهوم خير العمل الصالح هذا، له ما يدعمه في الحديث النبوي الشريف الذي يؤكد ألا حدود لرحمة الله. فالمرأة التي اعتادت أن تقدم اللبن الخائر إلى المحتاجين، ولم تؤذ أحداً بلسانها أبداً تفوز بالجنة، بالرغم من إهمالها صلاتها وصومها^(١). ووجبت الجنة لرجل في كلب كاد يموت عطشاً، فنزل إلى بئر فحمل له ماء وسقاه^(٢). وقاتل في عنقه مئة نفس يسافر إلى مدينة بعيدة ليلتقي رجلاً صالحاً ليهديه إلى التوبة، وفي نصف الطريق توافيه المنية، ومع ذلك أدخله الله الجنة بسبب محاولته المخلصة ليصلح نفسه^(٣). وبالمثل يتوقع ذلك لمن يمنح فرصة، أكثر من غيره، وهكذا لو لم يبلغ النبي الرسالة بصدق وأمانة لكان عقابه مضاعفاً، وكذلك زوجاته إن ارتكبن ذنباً ﴿يَنْسَاءَ الَّذِينَ مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَحْشَى مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٠].

لذلك، يبدو أن جزاءنا في المستقبل لا يقوم فقط على مستوى الخير والصالح الذي نصل إليه عند نهاية الحياة، بل بقدر تحدي التقدم الذي نحرضه في نهاية الحياة والتقدم الذي نحرضه يتناسب مع ما منحنا الله من قدرات ونعم، ويترجم ذلك إلى حالتنا في اليوم الآخر، ومن ثم، في حين أنني ربما أندد بسلوك آخر على أسس دينية، فإني أرفض تقويم موقفه من الله على الأسس نفسها، حتى وإن بدا امرؤ ما أكثر استقامة من سواه، فإن الأعمال الصالحة التي يقوم بها شخص آخر ربما تكون ذات قيمة عند الله أكثر من أعمال الأول، لأن رحمة الله ورافته وعفوه نعم نظام الخلق كله.

(١) مشكاة، رقم ٤٩٩٢، عن أبي هريرة، من مسند أحمد، والبيهقي.

(٢) البخاري، المجلد ١، رقم ١٧٤، عن أبي هريرة.

(٣) البخاري، المجلد ٤ رقم ٦٧٦، عن أبي سعيد الخدري.

ولابد من الاعتراف بأن القرآن والحديث يدعمان هذا التصور للخير النسبي، فإنه لا يعد موضوعاً أساسياً في أي منهما، وخصوصاً في القرآن. فلو كان الأمر جلياً تماماً، فإن غالبية المؤمنين سوف يعتمدون على ذلك، فيرتكبون الخطايا والذائل ويعزون سببها إلى إعاقات متخيلة خارجة عن سيطرتهم. من خصائص القرآن وميزاته أنه لا يفصل في حالات حدودية، بل يسلك مسلكاً بعيداً عن المخاطر بفضل الحث على ما هو أنفع، والتحذير مما هو مؤذ وضار.

وأخيراً، فمن الإهمال ألا نذكر أن الإسلام لا يلوم المذنب إن كان ذنبه مقترناً باضطرابات نفسية أو عقلية. الزنا في الإسلام إثم، ولكن الاتصال الجنسي الناجم عن صدمة يتجاوز مشكلة الإثم، إذ غالباً ما تكون اللاأخلاقية الجنسية عرضاً من أعراض الاضطرابات النفسية - أو نتيجة توتر شديد ناجم عن صدمة قوية، أو نتيجة لجنون الاضطهاد، أو الاختلال العقلي الذي ينجم عن عنف يُمارَس على الضحية، وبالإضافة إلى الجروح العاطفية التي يتعرض لها الطفل فإن الإساءة إليه تعيق نمو العقل. فالرعاية السليمة تتيح لعقل الطفل أن ينمو بأسلوب يسهم في الاستقرار العاطفي وبناء الشخصية السليم الذي يستجيب إلى المجتمع بطرق إيجابية إبداعية. أما التوتر والضغط فينحت الدماغ ويجعله قابلاً للتكيف الشاذ مع عالم الرعب، ومثل هذا الخلل العصبي غير القابل للتعديل يلقي بالضحية في معركة تدوم مدى الحياة مع سلوكيات اجتماعية مثل التهور، وفرط النشاط، وإحداث أضرار بالأشياء، والعدوان.

فبدلاً من الحكم على هؤلاء، فإن علينا فهمهم وتشجيعهم للحصول على المساعدة التي هم بأمس الحاجة إليها، يمكن أن يساعد العلاج النفسي طبيعة الضحية المصابة بصدمة والطفل المكسوم ضمن حدود الأذى العاطفي وتجاوزه، وبفضل الرعاية النفسية العقلية بما في ذلك الأدوية، فإنه يمكن معالجة النتائج العصبية الحيوية الدائمة والسيطرة عليها إلى حد ما.

مثل هذه العناية مكلفة، ولا يستطيع معظم الضحايا تحمل تكاليف العلاج الباهظة لسنوات، وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مليون حالة مؤكدة من حالات الإساءة للأطفال سنوياً، يعد ذلك عاراً قومياً وجزءاً من مشكلة عالمية، على أي حال لابد للمجتمع المتحضر من إيجاد طريقة لتحويل حاجات هؤلاء الضحايا الأبرياء. ولابد في النهاية، من أن نبذل مزيداً من الجهد لإلغاء سوء معاملة الأطفال، فلن يكون لدينا مجتمع سليم مادام المسيئون للأطفال يتابعون حقن المجتمع بتيار ثابت من الذين تتصف حالتهم العقلية والنفسية بالعدوانية والقلق والسخط.

■ السؤال التاسع: (من طالبة جامعية غير مسلمة أجريت معها أحاديث عديدة عبر البريد الإلكتروني، كما أن العديد من الشبان الأمريكيين المسلمين طرحوا علي أسئلة تتعلق بالدافع من وراء الخلق)

إذا لم يكن الله بحاجة إلى شيء، فلماذا خلقنا، إذن؟

أنا لا أسأل عن غاية الإنسان في الحياة، بل أسأل عن غاية الله من خلق الإنسان، فإن كان الله غنياً عن العالمين فلم إذن يخلقهم، والإنسان على الأخص؟ اعدلني إذ أقول ذلك، ولكن ما الذي في هذا الخلق من نفع لله؟

السؤال مفعم بالصعوبة، إذ من الأسهل التحدث عن المعنى الذي تحمله الحياة للبشر من الحديث عما يحمله الخلق من نفع لله، عندما نبحث المسألة الأولى نكون على أرض أكثر صلابة، لأننا في هذه الحالة نتكلم بدقة أكثر من تجربتنا وعقلنا، ولكن عندما نبحث المنظور الإلهي فإننا نعمل تحت قيود قاسية، فخيرتنا التي تقوم عليها لغتنا قاصرة بلا حدود عن إدراك الله، فأبي مصطلح يستخدم لشرح كينونة الله ومعرفته وأقداره، أو مظاهر حكمته لا يمكن إلا أن يكون تقريباً، وفيما يتعلق بمثل هذه البيانات في القرآن، فإن المذاهب الإسلامية كلها -حتى المذهب الحنبلي المحافظ-

تعترف بهذه المعضلة مع مبدئهم، بلا كيف. يقول الحنابلة: إن أوصاف الله وأفعاله في القرآن تعبر عن حقائق، ولكننا لا نستطيع أن نبين بدقة كيف تحققت هذه الحقائق، استخدم المفسرون التأويل عند شرح مثل هذه النصوص^(١).

ولابد من الاعتراف بأن السؤال فاجأني، إذ يُطرح علي أول مرة، لأنه لا يشبه الاعتراضات التي كنت أثيرها عندما كنت ملحدًا، كانت أسئلتني من المستوى الأرضي، كنت أتخذ الحالة البشرية لمناقشتي ضد وجود الله. أما السؤال المذكور فيبدأ النقاش من السماء إلى الأرض، إنه يتساءل عن دوافع الله في الخلق، ما الذي في الخلق ينفع الله؟ أعتقد أن السؤال غريب عن تفكيري لأن صفتي الله الغني والمتعالي في جو الإيمان الذي نشأت فيه قد تعلمتهما دون التأكيد عليهما. كما أن بنوة عيسى المسيح لله حظيت بدور أكبر في هذا الإيمان، بما أن عيسى في المسيحية إله ويشر بأن واحد، فإن بشريته الواضحة في الإنجيل تتيح للمرء أن يفكر في أن الله حاجات شبيهة بحاجاتنا، وأعتقد أن هذا هو سبب عدم كون استقلالية الله المطلقة مشكلة عندي.

من المفهوم أن تكون مسألة غنى الله عن العالمين قضية للمسلمين الأمريكيين الشباب الذين كتبوا لي حول هذه المسألة، إن قضية كون الله مهيمناً غنياً عن العالمين تتكرر في القرآن. ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]. ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١]. ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨/١٠]. ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠/٢٧]. ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٠/٢٧].

(١) إغناز غولدزيهر، مدخل إلى علم الدين الإسلامي والشرعية، ترجمة أندراس و روث هاموري، بريستون، ١٩٨١، ص ٩٢-١٠٩.

الْمَلِكِينَ [العنكبوت: ٦/٢٩]. ﴿يَأْتِيَا النَّاسَ انْتَرَا الْفَقْرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥/٣٥]. ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ﴾ [الزمر: ٧/٣٩] ^(١).

إن أسماء الله الحسنى: الرحيم، الرؤوف، اللطيف، الكريم، الودود تتكرر في القرآن أكثر بكثير من صفاته المطلقة التي يستقل بها، ولكن من الواضح أن هذه الصفات تختلف جوهرياً عن الصفات البشرية المطابقة لها. فليس في القرآن أي إشارة أو تلميح إلى أن صفات الحاجة والأمل، وعدم اليقين، والحالات الطارئة والمستعجلة، وعدم الكمال، والألم، أو الرثاء، هذه كلها لا يمكن أن تقتن بالله، في حين أنها جوهرية للإنسان وضرورية لخبرته ونموه فيها. الله مهيمن تماماً على الخلق، فما من شيء يحدث إلا بإذنه وعلمه، وكل ما يظهر وينكشف إنما هو من إرادته. فالله يعلم أن كثيرين من بني البشر سوف يقعون في الغواية، ويرفضون الإيمان، ويعلم كذلك أن آخرين لن يقبلوا التردّي فيها ^(٢). إن الله - كما ثبت بالوحي - لا يترك عبادهم ومصيرهم، ومع

(١) انظر كذلك: ﴿يَسْمَعْ اللَّهُ الْإِيْزَاءَ وَيُرِي الْمَكْدُوْثَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٦]. ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُدْخِلْكُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ أَوْ يُخْرِجْكُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَمَنْ يَشَأْ كَمَا أَنْتَ كَافٍ فِي شَيْءٍ خَبِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٢٣/٦]. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ خَبِيرٌ﴾ [إبراهيم: ٨/١٤]. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْكَ اللَّهُ لَهُمُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤/٢٢]. ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا مُبَارَكٌ بِمَا أَنْتَ بَرٌّ إِلَيْكَ طَاعًا فَلَمَّا رَوَّاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشَكَرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَلَنَزِدَّ لَهُ مِنْ لَدُنِّي وَأَمَنْ أَكْفُرًا قَالَ إِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠/٢٧]. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَلَنَزِدَّ لَهُ مِنْ لَدُنِّي وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٢/٣١]. ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٣١/٢٦]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّهِ كُرْهُو مَا نَزَّلَ اللَّهُ سُلَيْمٌ فِي بَيْتِ الْأَنْبِيَاءِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سجدة: ٢٦/٤٧]. ﴿الَّذِينَ يَخْلَتُونَ بِإِيمَانِهِمْ النَّاسَ بِالْغَيْبِ وَمَنْ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤/٥٧]. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٦٠]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبْتَلِيَنَا بِكُفْرَانِكُمْ وَقَوْلَا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ غَنِيٌّ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٦٤/٦٤].

(٢) انظر السور: ﴿يَأْتِيَا الَّذَيْنِ آمَنُوا مِنْ رَبِّكَ مِنْكُمْ مَنْ يَرْجُو قِسْفَ بِلَاسِ اللَّهِ بِقُوَّةٍ يُرِيهِمْ وَيَخْرِقُهُمْ آدِلَةً

ذلك فهو ليس بحاجة إلى إيمانهم، إن إضفاء الله لصفاته على الخلق، بمن فيهم البشر، تعد غيرية مطلقة، بمعنى أن هذا الإضفاء ليس مقترناً بحاجة شخصية. ولهذا فالآية المذكورة آنفاً تستحق الانتباه، لأنها تفرق بين الحاجة والرضا عن أمر ما، ورضا الله في هذه الحالة عن شكر الإنسان لله. وفي القرآن إشارات عديدة إلى رضا الله عن المؤمنين^(١). ومن بينها إشارات عديدة

= عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَمْرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [المائدة: ٥٤/٥]، «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ أَعْتَبُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ يَوْمَ الْوَفَى الْأَوْفَى الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ يَا أَغْرَيْتَنِي لِأَتَزِنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَتَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْءَجَةٌ أَجْمَرَةٌ ﴿٤٣﴾ [الحجر: ١٥/٣٦-٤٣]، «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا [الإسراء: ٦٥/١٧].

(١) «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَاصِينَ [البقرة: ٢/٢٠٧]، «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُبْذَرُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَقُلُوبًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَحْتٍ بَرْقَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَلَّثَ أَكْلَهَا مِنْغَرَفٍ فَإِنْ لَمْ يُعْصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [البقرة: ٢/٢٦٥]، «قُلْ أَتُفَكِّرُونَ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعَاصِينَ [آل عمران: ١٥/٣]، «أَفَمَنْ أَتَّبَعِ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَرِشَ الْكَبِيرِ [آل عمران: ٣/١٦٢]، «فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَّقُوا مِنَ اللَّهِ وَتُحِبُّوا لَمْ يَسْتَسْمِعْ سَوَاءٌ وَاقْبَعُوا رِضْوَانُ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ [آل عمران: ٣/١٧٤]، «لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: ٤/١١٤]، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْجُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْمَدَى وَلَا الْقَلْبِدَ وَلَا يَمِينِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَنَفَّسُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَلَا تَحْلُمُوا فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاةُ قَوْمٍ أَنْ سَدَّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَمْتَدُوا وَتَمَارُوا عَلَى الْإِيَرِ وَالْقَوَائِي وَلَا تَمَارُوا عَلَى الْإِيَرِ وَالْمَدَى وَاقْبَعُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [المائدة: ٥/٢]، «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة: ٥/١٦]، «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَمْ يَكُنْ فِيهَا قَيْدٌ مُقِيمٌ [التوبة: ٩/٢١]، «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَسَكَرُونَ طَيِّبَةً

إلى أن التمتع بهذا الرضا الإلهي سيكون واحدة من المكافآت السامية التي تنتظر المؤمن يوم القيامة. ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ٥/ ١١٩]. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

= فِي جَنَّاتٍ عَنْدَ رِضْوَانٍ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النسبة: ٧٢/٩]، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأُولَى الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَلْحَقُونَ بِأَمْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النسبة: ٩/ ١٠٠]، ﴿أَتَنْتَبِهُونَ لِمَا كُفِّرَتْ عَنْ قُلُوبِكُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [التوبة: ١٠٩/٩]، ﴿يَسْأَلُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَنْفَعُوكَ إِلَّا لِيَمِيزَ الْغَنَى مِنَ الْفَقْرِ﴾ [الأنبياء: ٢٨/٢١]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا سَخَطَ اللَّهُ وَكَفَرُوا بِرِضْوَانِهِ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨/٤٧]، ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨/٤٨]، ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّاعًا سُجَّدًا يَقْتُلُونَ فُضُلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيبَاهُمْ فِي رُحْمِهِمْ مِنْ أَنْزِلِ السُّجُودَ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِجٍ أَخْرَجَ مَنْظَفًا فَاذْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ عَلَى سَوَاءٍ يُعْطِيهِمُ الْكُفَّارُ وَكَذَلِكَ اللَّهُ لِلْذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩/٤٨]، ﴿اعْمَلُوا إِنَّا لَابْتَهِرُوا الدُّنْيَا لِبَئِ وَفَوْزِ رَبِّهِ وَتَفَاضُلِ بَيْنَكُمْ وَكَفَافٍ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَالِغُهُ ثُمَّ يُصِجُّ فَتَرَاهُ مُمْصِقًا ثُمَّ يَكُونُ حُطًّا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا لِلْيَوْمِ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُوسِ﴾ [الحديد: ٢٠/٥٧]، ﴿ثُمَّ قَاتِلْنَا عَلَى مَا نَدْرِيهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَاتِلْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَاتَّقِنَا الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَاتُهُمْ رِضْوَانُ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧/٥٧]، ﴿لِلْفَقْرِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أَلْمِزُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأَمْرُهُمْ يُتَّقُونَ فُضُلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَرَسُولُهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨/٥٩]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ رِجَالًا وَلَكِنْ تَتَّبِعُوا أَهْلَ الْبَيْتِ وَالْمَوَدَّةَ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَانًا فِي سَبِيلِ وَابْنَةِ مَرْحَاتٍ يُؤْثِرُونَ عَلَى اللَّهِ وَالْمَوَدَّةَ وَأَنَا أَكْثَرُ بِمَا لَفَقْتُمْ وَمَا أَهْلَنْتُمْ وَمَنْ يَمْلِكُ فَتَدْرِكُكُمْ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المتحنة: ١/٦٠]، ﴿إِلَّا مَنْ أَرْضَى مِنْ رَسُولٍ فَلَنْ يَسْلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلَّوْا رِضًا﴾ [الجن: ٢٧/٧٢].

خَلِيلَيْن فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: ١٠٠/٩]. «وَرِضُونَ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [التوبة: ٧٢/٩]. «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» [البينة: ٨/٩٨].

ربما يقال: بالرغم من تأكيد القرآن على أن الله لا حاجة له بشيء، فإن القرآن يذكر باستمرار أن الله يشاء ويريد أموراً مختلفة. فأكثر من مئة مرة يرد مثل هذا التعبير في القرآن، ومع ذلك فإن المشيئة والإرادة لا تعنيان الحاجة أو الاشتياق أو الأمل، بل تعنيان (يقصد) أو (يقرر) أو (ينفذ خطة أو غاية).

الآيات الآتية تمثل هذا المعنى:

«وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» [البقرة: ٢٥٣/٢]؛ «قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ» [آل عمران: ٤٠/٣]، «خَلِيلَيْن فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ» [مـود: ١٠٧/١١]، «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ» [إبراهيم: ٢٧/١٤]، «كُتِبَ عَلَيْكُمُ أَنْ تَقُولُوا فِئْتَانًا فَمَنْ ثَمَرُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ① يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ مِنَ الْبَحْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَارٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُفِّسَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَكْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِج ② ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ بَحِي الْمَوْتِ وَأَنْتُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ ③ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ④ وَنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ⑤ فَإِنِّي عَظِيمٌ ⑥ يُضِلُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَيَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ⑦ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ⑧ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أَعْلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانِ الْمُبِينُ ⑨ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ⑩

يَدْعُوا لِمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ، لَيْسَ الْمَوْلَى وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٥﴾ مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَنْ يَصْرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّاحِبِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿الحج: ١٨-٤/٢٢﴾، ﴿فَمَالِ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦/٨٥]. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْإِسْلَامَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْكُفْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥/٢]. ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧/٣]. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧/٥]. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥/٢٤]. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الفصل: ٦٨/٢٨]. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤/٣٠]. ﴿لَمَّا دَلَّ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحٍ مَتَّى وَتِلْكَ رِزْقُ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١/٣٥]. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩/٤٢]. ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨/٨٢]. ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَقًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦/٣]. ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦/٥]. ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠/١٦]. ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦/١٧].

ومن الأقوال الواردة في القرآن مما يمكن فهمها على أنها حاجة إلهية قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولكن السياق يدل على أن العبادة هذه حيوية للإنسان، وليس لله، وأن العيش لغاية أخرى يؤدي إلى المعاناة في الحياة الآخرة. ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٥-٦٠].

لا تلقي مجموعات الحديث ضوءاً إضافياً على الدافع الإلهي من وراء الخلق، إذ لا يُخاطب هذا الشأن من الحديث إلا قليلاً، وأكثر الأحاديث التي تتجاوز ما نبثنا به القرآن لا يصنفها علم الحديث مع الأحاديث الصحيحة، هناك عدد محدود جداً من الأقوال التي يتبين أن الله يحب الإنسان^(١)، ولكن هناك أقوال أخرى، أيضاً، تبين عدم الاكتراث بمصير الإنسان^(٢)، ومن ثم فإن هذه الأقوال يوازي بعضها بعضاً.

لذا نعود إلى مسألة الدافع الإلهي من وراء الخلق بأقل من جواب كامل. إن مقدمة المسألة وهي أن الله لا حاجة له بشيء منسجمة مع القرآن، إن المؤشرات الوحيدة التي وجدناها على الحافز الشخصي من وراء خلق البشر

(١) من أكثر الأحاديث تأثيراً ما رواه عمر بن الخطاب: إنه أحضر بعض الأسرى إلى النبي، ومن بينهم امرأة كانت تركض بجنون في المكان، وعندما وجدت رضيعاً، يبدو أنه ابنها، رفعتة وقربتة وحضنته. فالتفت النبي إلى أصحابه وقال: «هل تتصورون أن تلقي هذه المرأة برضيعها في النار؟» وعندما أجابوا بقولهم: «لا»، قال: «إن الله يحب عباده أكثر مما تحب هذه المرأة طفلها» (صحيح البخاري).

(٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال: خلق الله آدم، ثم مسح يمينه وسحب عرقاً أبيض وكانهم بذور، ومسح يساره وسحب عرقاً أسود كانهم فحم. ثم قال لمن هم على يمينه: «إلى الجنة ولا أبالي» وقال لمن هم على يساره: «إلى جهنم ولا أبالي».

هي الأقوال العديدة الواردة في القرآن بشأن رضا الله عن المؤمنين. ليس في ذلك تناقض، بالطبع، إذ إننا غالباً ما نبتكر شيئاً لسنا بحاجة إليه. هذا لا يرضي ولا يشبع فضول بعض الناس، ولكن - كما أشرنا من قبل - لا يمكن التوصل إلى فهم كامل لهذه المسألة. إذ كيف نفهم الحب فهماً كاملاً من دون الحاجة العاطفية، والرأفة من دون تعاطف، والعطاء من دون تضحية ذاتية، والعفو من دون أذى شخصي، وباختصار لا يمكن فهم الفضيلة فهماً وافياً من دون التعرض للتجريح؟ إن ما ينبغي أن نرفعه إلى الأعلى هو ضعفنا الذي يجعل نمونا في هذه الصفات ممكناً ووجودها مفهوماً لدينا، ولكن كيف نمسك بكمالها المطلق الثقي في الله؟.

إن أفضل وسيلة، خارج نطاق تجربة الوحي والتجربة الروحية لفهم الصفات الإلهية هي من خلال انعكاسها الأدنى وغير المحدود فينا. وهذا ما سوف أسعى إلى فعله، سأحاول استخدام خبرتنا بأسماء الله الحسنی بفضل روحها الموجودة فينا، لتتمكن من إلقاء نظرة سريعة على إرادة الله في الخلق، وإنني سأجازف فيما يأتي، فأنا لا أدعي أن ما أقوله هو تفسير، بل مجرد قياس.

بالرغم من أن الله هو الخالق، فإن الكائنات البشرية هي أيضاً خالقة بفضل روح الله التي نفخها الله فيهم ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩/١٥]. وهذه الإبداعية الخلاقة المتأصلة في الإنسان هي سمة أخرى تميزه من بقية المخلوقات. غالباً ما نخترع بسبب الحاجة، كما يبنّي النجار بيوتاً ليكسب قوته، ولكننا غالباً ما نبتكر من دون الاستجابة إلى حاجة ملموسة، بل بدافع داخلي قوي، فأنا لا أشعر أن الإبداعات كلها أو معظمها هي بنت الحاجة. بل أعتقد أنها جزء لا يتجزأ من الطبيعة البشرية، سمة جوهرية من سمات البشر، كالفعل والوجود.

عندما كنت في المدرسة الابتدائية، كانت الرياضيات بالنسبة إلي مخرجاً إبداعياً كبيراً، إذ كنت أخترع مسائل، وأنتج أحجيات ونظريات وبراہین قبل أن أتعلّمها فيما بعد في المدرسة الثانوية، كنت أدرس النصوص الرياضية لدروس

أخي الأكبر، وأحل تمارينها، لم تستطع الأسرة فهم ما كانوا يرونه هوساً في الرياضيات، وأخفيت هذا التعلق بالرياضيات عن كثير من أصدقائي، وعدت أعمل في الرياضيات ليس لأي غرض سوى المتعة.

تتخذ إبداعيتنا عبر حياتنا أشكالاً مختلفة، وتنضج أحياناً كما ننضج نحن. ظلت الرياضيات فعل الإبداع الأساسي عندي، بيد أن التعليم والكتابة كانا متنفسين هامين لي. كل هذه الأمور أصبحت بالطبع مرتبطة بحياتي العملية، ولكنني أشعر أن حبي لها يتجاوز الاهتمامات العملية.

عندما بلغت الثلاثين من عمري بدأت أشعر برغبة قوية للمساهمة في إبداع شيء يستحوذ علي كلياً. ربما كانت هذه الرغبة تنمو في نفسي منذ زمن. أردت أن آتي إلى هذه الحياة بشخص يكون صورة عني ويجرب كل ما أعطي ويمارسه، امرأة تكون جزءاً مني وأكون جزءاً منها، تولدت الرغبة ذاتها عند راجية زوجتي. وهكذا، بفضل الله ونعمته ولدت ابنتنا الأولى وأحببتها من كل قلبي منذ اللحظة التي وقعت عيناها عليها، تماماً كما أحببت أختيها اللتين ولدتا بعدها. وهكذا، من خلال حبي وأبوتي لبناتي الثلاث: جميلة وسارة وفاتن، انخرطت في أكبر مغامرة خلق وإبداع، خلافاً لكل ما عرفته من قبل. وعلى الرغم من أنني أقدم دوراً جوهرياً في نموهم - كما يقدمن، دون قصد، دوراً جوهرياً في تنميتي - خلافاً لكل إبداعاتي الأخرى، فأنا لا أقرر ما سيكون عليه، الأمر الذي جعلهن في نظري أكثر جمالاً، ولأكن مع ذلك، دقيقاً في التعبير، لم أكن بحاجة إلى أطفال - إذ لم يكن يعتمد وجودي على حاجتي للأطفال - ولكن بمجيتهن كنت أستجيب لإرادة داخلية لا تُكبت.

■ السؤال العاشر: (من مهندس مسلم مهاجر ما زال يعيش في أمريكا منذ سنين، عثر لي، من بين العديد من المهاجرين المسلمين، عن شكوكهم المتعلقة بالإسلام، إذ تعاطفت الهجمات على شخصية محمد في أخلاقه منذ هجوم ١١/٩/٢٠٠١، وتتضمن هذه الهجمات عادة إحياء لنقد استشراقي قديم، ربما كان سبباً في تلقي أسئلة عديدة مؤخراً حول زيجات النبي)

ولدت في سورية وهاجرت إلى الولايات المتحدة في سن الحادية والعشرين، كنت شاباً مسلماً متعصباً، أما الآن وأنا في الثامنة والخمسين فقد أصبحت مومنأً باللاأدرية، فهناك بعض النصوص في القرآن يستحيل علي القبول بأنها وحي إلهي. ومن بين أبرز هذه النصوص مطلع سورة التحريم التي تحسم جدالاً تافهاً بين النبي وزوجاته ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ مَرْغَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١﴾ قد قرأ الله لك في حجة أئمتكم والله مولدكم وهو العليم الحكيم ٢ ولما أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما تبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما تبأها به قالت من أنبأك هذا قال تبأني العليم الخبير ٣ إن نزلنا إلى الله فقد صغت قلوبكم وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولد وجبريل وصليح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ٤ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً يكنن مؤمنات مؤمنات قيسن تقيتن عيادتو تقيتن وتبكتن وأبكتن ٥ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها مלקية غلاظ شداد لا يعضون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ٦ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون [التحريم: ١/٦٦-٧]، وآيات سورة الأحزاب التي تسمح للنبي أن يتزوج امرأة متبناه ﴿وَلَا تَقُولُ لِلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا [الأحزاب: ٣٣/٣٧]، اعدوني لقولي هذا، ولكن لماذا يبحث الله في مثل هذه الأمور التافهة في آخر تنزيل، ثم ألا يبدو أكثر ملاءمة أن يساعد الله محمداً في مثل هذه الشجارات البيتية الصغيرة؟

بعد هذان النصان من بين أكثر النصوص القرآنية عرضة للنقد الاستشراقي الكلاسيكي حيث تكون ردود الفعل كالتالي رأيناها من قبل شائعة. لقد رد كثير من علماء المسلمين المعاصرين على هذا النقد. وبالإضافة إلى مراجعة هذا الرد باختصار سوف أشارك بقليل من انطباعاتي، الجزء الأول من السؤال يقتبس الآيات السبع الأولى من سورة التحريم:

- ١- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ لَكَ مَرْغَاتُ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- ٢- ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.
- ٣- ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ تَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.
- ٤- ﴿إِنْ نُبَاَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾.
- ٥- ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يَمْدُلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَةً مُؤْمِنَةً قَيَّنَتْ يَتَبَنَّى عِيْدَاتٍ سَيَحَبِّثُ بَيْنَ وَأَبْكَارًا^(١)﴾.
- ٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.
- ٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُخْرَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وكما يلاحظ محمد أسد، «هناك عدة روايات متضاربة - لذلك فهي غير موثوقة إجمالاً - بشأن السبب أو الأسباب الدقيقة التي جعلت الرسول في

(١) إحدى زوجات النبي، وهي عائشة كانت عذراء عندما تزوجا، وإحداهن وهي زينب بنت جحش كانت مطلقة، والأخريات كن أرامل، يبين المفسرون المسلمون أن الصيغة الافتراضية الخالصة لهذا البيان، ولواقعه أن النبي لم يطلق أياً من زوجاته، تدل على أنهن كن جميعاً يتمتعن بهذه الفضائل بالرغم من أنهن لم يكن محصنات ضد عيوب عرضية.

وقت ما ، خلال الفترة المدنية يُقسم أنه لن يقرب أياً من زوجاته مدة شهر^(١). يشعر العديد من المفسرين أن الآية الأولى والآية الثالثة تشيران إلى أحداث منفصلة ، ولكن ليس هناك ما يوحي بذلك من داخل السورة ، بل على العكس ، ربما تؤدي تلاوة طبيعية غير متحيزة يقرؤها مفسرون تقليديون إلى الاعتقاد بأن الآيات الثلاث الأولى مع الآيتين الرابعة والخامسة تتكلم عن الحدث نفسه ، ومن هذا المنظور يمكن أن نرسم الخطوط العريضة التالية :

أسرَّ الرسول إلى إحدى زوجاته - ويحددها الحديث بأنها حفصة بنت عمر - أمراً ، فأشركت فيه بدورها زوجة أخرى - ويحددها الحديث بأنها عائشة بنت أبي بكر - ولا تتوافر رواية ثابتة تبين ما المعلومة السرية التي أفشيت ، ولا كيف استخدمت الزوجتان هذه المعلومة ، ولكن النص يبين أن كليهما خانتا ثقة الرسول ، وبعد ذلك بوقت قصير أقسم الرسول ألا يأتي زوجاته مدة شهر كامل .

وضع المؤرخون لسيرة النبي تفسيرات عديدة لانفصاله عن زوجاته كلهن ، في حين أن القرآن يتحدث عن اثنتين . ويُروى أن النزاع الداخلي بين زوجات النبي وصل ذروته في ذلك الوقت ، الأمر الذي حفز الرسول على الابتعاد عن مشاحناتهن ، ربما تكون صيغة الآية الأولى منسجمة مع هذا التفسير ، لأنها تبين أن النبي فرض هذا الانفصال ليصالح بين زوجاته .

إن اتجاه النص وردُّ الرسول يوحيان بأنه ربما كانت هذه النتائج خطيرة لأنها خانت ثقة الرسول ، ولكن كما يقول محمد أسد :

«إن غاية التلميح القرآني المذكور آنفاً إلى هذه الحادثة ليس متعلقاً بالسيرة ، بل المقصود به إعطاء درس أخلاقي قابل للتطبيق على الأحوال البشرية كلها : أي عدم قبول أي شيء محرم حلالاً ، حتى إن كان مثل هذا الموقف قد اتخذ بدافع إرضاء أشخاص آخرين ، وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه الحادثة توضح حقيقة - يؤكد عليها القرآن باستمرار - وهي أن النبي بشر كغيره ، ومن ثم فهو عرضة لأن يرتكب خطأ عرضياً^(٢) .

(١) محمد أسد ، رسالة القرآن ، دار الأندلس ، جبل طارق ، ١٩٨٠ ، ص ٨٧٥ ، الحاشية ١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٧٥ ، الحاشية ١ .

وتستخدم السورة هذه الحادثة لتقدم لموضوعها المركزي: أن كُلاً منا مسؤول مسؤولية جماعية وفردية عن النتائج في الآخرة، وأنه حتى أوثق العلاقات الحميمة مع شخص تقي حقاً - بل مع النبي - لن تنفعنا في شيء إذا ما دمرنا أنفسنا. ومن ثم تختتم السورة بأمثلة عن زوجات أنبياء سابقين (زوجة نوح وزوجة لوط) اللتين لم تنقذهما علاقاتهما مع زوجيهما، وبالمقابل تضرب مثلاً آسية (زوجة فرعون) التي تعد أنموذجاً للإيمان بالله بالرغم من أن زوجها كان مثلاً للشر. والمثل الأخير هو مثل مريم أم عيسى التي صورتها السورة بأنها أكثر عباد الله تكريماً وبأنها أم عذراء.

تبين المسألة المذكورة آنفاً أن سوء الفهم الذي حصل من النبي وزوجاته، وأخطاء الحكم التي ارتكبت، شائعة ويمكن غفرانها، ولكن هذا بالضبط ما يجعل المثال ذا علاقة بالموضوع. يستخدم القرآن صوراً صارخة للكافرين الذين يحرمون ما أحلّ الله ويدعون الخلاص بفضل الاقتران بالصالحين، ولكن هذه السورة تبين أن أكثر الناس تقي يجب أن يحذروا من ارتكاب الأخطاء، وأن نحذر دائماً من تحريم الحلال باسم الله، أو الادعاء بقداسة أنفسنا بسبب انتمائنا لمجموعة ما.

ربما يبدو من الوهلة الأولى أن توقيت هذا التنزيل مناسب تماماً لدعم التصور القائل: إن محمداً كتب القرآن ليقدم حاجاته النفسية، ولكن التفكير فيه بصورة أعمق يظهر العكس تماماً. فأولاً، يبدأ النص بتوجيه نقد للنبي إذا ما سولت له نفسه أن يخترع تنزيلات تخدمه، وإلا لماذا تبدأ السورة بعتاب إلهي للرسول^(١)، فلو حذف الآية الأولى وبدأ السورة بالآية الثانية فإن ذلك كفيل بحل مشاكله العائلية. والأمر الثاني هو أن غالبية الناس - وخصوصاً العرب - يكرهون إظهار نزاعاتهم العائلية البيتية. فعلى الرغم من أن نشر الغسيل القذر أصبح مقبولاً في الولايات المتحدة الأمريكية، والفضل في ذلك يعود إلى البرامج التلفزيونية التي يتحدث فيها أشخاص مشهورون عن أنفسهم، وهي

(١) لا بد من ملاحظة أن قسماً كبيراً من الآيات التي تخاطب النبي خاصة، إما أنها تقومه أو تكشف له مواطن الخطر.

ظاهرة حديثة، فإن مثل هذه البرامج لم يظهر في العالم العربي أو الإسلامي، فمن المستحيل أن تكون سمة نشر الغسيل من سمات زعيم عربي - اشتهر بالتحفظ والاحتشام مثل النبي - فينشر متاعبه الشخصية على الملأ. والواقع أن مؤرخي السيرة النبوية ذكروا أن النبي لم يبحث هذا الأمر حتى مع أقرب صحابته إليه كأبي بكر وعمر والذي الزوجتين المذكورتين آنفاً.

وأخيراً لا بد من ملاحظة أن تنزيل هذه السورة لا يمكن أن يوصف بأنه ذريعة، لأن المصادر التاريخية تتفق على أن السورة لم تنزل إلا بعد انقضاء شهر الانعزال عن زوجاته. فلو كان النبي يريد اختراع وحي من عنده لحل المشكلة قبل ذلك بكثير، بذرائع ملائمة تسمح له باستئناف إتيان زوجاته كلهن أو بعضهن.

إن السؤال المطروح آنفاً يذكر الآية ٣٧ من سورة الأحزاب التي كان تفسيرها موضع خلاف واسع بين المستشرقين والعلماء المسلمين منذ مطلع القرن العشرين. يتفق المفسرون كلهم أن الآية تشير إلى زواج زيد (الذي اعتقه الرسول وتبناه) من زينب (ابنة عمه الرسول وإحدى نساء قريش الشريفات)، ذلك الزواج الذي كان مفعماً بالمتاعب، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَخْفَى فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ نَهْيَهَا وَطَرَّا زَوْجَانِهَا إِنْكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧/٣٣].

يرى معظم المستشرقين في هذا النص برهاناً على أن النبي يلجأ إلى أي وسيلة لإشباع رغباته الجنسية، ويوردون ما جاء في طبقات ابن سعد دعماً لوجهة نظرهم، قال: «جاء رسول الله بيت زيد يطلبه فلم يجده، وتقوم إليه زينب زوجته فُضلاً (بثياب خفيفة) فأعرض عنها، فقالت: ليس هو هاهنا، فولى وهو يقول: سبحان الله العظيم، سبحان مصرف القلوب، فجاء زيد فأخبرته امرأته أن رسول الله أتى منزله، وأنه قال ما قال، فجاء زيد حتى أتى رسول الله، فقال له: لعل زينب أعجبتك فأفارقها، فيقول له: أمسك عليك زوجك». ومع ذلك لم يعد زيد يقرب زينب، بل عاشا منفصلين فترة من الزمن، وفي النهاية طلق زيد زينب بالرغم من نصيحة النبي له بالاحتفاظ بها، وبعد طلاقها بوقت قصير تزوجها الرسول.

استخلص المستشرقون من هذا النص ومن الآية المذكورة أن افتتان النبي المفاجئ بزینب لم يترك لمتبناه أي خيار سوى طلاق زوجته، لتكون في متناول يد النبي الذي أنتج بعد ذلك هذه الآية ليخرس الاحتجاجات المحتملة.

وغني عن القول: أن رد فعل المسلمين على ذلك يقدم صيغة مختلفة للأحداث، ففي المقام الأول هناك شك في رواية أن النبي رأى زينب عارية بالمصادفة؛ لأن هذه الرواية لم تظهر في أي مصدر موثوق، فقد اشتهر مؤرخو السيرة النبوية القدماء بقبول روايات عديدة لا تتفق مع المعايير الضابطة التي يتبعها علماء الحديث الأكثر نقداً. فضلاً عن أن هذا الوصف يتناقض مع غالبية المعطيات التاريخية التي تتعلق بطلاق زيد وزينب. إذ يؤكد الكتاب المسلمون أن النبي رتب هذا الزواج من أجل أن يحطم الحواجز الاجتماعية العربية ضد زواج العبيد أو حتى من كانوا عبيداً من امرأة حرة^(١). جاء في الأثر أن زينب وأخاها كانا ضد الزواج بادئ الأمر، لأن زينب كانت ترغب في الزواج من محمد، ولكن نزولاً عند رغبة النبي وامتنالاً لأمره، قبلت زينب وأخوها زواجهما من زيد على مضض. كذلك لم يكن زيد ميالاً إلى هذا الزواج لأنه كان قد اقترن بزواج سعيد من أمة محررة أخرى هي أم أيمن. وبقدر ما أراد النبي أن يستخدم هذا الزواج لتحطيم الحواجز الطبقيّة فإن هذه الحواجز تقيد الخطيبين. إذ كان زواج زيد مصدر إرباك له وإذلال، ولم تخف زينب عدم رغبتها في زيد. وكان الزوجان على وشك الطلاق في مناسبات عديدة، ولكن الرسول كان في كل مرة يقنعهما بالاحتفاظ بهما ببعض، لأنه كان يخشى من القول: إن الزواج الذي رتبّه النبي قد انقلب زواجاً يائساً^(٢).

وأخيراً، وبعد نزاع بين الزوجين دام سنين عديدة طلق زيد زينب، فتزوجها النبي بعد أمد يسير، وفي حين أن القرآن يبين أن الغاية الإلهية من تزويج زينب

(١) لقد وجدت أن وصمة العار مازالت تلصق بالزواج من عبد أو من سلالة عبيد، في الخليج العربي اليوم حيث كان الرق سائداً قبل أربعين سنة فقط.

(٢) م. م. بيكتهول (M. M. Pickthall)، معنى القرآن الكريم، منشورات أمانا، ص ٣٩٦-٣٩٧، ولهذا جاء في الآية: ﴿وَتَخْفَى فِي تَقْيِيلِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

إلى النبي هي بيان أن علاقة التبني - خلافاً لما كان يعتقد الوثنيون العرب - لا تتضمن قيوداً كتلك المفروضة على العلاقات الزوجية الناجمة عن علاقات أبوية - نبويّة بيولوجية فعلية^(١)، فإنه سمح للنبي أن يصلح حال زينب ويعوضها عن النكد الذي عاشته من قبل^(٢).

يعتمد تفسير المستشرقين، ورد المسلمين عليهم على اختيار كل من الطرفين للمعطيات التي يريدونها، وعلى قدر معين من القراءة بين السطور، فالمستشرقون يتعلقون برواية أحادية من أدب السيرة تبدو غير متزامنة ولا متوافقة مع كثير من الروايات من المصدر نفسه. ومن ناحية أخرى لم يستطع الكتّاب المسلمون إهمال الدراسات المتعلقة بالسيرة، لأنهم يستخدمون المادة نفسها لبناء دفاعهم، حتى إن كانت الرواية القائلة: إن النبي قد عثر على زينب مصادفة، فمن الصعب أن تثبت صحة ما ذهب إليه المستشرقون بأن النبي لم يترك لزيد خياراً سوى تطبيقها، بل بالعكس، فقد اتفق الفريقان على أن النبي حث زيدا على التمسك بها. أما العبارة التي يزعم بعض الرواة أن النبي قد تمت بها لنفسه فهي في أحسن الأحوال غامضة، ولا تتضمن أي اقتراح ولا توحى بشيء يدل على رغبة الرسول في الزواج منها. أما فيما يتعلق بادعاء المسلمين أن غاية النبي من رعاية زواج زينب بزید هي إزالة الحواجز الطبقية، فإني لم أجد في المصادر القديمة ما يفيد ذلك.

من الواضح تماماً أن القراءتين المختلفتين للآية ٣٧ من سورة الأحزاب متأثرتان جزئياً بالتزامات كل فريق وانحيازاته. وعلى الرغم من أنني لا أستطيع

(١) محمد أسد، رسالة القرآن، دار الأندلس، جيل طارق، ١٩٨٠، ص ٦٤٦، الحاشية ٤٧.

(٢) من الجدير بالذكر أن رصيد زواج زينب هبط بصورة درامية بعد زواجها الفاشل. فقبل زواجها من زيد كانت زينب عذراء في العشرينات من عمرها متحددة من أنبل القبائل في شبه الجزيرة العربية ويقال: إنها كانت تتمتع بجمال لا يضاهي، وعندما أخفق الزواج كانت في منتصف الثلاثينات من عمرها - وهو سن يعد متأخراً في تلك الأيام - وأصبحت مطلقة عبد سابق ولم تعد عذراء، لكن بزواجها من النبي، تكون قد حظيت بزواج من كانت ترغب في الزواج منه أساساً، وتكون قد استعادت مكانتها الاجتماعية.

الادعاء بأنني مراقب محايد، أشعر أن تفسير المسلمين أكثر تماسكاً. فالفكرة القائلة إن نظرة سريعة غير مقصودة يمكن أن تشعل فجأة حب النبي وتجعله يتعلق بها لا تستقيم مع المعطيات الأخرى التي يقبلها المستشرقون؛ فمن المعروف أن زينب كانت ابنة عمه الرسول، ومن ثم فإن قرابته لها وثيقة، وإنه يعرفها منذ كانت طفلة، وأن له صلة بها وبأسرتها عندما كانت شابة قبل أن يحدد القرآن اللباس المحتشم للمرأة^(١). وكانت أمامه فرصة للزواج بها وهي بكر؛ وأنها كانت مشهورة بجمالها الباهر، لذلك فادعاء أن لمحة سريعة آتية جعلت النبي فجأة متيماً بزينب وعمرها خمسة وثلاثون عاماً مع أنه كان على صلة وثيقة بها معظم حياتها إنما هي فكرة مناقضة للطبيعة البشرية.

أنا لا أقول: إن النبي لم ير جاذبية في زينب، فالموروث يشير إلى أن كل من كان حوله كان يخشى جمالها، بل أؤكد أنه من غير المعقول أن محمداً لم يدرك جمالها إلا يوم كان يبحث عن زيد ولم يجده. ومع ذلك فإن قضية المستشرقين تعتمد تماماً على هذه النقطة. فإذا لم يؤثر جمالها في النبي من قبل أبداً، فإن قضيتهم تنهار كلياً، ولكن إذا كان النبي، من جهة أخرى، معجباً بجمالها، فإن محاولتهم بتصويره شهوانياً تنهار كذلك، مادام قد فوّت فرصة زواجه هو من زينب، ورتب بدلاً من ذلك زواجهما من زيد.

إن اعتقاد المسلمين بأن النبي زوّج زيدا من زينب ليحطم الحواجز الطبقيّة ليس بعيداً عن الصحة، ولو لم يرد في أدب السيرة ما يؤكد هذه الحقيقة. كان النبي عالماً بالوعي الطبقي العربي المتطرف الذي مازال قائماً حتى اليوم. فكان تأثيره قوياً جداً حيث جعل غالبية الفقهاء المسلمين

(١) كان زي المرأة العربية العشائرية المألوف في الجاهلية يتألف من غطاء رأس تزييني يتدلى على ظهر المرأة كاشفاً شعرها من الأمام، ورداء فضفاض مفتوح من الأمام بحيث يكشف الصدر، ومنزّر تربطه على الخصر، إضافة إلى المجوهرات، كالخواتم والأقراط والأساور والخلاخيل.

لا يحبذون زواج المرأة المسلمة من رجل من طبقة أدنى من طبقتها، بالرغم من أن القرآن والحديث يصران ويؤكدان على المساواة بين المؤمنين^(١). ويذكر المؤرخون أن نقطة التفجر في العلاقة بين زينب وزيد كانت بسبب أنهما من طبقتين مختلفتين، فإن مخالفة الزواج للتقاليد المتجذرة في المجتمع مخالفة راديكالية لا بد وأن تزعج العرب، -وربما تنبأ كثيرون منهم وخصوصاً من ينتقدون النبي - أن ذلك الزواج لن يدوم. ولا يمكن أن يكون النبي غافلاً عن الاحتمال الرمزي لهذا الزواج أي عن كونه علامة عظيمة على نظام المساواة الذي كان يأمر به. ولهذا كان يسعى إلى إنجاح هذا الزواج، وإخفائه عندما قال لزيد: «أمسك عليك زوجك واتق الله...». ولكن مهما كانت غايات المرء نبيلة، فينبغي ألا يحال بين الأفراد وممارستهم لحقوقهم التي منحها الله لهم، وقد حصل زيد وزينب من هذه النقطة على ما يكفي من هذه الحقوق. ومن ثم جاءت عبارة ﴿وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾..

تشارك هذه الآية مع نص الآية الأولى بمعالم عديدة، إذ تستخدم كل منهما الأحداث اليومية في حياة النبي الشخصية لشرح عدد من المبادئ؛ وتبينان كلاًهما إنسانية النبي وبشريته وتنصيحانه وتقومانه. وقد ذكر بالإشارة إلى الآية الثامنة أن عائشة قالت: «لو كان رسول الله كاتماً شيئاً من الوحي لكنتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾»^(٢).

وأخيراً لا بد من ملاحظة أن هذا التنزيل كالأيات (١-٧) من سورة التحريم قد جاء بعد أن حُلَّت مشكلة المبدأ الذي يشير إليه هذا التنزيل (إذ كان زيد قد طلق زينب). ومن ثم لا يمكن وصف هذه الآية بأنها جاءت لمساعدة محمد.

(١) محمد علي، دين الإسلام، لاهور (١٩٩٠)، ص ٤٧٠-٤٧١.

(٢) ورد هذا في صحيح البخاري ومسلم.

■ السؤال الحادي عشر: (من امرأة مسلمة مهاجرة، في أواخر العشرينيات من عمرها)

لم أعلم أن القبلة الأولى للمؤمنين كانت القدس، ثم تحولت إلى مكة إلا فيما بعد، فلما درست القرآن قليلاً وبحث المسألة مع إمامنا تبين أن ذلك حصل فعلاً. فأزعجني ذلك، لماذا يختار الله قبلة في البداية ثم يحولها إلى مكان آخر؟

من التعليقات التي سمعتها هي أن النبي أراد أن يشعر اليهود بأنهم ليسوا غريباء، وأنه إذا ما تضمن هذا الدين الجديد جزءاً من دينهم فسيكون اعتناقه أسهل عليهم، ولهذا جعلت القدس قبلة للمسلمين، وعندما لم يبد اليهود أي اهتمام باتباع النبي، تحولت القبلة إلى مكة.

فأثار هذا التفسير سؤالا آخر، لماذا يجعل الله أو النبي القدس قبلة لإرضاء اليهود، ومن ثم بسبب غضبه عليهم (هكذا أوحى لي التفسير الذي سمعته) حولها إلى مكة؟ وفي كتابك (الصراع من أجل الإيمان) أن تحويل الكعبة إلى مكة كان لتمييز الدين الجديد من الأديان الأخرى. ولكن لماذا لم تجعل الكعبة في مكة قبلة منذ البداية؟

يعلن القرآن تغيير القبلة في قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ صِرْطَ مُسْتَقِيمٍ ١٦١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَزَوُّوفٌ رَجِيمٌ ١٦٢﴾ قَدْ رَأَى ثَقَلَبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّنَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَاعِلٍ عَمَّا يَمْشُونَ ١٦٣﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَمُضَاهِمُ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَيْتَهُمْ أَمَوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَئِنَ الظَّالِمِينَ ١٦٤﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٦٥﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٧٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيًا فاستَقْبِلُوا الْخَيْرَ إِنِّي مَا تَكُونُوا يَأْتِ
بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ
وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا بَلَّغَ الْبَلَّاءُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ
حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ نَجَاتٌ ﴿٨٠﴾
[البقرة: ١٤٢/٢-١٥٠]، ولكن صياغة الآيات غامضة وتلميحية، ولم توضح بجلاء
أن القبلة الأصلية للمسلمين في المدينة، التي يحددها الحديث بالقدس، قد
أوحى بها، وأكثر الآيات صلة بالموضوع تقول:

﴿سَبِّحُوا اسْمَ اللَّهِ الَّذِي كَانُوا عَلَىٰهِ لَمَّا ضَلَّ الْبَصَرُ ﴿٨١﴾ وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِ أَتَىٰ كَاوُوا عَلَيْهِمَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ
وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكَ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَتَكُونَ الرُّسُلُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا
لِتَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرُّسُولَ يَمَّا يَقْلِبَ عَلَىٰ عَقِيبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يَتَّبِعُ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءَوْفٌ رَّجِيمٌ ﴿٨٣﴾ قَدْ رَأَى ثَقَلُ وَجْهَكَ
فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ
فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٢/٢-١٤٤].

ولما كان الحال كذلك، فقد قام خلاف كبير بين المفسرين والمؤولين حول
هذا النص. ومن بين ما اختلفوا فيه، هو في أي زمن بعد وصول النبي إلى
المدينة حُولت القبلة، وما سبب توجه النبي إلى القدس في المقام الأول^(١)،
وهل أوحى بالقدس قبله أم لا، وما سبب تفضيل النبي للكعبة لتكون قبله،
وما المسألة التي قال عنها القرآن ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكِبْرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

فيما يتعلق بسبب توجه النبي إلى القدس قبل تحويل الاتجاه، وفيما يتعلق
بالسؤال عما إذا كان ذلك بأمر إلهي، يقول الطبري يروي عن عكرمة والحسن

(١) إن بعض المصادر قدمت التواريخ التالية: تسعة أشهر أو عشرة أو ثلاثة عشر أو ستة
عشر أو سبعة عشر على أنها المدة التي صلى خلالها المسلمون نحو القدس، محمود
م. أيوب: (القرآن ومفسروه)، مطبعة سوني (Sunny Press) ١٩٨٤، ص ١٦٧-١٦٨.

البصري: إن النبي قد اختار القدس على أمل أن يكسب يهود المدينة^(١) ويستشهد بريبع بن أنس أن النبي قد خير في البداية للتوجه حيث يشاء فاختار القدس ليوثق بين أهل الكتاب^(٢). ومن ناحية أخرى يستشهد الطبري برأي ابن عباس القائل: إن الله أمر محمداً بالتوجه إلى القدس، وإن يهود المدينة فرحوا بذلك^(٣). وفيما بعد طرح المفسرون شروحات أكثر^(٤).

واختلف المفسرون كذلك بشأن تفضيل النبي للكعبة، إذ قال بعضهم استناداً إلى الطبري: إنه ما أحب قبلة القدس، لأن اليهود اعتادوا أن يقولوا: إنه يتبع قبلتنا، ومع ذلك يعارضنا في ديننا^(٥). وقال آخرون: «اختار الكعبة لأنها كانت قبلة أبيه إبراهيم»^(٦). ويروي القرطبي عن ابن عباس أن رسول الله قال: «البيت قبلة الناس (المحيطين) بمكان العبادة (المسجد)؛ والمسجد قبلة أهل الحرم والحرم هو قبلة أهل الأرض من شرقها وغربها»^(٧).

الافتراض القائل: إن النبي قد غير اتجاه الصلاة إلى الكعبة عندما لم يبد اليهود اهتماماً باتباعه لا وجود له بين آراء المفسرين المسلمين، وإنما ذكره المستشرقون في أثناء فترة الاستعمار.

أما لماذا لم يختار الله وقتاً قبل ذلك ليقرر الكعبة قبلة؟ فهو سؤال يستحيل الإجابة عنه. يمكننا أن نتأمل ونفكر، ولكن لا يمكننا إثبات فرضياتنا، فبالنسبة إلي، على أي حال، فإن أهم شيء بشأن التغيير أنه لم يكن متأخراً ولا متقدماً، فالقرآن وطد مكة حرماً روحياً لدين التوحيد عندما كانت مركز عبادة الأصنام، وعندما كان أتباع النبي لا يزيدون عن مئة، وعندما كانت قريش مع حلفائها

(١) المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٨، ١٧٥.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٨-١٦٩.

(٤) المرجع السابق، ص ١٦٩-١٧٠، وكذلك جون برتون، مصادر التشريع الإسلامي

إلنيغ، ١٩٩٠، الفصل ٨.

(٥) المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٦) المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٧) المرجع السابق، ص ١٧٤.

أعظم قوة سياسية في الجزيرة العربية، والعقل يقول والمنطق يفرض أنه لم يكن أمل للحفنة الصغيرة من المسلمين أن يعودوا إليها، ومع ذلك يتحدث القرآن في هذا الوقت عن مسلمين بعيدين يتوجهون إلى المسجد المقدس في صلاتهم ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِمُنْفِلٍ عَنِ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ (١١٤) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِلَّا بَئِذَا يُكُونُ لِلنَّاسِ عِلْقٌ مِنْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَعَالِيكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١١٥﴾ [البقرة: ١٤٩/٢-١٥٠]، أما اليوم فإن كون الكعبة هي الوجهة التي يصلي إليها المسلمون يعد معقولاً ومفهوماً، ولكن ماذا لو بقيت الكعبة بيد الكفار، فأيهما في نظر المراقب الخارجي يبدو أكثر تأكيداً؟ بالنسبة إلي، أرى أن توقيت إقرار الكعبة قبلة دليل لمصلحة الأصول الإلهية للقرآن.

جاء في القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ رِجْسِ الَّذِينَ يَبْغُونَ كَيْدًا قَالَتْ لَهُمْ أَسْخَرْتُكُمْ آلَ يَاقِينَ﴾ (١١٦) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَحَابَّةً لِّلنَّاسِ وَآمَنَّا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِرِ بُرْهَمِ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١١٧﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي سَاحِلِهَا أَلْفٌ مِنْهُمْ وَبَيْنَهُمْ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدُ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٨﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٩﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٠﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَاهَةٍ فَقَدْ أَصْطَفَيْنَا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢١﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْعَلِيِّ ﴿١٢٢﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ مُتَابِعُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ أَنْتَ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٤﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَأُونَ عَنْهَا كَانُوا يَمُونُ ﴿١٢٥﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٦﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ

إِنَّا وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَلِإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أَوْفَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٤﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا بِبَيْتِي مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ ءَاهَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقِي تَبْتَغِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّجِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٥﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٢٦﴾ قُلْ أَتَمَاجُونًا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٢٧﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ يَلَاكُ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ١٢٤-١٤١﴾ إن الإسلام إحياء وتنوير لعقيدة إبراهيم الذي أعاد بناء الكعبة مع ابنه إسماعيل مخصصاً لها لعبادة الله الواحد الأحد. وهكذا فإن الاستمرار في التوجه إلى المسجد الأقصى كقبلة للإسلام بعكس جذوره في عقيدة إبراهيم، سوف يدفع الأعداء الوثنيين إلى القول: إذا كان الإسلام استمراراً لعقيدة إبراهيم، فلماذا لا يتوجه المسلمون إلى البيت الذي كان يتعبد فيه إبراهيم؟ ويبدو أن هذا هو القصد من قول القرآن: إنه بتحويل المؤمنين إلى مكة، قد سحب البساط من تحت أقدام أعداء النبي وأسقط حججهم ضده في هذه المسألة ﴿يَتْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَىٰكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠].



الفصل الثاني

أين ذهب الأبناء كلهم ؟

أتيحت لي ولسهيل فرصٌ عديدة للتحدث معاً خلال اليومين اللذين قضيتهما في المدينة. تحدثنا عن المسافة الطويلة في السيارة من المطار إلى الفندق، وعن المرتين اللتين تناولنا فيهما الإفطار معاً. والمرات العديدة التي أوصلني فيها بسيارته إلى محاضراتي واجتماعاتي مع زعماء الجالية المسلمة. تحدثنا عن أمور كثيرة، عن الجو، عن حياتنا العملية، عن الجاليات الإسلامية التي نعيش فيها، عن لعبة كرة السلة في الكلية، عن الاقتصاد، والسياسة، وعن أسرنا.

كانت مناقشاتنا مبهجة، ليست شخصية تماماً، ولا هي حوارٌ جاد من النوع الذي يجري بين اثنين يتعرف حديثاً أحدهما على الآخر. ولكن عندما انطلقنا إلى المطار مساء اليوم الذي غادرت فيه، كان سهيل ساهماً غارقاً في التفكير، لم ينبس ببنت شفة. كانت محاضرتي صباح ذلك اليوم بعنوان (تحرير الشباب الأمريكيين المسلمين من الوهم) ودارت حول عجز الكثيرين من الجيل الثاني عن الانتماء إلى عقيدة آبائهم. وعندما سألت سهيلاً عن حالته وإن كان بخير، أجاب الجواب التقليدي المؤلف (الحمد لله) ثم عاد إلى تأملاته.

وبعد بضع دقائق من الصمت، حاولت خلالها أن أستكشف ما إذا كنت قد أسأت إليه بشيء، نظر إلي سهيل وقال: «ألفت أن أكون قريباً جداً من أولادي» ثم شرع بشرح طويل. ذكر كيف كانوا دائماً أطفالاً مسلمين نموذجيين، وكيف كانوا على نشاط في مسجدهم. وكانوا جزءاً من كل عمل تقوم به الجالية، يحضرون بانتظام مدرسة الأحد الإسلامية، ويساعدون بالعمل في (كافيتريا) المسجد قبل وجبة الأحد «البرنش» (brunch)^(١) ويذهبون إلى مؤتمرات الشباب المسلم. تحدث عن حبه لهم. وقال: إنه عندما كان يُحضر ابنه من المدرسة كان يُهرع إليه فاتحاً ذراعيه فيعانقه، ويتعلق به، ويقبل رأسه. وكان زملاؤه في السنة التاسعة يسخرون منه ومن هذا العرض العاطفي اليومي، ولكن ابنه كان يتجاهلهم. لم يستطع سهيل أن ينظر إلي وهو يتحدث عن ابنته، وتوقف ليستجمع نفسه. قال كم كانت رائعة الجمال نقية، وتبدو كملاك في حجابها، حتى إن آباء زميلاتها وأمهاتهن كانوا يتعجبون من جمالها، وإن العديد من الأصدقاء كانوا ياملون أن يقترب أولادهم بها. قال: إنه يرى أن الشمس أشرقت وغربت عليها، وإن أجمل لحظات حياته كانت عندما تجلس في حجره وقد طوقت عنقه بذراعيها.

وكما يتوقع القارئ، أخذت الأمور تتغير. وعندما صار الابن في الثانوية وجد أبوه، ذات يوم، في جيبه علبة سجائر. فواجهه بذلك، فادعى أن العلبة لأحد طلبة المدرسة. وبعد ذلك بوقت قصير اكتشف أنه كان يكذب. فشر بطعنة عميقة. فقال في نفسه مستغرباً: «كيف يكذب ابني علي؟».

ولكن سرعان ما تبين له أن الآتي أعظم. ففرض قيوداً قاسية، وتوترت علاقتهما، أما علاقته مع ابنته فظلت قوية.

ثم ذهبت إلى الكلية. وأخذت تبتعد عنه رويداً رويداً، وشرعت تتساءل عن الإسلام أكثر وأكثر، وكثيراً ما كانت لا ترد عليه إذا اتصل بها على الهاتف في الليل. قالت: إنها لا تستطيع المجيء إلى البيت في عطلة الربيع، لذلك ذهب سهيل بسيارته إلى الجامعة لبحث في المشكلة. تبين أنها وقعت في حب فتى غير

(١) برنش (brunch) هي وجبة الإفطار والغداء وتقوم مقامها. (المترجم).

مسلم التقته في الصف وسكنت معه. شعر سهيل أن الدمار حل به. قال: إنه وصمها بكل اسم بائس في الكتاب، بكلمات ما يمكن أن يقولها لأرذل متسكع في الشوارع. صرخ قائلاً: «كيف تفعلين ذلك بي؟»، ولم يعد يكلمها منذ ذلك الحين، بالرغم من محاولاتها الكثيرة للاتصال به.

أما ابنه فقد تخرج في المدرسة الثانوية منذ بضع سنين. وكان يتلقى سهيل من حين إلى حين مكالمات من الشرطة تستدعيه ليتسلم ابنه، بعد أن وجدوه ثملاً متسكعاً في المدينة. وفي إحدى الليالي اكتشف ابنه في الرواق الخلفي للبيت ويده سكين. وعندما سأله عما سيفعل بالسكين أجابه إنه كان يفكر في الانتحار. دخل سهيل المطبخ وعاد ويده سكين أحذً وأمضى، وقال له: «إن كنت تنوي أن تفعل ذلك، فافعله بطريقة صحيحة على الأقل» ثم عاد إلى البيت. قال سهيل وكأنه يتوسل: «كيف يخونني أبنائي. أنا لا أستطيع حتى التحدث إليهم، بل لا أستطيع البحث معهم، ماذا سأفعل؟».

ما أكبر مجموعة إسلامية في أمريكا؟

إذا ما حضرت صلاة جمعة أو ذهبت إلى أحد المؤتمرات الإسلامية التي تعقد خلال السنة، سوف تستتج أن الغالبية العظمى من مسلمي أمريكا مهاجرون ومن متوسطي الأعمار أو من الشيوخ، ولكن هذا ليس دقيقاً. لقد قُدِّر عدد المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة ما بين ثلاثة ملايين وثمانية، ولتبسيط الأمور نأخذ المتوسط التقريبي، وهو خمسة ملايين. كما تختلف التقديرات في أعداد الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام اختلافاً كبيراً؛ بيد أن الرقم الأكثر تداولاً هو مليون شخص، ويمكن أن يكون هذا الرقم منخفضاً؛ لأن غالبية أمة الإسلام التي بلغ عدد أعضائها ذروته في ستينات القرن العشرين، وهو مليون عضو، قد انخرطت في البناء الإسلامي الشائع، وجرى تحول بطيء إلى الإسلام - ولكنه ثابت من قطاعات المجتمع كلها - خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين. وغالبية أطفال المسلمين في أمريكا ولدوا فيها، إضافة إلى أن الأسر الإسلامية تميل إلى التوالد أكثر من غيرها، ومعدل ولاداتها أعلى من المعدل القومي. لذلك فإذا قدرنا ثلاثة أطفال لكل أسرة يكون تقديرنا معقولاً.

ومن ثم فنحو ٦٠٪ من المسلمين الأمريكيين، وهم نحو ثلاثة ملايين تقريباً ولدوا في الولايات المتحدة لأبوين مسلمين. وإذا ما أضفنا هذا العدد من المسلمين - ما عدا الجيل الأول - إلى عدد الذين اعتنقوا الإسلام من الأمريكيين، فإننا نحصل على نحو أربعة ملايين من أصل خمسة، أي نحو ٨٠٪ من المسلمين قد ولدوا في هذا البلد. ومن ثم فإذا كان أربعة أخماس المسلمين في أمريكا مواطنين بالولادة، فلا بد لنا أن نسأل: أين هم؟ لأنهم بوضوح غائبون عن مساجد الأمة، وعن التجمعات الإسلامية.

ولدى العودة إلى عام ١٩٨٢ الذي اعتنق فيه الإسلام، وجدت أن اللقاءات الإسلامية التي كنت أحضرها في أي مكان تكونت في معظمها من المهاجرين، وممن هم في مثل عمري تقريباً، ومن الطلبة الأجانب الزائرين. انقضى أكثر من عشرين عاماً، وما زالت الأمور على ما كانت عليه. فالذين يحضرون اللقاءات الإسلامية ما زالوا في معظمهم من المهاجرين، وممن هم في مثل سني تقريباً، وربما أكبر، ومن طلاب أجانب زائرين، وأحياناً من نشارات متفرقة من الذين اعتنقوا الإسلام.

وبالرغم من أن أمريكا شهدت في النصف الأخير من القرن هجرة كبيرة ومعززة من المسلمين، وسجلت أكثر من ألف مسجد ومركز إسلامي فقد أنشأت عشرات من مدارس K12، وأسست تنظيمات سياسية قومية ولوبيات كثيرة، فإن أكبر مجموعة مسلمين في أمريكا ممثلة تمثيلاً ضعيفاً في التجمعات والمؤسسات المجتمعية. وكثيرون من الطلبة المسلمين الذين تدفقوا على الجامعات الأمريكية منذ الخمسينات أصبحوا مواطنين أمريكيين ومقيمين في أمريكا، وأصبح لديهم حالياً أولاد في العقود الثانية والثالثة والرابعة من أعمارهم، ولكن ذرية الجيل الأول هذا وأكثر من مليون ممن اعتنقوا الإسلام لديهم مراكز إسلامية ومنظمات إسلامية أخرى، بالإضافة إلى المساجد. ومن هذا المؤشر الحاسم على تقدم الإسلام في الولايات المتحدة لا يمكننا التيقن أبداً من أن الدين قد تجذر في أمريكا الآن، أو أنه سيضرب جذوره في النهاية.

يبدو أن كثيراً من المؤسسات الإسلامية في الولايات المتحدة من غير دعم

وتعزيز خارجيين سوف تغلق أبوابها في النهاية، وأن أبناء المهاجرين المسلمين والذين اعتنقوا الإسلام ليس لهم - علمياً - أي علاقة أو ارتباط بالمجتمع الإسلامي، ومن ثم فسوف ينكرون دين أجدادهم وأسلافهم ويتصلون منه. كان يبدو حتى وقت قريب أن تقلصاً كبيراً في هجرة المسلمين التي كانت ثابتة ومستمرة إلى أمريكا، يعد احتمالاً بعيداً، ولكن حدث هجوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ربما يكون قد غير ذلك. إذ تشير التقارير الواردة من المساجد في الجامعات في مختلف أنحاء البلاد إلى أن عدد الطلبة المسلمين الأجانب أخذ في التناقص وإلى أن فرض حظر على الهجرة من البلدان الإسلامية قد اتخذ حديثاً في أمريكا. إن وقوع هجوم إرهابي كبير آخر أو هجومي على الولايات المتحدة - وهناك أسباب لتوقع ذلك - سيؤدي إلى تجفيف مصادر هجرة المسلمين، وقدم الطلبة المسلمين الأجانب إلى الولايات المتحدة.

لذلك كان علينا أن نتساءل: لماذا يتجنب المسلمون غير المهاجرين - الذين يحتاج المجتمع إلى مساهمتهم العاجلة - مساجد أمريكا والمراكز الإسلامية ويتعدون عنها؟ التفسير المعتاد: هو أن المجتمع من حولهم يفرهم في الابتعاد عن الدين. إذ تتصافر ضغوط الأقران، وتشويه الإعلام للإسلام، وإظهاره بأنه دين شيطاني، وجذب الثقافة الشعبية، والاستهلاكية الضارة، والتعامل المتأصل على الإسلام، واستغلال الجنس وترويجه، تتصافر كلها لإبعاد الكثيرين من الشباب عن الإسلام، بل وتحويلهم عنه. وفي حين تشكو الأديان كلها تقريباً من مؤثرات الثقافة الغربية الحديثة الضارة، فإن غالبية المسلمين ربما يؤكدون أن الإسلام يقف بحزم ضد هذه المؤثرات، ومن ثم لن يكون غريباً أن ترتفع نسبة الانفصال عن المجتمع الإسلامي بين هذه المجموعة الأكثر عرضة لإغراءات المجتمع المحيط بها وضغوطه. والواقع أنه حتى البوذيون والهندوس الذين يسهل عليهم التلاؤم مع المشهد الأمريكي، فإن قطاعاً كبيراً من جيلهم الثاني قد انحرف عن دين الآباء والأجداد.

ربما تجعل الثقافة المحيطة بالمرء من الصعب عليه أن يكون مسلماً، ولكن جذور تحاشي غير المهاجرين للمجتمع الإسلامي تمتد بالتأكيد إلى ما وراء

الضغوط الخارجية. يستمر الإسلام باجتذاب الناس إليه في أمريكا أكثر من أي دين آخر، بالرغم من الإعلام السلبي والتحايل عليه وغير ذلك من المؤثرات المجتمعية المذكورة فيما تقدم، وما زال عدد كبير من الأمريكيين المدركين لهذه العوامل كلها يعتقدون الإسلام. لكن من غير المفهوم أنه بعد تغلبهم على هذه الحواجز والصعوبات ليعتق أحدهم الإسلام تراهم يستسلمون لهذه الصعوبات بسهولة وبأعداد كبيرة. من المفهوم أن الشباب في مجتمع تسوده وجهات نظر متنوعة وأساليب حياتية مختلفة أن يشكوا في دينهم، وربما يتركونه جانباً لمجرد التلاؤم، ومع ذلك فمن الغريب أن ديناً يجتذب الحماس المتوقد لكثير من الشباب في العالم الإسلامي التقليدي والذين يصبحون في الغالب من النشطاء مخاطرين بأنفسهم، لا يجمع سوى عدد لا يكاد يذكر من أطفال المهاجرين المسلمين.

على زعماء المسلمين ومفكرهم أن يتأملوا أنفسهم ومجتمعهم من الداخل ليتبينوا إن كان بإمكان هذا المجتمع أن يفعل شيئاً ما أكثر لكي يصل إلى هذا الجسر المحتمل الذي يربطهم بالمستقبل، بدلاً من أن ينسبوا ذلك إلى قوى ثقافية لا يمكن تجاوزها. ومع ذلك، فإن المشاكل التي نبحثها هي مشاكل القلب والعقل، وليس لنا أمل في تشخيصها بصورة فعالة من دون تعاون المريض. فإذا كان المريض المصاب يرفض الشكوى، أو إذا رفضنا الإصغاء إليه فإنه من غير المحتمل اكتشاف العلاج.

هذه هي العقبة الكبرى حالياً في وجه معالجة سبب ضياع الـ ٨٠٪ لأن أسئلتهم واعتراضاتهم كانت تُقمع منذ زمن طويل بالسخرية والتخويف والصياح والعبوس والدوغماتية. عندما يشاركني الشباب شكوكهم في بعض جوانب التراث الإسلامي، أسألهم لماذا لا يبحثون مشاكلهم مع آبائهم وأمهاتهم، ويكون الجواب الذي أتلقيه باستمرار: هو أنهم ينفجرون غضباً إذا ما طرحوا عليهم مثل هذه التساؤلات. يشكو الذين اعتنقوا الإسلام والشباب المسلمون من أن مساجدهم ومراكزهم الإسلامية لا تساعدهم.

فإذا ما طرح شك أو تحفظ حول آراء تقليدية فإن الجواب يكون دائماً : «هذا هو الإسلام». أو «ولكن ليس هذا هو الإسلام» أو «إذا لم تقبل ذلك فأنت

لست بمسلم». «والكتب والخطب المتعلقة بقضايا خلافية مفعمة باتهام المعارضين بالكفر أو بالتنديد والذهاب إلى جهنم». كما يحرم المسلمون الذين يطرحون مسائل جادة تتعلق بشرعية تفسيرات علمية أو شائعة ويطردون من الدين بتهمة أنهم حداثيون أو مستغربون، أو عقلانيون، أو خطرون^(١).

تعد غالبية الخطب في اللقاءات الإسلامية والمؤتمرات مواعظ أساساً. ومن النادر أن ينتقد خطيب وجهة نظر تقليدية. ولا بد من القبول بأن هذا لا يتوقع حدوثه في اجتماعات شبيهة باجتماعات التنقيح والتعديل في المسيحية الإنجيلية البروتستانتية التي هدفها الأساس هو إيقاظ الحمية الدينية وغرس التراث، ولكن أين يذهب بعد ذلك الشباب ومعتنقو المسيحية الإنجيلية سعيًا وراء بحث علمي هادئ متفق للقضايا التي يفكرون فيها؟

الجامعة هي خير ملاذ لمثل هذه الجماعات المثقفة ثقافة جامعية بوجه عام، لكي يقوموا بعد الوعظ الديني بالتحليل النقدي العميق، والبحث المستفيض، فيما يفكرون فيه ويعانون منه، وسوف يجدون هناك الكثير فيما يتعلق بالقضايا التي تزعجهم، ولكنه بأكمله تقريباً عمل غير مسلم، ومتحيز بصورة موروثية ومتأصلة. على أي حال إذا كانت الجالية الإسلامية تريد الرد على عموم الغائبين الذين يشكلون ٨٠٪ منهم، فإن أول نسق عملي هو تيسير عملية التواصل، ولكن بسبب سمعة الجالية بأنها تقليدية متطرفة فإن هذا النسق سيكون بعيداً جداً.

دعيت قبل بضع سنين إلى مخيم للشباب المسلمين يبعد عن لورنس، كنساس نحو ساعتين ونصف الساعة. شاركت بجلستين، أقيمت في الأولى كلمة، وفي الثانية كنت أتوقع أن أتجاوز مع عناصر المخيم الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة. كان الحضور هذا أصغر سناً مما كان في

(١) من المهم أن نلاحظ وجود ليبراليين مسلمين كثيرين هم كذلك دوغماتيون لا يتحملون الآراء المغايرة، ولكن عددهم قليل، ويظلون عموماً بعيدين عن المؤسسات الإسلامية الأمريكية، ومن الصعب على معتنقي الإسلام وسلالة المهاجرين الوصول إليهم.

ذهني، وكانوا من أسر متدينة، حثت أبناءها على الحضور. ومع ذلك كنت حريصاً على معرفة ما إذا كان هؤلاء الأولاد والبنات يتصارعون مع شكوك وهواجس تتعلق بعقيدتهم وإيمانهم. لذلك وجهت لهؤلاء الأطفال في جلسة الحوار سؤالاً عما إذا كانت قد وجهت إليهم أسئلة بشأن دينهم. فلم يجب أحد، ثم حاولت إعطاء بعض الأمثلة. وسألت: هل يُفصلُ بين الجنسين في مجتمعاتهم المحلية، وإذا كان مثل هذا الفصل قائماً، فهل تساءلتم لماذا، سواء كان التساؤل موجهاً لأنفسكم أو للآخرين؟ لا جواب.

وسألتهم: إن كانوا قد تساءلوا يوماً: لماذا يحق للرجل المسلم أن يتزوج أربع نساء، ولا يحق للمرأة سوى زوج واحد؟ لا جواب.

وسألتهم إن كانوا قد تساءلوا: لماذا لا يستطيعون أخذ مواعيد غرامية مع أصدقائهم غير المسلمين؟ صمت مطبق.

وسألتهم: هل تساءلتم يوماً: لماذا لا تحتفلون بعيد الميلاد؟ لم أتلّق جواباً.

ولماذا على النساء المسلمات أن يرتدين لباساً تقليدياً، في حين ليس ذلك لزاماً على الرجال المسلمين؟ لا جواب.

وبعد عدة أسئلة لم أتلّق على أي منها جواباً. عكست الأدوار وسألتهم: كيف يمكن أن تجيبوا على كل هذه الأسئلة لو طرحت عليكم؟

وبمروري على القائمة، كان يجيب عن كل سؤال متطوع أو اثنان، جوابهما لا يخرج عن الخط التقليدي كما توقعت، ولا يختلف عن جواب إمام في مسجد. وبعد كل جواب سألت الحضور: إن كانوا مقتنعين بالإجابات وراضين عنها. لا مشكلة.

فغادرت المخيم ذاك المساء مستغرباً، ولكنني كنت مسروراً لأن هذه المجموعة الخاصة من الأطفال المسلمين ما زالوا آمنين في دينهم. ولكن ما إن وصلت البيت بعد ساعتين تقريباً، وما كدت أدخل من الباب حتى رن

جرس الهاتف، وكان اتصالاً من أمينة أسيلمي واحدة من مستشارات المخيم، وهي أمريكية اعتنقت الإسلام، تطلب مني أن أعود إلى المخيم تلك الليلة بناء على طلب الأطفال للبحث مع أمينة وحدها بعض الأسئلة التي كانت تقلقهم. فقلت لأمينة، لا أستطيع العودة الليلة وهي آخر ليلة في المخيم - ولكنني سألتها: لماذا ظلوا صامتين عندما توسلت إليهم أن يجيبوا، ولماذا بدا عليهم الرضا والقناعة بالأجوبة المعيارية الرسمية ؟ فقالت : كان الأطفال خائفين من الإجابة أمام العديد من زعماء الجالية الذين كانوا حاضرين.

لم يكن أي جهد من جهودي للوصول إلى هذه الأكرية الغائبة أنجح من جهدي تلك الليلة. لأنني منذ سنين عديدة بعد اعتناقي الإسلام، وأنا أحتك بعدد قليل من المسلمين الجدد، وأما الجيل الثاني من المسلمين فلم ألتق بأحد منهم طوال هذه المدة إلا بأولادي. ولكن تغير الأمر مع نشر كتابي الأول (الصراع من أجل الإيمان) عام ١٩٩٤؛ إذ بدأت أتلقي رسائل وهواتف ويريداً ممن اعتنقوا الإسلام في العالم كله. ثم بعد أن نشر كتابي (حتى الملائكة تسأل) عام ١٩٩٧، بدأت أتلقي بريداً من شباب أمريكيين مسلمين. كما بدأت أتلقي بريداً وهواتف من آباء وأمهات يبحثون عن نصيحة حول كيفية التعامل مع أطفالهم الضالين، ومع غير مسلمين يحققون في الإسلام. فأوحت لي هذه المحادثات أن أصدر هذا الكتاب إضافة إلى بعض الأسئلة والتعليقات التي وزعتها عبر النص.

لا أدعي أن المراهقين الشباب ومعتنقي الإسلام الذين بذلوا جهداً للاتصال بي يعدون عينة تمثل المجتمع أو الجالية. إن المسلمين المولودين في أمريكا والمتحررين من الوهم ما زالوا مرتبطين بالإسلام، ويقلقون عليه، في حين أن زعماء المسلمين - وخصوصاً زعماء الشباب المسلمين في طول البلاد وعرضها - يقولون: إن غالبية الأكرية الضائعة شديدة اللامبالاة. لا بد من التأكيد على أن الوالدين اللذين لا صلة لهما بالمسجد يعدان أكبر سبب في إهمال الجيل الثاني للإسلام. كثير من البالغين الراشدين في بلدان العالم الإسلامي

يتجنبون المسجد، ومع ذلك يتشرب أطفالهم الإسلام من الثقافة. أما في أمريكا فإن لم يكن الآباء مرتبطين بالمسجد فمن الصعب أن يكون لأبنائهم أي ارتباط بالدين. ومع ذلك، فإن المسلمين المولودين في أمريكا، من الذين يناضلون من أجل التمسك بدينهم. حتى وإن كانوا لا يمثلون نسبة ٨٠٪ الضائعة فمن المعقول أن غالبية الفئة الأخيرة ستعاني إشكالات مماثلة، إذا ما اتسع نطاق احتكاكها بالجالية الإسلامية.

إذن ما مشكلتك ؟

يجب ألا يعزو زعماء المسلمين بصورة عمياء ندرة المساهمة لدى غير المهاجرين في المجتمع إلى ضغوط مجتمعية فقط، علماً بأن هذه الضغوط تشكل عاملاً هاماً بلا شك. فبالنسبة إلى المسلمين غير المهاجرين تعد أمريكا وطنهم الوحيد، ومن المفروض أساساً أن يتبنوا كثيراً من قيم وطنهم وعاداته السائدة. يسعى بعض الآباء المسلمين إلى عزل أبنائهم عن المجتمع الأوسع؛ فلا يسمحون لهم بمصادقة غير المسلمين، ويمنعونهم من مشاهدة التلفاز أو من استخدام الإنترنت غير المراقب، ويمنعونهم من الإصغاء إلى الراديو أو شراء أقراص مدمجة (CD)، ويرسلونهم إلى مدارس إسلامية، أو يختارون التعليم المنزلي، ولكن القادرين على ذلك قلة قليلة نسبياً. وليس لدى كل الجاليات مدارس إسلامية كاملة الدوام، وإبقاء الطفل معزولاً في الثقافة يحتاج إلى التزام زمني وجهد كبيرين. فضلاً عن أن غالبية الآباء والأمهات المسلمين يشعرون بضرورة الاندماج في المجتمع الأكبر لمصلحة أطفالهم العامة، ويشعرون أنه بفضل تربية حسنة للأطفال يستطيعون توجيههم بفاعلية، وإبعادهم عن العادات غير المرغوب فيها في أمريكا، دون الحاجة إلى التطرف أو التشدد. ومن ثم أصبح لدى غالبية المسلمين المولودين في أمريكا نظرة أمريكية مفهومة بفضل حجب الاستثناءات القليلة التي عُزلت عن الثقافة المحيطة بطريقة ناجحة. لذلك ليس صحيحاً قولهم: إن أفراد الثمانين بالمئة المفقودة قد جرى إغواؤهم عن دينهم وانجرفهم بالتيار الأمريكي العام، لأن المشهد المجتمعي لأمتهم قد

استوعبهم ، وأنهم ما زالوا يوازنون بين الثقافة الأوسع والثقافة الفرعية الإسلامية. وهذا يوضح المناشدة التي نسمعها باستمرار من المسلمين المولودين في أمريكا لفصل الدين عن الثقافة ؛ وبما أنهم لم يتأسسوا في المجتمع الإسلامي التقليدي ، فهم ، بالطبع ، يريدون اعتناق المعتقدات والممارسات الدينية الجوهرية في الإسلام ، ولهذا فليس غريباً أن تكون غالبية أسلتهم الدينية مشتقة من صدام الثقافات.

لذلك سأدرس في بحثي التالي بعض الهموم والشكوك التي شاركني بها المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية ، أربعة منظورات كبرى متقاطعة ، هي : منظورات النساء المسلمات غير المهاجرات ، ومنظورات الإفريقيين الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام ، ومنظورات سلالة المهاجرين ، وأخيراً منظورات الذين اعتنقوا الإسلام عموماً.

مكان المرأة

تأتي معاملة الجالية الإسلامية للمرأة ، وخصوصاً العزل الجنسي في قمة قائمة الشكاوى والتظلمات ضد الجالية الإسلامية. وبعد الفصل الجنسي (بين الإناث والذكور) من أكبر العقبات أمام قبول الإسلام في الغرب ، ومن أهم الأسباب لنفور المسلمين غير المهاجرين ، ومن الاحتجاجات الشائعة ؛ عدم تشجيع النساء على صلاة الجماعة ، وعزلهن في غرف منفصلة عن قاعة الصلاة الرئيسية ، وعزلهن في لقاءات الجالية عن الرجال . تعد فكرة العزل الجنسي في الولايات المتحدة - حيث المرأة ناضلت طويلاً ضد التمييز بين الرجل والمرأة - أمراً بغيضاً ، والأكثر من ذلك أن العزل الاجتماعي بأي شكل من أشكاله يشير ذكريات الأمريكيين لتاريخهم التعصبي المظلم ، ويغدو هذا العزل في نظرهم مرادفاً للتحامل والتحيز والظلم والاضطهاد. وكما قالت أمريكية إفريقية مسلمة : «إن شعبي الذي اكتسب حديثاً حق تناول الطعام في المطاعم مع الآخرين من البيض ، وحق الركوب في المقدمة من حافلات النقل ، يقال لنسائه الآن: إن عليكن أن تبقين في الغرفة الخلفية من المسجد!!».

ومن التعليقات الشائعة لعزل النساء هو أن العزل يردع الاختلاط والممارسات الجنسية غير الشرعية، وهو جانب من جوانب الثقافة الأمريكية يراه المسلمون انحرافاً منفلاً لا سيطرة عليه. والخوف يكمن في السماح للتفاعل والاختلاط في المساجد وفي الوقائع المجتمعية، فإن الفسق بكل ما يترتب عليه من نتائج مدمرة للأسرة وللمجتمع سوف يعم ويسود. إذ تقول القاعدة الشرعية القديمة : «كل ما يؤدي إلى محرم فهو حرام». وغالباً ما تذكر هذه القاعدة لإثبات ضرورة عزل الإناث عن الذكور. إذ ربما تؤدي هذه القاعدة الشرعية لكونها مفتوحة إلى أشد التشريعات صرامة وتقييداً. فإذا كان الاختلاط العام للجنسين حرام لأنه ربما يؤدي إلى الاتصال الجنسي غير الشرعي، أفلا يعني ذلك أنه ينبغي منع المرأة الخروج من البيت إلا لضرورات قاهرة، لأن خروجها ربما يؤدي إلى اختلاط غير مقصود؟

يرى علماء المسلمين المحافظون هذا الرأي. والقاعدة نفسها استخدمت لدعم القرار بمنع المرأة من قيادة سيارة أو منحها رخصة قيادة سيارة، لأنه لو تعطلت سيارتها وكانت وحدها فإن من يصل إليها ليساعدها من الرجال ربما يرفض مساعدتها إلا إذا استجابت له جنسياً. إن قوة الحجة في مثل هذه الآراء تعتمد على مدى رغبة المسلمين في تقييد الحرية الشخصية لتقليص احتمال حدوث الانتهاكات، وعلى مدى رغبتهم في تجاوز الآثار الجانبية السلبية المحتملة. فلو منعت الولايات المتحدة النساء فجأة من قيادة السيارات، فسيترتب عليها كي تتلافى كارثة اجتماعية ومالية أن تستورد سائناً لكل بيت، من أجل أن ينقل النساء والأطفال، حين ينشغل السائقون الذكور في الأسرة. وينبغي أن تكون أجور السائقين منخفضة - أكثر من الحد الأدنى الحالي للأجور - لكي تستطيع الأسرة أن تستأجر سائناً. وبالطبع؛ إن تدفق نحو خمسين مليون عامل فقير سوف يولد مشاكل ومخاطر كبرى.

علماً بأن القرآن يصر على إدانة البدع الدينية وتقديس التقاليد المألوفة، فإن قضية المسلمين الأساسية المتعلقة بفرض عاداتهم وتقاليدهم على المشهد الإسلامي الأمريكي ليست هي النتائج الاجتماعية المحتملة لمثل ذلك العمل،

بل هي فرض هذه التقاليد والعادات؟ هذه مسألة حاسمة في الكتاب المقدس؛ لأن جعل أي فكرة أو أفضلية معينة أو عادة ما أمراً مثالياً لا يجوز المس به سوف يعيق البحث عن الحقيقة إعاقة خطيرة. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلَهُ أَذُنٌ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ١٠/٥٩]. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦/١٦].

إذن لابد للمسلمين في أمريكا أن يعيدوا تقويم عاداتهم وتقاليدهم باستمرار ليميزوا ما هو جوهرى وأساسى للدين منها وما هو غير ذلك. وتلك التي تعدُّ ضرورية بل ضارة بتقدم الإسلام في أمريكا يتم التخلص منها، أو على الأقل يجب إجراء تعديلات لأولئك الذين يختارون عدم اتباعها، ولكن الأهم من ذلك يجب ألا تكون إجبارية، لأنها ربما تغدو مصادر شك لا ضرورة لها عند الذين نشؤوا في الوطن، وتصبح رادعاً لغير المسلمين عن محاولة استكشاف الإسلام بوصفه خياراً دينياً. على أي حال، ليست غربة المعتقدات والعادات غير الضرورية عملية مقطوعة وجافة دائماً. إن معظم التقاليد الإسلامية «دينية» بمعنى أنها انبثقت بدافع التقوى، ويمكن تعزيزها بمنطق ديني يربطها بالقرآن وبأقوال النبي بفضل سلسلة من الافتراضات والتضمينات والنتائج. ويعد خطر قيادة السيارات على النساء مثلاً أولياً: الزنا حرام بنص قرآني وبأحاديث نبوية؛ وهناك احتمال - ولو كان طفيفاً - أن توضع السائقة في موقف يمكن أن تتعرض فيه لفضيحة جنسية، ومن ثم يجب منع المرأة من قيادة السيارة، ولكن التعليل الديني لممارسة ما، لا يكفي لإثبات ضرورتها للدين؛ لأن الدليل، والمقومات والاستنتاجات التي تبني عليها بحاجة إلى فحص نقدي، ولابد من دراسة أدلة مقابلة، ومناقشات مضادة، وآراء مخالفة وموازنتها. ويمكن أن يساعد الحوار بشأن عزل الأنثى على توضيح هذه النقطة.

إنني لا أعرف نصاً مباشراً يدعم عزل المرأة (أي آية قرآنية أو حديثاً صحيحاً يحرم بصراحة تفاعل الرجل والمرأة)، والدليل غير المباشر ليس شاملاً. ونقتبس

من سورة الأحزاب عادة ما يدل على أن العزل بين الذكور والإناث ملزم للمسلمين: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِخَبِيرٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُوْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِجِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣].

توجه هذه الآية صحابة النبي، الذكور منهم والإناث، ألا يقحموا أنفسهم إلى حجرات زوجات النبي دون إعلام، ودون إذن، كما كانت عادة بعضهم أو بعضهن؛ يذكر المفسرون القدامى لحظات إرباك كانت سبب نزول هذه الآية. إنها إذن تقول للصحابة: إذا كانت لديكم حاجة ماسة حقيقية للتحدث مع زوجة من زوجات النبي، فعليكم بالبقاء خارج الحجرة ومخاطبتها من وراء ستارة تحجب المدخل. ودعاة عزل الرجال عن النساء والمدافعون عنه يستشهدون بأحاديث تبين أن زوجات النبي كن يتحدثن مع صحابة مختلفين بالأسلوب الموصوف في الآية.

ليس الرأي القائل إن الآية المذكورة ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِخَبِيرٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُوْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِجِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ تشكل السلوك العام لعزل النساء عن الرجال، بمعنى عن الهجوم.

فالوَأَ، ليس بواضح أن هذه الآية تفرض نمط العزل الصارم الذي يمارس اليوم في كثير من المساجد، حتى فيما يتعلق بزوجات النبي. إذ ربما تكون الآية لصيانة آل النبي من المواقف المحرجة بتوفير مستوى من

الخصوصية لهن. في هذه المرحلة من بعثة النبي كان فناء بيته؛ خارج أجنحة أزواجه التي يقمن بها، تضم حشوداً من الناس الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً ومن البدو الأفظاظ.

وثانياً، لا توحى نغمة القرآن بأن هذا المفهوم عام. ففي السورة ذاتها تنظيمات عديدة تطبق حصراً وبصورة نوعية على النبي وأزواجه اللاتي قال لهن القرآن: ﴿لَسَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ الْنِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٣٢].

وثالثاً، هناك أدلة كثيرة في مجموعات الحديث على أن فصل الرجال عن النساء، لم يكن يمارس بصورة عامة في مطلع التاريخ الإسلامي. فيروى عن النبي وصحابته أنهم كانوا يزورون نساء من غير المحارم ليخرجوا القمل من رؤوسهم في أثناء حجة الوداع^(١)، وعن نساء من غير آل النبي يأكلن من قصعة النبي نفسه^(٢)، وعن زوجة صحابي تخدم ضيوفه الذكور^(٣)، وعن النبي يجلس مع زوجين متحدثاً مع المرأة عن حلم استيقظ منه لتوه^(٤)، وعن صحابييين يزوران صحابية فيكون موت النبي الذي أحزنهم^(٥). وهناك أمثلة عديدة عن نساء مسلمات شاركن في المعارك يقاتلن، ويقدمن الأقواس والسهام، ويحملن الطعام والماء إلى الجنود، ويعالجن المصابين^(٦). وروايات شهيرة عن امرأة

(١) صحيح البخاري، «كتاب الحج» (٢٦)، الحديث رقم ٧٨٢، و«كتاب الجهاد» (٥٢)، الحديث رقم ٤٧.

(٢) المصدر السابق، ٦٥ : ١٠، خالد بن الوليد وزوجة النبي ميمونة (عمة خالد) كانا حاضرين. وكلاهما اعتنق الإسلام بعد نزول الآية ٥٣ من سورة الأحزاب المذكورة آنفاً الأمر الذي يعارض التصور القائل بأن الآية تفرض عزلاً عاماً للنساء عن الرجال. ويقال: إن الحديث قد وقع في حجة ميمونة.

(٣) المصدر نفسه، ٦٢ : ٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ٧٤ : ١١.

(٥) مقتبس من صحيح مسلم من قبل الإمام النووي «رياض الصالحين». ترجمة محمد ذو الفقار خان.

(٦) زكريا كاندهلوي (Zakarya Kandahlawi)، «تعاليم الإسلام»، إدارة عشت - ي - دنييات (Idara Ishant - Diniyat)، نيودلهي، ص ١٦١-١٨٠.

في يدي امرأة

إن عزل النساء يعد غريباً في تاريخ أمريكا، أما عزلهن عن مراكز السلطة فليس غريباً، مثلها في ذلك كمثل الثقافات الأخرى. وقد بدأ هذا يتغير منذ أواسط القرن المنصرم (العشرين)، على الرغم من أنه لم يكن في مواقع القيادة نساء، عندما كنت شاباً، أو قبل ذلك بقليل «كان من النادر مشاهدة سياسيات وأستاذات جامعات وطبيبات وقاضيات ورئيسات بنوك، وعضوات في لجان تنفيذية، وضابطات في الشرطة، وما إلى ذلك» أما اليوم فهناك المزيد من النساء في مواقع السلطة، وإن ظلت نسبتهن ضئيلة، ولكن أمريكا أصبحت أكثر ارتياحاً بهذا المفهوم. وهذا صحيح خاصة لدى المسلمين الأمريكيين الذين يميلون إلى الليبرالية (على الأقل قبل اعتناق الإسلام)، وكذلك لدى الجيل الثاني من المسلمين الذين تعلموا في المدارس منذ اليوم الأول، وليس هناك مجال عمل لا تستطيع المرأة النجاح فيه. وهذا يؤدي إلى مصدر آخر من مصادر التحرر من الوهم بين المسلمين المولودين في أمريكا، لأن القيادة الدينية في المراكز الإسلامية تعارض احتلال المرأة لمواقع سلطوية. وفي مثل هذه المجتمعات تحرم المرأة من أن تكون عضواً في مجلس المديرين، أو في اللجان التنفيذية. وتحرم في كثير من المساجد من الإدلاء بصوتها في الانتخابات أو الاستفتاءات المجتمعية^(١).

ومرة أخرى، يعد الدليل الدائم لموقف المحافظين ضئيلاً ونادراً. إذ يتركز الجدل حول حديث آحاد، ولو كان ذا اعتبار عال، من صحيح البخاري: حدثنا عثمان بن الهيثم، حدثنا عوف عن الحسن، عن أبي بكرة قال: لقد نفعني الله

(١) لم يوافق العلماء في القرون الأولى على احتلال المرأة موقعاً قيادياً، وحُرم بعض العلماء على المرأة أن تشغل منصباً عاماً. رأى أبو حنيفة أن بإمكان المرأة شغل مناصب عامة وخصوصاً منصب القضاء شريطة أن تكون شهادتها مقبولة. يستشهد ابن حزم بحديث لأبي بكرة مفاده أن المرأة تستطيع أن تشغل أي منصب عام ما عدا رئاسة الدولة. أما ابن جرير الطبري فسمح للمرأة أن تكون رئيسة دولة. ويقال: إن الإمام مالك بنى الموقف نفسه.

أيام الفتنة بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كدت أن الحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»^(١).

أبو بكره هو المصدر الوحيد لهذا القول؛ وكان عبداً أعتقه النبي؛ وكان قد اعتنق الإسلام بناء على وعدٍ بإعتاقه في حصار الطائف السنة الثامنة للهجرة الموافقة لعام ٦٢٩ ميلادي. وجرت موقعة الجمل في عام ٣٦هـ = ٦٥٦م. بين جماعة قادتها عائشة، أصغر نساء النبي، وجماعة بقيادة علي بن أبي طالب ابن عم النبي وزوج ابنته. وكان أبو بكره يقاتل مع عائشة، فاستخلص عزاءً ومواساةً من تذكره لهذا القول، لأنه تبين على ما يبدو أن عائشة سوف تهزم.

لقد أطيح بكسرى إمبراطور فارس، وأعدم في السنة السادسة للهجرة، بعد أن أباد البيزنطيون جيوشه. وفي فوضى السنوات الثلاث التالية لسقوطه تولى الحكم عشرة أشخاص على الأقل. ونصبت ابنته على العرش حوالي سنة (٥٨هـ)، وهي المرة الأولى التي تحكم فيها امرأة بلاد فارس. وانهار سلطانها بعد سنة.

يقبل علماء المسلمين كلهم تقريباً هذا الحديث بالرغم من مصداقيته. إن التوافق المحكم للتفاصيل التاريخية للرواية، مع واقعة أن الراوي ليس صحابياً بارزاً يؤيد الافتراض بأن الحديث مبني على حادثة أصيلة (اعتنق أبو بكره الإسلام في السنة الثامنة للهجرة، تسلمت ابنة كسرى العرش في السنة ذاتها، وتنبا النبي بسقوط فارس الأمر الذي جعل الصحابة يسألونه عن هذا التطور). ومع ذلك يبدو أن خطأ ما قد وقع في مرحلة ما من مراحل تعميم هذه الرواية.

إن التأكيد بأن «الامة تضع شؤونها بيدي امرأة لن تفلح» يعد طبيعة شاملة وعالمية؛ أي إنه تأكيد لحقيقة غير مشروطة بزمان أو مكان. فهي لا تقول «من الآن فصاعداً، عبر التاريخ أن كل أمة...» أو «أن هذه الأمة التي...»؛ بل تؤكد أن كل أمة في أي زمان أو أي مكان تضع أمورها بيدي امرأة لن تنجح.

والسبب الذي يجعلني أشكك بدقة نقل هذا الحديث هو أن القرآن نفسه يضرب مثلاً مناقضاً تماماً. فهو يصور ملكة سبأ بأنها حكيمة، عادلة قوية يحقق شعبها نجاحاً عظيماً تحت حكمها، وساروا نحو نبذ عبادة الأصنام، واعتناق عقيدة سليمان التوحيدية. ولم يشر القرآن أبداً إلى أن الملكة تنازلت عن عرشها إلى سليمان أو إلى أي شخص آخر، أو أن الإسرائيليين تحت حكم سليمان قد سيطروا على سبأ. وهكذا يكون شعبها قد حقق نجاحاً بقيادتها بكل المقاييس الدنيوية والروحية.

ربما يعترض شخص بقوله : إن القرآن يتجاوز ما يوحى به سابقاً، بيد أننا هنا لا نتكلم عن قوانين. فقول النبي العالمي الشامل المزعوم المتعلق بقيادة الأنثى للأمة، وصورة القرآن التي عرضها لملكة سبأ يطرحان وقائع حقيقية. يمكن للقانون أن ينسخ قانوناً آخر، ولكن الواقعة الحقيقية لا يمكن أن تزيل واقعة أخرى أو تلغيها. فإذا ما ناقضت واقعتان إحداهما الأخرى فلا بد أن تكون إحداهما غير صحيحة. ولهذا، مع القول بأن القرآن غير مخطئ في تصويره لملكة سبأ وأن النبي لم يكن مخطئاً بشأن رئاسة الأنثى للدولة، فلا بد أن نستنتج وقوع خطأ في نقل الرواية.

كان عدم الدقة في نقل الأحاديث يعد ظاهرة معروفة جيداً لدى علماء الحديث الأقدمين. فهم يعترفون في المراحل الأولى من مراحل نقل الحديث بأن الرواة يروون ما فهموه من الحديث بدلاً من رواية الحديث بنصه الحرفي. وهذا يعلل الاختلافات التي نواجهها في الأحاديث التي تتعلق بموضوع واحد أو بالحادثة ذاتها. حتى الصحابة فكان بعضهم يصحح لبعض فيما يعتقدون أنهم سمعوه عن النبي. أنا لا أقول: إن مجرد احتمال وجود عدم دقة في رواية الحديث يعد أساساً لنبذ الحديث، ولكن إذا ما تناقض حديث مع القرآن، أو مع واقعة مثبتة، فإننا نعزو الأخطاء إلى النقل، خصوصاً إذا ما أمنا بأن الحديث يعود إلى حادثة واقعية. ومن ثم، فيما يتعلق بالحديث الذي رواه أبو بكر لا بد أنه حصل خطأ ما في مرحلة ما. إذ ربما يكون الحدث قد جرى على النحو الآتي: جاء الصحابة ليخبروا النبي بأن الفرس قد وسدوا أمرهم إلى امرأة،

فكان ردّ النبي: «لن يفلحوا» فربما أدى خلل طفيف - في إحدى مراحل نقل الحديث وروايته - إلى الصيغة التي رواها أبو بكر. بالطبع، هذا مجرد رأي وليس أمراً أساسياً لهذا البحث. وأعم نتيجة يجب استخلاصها هي أن الحديث الذي لا يؤيد قيادة المرأة لا بد أن يكون مثلوماً ومعبأً. ومن ثم ينبغي عدم استخدامه دليلاً ضد قيادة المرأة.

من الصعب أحياناً أن تكون امرأة

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُؤْتُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١/٩].

روي أن النبي قال: «المؤمنون كالجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء»^(١).

كنت متأكداً أن الخيار الذي اتخذته يوم صرت مسلماً، سوف يعرض علاقاتي الإنسانية كلها ذات المعنى إلى الخطر، لأن اعتناق الإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية بعد وقت قصير من أزمة الرهائن الإيرانية، وقبيل ضرب المارينز في لبنان، يعد بمثابة خيانة ثقافية. وعندما صدمت أسرتي وأصدقائي ولم يستحسنوا هذه الخطوات تيقنت أن أياماً موحشة تنتظرني. لذلك بحثت عن القوة في الصلاة، وبدأت أحضر الصلوات في المسجد، لأتلمس كيف أودبها وفق معتقدي الجديد. وهناك اكتشفت أنني دخلت أخوة عالمية ترتبط بحب ورعاية متبادلين، لم أشهد لهما مثيلاً إلا في الأسر المترابطة فيما بينها ارتباطاً وثيقاً جداً.

يدعو المسلمون بعضهم بعضاً بـ «الأخ» و «الأخت»، وكثير ممن قابلت يبدلون كل ما بوسعهم لتكريم هذا الاستخدام للكلمات. وعندما يمرض أحدهم، أو يعاني من فقدان مُحب، أو يواجه أوقاتاً عصيبة، تقوم مجموعات من

(١) من صحيح البخاري ومسلم.

المؤمنين بزيارته وتقديم العزاء والعون له. كذلك عندما يرزق أحدهم بطفل أو عندما يتخرج طالب أو يتزوج شاب في الجالية الإسلامية، فالجميع يحتفلون به، وغالباً يقيمون له مأدبة عشاء في المسجد.

تصل روابط الأخوة هذه إلى مختلف أنحاء العالم، لأن التقسيمات القومية لا تعني كثيراً في نظر المسلمين كما تعني في نظر غيرهم. وعندما يعاني المسلمون في أي مكان من العالم ظمناً، أو اضطهاداً، أو يتعرضون إلى هجوم يشعر المؤمنون في أنحاء العالم بالألم والكرب. وبأنهم جميعاً ضحية ذلك؛ وعندما ينجح أحدهم، بغض النظر عن أصله، يحتفل المسلمون به في العالم بذلك الإنجاز.

لم أتوقع، حتى باعترافي الإسلام، أن أقبل على الفور في الأخوة الإسلامية، لأنني كنت أجهل تقاليد المسلمين، ولأنني جئت من شعب كان على عدااء دائم معهم. ظننت أنهم سيستقبلونني بقدر من التحفظ، أو حتى بشيء من الشك والريبة. ولكنهم رحّبوا بي في مجتمعهم ترحيباً لطيفاً دافئاً متدفقاً بصورة مدهشة، لدرجة أنه غطى على القلة القليلة ممن تحفظوا تجاهي. وغمرني مسلمو سان فرانسيسكو بكرم وفادتهم ومحبتهم. وكنت أدعى إلى العشاء كل ليلة تقريباً خلال السنتين اللتين سبقتا زواجي. كان الإخوة يقدمون لي القروض، والهدايا، وقاموا كتلة واحدة لمساعدتي على التحرك، وعرفوني إلى فتيات من أقربائهم عساني أتزوج إحداهن وأصاهر أسرهن، وعرضوا علي الحج على حسابهم، أو زيارة عائلاتهم في الوطن الأصلي؛ شعرت وكأن قبيلة كبيرة جداً قد تبنتني. وعندما كنت ألتقي كثيرين من المسلمين أول مرة كانوا يأخذونني بالأحضان، كما لو كنت أختاً طال غيابه.

لم يكن هذا النوع من الاستقبال الذي شهدته غريباً ولا استثنائياً؛ إذ روى لي أمريكيون كثر ممن اعتنقوا الإسلام حكايات مماثلة. فقد ذكروا لي كيف أصبحوا مشهورين في مساجدهم، ووصفوا لي كيف أبدوا لهم عطفاً وسخاء وسماحة لا تصدق. وتحدثوا عن الصداقة الحميمة التي كانوا يتمتعون بها مع زملائهم المؤمنين، والمدى الذي بلغه إخوتهم المؤمنون في مساعدتهم على

تعلم الدين. وذكروا: كيف أصبح المسجد بيتاً لهم، ومكان قبول، وملاذاً آمناً من مؤثرات الحياة، وهذا ما كان لي أنا المسلم في الغرب.

ومع ذلك فليس المسلمون الأمريكيون كلهم قد حظوا بمثل هذا القبول والدفع الذي وصفت. فعلى الرغم من أن المسجد في نظر الكثيرين من المسلمين يعد مكان راحة وزمالة، فإن هناك مسلمات أمريكيات، خصوصاً غير المهاجرات، يرين فيه خلاف ذلك^(١). من أكبر الشكاوى التي سمعتها من نساء مسلمات مولودات في أمريكا أن ثقافة المسجد في الولايات المتحدة مناهضة للمرأة ولا أمل في تعديلها. ويلاحظ أن عزل المرأة واستبعادها من مواقع النفوذ يعد دليلاً على ذلك، وكثيراً ما يشهد المرء معاملة سيئة للمرأة. فلقد تلقيت حكايات لا حصر لها عن سلوك وقح، يحط من قدر المرأة يقوم به رجال دين مسلمون. قيل لي: إن امرأة تعرضت للإهانة حين صرخ عليها رجال مجهولون، لأنها لم تكن ترتدي لباساً محتشماً، أو لأنها تصلي في القاعة الرئيسية من المسجد، أو لأنها لم تدخل من حيث يدخل النساء، أو لم تخرج من حيث يخرجن، أو لأمور عديدة كثيرة يفترض أنها مخالقات. وسمعت روايات عديدة عن نساء غير مسلمات جازفن بدخول المسجد ليتعلمن شيئاً عن الإسلام، ولكنهن ووجهن بصدّ جلف، الأمر الذي أبعدهن عن الدين. وتعرض نسوة كثيرات بقولهن: إن المسجد منطقة ذكورية، وإن مساهمة المرأة في وظائف المسجد إما لا ينظر إليها كما يجب، وإما - وهو الأسوأ - تُحرّم عليها.

وفي معظم الجامعات يعد رمضان شهر تذكير بأن المسجد منطقة ذكورية. كذلك المراكز الإسلامية التي تقدم عادة وجبات إفطار خلال شهر الصوم، حيث يحاط الطلبة علماً بأن حضورهم لهذه الموائد أمر محبب ومرحب به، في حين لا يصل إلى آذان الطالبات أي كلام من هذا النوع.

يحظى معتنقو الإسلام بقدر عال من الاحترام في مجتمعاتهم، بيد أن معتنقات الإسلام غالباً ما يجدن أنفسهن أقل تقديراً. وعلى الرغم من أنهن أكثر

(١) كثير من المسلمين الأمريكيين الأفارقة وجدوا مساجد المهاجرين أقل ترحيباً.

عددًا من الرجال وأكثر تمسكاً بدينهن كما رأيت بنفسي، ويبدلن جهوداً أكبر للمساهمة في الأنشطة الإسلامية، إلا أن كثيراً منهن يندبن مصيرهن الذي يؤول إلى التهميش والإهمال، أو حتى الازدراء في مجتمعاتهن. ومن الاحتجاجات التي يطرحنها تشكيك الآخرين في دوافع اعتناقهن للإسلام. ربما يكون هذا صحيحاً فيما يتعلق بمعتنقي الإسلام الجدد عموماً، ولكن قال لي مسلمون مراراً: إن المرأة الأمريكية تدخل الإسلام أساساً كي تجد زوجاً مسلماً.

أصبح الإسلام والثقافة متشابهين في المجتمعات الإسلامية التقليدية، بحيث يشعر معتنقو الإسلام بقدر كبير من الضغط للتواءم مع عادات الشرق الأوسط وتقاليده، ولكن هذا يتطلب تعديلاً من المرأة أكثر من الرجل، ذلك لأن الثقافة النسائية في المجتمعات الإسلامية التقليدية ونظيرتها في المجتمعات الغربية متباعدتان أكثر بكثير من تباعد ثقافة الرجال في البيتين. فضلاً عن أن المهاجرين كلهم تقريباً أو الزائرين المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة وكندا متعلمون ومثقفون ثقافة غربية، ومن ثم فهم يألّفون المجتمع المحيط بهم، ويرتاحون إليه أكثر من الإناث، وكلما طال طريق الأمريكيات المعتقدات للإسلام في اندماجهن بثقافة المسجد كان إحساسهن بالانزعاج أو الرفض أكبر.

يبدل مجتمع الشرق الأوسط جهوداً للحفاظ على عفاف المرأة أكثر من جهوده للحفاظ على تعفف الرجل، فمغازلات الشاب ينظر إليها بعبوس، ولكن يُتسامح فيها غالباً، وأدنى اهتمام رومانسي تبديه الفتاة يمكن أن يجلب العار عليها وعلى أسرته.

وبالمقابل، أصبحت الأخلاقية الجنسية في أمريكا منذ ستينات القرن العشرين أكثر تراخياً، فالرجال والنساء اليوم يشعرون بالتحلل من أي قيد بصورة متساوية. والفضل بذلك في جزء كبير منه لوسائل الإعلام؛ والمسلمون في أنحاء العالم كله مدركون لذلك تماماً، كما أن الفسق الواضح، واللباس النسائي الفاضح، والتمايل والتباهي بالجاذبية الجنسية بلا خجل، يخترق صورة المرأة المسلمة الأمريكية. فقد قال لي شباب مسلمون في مناسبات عديدة، ممن يودون الزواج: إنهم لا يحبون الزواج من أمريكية اعتنقت

الإسلام، لأنهم لا يصدقون أن أيًا منهم عذراء. ناهيك عن أن هؤلاء الشباب يعتقدون أن هؤلاء المهتديات ينزعن إلى اللاأخلاقية بعد اعتناق الإسلام، ولكن الواقع يشير إلى عكس ذلك. على أي حال، يفترض أن تكون صحيفة معتنقي الإسلام نظيفة من لحظة اعتناق الدين، بغض النظر عن أخطاء الماضي، والمسلمون عموماً يحترمون هذا المبدأ، ومع ذلك سمعت ولاحظت في مناسبات قليلة أن مثل هذه التحاملات تظهر على السطح. أذكر حادثة واحدة، خصوصاً عندما كنت أعيش في سان فرانسيسكو. شكت نساء عديدات ممن اعتنقن الإسلام وكن يأخذن دروساً بالعربية من إمام المسجد المحلي، شكت إلى مجلس المديرين بأن زعيمهم الروحي ألح عليهن أكثر من مرة في رغبته الجنسية فيهن. لم يسمح لأي امرأة، حتى الشاكيات، بحضور جلسة لمناقشة الاتهام، ولكن الكثيرين من أنصار الإمام دافعوا عنه على أساس أن اللواتي اتهمتهن لم يكن في الأساس سوى «عاهرات» و «بائعات هوى» رغم أن هذا النوع من الفضائح يعد من الكبائر العشر في الإسلام. ورغم أنني شهدت قلة من نموذج المرأة الأمريكية الداعرة قد شمل معتنقات للإسلام، فإن منهن من ذكرن لي حداثات كان سبب عهرهن نساءً مسلمات أجنبيات أو مهاجرات. كما قالت بعض السيدات الشابات من الجيل الثاني: إن النساء المسلمات القادمات من وراء البحار يشككن أحياناً بفضيلتهن عن طريق أسئلة مثل: «هل لك صديق (Boyfriend)؟»^(١) أو «هل لك مواعيد مع شاب؟» حتى وإن كانت مثل هذه الأسئلة في الثقافات الإسلامية مهينة جداً. والآن، لست أدري مدى انتشار مثل هذه المواقف تجاه المسلمات المولودات في الوطن الأم، ولا مدى فهم النساء المسلمات الأمريكيات لهذا الموقف المتحيز، سواء كان خطأ أم صواباً، ولكن حيث يكون مثل هذا أو حيث يشعر المرء به فإنه يجعل المرء (الذكر والأنثى) غير مرغوب به في ثقافة المسجد.

(١) (boyfriend) لا تعني الصداقة التي نفهمها عندنا في الشرق، بل هي صداقة جنسية، إذ يصطحب الشاب صديقته (Girlfriend) أو الصبية صديقها إلى أي مكان ويتأمان معاً في غرفة واحدة وسرير واحد ويمارسان الجنس ولكن دون زواج. (المترجم)

إن احتمال التحيز والتقسيم قائم في أي مجتمع مختلط الثقافة والعروق، ونادراً ما يكون ذلك من جانب واحد ؛ وكلا الأمرين يطفو على السطح في مجتمع المسلمين الذكور، ولكن من الشائع أن مجتمع النساء أكثر انقساماً من الناحية الاجتماعية، ويعود جزء من سبب ذلك إلى أن مجتمع المسجد الذكوري يتعرض أكثر إلى الثقافة والتربية الغربيتين من مجتمع النساء، مع افتراض أن الرجال، أكثر خبرة، ولديهم قاعدة مشتركة لتغذية التفاعل والتعاون مع المجتمع الغربي وثقافته. وبالمقابل، فإن لدى النساء في المساجد حيث يُفصل بين الرجال والنساء احتكاكاً قليلاً بالمجتمع المحيط بهن؛ الأمر الذي يجعلهن أقل قدرة على تجاوز معايير ثقافتهن الوطنية عند تعاملهن بعضهن مع بعض. وهكذا فإن لغة التعليم والتواصل العام في لقاءات الرجال في المساجد التي أحضرها هي اللغة الإنكليزية، أما في تجمعات النساء فاللغة المستخدمة هي العربية. وإذا كانت البرامج النسائية باللغة الإنكليزية فإن غالبية النساء الحاضرات لا يفقهن ما يقال.

تمثل العوائق الجنسية المذكورة آنفاً أمام المساهمة الوطنية في المجتمع الإسلامي الأمريكي أزمة العقيدة والثقافة الأكبر، وهي التي تواجه الشباب ومعتنقي الإسلام من الأمريكيين. ويعتمد مدى وجود هذه الأزمة في أي مجتمع إسلامي محلي، بالطبع، على مدى تنافر ثقافة مسجد تلك المحلة مع الثقافة المحيطة. من المؤكد أن هناك معتقدات إسلامية وممارسات لا تتفق مع العادات والقيم الأمريكية، ولا يمكن الاستغناء عنها من دون تعريض الإسلام للشبهة. ومع ذلك حتى لو كان من المستحيل التوفيق بين الإسلام والثقافة الأمريكية المعاصرة، فإن على المسلمين ألا يخلقوا حواجز ثقافية، حيث لا لزوم لإقامتها، وهذه من أهم تضمينات تحريم القرآن ربطاً ما ينشئه الإنسان بالله، لأن ذلك سوف يجعل الحقيقة غامضة. والفكر الديني والممارسة الدينية مقيدان دونما ضرورة لذلك. وكما أنه من الخطأ أن ينبذ المسلمون ما تتطلبه عقيدتهم بوضوح، كذلك ينبغي ألا يطلبوا باسم الله ما ليس فيه إباحة واضحة لا لبس فيها. سنعود إلى هذا الموضوع قريباً.

نشوء عضوي

كنت طوال الأسبوع المنصرم محجماً عن الكلام تماماً ومسحوراً بالكرم والكياسة اللتين أبداهما لي من حولي على اختلاف ألوانهم. ربما تصدمك هذه الكلمات الصادرة عني، ولكن هذا الحج وما رأيت فيه وخبرته اضطرني إلى إعادة ترتيب كثير من أفكاري التي كنت أحملها من قبل، ونبذ بعض من استنتاجاتي السابقة... ربما لو قبل الأمريكيون بوحداية الله لقبولوا، من ثم، بوحداية البشر، ولكفوا عن تقييم الآخرين وإعاقتهم وإلذائهم بسبب اختلاف ألوانهم. وكل ساعة قضيتها في الأرض المقدسة (الجزيرة العربية) أمكنتني من التزوّد ببصيرة روحية أكبر مما يحدث في أمريكا بين السود والبيض. «مالكولم x»^(١). «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» [الحجرات: ١٠/٤٩]. «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [الحجرات: ١٣/٤٩].

كتبت في كتابي (حتى الملائكة تسأل) عن المرأة الأولى التي تحدثت فيها أمام الناس حول اعتناقي للإسلام. كان ذلك في لقاء ليلي يوم الجمعة في جمعية الطلبة المسلمين في جامعة كاليفورنيا ديفيز (California Davis). وبما أنني لم أكن أتوقع أن أدعى إلى الميكروفون في ذلك المساء، فلم أكن مستعداً أبداً. لا أتذكر الكثير مما قلت، ولكني أتذكر أنني ربطت بإيجاز ما اعتقدت أنه مراحل جوهرية عديدة مررت فيها بحياتي على طريق اكتشاف الإسلام. واختتمت حديثي بإعادة ما دار من حديث بيني وبين إمام المسجد في سان فرانسيسكو قبيل دخولي الإسلام^(٢). انتهى البرنامج بعد انتهائي بوقت قصير، وما إن وقفت لأغادر حتى تجمهر حولي الموجودون كلهم، وعددهم يقارب الثلاث مئة، حيوني بالعناق

(١) اقتبس النص تشاريس وادي (Cherris Waddy)، «عقل المسلم» (لندن؛ لونغمانز، n.d.)، ص ١١٣-١١٦.

(٢) كنت حينذاك أستاذاً مساعداً في جامعة فرانسيسكو (USF)، انظر جيفري لانغ (الصراع من أجل الإيمان) منشورات أمانا، ١٩٩٤، ودار الفكر ١٩٩٨.

والمصافحة والقبلات على وجنتي ورأسي. وترقرقت عيون الكثيرين منهم بالدموع. وكانت الأيدي في كل مكان تمتد نحوي، كثير منهم كان يود لو يلمسني لحظة أو يرت على ظهري، وقيل لي مرات ومرات: كم كنت عظيماً، وأني الآن بلا خطيئة، وكم سيحبني الله، وكم أنا أفضل من كثير ممن ولدوا مسلمين. ورغم أنني كنت على عجلة من أمري كي أعود إلى البيت إلا أنني استغرقت أكثر من ساعة حتى وصلت إلى باب القاعة الذي كان يبعد نحو أربعين قدماً عن الميكرفون. وعندما وصلت أخيراً إلى موقف السيارات كانت جيوبي محشوة بقصاصات ورق كتبت عليها أسماء وأرقام هواتف للذين كانوا في المسجد فبدأ مظهري كفزاعة في ويزارد أوف أوز (Wizard of Oz).

عرض علي عدد من الطلبة الذين لا أعرفهم إيصالهم بسياراتهم إلى بيتي في سان فرانسيسكو، وتحدثوا معي في الطريق بانفعال عن حديثي، وتحدثوا بحماس عن تحول أمريكا إلى الإسلام. وقال أحدهم عند نقطة معينة: «أود لو آخذك معي إلى الكويت لتظهر على التلفاز. ليت الناس هناك يرون هذا الشاب الأمريكي الأبيض، الأشقر الشعر، الأزرق العينين الذي صار مسلماً!! رؤيتك هناك ستكون في نظر الناس كأنهم يشاهدون ملائكة تهبط عليهم من السحاب!!».

لقد رويت أكثر هذا الكلام في كتابي (حتى الملائكة تسأل) ولكنني أخفقت أن أذكر أن حديثي تلك الليلة جاء بعد حديث آخر، حديث شاب أمريكي أفريقي، طالب في جامعة يوسي بيركلي (UC Berkely) تكلم أيضاً عن اعتناقه للإسلام. وفي حين أن كثيراً من الحضور حيّوه وصافحوه عند انتهاء البرنامج، لكنه لم يلق الحفاوة التي لقيتها أبدأ، ولم يستغرق زمناً حتى وصل إلى الباب.

لقد استحسننت في حينه شهرتي الفورية، ولكن رد الفعل الأقل حماساً على الإفريقي الذي اعتنق الإسلام، مع ما سمعت من حديث عن عيني الزرقاوين ولون بشرتي وشعري جعلني أتساءل عما إذا كان المجتمع الذي دخلته مصاباً بتعصب عرقي، رغم أنه مكون من ألوان شتى. ما زلت أفكر في ذلك عشرين سنة، لأنني رغم مشاهدتي لنماذج سلوكية تفسر بأنها عرقية، تلقيت تفسيرات

جيدة لذلك، وشهدت ما يخالف ويناقض هذا الافتراض. وللإختصار، سأدرس هذه القضية فقط بما لها من صلة بالمسلمين الأمريكيين الأفارقة.

يبدو أن المسلمين يستوحون من اعتناق الأمريكيين البيض للإسلام أكثر مما يستوحونه من اعتناق السود له، ولكن قيل لي : إن ذلك ناجم عن قلة عدد الذين يعتنقون الإسلام من البيض الأوربيين، وعن كون الأوربيين أعداء عرقين دائمين للإسلام. ولقد اعترف لي عدد قليل من المهاجرين والمسلمين الأجانب أنهم حذرون من المسلمين الأمريكيين الأفارقة ليس بسبب عرقهم أو لونهم، بل لاحتمال كونهم أعضاء في أمة الإسلام (Nation of Islam) الهرطقية الابتداعية، التي تمثل شريحة صغيرة من جالية المسلمين الأمريكيين السود. ورداً عن سؤال مهم مثل: «ما رأيك في أن يتزوج ابنك، أو تتزوج ابنتك من المسلمين الأمريكيين السود؟» جاءت الإجابات منقسمة بالتساوي. وعندما استبدلت عبارة «أمريكي فوقازي» بعبارة «أمريكي إفريقي» جاءت الإجابات ثلاثة إلى واحد لمصلحة الزواج. وعبرت أسر عديدة عن خيبة أملهم في أولادهم إن هم تزوجوا من خارج العرق الذي ينتمون إليه بغض النظر عن لون الزوجين. وفي جاليتي في لورنس، في كنساس وجدت أن الجميع يعرفون بالاسم الثلاثة القوقازيين الذين يحضرون صلاة الجمعة بانتظام، في حين أن واحداً لا يعرف أسماء الأمريكيين الأفارقة الثلاثة الذين يحضرون الصلاة كذلك بانتظام.

أمّا الجانب الإيجابي الذي شهدته منذ أن اعتنقت الإسلام، فهو أنني لم أسمع تعرضاً عرقياً واحداً، أو نكتة عرقية واحدة ضد أي شخص مسلم كان أم غير مسلم، من أصل إفريقي. ولم أر أحداً يُبْط بأي طريقة عن المساهمة في نشاط للجالية على أساس العرق أو القومية. ولا بد من ملاحظة أن عدداً لا بأس به من الأمريكيين الأفارقة قد تسنّموا مواقع قيادية في مؤسسات إسلامية يهيمن عليها المهاجرون، وأن بعضهم أصبحوا زعماء وطنيين.

انطلاقاً من هذه الاعتبارات، أرى أن الأمريكيين البيض مفضلون في المعاملة على الأمريكيين السود، بغض النظر عن الأسباب القائمة في المجتمع الإسلامي الأمريكي، رغم أن السود، لسخرية الأيام، هم أكثر التصاقاً وقرباً من

نموذج الجالية من حيث لون البشرة. ومن جهة أخرى، لم أر أبداً أي إشارة واضحة تدل على كراهية الإخوة الأمريكيين الأفارقة في الدين أو الخوف منهم أو عدم الثقة فيهم. ومن ثم، فإن كان هناك أي تحيز تجاه الأمريكيين السود في الجالية الإسلامية فإنه لا ينطلق من التعصب العرقي الموجود في الولايات المتحدة. ومع ذلك فإن التقدير الأعلى الذي ينصبُّ على المسلمين الأمريكيين البيض ليس محموداً؛ لأن ذلك يسيء إلى نضال الأمريكيين الأفارقة من أجل المساواة والعدل، وإهانة الإسهامات العظيمة الباسلة التي بذلها المسلمون الأمريكيون السود في توطيد الإسلام في أمريكا ونموه.

اعتنق مئات الآلاف من الأمريكيين الأفارقة الإسلام في أثناء فترة الحقوق المدنية ممن كانوا يُحتقرون بسبب لونهم، ويدخلهم الإسلام أصبحوا مكروهين كرهاً مضاعفاً، لارتباطهم بشعب أجنبي ودين محتقرين. وعلى الرغم من أن معظم هؤلاء الإخوة والأخوات قد اعتنقوا تعاليم إيجا محمد غير القويمة، فإن الغالبية العظمى منهم قد عادوا إلى الإسلام الأساسي لدى اكتشافه. لقد نشأت الحركة الإسلامية الصادقة هذه في أمريكا من دون أي عون من مسلمي الخارج، وقبل أن يبدأ القوقازيون دخول الإسلام بأعداد كبيرة.

قيل لي مراراً: إنني أحتمل المعاملة غير المتساوية في جالية الأمريكيين الأفارقة والقوقاز أكثر مما تستحق، وإنني بإثارتي لهذه القضية أغذي الانقسام العرقي الذي أحاول منعه، أقر بأن هذا التفاوت ليس له أساس عرقي، ولكن الأذى الذي يحدثه لا يقاس بمفهومات الذين يظهرون التحيز، بل يقاس بعواطف أولئك الذين يشعرون بأنهم يواجهون بهذه لتفرقة، وأن السماح لهذا الشعور بالنمو دون كبح سوف يسفر عن مزيد من الاحتقار والاشتمزاز. وإنني أسمع باستمرار من الإخوة والأخوات الأمريكيين السود أن المهاجرين المسلمين متعصبون ليس بسبب المحاباة التي يبدونها تجاه البيض فقط، بل بسبب عدم رغبتهم العمل معاً ضمن مجموعات المسلمين الأمريكيين الأفارقة.

ومرة أخرى أشعر أن هذا العزوف من جهة المهاجرين يعود إلى الثقافة وليس إلى التحيز العرقي. فالمؤسسات الإسلامية الأمريكية الإفريقية قد نمت

وتطورت من دون تأثير أجنبي تقريباً. ومن ثم لم تكتسب بعض الملامح الموجودة في الثقافة الإسلامية التقليدية، وهي معالم غير ضرورية دينياً في نظر المسلمين الأمريكيين الأفارقة. وهذه المؤسسات ذاتها تمتلك، كما هو متوقع، نسيجاً أمريكياً إفريقيّاً معيّنًا. إذ إن كثيراً من المهاجرين يعدون عدم مراعاة التجمعات الإسلامية الأمريكية الإفريقية السود لبعض التقاليد الثقافية والشعور اللامألوف للبيئة الاجتماعية في تلك اللقاءات عيوباً في تمسكهم بالإسلام. إن هذا التردد بشأن شرعية إسلام الأمريكيين الأفارقة يجعل الكثيرين من المهاجرين بعيدين قليلاً عن الجالية المسلمة من الأمريكيين الأفارقة.

بين عالمين

من السهل أن ينشئ النشطاء المسلمون رؤية نفعية تتعلق بتقدم المسلمين ومشكلاتهم في أمريكا. كنت أتحدث، مؤخراً، إلى أحد زعماء الجمعية الإسلامية في مدينة كنساس الكبرى - وهو صديق حميم لي - حول النجاح الذي حققته هذه الجمعية في جذب الجيل الثاني إلى المسجد. لقد تأثرت في البداية، بالنتائج : فهناك الآن نحو عشرين امرأة وعشرة شباب يؤدون صلاة الجماعة بانتظام ويشاركون في أنشطة الجمعية. ثم سألته كم عدد الذين يحضرون صلاة الجمعة. فأجاب مقدار ٣٥٠ رجلاً و ٢٥٠ امرأة يمثلون ٤٠٠ أسرة. وبما أن معدل ما لدى الأسرة المسلمة من أولاد هو ثلاثة، استنتجنا أنه لابد من وجود ١٢٠٠ شاب وشابة من الجيل الثاني مع أحد الوالدين على الأقل في مسجد الجمعية الإسلامية لمدينة كنساس الكبرى (ISGKC)، بصورة منتظمة في أثناء الصلاة. وبعبارة أخرى تبلغ نسبة الأسر المرتبطة بالمسجد حوالي ٢,٥%. فقط من أطفالها الذين يترددون على المسجد. وما ظهر في بادئ الأمر علامة خير ومؤشر أمل في انخراط الجيل الثاني في هذه الجمعية، تبين لدى مزيد من التدقيق أنه علامة قوية على عدم مبالاة الشباب. ومع ذلك يبدو الوضع أكثر تجريداً وكشفاً إذا ما دققنا في الأسر المسلمة في المنطقة ممن لا يرتبطون بالمسجد. وبناء على تقديرات عدد السكان المسلمين في منطقة مدينة كنساس، وعلى الذين يحضرون صلاة العيد، استنتجت وزميلي أن نحو (٢٠%) من الأسر

المسلمة المقيمة في محلة جمعية (ISGKC) يؤدي منها واحد صلاة الجمعة بانتظام. وهذا يعني أن نصف الواحد بالمئة (أي واحد بالمتين) من الجيل الثاني المقيمين في المنطقة المجاورة يؤمون المسجد بانتظام.

ليس الشباب المسلمون الذين يتصلون بي فاترين تجاه الإسلام. فمعظمهم آت من أسر متدينة مرتبطة بالمسجد، ويعد الإسلام في نظرهم محور حياتهم وبورتها، ولكن ما إن يصلوا إلى سنّ معينة حتى يتآكل لديهم الإيمان الذي عرفوه أطفالاً، والأمان والطمأنينة اللذان كان يزودهم بهما. ويعترف الكثيرون منهم بخشيتهم من فقدان دينهم وإيمانهم. ويبحث معظمهم عن الخلاص من أسئلة وشكوك تؤرقهم. وغالباً ما أشعر بأنني لست أهلاً لهذه المهمة فأحيلهم على من أشعر أنهم أكثر كفاءة مني. وأحياناً أترك رسائلهم مخزنة في علبة البريد الإلكتروني عدة أسابيع، وأنا أفكر في أفضل طريقة أجيب بموجبها عن أسئلتهم.

وفي كثير من الأحيان أشعر أن هؤلاء الشباب ليسوا بحاجة إلى إجابات كثيرة بقدر ما هم بحاجة إلى من يصغي إليهم ويطمئنهم بأن وجود الشكوك أمر طبيعي، وأن كل شيء على ما يرام. وأحياناً أفكر في أن جواباً بسيطاً «لا أعرف» يصدر عمن يعد ملاذاً أميناً في العقيدة يريح أكثر من جواب تقليدي رسمي، ربما لا يخاطب الهموم الكامنة كلها وراء السؤال.

بالإضافة إلى إبعاد هؤلاء الشباب بسبب ممارسات يعتقد أنها جوهرية ثقافياً، فإنهم غالباً ما يقعون في انقسام فكري بين المسجد والثقافات السائدة. ففي حين تؤكد ثقافة المسجد على الأهمية البالغة لاتباع التقاليد، فإن المجتمع المحيط يعجب بالإبداع والابتكار. كذلك تضغط ثقافة المسجد باتجاه الالتزام بقواعد المجتمع، في حين أن المجتمع المحيط يرحب بالفردية ويهلل لها. ثقافة المسجد تثمن ما هو خالد وثابت، أما الثقافة الخارجية فتعلم النسبية، وتحثُّ على التكيّف. تعظ ثقافة المسجد بضرورة الالتزام بأحكام المرجعيات القديمة، في حين أن التيار الثقافي السائد يتوقع السّبر والنقد الموضوعي للعلوم السابقة والحالية. ثقافة المسجد تقيد أساساً حرية الكلام والفكر، بينما تبالغ الثقافة المحيطة بضرورة ضمان حرية الكلام والفكر.

لا يتوقع الأمريكيون أن يكون للدين معايير الخطاب المجتمعي ذاتها بوجه عام، الأمر الذي دعا إلى فصل الدين عن الدولة، ولكن فيما يتعلق بالكثيرين من الشباب الأمريكيين المسلمين فالمسألة واحدة ومن المستوى ذاته. إن الانقسام الظاهر بين التفكير المسجدي والتفكير العام السائد هو الذي جعل الكثيرين من الشباب الأمريكي المسلم غير آبهين بالخطاب المجتمعي الإسلامي وغير مستجيبين له. ومن الصعب أيضاً أن تتسامح مؤسسة المساجد مع مقاربات الشباب المسلم ومنظوراتهم، إذ يطرحون المعتقدات والممارسات الراسخة للتساؤل. وعندما يتحدى الجيل الثاني التقاليد، فإنما يفعلون ذلك بطريقة أمريكية معترف بها، تعد في نظر مؤسسة المساجد غير إسلامية وخارجة عن نطاق الفكر الإسلامي المقبول. والذي ننتهي إليه، على ما يبدو، هو جيل لا يمكن إقامة جسر بينه وبين ما قبله، وفجوة ثقافية حيث ينبذ كل فريق فكر الآخر وآراءه ويراهما خارجة عن المألوف، كما قال الوصي في فيلم كول هاندلوك (Cool Hand Luke): «إن ما لدينا هنا هو إخفاق في التواصل (خطير)».

إن انشراح التواصل يترك الجيل الثاني تائهاً لا يعرف إلى أين يلجأ ضمن المجتمع الإسلامي لمواجهة شكوكه وهواجسه المتعلقة بالتراث المشط الذي يتوقعون وراثته وتوريثه لمن بعدهم. فإذا تُركوا يتصارعون مع تحفظاتهم المتعلقة بالمعتقد الإسلامي الكلاسي، أو بصحة أدب الحديث وموثوقيته، أو بصلة الشريعة والممارسات الإسلامية التقليدية، بممارساتهم الحالية. فسيبحثون عن إجابات خارج مجتمعهم الإسلامي. فهناك الكثير الكثير من المواقع المناهضة للإسلام في الإنترنت يمكن الوصول إليها بسهولة. وعلى الرغم من أنه يمكن إدراك أن هذه المواقع أدوات دعائية، فإنها مع ذلك تساعد على تعميق الشكوك الموجودة. ثم هناك، دائماً، الجامعة، ذلك المكان الواضح الذي يلتفت إلى جيل أكد الآباء والأمهات فيه على ضرورة الحصول على ثقافة جامعية. هناك يتعلمون أكثر المقاربات حداثة لدراسة التراث الديني. ويمكنهم كذلك أن يتعلموا النقد التاريخي ونقد النصوص، ويلاحظوا تطبيقاتها في ميادين الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية. ليس في أساليب البحث الحديثة أي شر متأصل فيها، بل يمكنها إلقاء ضوء ساطع على تطور الفكر الإسلامي، ولكن

المحاضرين غير المسلمين يدرسون أكثر المقررات عن الإسلام، وعلى الرغم من محاولتهم أن يكونوا منصفين وموضوعيين، فهم، بالتعريف، نزاعون للشك في الإسلام. وهذا لا يعني أنه في أثناء البحث عن الحقيقة والموضوعية لا يكون لوجهة نظر اللامنتمي أي قيمة، ومع ذلك لا يمكن إهمال منظور المؤمن، ولحسن الحظ تقوم جامعات كثيرة الآن بتجنيد أعضاء هيئة تدريسية مسلمين لتدريس المقررات الإسلامية. ومع ذلك، وحتى إذا ما ساعدت، بعض الجامعات طلابها على تعزيز ثقتهم بإيمانهم، تظل فرص يشعرون فيها بعدم الارتياح في المسجد، لأن عليهم أن يحلّوا قضاياهم بفضل تبني النظرة الأكاديمية الحديثة.

ما زالت في الواقع نسبة متوية ضئيلة من الشباب المسلمين المتحررين من الوهم سيستمرون الوقت للبحث الجاد في الإسلام. وسوف يتخلى أغليتهم عن البحث ببساطة لدى إدراكهم القوي بأن شيئاً ما في ثقافة المسجد ليس صحيحاً. وهذا لا يعني أنهم سوف يرتدون عن الإسلام بالضرورة؛ بل سوف يستمرون بإيمانهم بوجود الله ويعرفون أنفسهم بأنهم مسلمون، ولكن لن يكون لهم أي علاقة أخرى بالدين، ولن يكون للدين أثر في سلوكهم أو تفكيرهم الذي يميزهم في إسلامهم.

ربما يظن المرء أن خروج الجيل الثاني من المجتمع الإسلامي سيكون لهم الرئيسي للمؤسسة الإسلامية الأمريكية، ولكن الواقع ليس كذلك، على ما يبدو. إذ لم يبحث زعماء المسلمين ولا علماءهم هذه القضية علناً، أبداً. والآباء والأمهات المسلمون اتقياء الذين يلاحظون عدم الرضا عن الإسلام لدى أبنائهم وبناتهم يفضلون عدم التحدث عن ذلك خشية الإرباك. كما أن غالبية المجتمعات في الجاليات الإسلامية لم تبتكر أي استراتيجية أو أي برامج للوصول إلى هؤلاء الشباب والشابات المُعَرَّبين. وباختصار، المجتمع الإسلامي غارق في تجاهل مطبق.

المشكلة معقدة، ولا أدعي أن لدي حلاً. والواقع أنني أشك في وجود علاج صريح شافٍ، أو أن هناك سلسلة من الخطوات الملموسة التي لو اتخذت لرأيت

شباب الجيل الثاني يتجهرون على الفور في المساجد. والصعوبة الجوهرية هي مجرد الوصول إلى الذين نفروا من الإسلام من الجيل الثاني. والمسألة ليست أن هذا الجيل يحوم حول المسجد باذلاً جهده كي يجد له مكاناً في المجتمع الإسلامي. بل كل أفراد تقريباً قد تخلوا عن المسجد ونبذوه بوصفه مستودعاً لمتاع الآباء الثقافي، لا صلة له بهم، وكلما كبرت هذه السلالة من الجيل الثاني ازدادت صعوبة الوصول إليهم. وما إن يفرغ أحدهم من دراسته ويتزوج - وغالباً ما تكون الزوجة غير مسلمة - وينشغل بأعماله وبتربية أطفاله حتى تتمثله الحياة الأمريكية ويتعد عن ثقافة المسجد.

من الأسهل بكثير إقامة صلات مع شباب أمريكيين مسلمين في الجامعة، خصوصاً مع بقاء فروق لجمعية الطلبة المسلمين في كل جامعة تقريباً في طول البلاد وعرضها، حيث يلتقي أعضاؤها بالطلبة الأمريكيين من سلالة مسلمة. إن المشكلة هنا، على أية حال، هي أن عضوية جمعيات الطلبة المسلمين تجتذب الطلبة الأجانب، والفروق الثقافية القائمة بين المجتمع المحيط ومساجد المهاجرين تزداد تعاضماً حتى مع الذين يديرون المساجد من الجمعيات.

ولدى سؤالي لطلبة من الجيل الثاني عن سبب إحجامهم عن الالتحاق بجمعية الطلبة المسلمين أو عن سبب عدم حضورهم إلى مسجد الجامعة يقولون: إن الطلبة هناك «متطرفون جداً». حتى الطلبة من الجيل الثاني الذين ما زالوا منخرطين في مؤسسات أخرى تروج للقضية الإسلامية في أنحاء العالم ينفرون من المساجد بوصفها (محافظة جداً) أو (تقليدية). لقد بادر طلبة مبدعون في عدد من الجامعات إلى مخاطبة هذا الوضع عن طريق تشكيل منظمات ومجموعات بحث خصوصاً لأبناء المهاجرين ومعتقي الإسلام من الأمريكيين، ولم يلتحقوا بعد بجمعية الطلبة المسلمين أو بالمسجد المحلي. وفكرة مجموعات البحث هذه هي تهيئة بيئة غير تخوفية لهؤلاء الطلبة، حيث يتعلمون المزيد عن الإسلام، ويستكشفون أي قضايا وإشكالات لديهم بحرية. وفلسفة هذا النشاط الهامة هي أنه إذا كان هؤلاء الشباب لا يرغبون في ارتياد المسجد فلا بد، على الأقل من تزويدهم ببيئة يتمكنون بفضلها من التواصل مع دينهم ومع

بعض الزملاء المؤمنين. وكلنا أمل في أن يكتسب هؤلاء الثقة بالدين، وتتولد لديهم الرغبة في الإسهام بجهودهم ورؤاهم في تنمية المجتمع الإسلامي الأمريكي.

ومع ذلك، فإن انتظار الجالية المسلمة الجيل الثاني حتى ينهي دراسته قبل محاولة جذب به إلى المسجد؛ يعني بالتأكيد نجاحاً ضئيلاً. فإذا ما أريد لأبناء المسلمين في أمريكا أن ينموا مشاعر الانتماء إلى المسجد والارتباط به، فلا بد أن يكونوا مساهمين بانتظام في أنشطة الجالية في أثناء طفولتهم وشبابهم، لأنهم هنا - خلافاً للأطفال المسلمين وراء البحار - لا يجدون فرصة امتصاصهم من قبل الثقافة المحيطة بهم.

ومع هذا إن كان وقتهم في المسجد كريهاً، فإن ذلك يجعل الشاب مناهضاً للاندماج به، وجاهزاً للتخلي عن الجالية في أول فرصة متاحة. لذلك لابد من جعل المسجد بيئة أسرية ودية حيث يشترك الآباء والأبناء والأمهات في مهام الجالية معاً كأ أسرة واحدة. أما الآن فليس هذا هو الحال في معظم المساجد في أمريكا.

كنت أصحب بناتي وابنة الجيران الصغيرة إلى المدرسة قبل بضع سنين عندما بدأت صديقتهن تتحدث عن تجربتها في الكنيسة الأحد الماضي. تحدثت عن السعادة العظيمة التي شعرت بها وهي تجلس وأماها وأباها معاً في الكنيسة، يصغون إلى العظة ويغنون الأناشيد الدينية ويصلون معاً. وقالت: إنها تتطلع للذهاب إلى الكنيسة أسبوعياً مع أسرتها. وعند نقطة معينة من حديثها سألت بناتي ببراءة إلى أي كنيسة تذهبن؟ فأجابت ابنتي الكبرى جميلة، التي كانت في السابعة أو الثامنة من عمرها حينذاك بتجهنم: «والدي يذهب إلى المسجد» تبع جوابها فترة من الصمت. وبعد ذلك سألت صديقتهن: «هل لأملك وأبيك دين مختلف؟».

كنت آخذ بناتي إلى المسجد كل ليلة تقريباً حتى ذلك الحين، ورغم كونهن الوحيدات من الإناث بين الحضور، فكنت أفترض تولد شعور لديهن بأن المسجد مكان عبادة لهن ولي أيضاً. ومع ذلك حصل لديهن انطباع بأن المسجد للرجال أساساً. وعندما سألتهن كيف خطر ببالكن ذلك، أجبن بأن هذا ما شهدناه. وعندما ضغطت عليهن لإعطاء تعليل قلن: إن السيدات المسلمات

لا يذهبن إلى المسجد تقريباً، وإن ذهبن فإنهن لا يصلين في القاعة الرئيسة المخصصة للصلاة.

وكن كلما كبرن تضاءلت رغبتهن في الذهاب إلى المسجد. إذ بدأن يشعرون بأن كثيرين من الرجال لا يريدون وجودهن هناك، وأنهن لا يرتحن بالصلاة وحدهن في قسم النساء في الطابق العلوي. وما إن دخلن المدرسة الثانوية حتى توقفن عن مرافقتي إلى الصلاة. وهن يعتبرن ثقافة المسجد اليوم «مهزلة»، و«بدائية» و«غريبة».

وعندما سألت ابنتي الكبيرتين إن كانتا تعتمان الانخراط أكثر في المسجد عندما تكبران أو عندما يصبح لديهما أطفال يوماً من الأيام؛ أجابتا ليس قبل أن يتغير جو المسجد بصورة درامية ويصبح بيئة أسروية. وقال لي آباء مسلمون وأمهات مسلمات كثر: إن أولادهن يتخذون المواقف نفسها. وذكر آخرون أن أولادهم وبناتهم قالوا: إنهم «يكرهون المسجد» وليس لديهم أي اهتمام بدخوله. هذه مسألة خطيرة جداً بقدر ما يتعلق الأمر بمستقبل الإسلام في أمريكا. فإذا ما ظل المسجد ذكورياً في الأساس بدلاً من كونه مؤسسة أسروية ودية، فإن على الجالية المسلمة أن تتوقع ابتعاد أعداد كبيرة من الجيل الثاني عن المسجد وما يتلوه من الأجيال. مع افتراض وجود جاذبية للوضع، على المسلمين المرتبطين بالمسجد أن يفحصوا بعناية ما إذا كان الإسلام يتطلب أن يبقى هكذا. فإن كان يتطلب البقاء كما هو، فلا بد من الحفاظ على الوضع الراهن في المساجد بغض النظر عن أعداد المسلمين الأمريكيين الذين ينفرون منه ويخرجون. وإذا كان هناك مجال في الدين يجعل المسجد أكثر أسروية وودية، وهذا يجري تجنبه، إذن على مؤسسة المسجد أن تتحمل مسؤولية تضليل الملايين من المسلمين المحتملين وصرفهم عن الدين^(١).

(١) من الممتع أن أذكر أنني زرت في أواخر ثمانينات القرن العشرين وأوائل تسعيناته مسجد النبي والمسجد الحرام في مكة عدة مرات، وكانت الأسر هناك تجلس معاً وبصورة مختلطة إلى أن ينادى للصلاة فتتفصل النساء عن الرجال لأداء الصلاة في قسمهن. هذه هي العادة الموطلة في أقدس مكانين للعبادة في الإسلام منذ فجره.

إن تحول المسجد إلى محور فكري للجالية - كما كان في مطلع التاريخ الإسلامي - سيؤدي خدمة كبيرة لمسلمي أمريكا، حيث يشجع المؤمنون، وخصوصاً الشباب منهم على استكشاف قضايا إسلامية وبحثها ومناقشتها دون خوف من لوم أو عقوبة. يجب أن يدعم المسجد تشكيل جماعات البحث للشباب ويوفر لهم فرصاً كبيرة ليعبروا عن همومهم في متديات الجالية.

ومن المهم أيضاً أن يضموا ممثلين عن الجيل الثاني إلى مجالس الإدارة. فهذه الخطوات تساعد على تحسين الفهم المتبادل والتواصل بين جيل المهاجرين والجيل الثاني. كما يجب تكييف الجيل الثاني مع الانخراط في الجالية. وكل ذلك، بالطبع، يتطلب احتراماً كبيراً لحرية التعبير واختلاف الرأي أكثر مما هو موجود الآن في معظم الجاليات.

وهناك حاجة متنامية في الجالية المسلمة الأمريكية إلى علماء في الإسلام ممن نشؤوا في الوطن مدرّبين أكاديمياً ومرتبطين بالمسجد. فمعظم القادة الفكريين، الموجودين حالياً، لم يحصلوا على ثقافة عليا في الإسلام، أو في الدراسات الشرق أوسطية، أو في حقول ذات صلة بذلك، رغم أنهم مثقفون جيداً. فضلاً عن أنه إذا ما أريد الإسهام بمنظور إسلامي ضروري جداً في ميادين البحث التي يهيمن عليها غير المسلمين منذ زمن طويل، فلا بد من وضع هؤلاء الأكاديميين في مواقع جيدة تمكنهم من مساعدة الجيل الثاني على حل إشكالاتهم وإزالة شكوكهم. فغالبيت الجيل الثاني مثقفون جامعيون، ومهيؤون للبحث في العلوم الاجتماعية والدينية ؛ إضافة إلى أنهم ألفوا أساليبهم الفكرية، وطرقهم في التعبير، ومنهجياتهم الخاصة بهم. وما لم يتمكن العلماء المسلمون من التواصل مع الجيل الثاني بطريقة تخاطب خلفيتهم الثقافية فسيجدون صعوبة في الوصول إلى الذين نفروا من المسجد ومن الدين.

كانت أكثر الأسئلة التي تلقيتها من شباب أمريكيين مسلمين تتعلق بفصل الدين عن الثقافة، ويسعون بفضل ذلك إلى التمييز بين الممارسات والأفكار الإسلامية الجوهرية في الإسلام، والتطبيقات أو التفسيرات المقيدة بالزمان والمكان. ويمكن أن يكون العلماء المسلمون الأمريكيون المدربون في التاريخ،

وعلم الإنسان، والدراسات الدينية الذين يطبقون خبرتهم على دراسة العلوم الإسلامية الكلاسية، ذوي عون كبير في هذا المجال بصورة خاصة. وبالمثل، يمكن أن يكون علماء القانون، والاقتصاد والعلوم السياسية وعلم النفس عوناً للشباب المسلمين في اكتشاف الإجابات الدينية الفعالة على القضايا المعاصرة، وفي تطوير رؤية للاتجاهات المستقبلية تتبعها الأجيال القادمة.

معظم المختصين المسلمين في الدراسات الإسلامية في أمريكا اليوم يظلون بعيدين عن مساجدهم المحلية، والعكس بالعكس. إن هذا الرفض المتبادل (بين المساجد المحلية، والعلماء المختصين) هو من سوء حظ المسلمين وعلامة أخرى من علائم العلل التي تسود الجالية المسلمة. ومرة أخرى، لابد من تركيز الآمال على الجيل التالي لإيجاد مجتمع أكثر انفتاحاً وتسامحاً يحتوي مواهب المؤمنين ومنظوراتهم المختلفة. وهذا يترك المجتمع على أي حال، في وضع يستحيل معه إنجاز شيء؛ ولكي نجذب الجيل الثاني إلى المجتمع وندمج به بالجالية لابد من إحداث تغييرات محددة، أما الآن فلا مجال لإحداثها، على ما يبدو، حتى يتمكن الجيل الثاني من استلام زمام الجالية والمجتمع.

لا هنا ولا هناك

عن أنس... قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»^(١).

التقيت بكثير ممن اعتنقوا الإسلام، ألفوا ثقافة المسجد ومتمسكين بمواقفه، وعاداته وسلوكه الاجتماعي، ويدافعون عنها بحماس بوصفها تجسيدا للإسلام الحقيقي، ولكنهم ليسوا أكثرية. ويرتد عن الإسلام نصف الذين يعتنقونه من الأمريكيين على الأقل، والنصف الثاني يظل بعيداً عن الجالية الإسلامية. من بين فئات المسلمين المواطنين الأربع التي بحثناها في هذا الفصل، تركت

البحث في الذين اعتنقوا الإسلام إلى آخر المطاف، لأن الذين يشعرون أنهم بعيدون عن المسجد هم من رفع صوته أكثر للتعبير عن الهموم التي أوردناها من قبل، ومن ثم فلا حاجة لتكرار ذكرهم مطولاً هنا. وكفي القول: إن سلطة ثقافة المسلمين، على ما يبدو، وعدم المساواة بين الذين يعتنقون الإسلام من القوقاز وأولئك الذين يعتنقونه من الأمريكيين الأفارقة، والانقسام الفكري والاجتماعي بين المسجد والمجتمع المحيط به تعد قضايا إشكالية عند الكثيرين من الأمريكيين الذين يعتنقون الإسلام. لذلك سوف أنجز هذا الفصل بإدراج بعض الإحباطات القليلة الأخرى التي تذكر كثيراً، وهي أقل خطورة. يجب أن نتذكر دائماً أن لدينا قدراً كبيراً من التراث الإسلامي الذي يحترمه معتنقو الإسلام ويعجبون به، بيد أن التركيز هنا في هذا المقطع على معالم ثقافة المسجد المحبطة لهؤلاء والمنفرة لهم عن المساهمة في الجالية.

كثير من معتنقي الإسلام يعبرون عن هلعهم من التعصب العرقي والتحزب القومي الذي يشعرون أنه يوهن المجتمع الإسلامي ويضعفه. وكما أشرنا سابقاً نرى أن تفضيل الذين يدخلون الإسلام من الأمريكيين البيض في المعاملة على الأمريكيين السود - رغم أنها مرفوضة، وتعد سلوكاً انقسامياً - يُعزى إلى ظاهرة الاستعمار الأوربي، وهيمنة الحضارة الغربية حالياً، والافتراضات الخاطئة التي تلصق «بأمة الإسلام (الأمريكية)»، وليس إلى التمييز العنصري أو الكراهية العرقية؛ ومع ذلك فهناك تيارات أخرى من التحامل العرقي والقومي تعصف بالمسلمين في أمريكا وتفتتهم. ويرى معتنقو الإسلام أن الاحتكاكات العرقية والقومية التي تطفو على السطح في جاليتهم، والإهانات العرقية التي يسمعونها، ووجود مساجد عرقية في المدن الكبرى، والافتقار إلى التعاون والنزاعات المتكررة بينها، كدليل على أن أخوة المؤمنين المعلنة، ليست سوى مظهر سطحي لا يتجاوز الجلد إلى القلب.

ومع ذلك، فليس من الطبيعي ألا تكون هناك مثل هذه التوترات في شعب متنوع الثقافات، ولكن بما أن الدين مؤسس مباشرة وبصورة كاملة على مفهوم الأخوة، فإن أي تعصب ملحوظ يبدو نشازاً كبيراً. في حين أن هذا ربما يكون

محرراً لبعض معتنقي الإسلام من الوهم، ممن لديهم توقعات مثالية أن المسلمين يلتزمون تماماً بدعوة الحب الأخوي، هنالك علامات واعدة بالأمل في المستقبل. وكلما طالت إقامة المهاجرين هنا، ازداد احترامهم للمؤمنين من خلفيات أخرى، وتوثقت علاقاتهم المتبادلة بهم، ومن ثم لا بد وأن تتقلص التحاملات العرقية بين الجيل الثاني الذي نشأ في مجتمع ينادي بالتسامح وقبول التنوع وأن تزول لديهم أشكال التحيز والتمييز.

مشكلة أخرى تحل من لقاء ذاتها، خصوصاً إذا ما نمت مساهمة السكان الأصليين في المجتمع، هي أزمة الهوية التي تتردد على ألسنة الكثيرين ممن اعتنقوا الإسلام. يعتمد المهتدون عادة على المؤمنين ذوي الخبرة كي يعلموهم الدين الجديد، الأمر الذي يعني أنهم يتلقون هذا التعليم حالياً على يد المهاجرين المسلمين الذين ربما تؤدي نزعتهم القوية لمساواة الدين بصيغته الثقافية في الوطن الأم إلى جعل هؤلاء الداخلين الجدد في الدين يتبنون وجهات نظر ليست ضرورية دينياً وغريبة عن طبيعتهم ومزاجهم. ويسبب رغبة الكثيرين من معتنقي الإسلام في أن يقبلوا في ثقافة المسجد يحاولون إعادة تكوين أنفسهم بما يتلاءم مع أعراف المجامع والجمالية، لدرجة أنهم يكتبون ضمائرهم وعقولهم، الأمر الذي يجعل الكثيرين منهم يصفون حالتهم بأنها انفصام ثقافي وعقلي، إذ يتحلون بالأخلاق والمواقف السياسية والاجتماعية وغيرها التي تتخذها شعوب الشرق الأوسط عندما يكونون بين المسلمين، ثم يعودون إلى شخصيتهم الأمريكية في مواضع أخرى^(١). ولحسن الحظ ينجو معظم معتنقي الإسلام من هذه المرحلة ويتجاوزونها من دون أي ضرر يذكر، وكثيرون من الداخلين الجدد إلى أديان أخرى يمرون بأزمات الهوية هذه بشكل أو بآخر - وهكذا جاء المثل القائل : «ليس هناك دين كالدين الجديد» يبدو أن نسبة الذين يعانون من أزمة الهوية من المعتنقين الجدد للإسلام، تتناقص، وربما كان الفضل في ذلك لمشورة الذين سبقوهم إلى اعتناق الإسلام.

(١) للاطلاع على المزيد من هذا المجال، انظر كتاب «حتى الملائكة تسأل» للمؤلف نفسه، منشورات أمانا، ١٩٩٧، ودار الفكر ٢٠٠٠.

من الشكاوى التي يطرحها باستمرار معتنقو الإسلام ضد المجتمع الإسلامي هي الافتقار إلى التأمل الداخلي الذاتي وعدم إدراك معايير المزدوجة. فهم بوصفهم من اللامتمين سابقاً لأمريكة يكونون أكثر حساسية تجاه هذه المسألة. إذ يقولون: إن المسلمين يتوقعون، تماماً أن يحصلوا على جميع الحقوق والامتيازات التي تترتب على الحصول على الجنسية (المواطنة) الأمريكية الكاملة، ولكن كثيرين من زعماء الجالية الإسلامية يراوغون عندما يطرح عليهم سؤال يقول: هل تدافعون عن المواطنة الكاملة لغير المسلمين إذا كان المسلمون هم المهيمنين سياسياً؟ ومن الملاحظات النقدية المتكررة أن الجالية الإسلامية تسارع إلى التنديد بالظلم الذي يمارسه غير المسلمين، ولكنها لا تميل إلى الاعتراف بالأخطاء الفاضحة التي يرتكبها أبناء دينهم، ولا يدينونها. فمنذ زمن ليس بالبعيد، صرح المفتي العام في المملكة العربية السعودية قائلاً: «إن اليهود حثالة الأرض، وجرذان البشرية، وسلالة القردة والخنازير». فنشر هذا التعميم العرقي الصادر عن سلطة دينية إسلامية عليا على نطاق واسع في أمريكة، ولم تصدر أي إدانة عن الجالية الإسلامية. فكتب لي أحد معتنقي الإسلام يقول: «أين سلالة آدم شاير^(١)، وستانلي كوهين^(٢)، وراشيل كورييه^(٣) في مجتمعنا؟ أين المسلمون الذين يدافعون عن حقوق غير المسلمين ويشجبون أخطاء شعبنا؟» ليس من الصعب أن نجد في القرآن ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدِينَ ٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوَّلُ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلُونَا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥/٤]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا

- (١) ناشط سلام يهودي أمريكي يعمل مع الفلسطينيين في نضالهم ضد الاحتلال. ونتيجة لهذه الفتوى تلقت أسرته تهديدات بالقتل.
- (٢) محام يهودي أمريكي أقام دعوى ضد حكومة إسرائيل باسم الأمريكيين الفلسطينيين متهماً إياها بجرائم الحرب.
- (٣) متطوعة مع حركة التضامن العالمية التي يقودها الفلسطينيون. قتلت وهي تحاول منع القوات الإسرائيلية من تدمير بيوت الفلسطينيين المدنية.

يَجْرِيَنَّكُمْ سَتَأْتِيَ قَوْمٌ عَلَىٰ آلَا تَقْدِلُوا أَغْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨/٥﴾ [المائدة: ٨/٥].

يروى بعض معتقي الإسلام أن شعوراً بالوحدة يتتابهم بعد اعتناق الدين، فقد قالت امرأة ممن كن يحضرن جلسة سؤال وجواب بعد المحاضرة: إنها تشعر منذ اعتناقها الإسلام كأنها شخص بلا مجتمع. وشرحت ذلك بقولها: إنها شعرت بالانفصال عن المجتمع الذي نشأت فيه من جهة، وشعرت بأنها معزولة ضمن المجتمع الإسلامي من جهة أخرى. وأضافت: إنها كانت تشعر بأنها غير مرغوب فيها في مسجدنا عندما تطرح أسئلة تتعلق ببعض الممارسات. ثم سألتني كم يستغرق الداخل الجديد في الدين من الزمن حتى يشعر لدى وجوده في المجتمع الإسلامي أنه بين أهله؟ وهل من الأفضل أن تكف عن طرح أسئلة تبدو غير مناسبة لها؟

كتب لي العديد من معتقي الإسلام يصفون لي الشعور بالغربة عن الثقافة المحيطة، وعن ثقافة المسجد. ويبنون أن علاقاتهم مع الأسرة والأصدقاء وزملائهم في العمل لم تعد كما كانت، وأن الإسلام أحدث تغييرات في أسلوب حياتهم، وفي مواقفهم أخرجتهم عن المسار العام. في حين أن غالبية معتقي الإسلام يفهمون أن هذا هو الثمن الذي لابد لهم من دفعه ويقبلونه، كما أنهم يعزفون بصورة طبيعية عن الاستسلام لأحكام ومعتقدات لها صلة غامضة بالإسلام. إن التلاؤم مع أي ثقافة جديدة لا يخلو من المصاعب والمتاعب، أما فيما يتعلق بالمسجد فيمكن تيسير هذه المشكلة إذا ما بذلت الجالية - كما أكدنا مراراً - جهوداً لتخليص نفسها من عادات ليست ضرورية للدين. إذ ما دام المسجد متوفراً بحزم على تقاليده الأكثر عرضة للتساؤل، وما دام معتقو الإسلام يشكون في جوهرية هذه التقاليد وضرورتها للإسلام، فإن هؤلاء سيظلون يشعرون بأنهم خارج السياق في ثقافة المسجد.

كم هو جميل أن يشعر المرء بأنه وزملاءه المؤمنين شخص واحد، وأن يكون لأولئك الذين يشعرون بالانفصال، عن كل ما هو مألوف ملاذ من الدعم

في جاليتهم الدينية، ولكن الدين يجب أن يوضع تحت الاختبار، كما أن الإحساس بالوحدة الذي يعاني منه الكثيرون من معتنقي الإسلام يمكن أن يساعدهم على تنمية اعتماد فردي على الله. ويقدم لهم كذلك فرصة لممارسة جانب أساسي من جوانب الأخوة الأصيلة: أي الالتصاق بإخوتك وأخواتك حتى عندما تكون هذه العلاقة ليست سهلة. على أي حال، يجب ألا يتوقف معتنقو الإسلام عن تحديث ما يشكون أنه ممارسات وعقائد قابلة للنقاش، أو ليست مهمة. إذ ينبغي ألا يُنحَى السبر النقدي الذي جعلهم يدققون في أديانهم السابقة، ثم قادهم إلى الإسلام، مجرد دخولهم في المجتمع الإسلامي؛ ولأفإنهم ينتهون إلى مقايضة مجموعة من الأكاذيب بمجموعة أخرى. فضلاً عن أن مهمة معتنقي الإسلام المثالية يجب أن تكون تحرير الدين من عبء قرون من الزمن، ومن الإضافات الموهنة للدين - وهذا مشروع ذو أهمية حيوية في نظر المفكرين المسلمين - لأنهم بفضل هذه المهمة يجمعون في ذاتهم منظور اللامنتمين للدين. ومع ذلك لا يمكنهم القيام بهذه المهمة إن أحجموا عن المواجهة الفكرية. هناك في كل مسجد من يفضل لهؤلاء أن يذعنوا للعرف والتقاليد، وأن يكونوا إتعات تابعين للتراث الإسلامي؛ ويمكن أن تكون الضغوط في هذا الاتجاه كبيرة جداً، ولكن على معتنقي الإسلام أن يتذكروا أنهم يسلّمون أنفسهم لله، وليس للجمالية.

إنفا ننقسم

- عن أنس عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(١).
- عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ السلام»^(٢).

(١) البخاري ومسلم.

(٢) البخاري ومسلم، وأبو داود.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴿١٥٢﴾ ولئن كنتم أمماتٌ لفرقتكم الله إلى الخيَرِ ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴿١٥٣﴾ ولا تكونوا كالألدين تفرقوا واختلفوا من بَعد ما جاءهم البَيِّنَاتُ وأولئك لهم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٥].

الحاجة إلى وحدة أكبر بين المسلمين موضوع يتكرر في المؤتمرات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث المراد عادة هو أن يترفع المسلمون المهاجرون عن المشايعة العرقية، ويتلاقوا في أخوة وتعاون متبادل. لا أعني التقليل من شأن التمرکز العرقي في الجالية، ولكن يبدو أنه ما من شيء خبيث ساء شهادته مثل التحامل العرقي في بريدج بورث، وكونيكتيكت. والأهم من ذلك مهما بلغ التباعد بين مجموعات المهاجرين المختلفة فإن خطورته تتضاءل بالمقارنة مع مشكلة إبعاد المسلمين المولدين في أمريكا عن ثقافة المسجد. فأي برنامج لتوحيد المسلمين لا يخاطب مشكلة إقصاء غير المهاجرين وإبعادهم لن يكون له صلة بمستقبل المسلمين في الولايات المتحدة. وقبل تقديم أي اقتراحات بشأن ما ينبغي عمله لتغذية وحدة فعالة ذات معنى وتعزيزها، فإنه من المفيد مراجعة بعض الهموم الرئيسية للمولودين في أمريكا من الذين ما زالوا بعيدين عن المسجد.

إن أكبر مشكلة يعاني منها المسلمون الذين نشؤوا في أمريكا، بصرف النظر عن مشكلة الجنس، هي معاملة النساء في ثقافة المسجد التي يراها الكثيرون بأنها مهينة. إن ممارسة عزل النساء تعد مزعجة بوجه خاص. ومن الشكاوى العامة أن النساء لا يشجعن على صلاة الجماعة، وأنه ليس لهن صوت مستقل في الجالية، ويُحرمن من المناصب القيادية، ويُحرمن من عضوية مجالس الإدارة واللجان التنفيذية، ويُحط من قدر الإناث جميعاً، ويهْمَشُن ويُذلَّلُن في مجتمعاتهن الإيمانية. وكثير منهن يحتججن بأنهن يعاملن كمواطنات أقل من الدرجة الثانية في المسجد حتى ولو كن في بلدن.

ويعد التباين بين ثقافة المسجد والفكر العام السائد قضية جوهرية لدى قطاع كبير من الجيل الثاني. يرى كثيرون أن الجالية المسلمة تشدد على التقليدية

المتطرفة، والالتزام والفاشية وتقييد الفكر والكلام. أما المجتمع الأوسع فيرى الكثيرون أنه يضمن العقلانية والفردية والإبداع والبحث النقدي ويدافع بحماسة عن حرية الكلام. وكثير من هموم الجيل الثاني يحظر بحثها في المسجد. فهناك الكثيرون من هؤلاء الشباب يرتابون في فعالية نقد الحديث الكلاسي. كما يشعر كثيرون أن اللاهوت الإسلامي التقليدي، كما هو مطروح في المسجد على الأقل، يخفق في مخاطبة التباينات اللاهوتية التي تعد قضايا مركزية في الفكر الغربي والتي تجري مواجهتها دائماً مع غير المسلمين، مواجهة مقنعة. ويفتقر الكثيرون إلى الثقة في كثير من الشريعة الإسلامية التقليدية ويخفقون في إيجاد صلة بها. وينادى الآن بإحياء الأنظمة الإسلامية الكلاسيكية عن طريق إدخال أساليب البحث الحديثة، بدعوى أنه ما من علم يستطيع الاعتماد على مكتشفات الأجيال السابقة من دون تدقيق وتحقيق. أما المؤسسات المسجدية فتعارض بوجه عام أي اقتراحات في هذا الاتجاه. إن ما يشكل هذا الفشل الخطير في إحداث التواصل هو أن إنكار ثقافة المسجد الواضح لخروج الجيل الثاني بأعداد كبيرة من المجتمع الإسلامي يعد مسألة هامة.

من المحزن أن تهمل الجالية الإسلامية الأمريكية قطاعاً ممن نشطوا في الوصول إلى الشباب المسلم المغرّب عن المسجد، وإلى الذين اعتنقوا الإسلام، وحققوا على ما يبدو تقدماً في هذا الاتجاه. وعلى الرغم من أن تحاشي المهاجرين لإخوتهم وأخواتهم السود - وتفضيلهم للبيض على السود - ناجم عن عوامل ثقافية أكثر مما هو بسبب العوامل العرقية، فإنه إن ترك الوضع على هذه الحال، فربما يتطور الأمر إلى صراع، وتوترات عرقية حقيقية داخل الجالية. وبما أن المساجد التي يهيمن عليها السود سلفاً هي مؤسسات وطنية أصلية، يجد المرء في معظمها تركيزاً قوياً على قبول المعتقدات والممارسات الإسلامية التقليدية، التي كلف بها الدين. وهنا أيضاً، تكون الجالية الأمريكية الإفريقية قد سلكت السبيل ساعية لفصل الدين عن الثقافة، ومن ثم فليس غريباً أن تجد معتنقي الإسلام من غير السود، وأطفالاً كثيرين من أبناء المهاجرين يرتاحون في مساجد الأمريكيين الأفارقة أكثر مما سواها.

لا تخص الهموم التي أوردناها فيما تقدم فئة من المسلمين المواطنين حصراً، رغم أنها أشد حدة عندهم مما هي عند الآخرين، ورغم أن الكثيرين من المهاجرين يشاركون في هذه الهموم، خصوصاً أولئك الذين مضى على إقامتهم في أمريكا بعض الوقت. على أي حال، هناك تجربتان مزعجتان أحاطني بهما علماً معتنقو الإسلام فقط.

الأولى هي ما وصفها لي أحدهم على الهاتف بـ (فتى / فتاة الملتصقات) (Poster boy/girl) حيث يشعر المهتدون، انطلاقاً من الرغبة في تأمين قبولهم في مجتمع المسلمين بضرورة تشكيل أنفسهم وفق توقعات المجتمع أو الجالية، فيتبنون مواقف وسلوكات ثقافية غريبة عن تربيتهم وشخصيتهم السابقة، ويرتبطون ارتباطاً ضعيفاً غامضاً بالإسلام. إن تحقيق (ضياع النفس) هذا^(١) غالباً ما يكون الخطوة الأولى نحو الارتداد عن الدين نهائياً.

أما التجربة، أو الصعوبة الثانية التي يعاني منها معتنقو الإسلام، هي الإحساس بعدم الانتماء إلى أي مجتمع، إذ هم يشعرون بانفصالهم عن التيار المجتمعي العام الذي نشؤوا فيه، ومع ذلك لم يقبلوا تماماً في مجتمع المسلمين، لأنهم على الأغلب، لا يقبلون أن تكون بعض تقاليد المسلمين وأعرافهم المتأصلة فيهم على أنها (إسلامية) حقاً. من الواضح أن هاتين الحالتين وجهان لعملة واحدة. الأولى نجمت عن الاستسلام الأعمى لمعتقدات وعادات لدى المسلمين مشكوك فيها، والثانية نجمت عن رفض ذلك. فلا بد من تجنب الحالة الأولى وتعديل الحالة الثانية، إذ يذكر معتنقو الإسلام دائماً أن الإسلام يطلب منهم الاستسلام (التسليم) لله فقط، حتى وإن أدى ذلك إلى تناقض مع المؤسسة الإسلامية المحلية.

قلت في كتابي (حتى الملائكة تسأل) إن حجب التدخل الإلهي يؤدي إلى جعل مستقبل الجالية الإسلامية الأمريكية القريب مكشوفاً كثيراً. شعرت أنه من أجل الحيلولة دون الخروج الجماعي للجيل الثاني وما تلاه من المجتمع

(١) أوصي لمزيد من الاطلاع على هذا الموضوع بكتاب (أن نؤمن كما نحن) للكاتب ج.

لين جونز (J. Lynn Jones) منشورات أمانا، بلسفيل، ٢٠٠٢ م.

الإسلامي، ومن أجل تلافي الانقسام الطائفي بين من ظلوا في إطار الجالية الإسلامية، أنه لابد من إحداث تغييرات عديدة في ثقافة المسجد. أنا لا أتوقع عندئذ، ولا الآن، أن تحدث التحولات الموصى بها في حينها لتحبط مثل هذه النتائج الوخيمة. ومع ذلك، إن لم أبين الحالة لهم، أكون قد تخلّيت عن مسؤوليتي.

نبدأ بما أعتقد أنه اقتراح يدل على نفسه: كلما زادت المعتقدات والممارسات التي تدعي أنها ضرورية للإسلام، تناقص عدد الذين يعدّون الإسلام خياراً لهم.

فمثلاً، يوافق المسلمون كافة على أن الإيمان بآله واحد ضروري وجوهري للإسلام، وأنه ليس كل أمريكي على القبول بذلك. وهكذا يمكننا تمثيل المجموعة الفرعية من الأمريكيين الذين يقبلون بوحدانية الله بالرسم البياني التالي:

المجموعة الفرعية الأولى
الذين سيقبلون وحدانية الله

والمسلمون كلهم يوافقون على أن الإيمان بنبوة محمد ضروري وجوهري للإسلام. فالقطاع من الأمريكيين الذين سيقبلون ذلك من الذين آمنوا بوحدانية الله يشكلون بوضوح مجموعة فرعية للمجموعة الأولى المتقدمة. ونمثل ذلك بشكل بيضاوي داخل الشكل البيضاوي الذي يمثل المجموعة الفرعية الأولى.

المجموعة الفرعية الثانية
الذين سيقبلون وحدانية الله ونبوة محمد

من الممارسات الإسلامية الجوهرية الصلوات الخمس. فالذين يقبلون بذلك إضافة إلى الإيمان بوحداية الله ونبوة محمد، يشكلون المجموعة الفرعية الثالثة - المنبثقة عن المجموعة الثانية المتقدمة، ومن ثم يمكننا بيان هؤلاء بشكل يضيوي (في المجموعة ٣) داخل الشكل اليبضوي الذي يمثل المجموعة الثانية.



ثم إذا أضفنا صيام رمضان (مج ٤)، ثم دفع الزكاة (مج ٥) ثم الحج (مج ٦) ثم تحريم الخمر (مج ٧) وتحريم القمار (مج ٨) وتحريم لحم الخنزير (مج ٩) وتحريم الزنا (مج ١٠) فإن الذين يقبلون هذه المعتقدات والممارسات كلها يتقلصون. ويمثل التقلص مع ازدياد المعتقدات والممارسات بالشكل الآتي :



إن هذه القائمة التي تعد ضرورية وجوهرية للإسلام عند المسلمين كافة ليست كاملة تقريباً، وكلما ازداد عدد البنود التي تضاف إليها، فإن المجموعات الفرعية من الأمريكيين - بمن فيهم الذين اعتنقوا الإسلام، والذين يحتمل أن يعتنقوه، والجيل الثاني من المسلمين - التي ستقبلها كلها يزداد تضائلها بازدياد عدد البنود المضافة. هذا أمر لا مفر منه، وينبغي ألا يحذف المسلمون أيّاً من قائمة المعتقدات والممارسات الجوهرية

للإسلام، بصرف النظر عن عدد الذين يتعدون عن اعتبار الإسلام خياراً دينياً لهم. فإذا كان هناك معتقد أو سلوك يطلبه الدين بالتحديد وبصرامة فلا ينبغي أن يعدل أو يساوم عليه. ومن ناحية أخرى على المسلمين أن يكونوا حذرين من الإصرار على ما ليس ضرورياً ولا جوهرياً للإسلام، لأن مثل هذا الإصرار يضع عقبات وحوائل بين الأفراد والإسلام، إضافة إلى أن الحقيقة تصبح لديهم غامضة دونما حاجة إلى ذلك. ويقدر ما يترتب على المسلمين من عدم إهمال ما هو جوهري دينياً، عليهم بالقدر نفسه ألا ينقروا الناس من الدين بإدخالهم أموراً غير مطلوبة على أنها من الإسلام، ويجب اتباعها بحذافيرها. هذا أمر وأهمية حاسمة في القرآن، لأنه إذا أدخلنا في الدين ما ليس فيه من دون دليل واضح، نكون في واقع الأمر قد أشركنا مع الله ما ليس منه، ونكون قد افترينا الكذب عليه حسب تعبير القرآن: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَتُّونَ﴾ [يونس: ٥٩/١٠]. ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦/١٦].

وفي سورة التوبة الآية (٣١) يلوم القرآن اليهود والمسيحيين ويؤنبهم، لأنهم اتخذوا من أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهناك حديث مشهور ورد في صحيح الترمذي يقول: إنهم فعلوا ذلك بسبب اتباعهم ما أعلنه رجال دينهم حراماً وحلالاً بصورة عمياء^(١). وتوجه سورة يونس هذا التحذير المخيف إلى

(١) نص هذا الحديث من صحيح الترمذي (ترجمة ٤ : ٩)، «حدثنا الحسين بن يزيد... عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ، وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعت يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١/٩]. قال: إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه...» الحديث (٣٠٥٩)

الذين يفعلون مثلهم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آذَنَ لَكُمْ أَنْ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ ﴿٥١﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠-٥٩/١٠].

يقول محمد أسد في تعليقه على هذه الآية: «وفقاً للمبدأ القائل: إن كل ما لا يحرمه القرآن ولا سنة النبي صراحة يعد مشروعاً وحلالاً بحكم الواقع، وهذه الآية تتخذ موقفاً حاسماً واضحاً ضد التحريم العشوائي المصطنع أو الذي يبتدعه الناس استتاجاً من القرآن أو من سنة النبي»^(١).

إن تقديس التراث، كما يبين القرآن، يعد أكثر الوسائل شيوعاً ويفضلها تفتن السياسات البشرية - التي ربما تكون مناسبة أو لا تكون في فترة معينة من التاريخ - بالدين وتعمم؛ وعندما تواجه بواقعة أن الوحي لا يدعم هذه الممارسة، فإن الملمومين في ابتداء تلك الممارسات يفضلون التراث على الوحي معاندين. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُفُوءًا وَمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالٌ طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آتَيْنَاهُ مِنْ أَوَّلِنَا وَلَوْ كُنَّا رَبًّا لَهُمْ لَا يَقُولُوكَ شَيْئًا وَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٧٠].

عندما اعتنقت الإسلام منذ أكثر من إحدى وعشرين سنة، بدا لي أنه ما من مسلم التقيته إلا وكان تواقاً ليتحدث إليّ حول خصوصيات ذات حساسية يعدها جزءاً لا يتجزأ من العقيدة والدين. كنت أرتاب في كثير مما يقال لي، ولكنني حينذاك لم أكن أمتلك الوسيلة التي أتأكد بموجبها من صحة ما يقال.

قيل لي في مناسبات عديدة: إن علي أن أرتدي ملابس شرق أوسطية، وألا أسمع موسيقا، وأن أردد الدعاء والابتهالات كلها بالعربية، وألا أصفر، وأن أكل بيدي ولا أستخدم أدوات الطعام، وألا يكون عندي تلفاز، وألا أرتدي ربطة عنق، وأن أعمل على إسقاط الحكومة الأمريكية عندما تتاح الفرصة، وأن

(١) محمد أسد (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠).

المرأة لا تستطيع مغادرة بيتها إلا بإذن زوجها، ولا تصوّت في الانتخابات، ولا يجوز لها العمل خارج البيت، وأنها لا ينبغي أن تحصل على إجازة قيادة سيارة، وأن الديمقراطية حرام، وأن عليّ تغيير اسمي إلى اسم عربي، وأن استهداف المدنيين مسموح به في الجهاد، وأن ارتكاب المرأة للزنى هو أسوأ من ارتكاب الرجل له. وكثير مما يجب أن أفعله وما يجب ألا أفعله تدعمه ببراكين واهية غير مقنعة. ولو لم أكن أخذت ديني عن القرآن، ولو اعتبرت مثل هذه الادعاءات تعبر عن الإسلام حقيقة، لكنت قد تركت الدين بالتأكيد. وعلى الرغم من أنه ليس صعباً على المسلمين المثقفين مناقشة هذه الادعاءات وكشف ضعفها، فإن كثيراً من الداخلين الجدد إلى الإسلام أو الذين يحتمل أن يعتنقوا الإسلام لن يقضي وقته، ويستنفد جهده، ويغرق في الدراسات المطلوبة للتحقق من كل ما سمعوه باسم الإسلام ؛ بل سيحدث عند غالبيتهم انطباع سلبي - وربما أكثر من سلبي - عن الإسلام ويرونه مضحكاً بجلاء. والواقع لا يستغرق إحياء الشكوك في الإسلام وتأكيدها وقتاً طويلاً ولا جهداً كثيراً، خصوصاً وأن التحيز ضد الإسلام والتحامل عليه منتشر وعميق الجذور في أمريكا.

لحسن الحظ أن الذين يروجون لمثل هذه المواقف من المسلمين في أمريكا ليسوا كثيرين، لأن معظمهم مواطنون ومقيمون دائمون ابتعدوا منذ زمن طويل عن الثقافات التي تولد مثل هذه الأفكار، ومن ثم فهم أقل قدرة على الانتماء إلى الدوافع الكامنة وراء هذه الأفكار. ومع ذلك، رغم وجود تسرب طبيعي من الدين بفضل ادعاءات لا مبرر لها باسم الإسلام فإن غالبية المؤسسات الإسلامية في أمريكا ما زالت تقيد الصيام بممارسات مثيرة جداً للتساؤل، بحيث تنفر المسلمين المواطنين وغير المسلمين الساعين إلى الإيمان زرافات ووحداناً، وبالرغم من أنها بفرضها تنفر من الدين أولئك الذين يُحتمل أن يعتنقوا الإسلام، فإنها تظل خطيئة كبرى من وجهة نظر القرآن، ولكن الحقيقة هي أنها تشكل ابتعاداً جماعياً عن الجالية.

ولنأخذ مثلاً آخر، هو ممارسة عزل النساء التي ما زالت تفرض في كثير من مجتمعات المسلمين في البلاد كلها، ليس في القرآن أو الحديث أي إعلان عام

يأمر المجتمع بتطبيق هذا العزل، وفي الوقت نفسه هناك دليل كبير على أن هذا العزل لم يكن يمارس في أي مرحلة من مراحل البعثة النبوية، أو في عهد الصحابة. وعلى الرغم من وجود تعليقات منطقية وعقلية لهذا الفصل بين الجنسين فإن الواقع يشير إلى عدم وجود أي دليل صريح على أن النبي فرض هذه الممارسة على الصحابة، بل هناك أدلة ملموسة كثيرة على عكس ذلك. ولغياب مثل هذا الدليل أو البرهان فالصحيح أنه لا يمكن اعتبار عادة فصل الجنسين جوهرية في الإسلام وضرورة له. فإذا ما كان هذا هو الصحيح يكون هذا الحاجز الأكبر أمام مشاركة الناشئين في الوطن بأعمال الجالية الإسلامية، وهذا الرادع الأساسي للساعين إلى الإسلام عن دخوله، قد فرض من غير ضرورة لفرضه. وفي غضون ذلك تفقد الجالية مئات الآلاف، ويخسر الدين أعداداً كبيرة من الناس.

إن فرض تقاليد غير ضرورية على ثقافة المسجد في أمريكا يثبّط أعداداً كبيرة من المسلمين المواطنين عن الانخراط في الجالية، ويقود الكثيرين منهم إلى فقدان الثقة بالدين، كما يؤدي إلى الانقسام بين المرتبطين بالمسجد، إذ كلما تنازعوا حول ما هو جوهرى للإسلام ازدادوا اقتراباً من الطائفية والتنازع الطائفي. ففي بعض المدن ترفض المساجد المجاورة التعامل فيما بينها بسبب الاختلاف على قضايا سطحية. إذ يمكن أن تسفر الاختلافات المشروعة في الرأي أو التفسير حرماناً وملاعنة فيما بينهم. أعرف كثيرين من المسلمين الأمريكيين الذين أسقطوا جمعية (ISNA) من حسابهم بسبب الأسلوب الذي يتبعه أعضاء الجمعية لتوطيد حلول شهر رمضان. وعندما كنت مقيماً في كاليفورنيا سمعت بمسجد في وسط الغرب (Midwest) يُلقَّب «بمسجد الكافر». فما الخروقات التي ارتكبتها هذا المسجد، والتي استدعت هذا الشجب القوي؟ وقفت النسوة في أثناء صلاة الجماعة في الجانب الأيسر، والرجال في الجانب الأيمن من قاعة الصلاة الرئيسة، تفصل بينهما ستارة في ارتفاع ثلاثة أقدام تتدلى من منتصف الغرفة؛ وبعض المعلمات في مدرسة الأحد الإسلامية لا يرتدين غطاء على رؤوسهن، وكانت الأسر تجلس معاً ذكوراً مع إناث في لقاءات

الجبالية ؛ وشغلت النسوة مواقع في مجلس المركز، وكُنَّ من بين هيئة العاملين مع الإمام. وكانت الاختلافات بشأن منظورات تافهة أو شرعية تقود عبر التاريخ إلى الانقسام والحرب الأهلية، سببها في غالب الأحيان تشدد أحد الفريقين أو كلا الفريقين كل بموقفه وجعله هو الموقف المثالي. وإنني أرى الانقسام الطائفي على وشك الحدوث بين المسلمين في أمريكا لأسباب مماثلة.

لا يمكن المبالغة في الحاجة إلى إعادة تقويم ما هو جوهرى للإسلام تقويماً نقدياً. فإن قسوة تحذيرات القرآن في هذا الشأن، ووجود أحاديث نبوية عديدة تحرم ذلك^(١) وانفكاك المسلمين المولودين في أمريكا بصورة جماعية عن الجبالية بسبب الالتباس الحاصل بين الدين والثقافة، والانقسام الموروث المتأصل في نسبة المرجعية الإلهية إلى أحكام وتفسيرات ليس لها دعم واضح في مصادر النصوص؛ كل هذا يجب أن يجعل من إعادة تقويم تقاليد الجبالية وعاداتها في قمة أولويات المسلمين الأمريكيين الساعين إلى تحقيق وحدة فعالة ذات قاعدة عريضة. وغني عن القول أن إعادة التقويم هذه تتطلب علماء أكاديميين نشؤوا في أمريكا وتدرّبوا على هذا النمط من البحث. كما يحتاج بيئة فكرية تشجع الحوار وتعزز حرية الكلام، ولا تأنف من الجدل الذي يغني الوحدة بحدّ ذاته، لأن الناس يميلون إلى البقاء جزءاً من جمعية تستمع إلى آرائهم، تماماً كما ينزعون إلى تجنب المنظمة التي تحجر على آرائهم. ومرة أخرى لا يلتقي التباين والإجماع عادة.

إذ إن الاحتوائية الأوسع نطاقاً تتضمن تبايناً أكثر في الآراء، ربما يولد مزيداً من الاختلافات التي ربما تزيد التشرذم. ولهذا السبب ينبغي أن تشجع المساجد في أمريكا ممارسة الديمقراطية. ففي النظام الديمقراطي يوافق المشاركون على اتخاذ القرارات بالأكثرية لقاء تمكنهم من المشاركة بحرية وعلى قدم المساواة في عملية صنع القرار. أي إن المشاركين يقبلون بالأكثرية لأنهم منحوا حقوقاً كاملة لعرض رؤيتهم.

(١) وفي ذهني الآن الحديث الذي يشجب البدع في الإسلام . انظر، رياض الصالحين للإمام النووي، الأحاديث (١٥٨ ، ١٧٠ ، ١٧١).

على أي حال، ليس بالضرورة أن يطرح كل خلاف في الرأي على التصويت لأن طغيان الأكثرية يمكن أن يؤدي إلى الانقسام كذلك. فإذا ما وجدت الأقلية أن عليها الاستسلام لسياسات لا توافق عليها بسبب موافقة الأكثرية، فإنها تصاب بالإحباط، ومن ثم ينفصلون وحدهم. ولهذا السبب ينبغي أن يكون الدافع الأول للمجتمع في أمور يكون خلاف الرأي فيها شديداً هو التوجه إلى التوافق والتسامح، والتفاهم، والتكيف. وبالعودة ثانية إلى مسألة فصل النساء عن الرجال، فإذا كان البعض في المسجد لا يرغبون بالجلوس مع الجنس الآخر، وكان هناك من يرغبون في الجلوس في تجمع يضم العائلة، فإنه يمكن توفير الرغبات كلها، بحيث يخصص مكان للرجال فقط وآخر للنساء فقط، ويخصص مكان للأسر مجتمعة.

من المهم أيضاً لأولئك الذين خاب أملهم في المسجد أن يحافظوا على حضورهم وآرائهم، لأننا لا نتوقع أن تقبل الآراء البديلة إذا لم يشجعها أحد. أجرت جاليتنا في لورنس مؤخراً استفتاءً على دستورها الجديد، بعد بحث كل مادة ومن ثم التصويت عليها. التفت فيما بعد عدداً من الأشخاص الذين لم يشاركوا في التصويت، وشكوا من أحكام معينة في الدستور، معللين إحجامهم عن المسجد بالعقيلة التي انعكست في مواد الدستور. فقلت لهم: إن المواد المزعجة التي ذكروها نوقشت بحرارة، وأقرت في حالتين بأكثرية صوت واحد، وفي بقية الحالات بأكثرية أقل من أربعة أصوات. ومما شهدته، كان سبب هيمنة رؤية الأقلية عموماً على المسجد هو عدم اكتراث البقية بالأمر. لقد تبين أن قوة المجتمع في تنوعه، كما أظهرت التجربة الأمريكية مراراً وتكراراً، ومع ذلك فقد كافح الكثيرون من أجل الاحتواء في النظام.

وأخيراً، يجب ألا ننسى أن الأخوة هي أساس النظام الاجتماعي في الإسلام، فعندما يقول القرآن ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

توحي الصورة بأن هذا الاعتصام يحتاج إلى عزيمة قوية وجهد كبير. فعلاقة الأخوة بالعواطف المتبادلة أقل من صلتها برفض التبرؤ من الذين نختلف معهم. وقد جاء في الحديث المشهور: عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ السلام»^(١).

فميل المسلم للابتعاد عن أخيه بسبب خلاف في الرأي في قضايا ليست بذات أهمية، أو بسبب هفوات في مراعاة الشعائر يخالف مبدأ الحديث هذا، ويساعد على إضعاف المجتمع الذي يعاني من توتر شديد. لا مفر من ظهور مثل هذا التباين والاختلاف في شعب كثير التنوع، وهو يناضل للتكيف مع بيئة غير مألوفة، ولكن ينبغي ألا يسمح لهذا التباين بإعاقة التعاون المتبادل والدعم المشترك في قضايا كثيرة تعد جوهرية وحاسمة للمسلمين كلهم في أمريكا.

الإيمان، والعقل، والمستقبل

لم تكن نغمة هذا الفصل ولا نغمة غالبية هذا الكتاب متفائلة، لأن خسارة الجالية المسلمة لأعداد كبيرة من المسلمين المولودين في أمريكا لا يمكن أن تكون سبباً للاحتفال. إنني لا أتحدث هنا عن أزمة وشيكة، بل عن أزمة موجودة وتزداد؛ إذ أصبح عدد كبير من مسلمي أمريكا متقاعدین، وأبناءؤهم الذين هم اليوم في متوسط أعمارهم، نادراً ما يشاهدون في مساجد الأمة أو في المواقع الإسلامية الأخرى. والأمر نفسه ينطبق على الذين اعتنقوا الإسلام في النصف الأخير من القرن العشرين الذين لا يمثلون إلا قليلاً في مناسبات الجالية ووقائعها، كما أن الحضور الضئيل للأعضاء الأصغر سناً من هاتين المجموعتين يدل على أن الجهود التي بذلت حتى الآن لمخاطبة المشكلة إما كانت غير فعالة أو ضيقة المجال جداً. في المجتمعات ذات الأثرية السائدة من المسلمين، نادراً ما يؤدي تجنب المؤسسات الدينية إلى ترك الإسلام بأكمله، ما دام

(١) البخاري، ومسلم، وأبو داود.

بالإمكان تشرب الإيمان من الثقافة المحيطة، أما في أمريكا، فذلك يؤدي إلى ترك الإسلام كلياً، حتى وإن ظل بعضهم من المنقطعين عن الجالية مسلمين اسمياً، فإن فرصة تعرف أبنائهم على الدين والتطابق معه ضئيلة جداً. إنني أدرك، بالطبع، أن الله يرفع الشعب المسلم عندما يشاء، ومن دون دعم المؤمنين الآخرين كما أظهرت تجربة المسلمين الأمريكيين الأفارقة ؛ ولكن هذا لا يعفي المؤمنين من الالتزام بعمل ما، يستطيعون به الوصول إلى المسلمين المواطنين المنفصلين عن الرسالة التي أعطاها إياها الله، فقد أمرنا الله أن نقي أنفسنا وأهلينا نارا وقودها الناس والحجارة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦٦/١].

التقاليد والدين ممزوجان بصورة متداخلة في بلاد المسلمين حيث التقاليد والأعراف متجذرة راسخة، شاملة للجميع، مقدسة، مروعة، بحيث لا يستطيع أحد إهمالها علناً إلا من هم أكثر استهتاراً بها، لأن إهمالها يجلب العار على المرء وأسرته. حتى أولئك الذين يشكون بإيمانهم جدياً يقبلون التقاليد أمام الخاصة الموثوقين من أقرانهم، ويدعون القناعة بها أمام غيرهم. بيد أن أمريكا مجتمع غير تقليدي ؛ إنها بوتقة كبيرة تنصهر فيها التقاليد والأعراف الأجنبية إلى شراب مسكر اسمه (الحرية). إذ يمكن هنا أن تنبذ الأعراف والتقاليد سعياً إلى الحرية الفردية مع دعم من المجتمع، وبقدر ما يتعلق الأمر بالإسلام، فإن مجرد ذكره يثير الخوف والارتباك بين المواطنين. فالحرية في أمريكا تتضمن بوجه خاص الحرية الفكرية، والحق غير القابل للتغيير في الشك ؛ والإسلام يدقق علناً، ويُدعى للتساؤل الآن في أمريكا كل يوم بطرق لا حصر لها. حتى ولو بفعل عملية التناصح والتبادل فإن المسلمين الذين ينشؤون هنا يكتسبون موقف التساؤل تجاه دينهم. ومن المؤكد أن التراث والتقاليد والأعراف لن تبقي الكثيرين من المسلمين غير المهاجرين ضمن جماعة المسلمين. ربما يكون حب

(١) تمثل الحجارة الأصنام التي كان يعبدونها المشركون في الجزيرة العربية في ذلك الزمن، وبالمعنى الأوسع يمكن أن تعني المعبودات المزيفة كلها.

الأسرة رابطة قوية كافية لدى البعض، ولكن في ثقافة شباب أمريكا يرغب الجميع أن يضعوا هذه المسألة تحت الاختبار في صراعهم من أجل الاستقلال الذاتي.

الإيمان هو إيمان القلب والعقل، ولكن العقل هو الباب الذي يخرج منه الإيمان. فإذا كان المسلمون الذين نشؤوا في أمريكا يتسربون من الدين، فإن ذلك يعزى إلى المشكلة الفكرية، إلى الصراع بين العقل والإيمان. فلو كان الأمر يتعلق بدين آخر أو بلد آخر لظننت أن التوجهات القوية إلى التقاليد أو الروحانية أو العواطف ربما توازن الشكوك وتعوضها بفعالية. ويبدو أن هذا هو أسلوب الحركة الإنجيلية البروتستانتية المسيحية الناجحة، ويبدو كذلك أن بعض المسلمين الشباب في أمريكا يلتفتون إلى الصوفية بحثاً عن الدعم الباطني. هناك أسباب عديدة يتذرع بها المسلمون المولودون في أمريكا، منها أسباب دنيوية، وروحية، وعقلية، وأخلاقية، كي يطرحوا الدين للتساؤل، ثقب كثيرة في الجدار، أمور إسلامية كثيرة لا تبدو صحيحة، وكي يدرسوا - ولو عن بعد - مثل هذه المقاربة، حتى وإن جازفوا، فإن المجازفين قلائل. والواقع البائس هو أن غالبية المتحررين من الوهم من الجيل الثاني ومعتنقي الإسلام قد تخلوا عن المسجد مكاناً يلجؤون إليه بحثاً عن إجابات في مشاكلهم الدينية أو غير الدينية، إذ لم يعد المسجد مصدراً لهم. وليست العروض غير الإسلامية هي التي تسمم مواقف بعضهم تجاه المسجد، بل هم عاجزون عن الانتماء لثقافة المسجد التي تبدو في نظرهم غريبة، وخارجة عن زمانها، وغير معقولة. فإذا كان أمل لدى ثقافة المسجد الأمريكية في أن تصل إلى الأبناء ومعتنقي الإسلام المغريين، أو على الأقل، إن كان هناك أمل في إعاقه هروب أقرانهم الأصغر، فلا بد من إعادة تقويم وفحص نقدين متقنين للفكر والممارسات الإسلامية التقليدية، ليس فقط من أجل تمييز ما هو جوهرى حقاً في الدين فحسب، بل أيضاً لتحسين فهم الأحكام والتفسير وآراء العلماء الأقدمين وإيصالها إلى الناس والتي ربما لا تكون جوهرية فقط بل شرعية أيضاً وملائمة لعصرنا. فالغاية ليست تصفية ما هو جوهرى تماماً، ونبد الباقي كلياً، بل البناء على الجهود الماضية. وكلما كان فهم المسلمين لعملية التفكير التي كان يتبعها العلماء والقدماء، وللمؤتمرات التي

أحدثوها، وللدوافع الكامنة وراء أعمالهم كانت مقدرتهم على معرفة الحجم الموجود الذي يتسع للتفسير والتكيف.

من ذا الذي سيقوم، في واقع الأمر، بنقد الفكر الإسلامي التقليدي نقداً معمقاً، وهل هناك أي فرصة لتأخذ المؤسسة الدينية هذه المسألة بعين الاعتبار؟ سأبدأ بالهم الثاني الذي يتطلب استطراداً في الآراء الإسلامية السائدة بشأن استخدام العقل في الإسلام.

كثير من الفلاسفة المسلمين القدماء كانوا يعتقدون أن الإيمان يأتي عن طريق العقل وحده. على الرغم من أن العقل لعب دوراً جوهرياً في اعتناقي الإسلام، لكنني لا أنتمي إلى هذا الرأي. إن ترتيب الله الترتيب الهائل لتطوراتنا الروحية أعقد من أن نتمكن من تشريح العناصر المكونة، بحيث نستطيع أن نميز أي العناصر هي التي كانت تعمل في لحظة معينة: الحدس أم الإيحاء الإلهي، أم العقل، أم العاطفة، أم الضمير، ومع ذلك، لا شك في أن العقل كان أساساً لتقدمي نحو الإسلام. وعلى الرغم من أنني كنت لا أدري إلى أين كنت متجهاً، فإنني أعتقد أنني كنت أعتمد باستمرار على العقل كمُشعرٍ يوجهني بعيداً عن الأزقة المسدودة والحفر المغطاة. كان تحولي عن ديني الأصلي إلى الوثنية أمراً جوهرياً. إذ توصلت، بدافع من الرعب والوحشية اللذين شهدتهما حولي، إلى أسئلة، هي نفسها قادت كثيرين غيري إلى الكفر: لماذا يخلق الله الكامل عالماً غير كامل؟ ولماذا يخلق مخلوقاً مجرماً وعنيفاً كالإنسان؟ لماذا لم يجعلنا ملائكة في السماء؟ ولماذا يخضعنا للإغراء والامتحان؟ ولماذا خلقنا كي نعاني؟

وكان العقل أيضاً في طليعة السنوات العشر التالية من استقصاء الأديان الأخرى. كما أن الذي جعلني أفتح القرآن أول مرة هو الفضول الفكري، وعندما قرأت في أوائل القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠/٢]. وقعت في الصنارة عقلياً وعاطفياً. فالسؤال الذي كنت أطرحه طوال حياتي أراه أمامي، ولا مفر لي منه. وتحولت

قراءتي للقرآن إلى أكثر من مجرد قراءة أكاديمية، بل كان العقل أساساً في تجربتي هذه. بينما كان القرآن يفكك عناصر مناقشتي ضد وجود القرآن ويلتقطها بالتدريج، كانت الحواجز الكبرى التي أقمتها بيني وبين الله قد أخذت بالانهيار بحيث أصبحت مكشوفة أكثر ومنفتحة على احتمال وجود الله. وكلما طرحت وثيقتي للتساؤل أكثر ازدادت خبرة بوجود رحمة مهيمنة تخترق ما تبقى لدي من مقاومة وتغمرها، وتعيد إحياء نفس ظننت أنني نبذتها منذ سنين خلت. وأخيراً صرخت، وأمسكت بالعقيدة اللامحدودة بإحكام، وتركت الحب ينساب في نفسي أول مرة منذ زمن لا أكاد أذكره.

وهكذا، صحيح أن الذي قادني إلى التسليم ليس العقل وحده، ولكنه كان في صميم العملية. وبهذه الطريقة أرى العلاقة بين الإيمان والعقل. أرى أن العقل منسجم مع الإيمان وفي خدمته. العقل مقوم يساعد في البحث عن الحقيقة؛ وإن ما يساعدنا على تجنب الأخطاء وتصحيحها هو الموهبة التي منحنا الله إياها. أعلم أن هذا الرأي ليس هو الرأي السائد في الغرب، ولكنني كنت متأكداً أنه يسود بين المسلمين.

افترضت، بفضل قراءتي للقرآن، أن المجتمع الذي سادخله سوف يؤكد كثيراً على التحقيق في قضايا الإيمان عقلياً. لم يكن المسلمون الذين التقيتهم حتى ذلك الحين من النيرين لدى بحث الإسلام، إذ إنهم ما زالوا صغاراً ومحدودي التعليم الديني. وكنت متأكداً أنني عندما التقي بمسلمين أكثر تعليماً وثقافة سوف يؤثرون في بمنطقهم وموضوعيتهم وأسلوبهم الفلسفي.

ربما ينظر معتنقو أي دين جديد إلى المجتمعات الجديدة التي يدخلونها نظرة مثالية، ولكن لم يمض وقت طويل حتى تبين لي أنني كنت مخطئاً تماماً. ما من مسلم تحدثت معه منذ اعتناقي للإسلام في المسائل الدينية بصورة جادة - بغض النظر عن مستوى خبرته - إلا وأبدى خوفاً عميقاً من تحليل المفاهيم الإيمانية عقلانياً^(١).

(١) لا بد لي أن أذكر أنني لم ألاحظ هذا التخوف بين المسلمين الشيعة الذين يشكلون ١٥٪ من مسلمي العالم. وعلى الرغم من أنني أنا شخصياً أجد العقيدة السنية أكثر

ليس المسلمون فقط هم الذين يقاومون طرح الآراء الدينية الموطدة للتساؤل - وهذا دافع ديني عام، رغم أنني ظننت بسذاجة غير ذلك - بل يبدو عدم ارتياح محدد مع امتعاض من التأملات العقلية في المقترحات الدينية ذات الصلة. فمجرد ذكر كلمات معينة لها صلة بالنظام العقلي مثل (فلسفة)، أو (عقيدة)، أو (منطق)، أو حتى (عقل) في أثناء مناقشة دينية، يمكن أن تثير قلقاً. وسمعت في كثير من المناسبات أن آراء بعض المفكرين المسلمين المختلفين منبوذة بدعوى أن أصحابها (فلاسفة) أو (مفكرون) وكأن هذه الكلمات ازدرائية ومهينة. وحذرنى أحد المسلمين الأتقياء، مؤخراً، فقال: «يا أخي، إنك تقرأ كتب فلسفة، أليس كذلك ؟ عليك أن تتبعد عنها حقاً».

منذ دخولي الأول إلى المجتمع وجدت أقراني في الدين حذرين جداً من الديالكتيك (الجدل) حتى وإن كان دفاعاً عن الدين. أتذكر المرة الأولى التي حاولت فيها أن أقدم حديثاً من ثلاثة أجزاء في المسجد حول الاعتراضات التي كنت أطرحها عن مفهوم الله والإجابات التي اكتشفتها بفضل قراءتي للقرآن، فقام عدد كبير من الحضور برفع أيديهم بعد أن طرحت اعتراضاتي على وجود الله، وطالبوا بعدم السماح لي بالاستمرار، لأن مجرد التفكير في مثل هذه الأمور حرام في نظرهم. وكثير من المسلمين الشباب الذين كتبوا لي حول شكوكهم اعتذروا عن هذه الشكوك وقالوا : إن وضعها في المقام الأول هو الحرام.

أجريت نقاشاً طويلاً بعد بضع سنين من اعتناقي الإسلام مع أحد الزعماء المحليين حول معاملة النساء في جاليتنا. وعندما بدا له أنني أفضل منه في الحوار صاح فيّ قائلاً : «ليس هناك تحليل منطقي عقلي في الإسلام ! علينا البحث عن ذلك في التفسير». وكأن ذلك التفسير الذي انتهى دون دعم قضية كان الكلمة النهائية في الموضوع.

إن الإصرار على طرح قواعد المجتمع للتساؤل يشير الذعر باستمرار. ولقد

= عقلانية من العقيدة الشيعية (في معظم الأمور التي يختلفون فيها)، فإن المسلمين الشيعة الذين التقيتهم لا يبدو أنهم يثقون بالعقل كالمسلمين السنة. ربما تعود هذه المواقف المختلفة إلى الانشقاق الفكري الذي حل بالإسلام السني وهذا سنبينه فيما بعد.

عبر على شكل بليغ أحد الجراحين من الشرق الأوسط عما يشعر به آخرون كثر، قائلاً : «يا أخي، حسن أن قaddock العقل إلى الإسلام، أما وقد صرت مسلماً فعليك اتباع ما يقوله العلماء». فأجبت له لو كنت سأفعل ذلك لكنت استبدلت شكلاً من أشكال الجهل بشكل آخر، ناهيك عن أنني لو تبينت هذا الموقف من قبل لبقيت مسيحياً من الروم الكاثوليك.

هاتان الحادئتان تمثلان الموقف السائد من استخدام العقل لدى الاقتراب من قضايا الإيمان. يجري المسلمون نقاشات عقلية لمواقف موطدة والواقع أنهم يتفوقون في ذلك. فهم يقتبسون شواهد من القرآن وأدب الحديث وآراء العلماء ومقالات البحث المعاصرة في مختلف العلوم والأنظمة المعرفية، والإحصاء، وأي دليل آخر يشعرون أنه يدعم موقفهم، ويجادلون مستخدمين أساليب الاستقراء والاستنتاج والقياس، والقياس المنطقي وغير ذلك ليبرهنوا على وجهة نظرهم. ولا يغدو أسلوب المناقشة العقلاني غير شرعي إلا إذا ألقى ظلالاً من الشك على فكرة موطدة. فإذا ما بدا أن دليلك وحوارك سيضعف ما هو مألوف عندئذ تكون قد غاليت في استخدام العقل، فضلاً عن أن طرفي النقاش يستخدمان أساليب الحوار نفسها لكنهما يتكرران لها باستمرار : إذ إن الذين يدافعون عن المعتقدات السائدة يصرون غالباً على أنهم متمسكون بالقرآن والسنة وأن معارضتهم تعد إثماً من آثام المنطقية العقلانية.

كثيراً ما ألقى محاضرات عن الأهمية التي يوليها القرآن لاستخدام العقل في السعي إلى الإيمان دون أن أخفق أبداً، ومع ذلك كان الحاضرون من المسلمين يطرحون سؤالاً حول أن يمكن أن نرسم خطأ في استخدامنا العقل. في الأيام الأولى لم أكن أعرف أي خط يتحدثون عنه، لذلك أجبت بأنه ليس هناك خط سوى الخط الفاصل بين التعليل العقلي السليم والتعليل العقلي السقيم. ويأتي الجواب النموذجي عادة على النحو التالي : «حسناً! ماذا لو لم نفهم شيئاً في القرآن مثل، لماذا يجب أن نصلي أو نصوم أو نتجنب الخمر ولحم الخنزير؟» فيكون جوابي المعتاد هو أنه يمكن أن نجد حكمة في ذلك كله، ولكن لا يعني عدم فهم المرء لشيء ما أن هذا الشيء غير صحيح. فكثير من

الناس لا يفهمون حساب التكامل والتفاضل، ولكن ذلك لا يضعف هذا الميدان من الرياضيات. فإذا كان المرء سيكفر بشيء ما لمجرد أنه لا يفهمه فهذا يعني أنه يحاكم الأمور خطأ وبطريقة سيئة. ومن جهة أخرى إذا قام دليل قوي ضد ممارسة إسلامية تقليدية أو معتقد إسلامي مألوف، عندئذ يكون طرحها للتساؤل ممارسة جيدة للعقل. ومع ذلك، فهنا يرسم الكثيرون من المسلمين (خطأ) بين العقل والإيمان : العقل مقبول ما دام أنه لا يتحدى عُرفاً.

فمن أين جاء الشك بالفكر المنطقي العقلاني الذي ساد في مجتمع إيمانيّ يشدد كتابه على استخدام العقل ؟ إن المكان المحتمل للبحث فيه عن جذور مثل هذا القلق الجماعي، الذي لا أساس له في القرآن، هو الصراعات السياسية الدينية التي نشأت في الفترة التوليدية للفكر الإسلامي^(١). من بين الفرق العديدة التي وجدت في القرون الهجرية الأولى فئتان قويتان، تتبنيان مواقف متباينة، هما : «أهل الحديث» الذين عرفوا فيما بعد بـ «أهل الحديث والسنة» أو «أهل السنة والإجماع»^(٢). أما الفئة الأخرى فهي «أهل الكلام» وهم طلائع المعتزلة. إن كلمة (كلام) بالعربية تعني في الأصل (الحديث) ولكنها هنا تحمل دلالة اصطلاحية مثل (الإيمان العقلاني أو الفلسفي أو التأملي). وهكذا فإن تصنيف هؤلاء بأنهم (أهل الكلام) يعني أولئك المنخرطين في هذه الدراسات.

كان الكثير من التأملات العقائدية للمتكلمين الأوائل يعود إلى السياسات

(١) دبليو مونتغمري واط: «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي»، منشورات ونورلد (One world)، روكبورت، ١٩٩٨، ص ٢٧٩-٣١٨ ؛ مونتغمري، «الفلسفة واللاهوت الإسلاميان» مطبعة جامعة أدنبره، ١٩٦٢ ؛ ج. هـ أ. جينبول، «دراسات حول المجتمع الإسلامي في القرن الأول»، مطبعة جامعة إلينوى الجنوبية، إدوار رزفيل، ١٩٨٢ ؛ أ. وولفس (Wolfson)، «فلسفة الكلام»، مطبعة هارفارد، كمبردج / ١٩٧٦ ؛ ج. أربري «الوحي والعقل في الإسلام» جورج ألين وأونوين المحدودة، لندن، ١٩٥٧ ؛ أ. س. تريشون، «اللاهوت الإسلامي»، مطبعة هابريون، ويست بورت، ١٩٨١ ؛ فضل الرحمن «الإسلام»، مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٦.

(٢) يشار إليهم عادة بالمسلمين السنة، إن مصطلح (المجتمع) يعبر عن ذاته، ويمثل المسلمين الذين تعتبرهم هذه المجموعة أنهم لم يتحرفوا عن القرآن وتعاليم النبي.

العملية. فقد برزت في المقدمة أسئلة تتعلق بالإرادة الحرة والقضاء والقدر رداً على حجة الأمويين بأن حكمهم كان قضاء وقدراً إلهياً، مما نشأ عنه أسئلة إضافية أخرى مثل : «هل القرآن كلام الله، مخلوق، أم غير مخلوق؟» لقد أثار الخوارج الذين كانوا يؤكدون أنهم المسلمون الحقيقيون، أسئلة حول العقيدة الصحيحة، والعلاقة بين الإيمان والعمل، وحول إيمان المسلمين الذين يرتكبون الكبائر.

كما أثرت المناظرات الجدلية بين العقائد في الدين الإسلامي. إذ أخضعت الفتوحات الكبرى التي بدأت بعد وفاة النبي بوقت قصير مناطق شاسعة للحكم الإسلامي فكانت وطناً لمجتمعات إسلامية مختلفة ذات تقاليد علمية ومراكز تعليم. لم يكن لدى العرب ميل نحو إجبار الشعوب التي فتحت بلدانها على دخول الإسلام، فانتشر الإسلام ببطء، الأمر الذي أبقى المسلمين أقلية في المناطق المفتوحة. أدى احتكاك المسلمين بغيرهم إلى مناظرات جدلية حرضت على ظهور انعكاسات عقائدية مختلفة. وكانت هذه الحوارات بين الأديان تجري علناً في غالب الأحيان برئاسة مسؤولين كبار في الدولة بمن فيهم الخليفة نفسه.

اندماج أهل الكلام في القرن الثاني الهجري بمذهب آخر عرف باسم «المعتزلة» الذي أسسه واصل بن عطاء أحد تلامذة التابعي الشهير الحسن البصري^(١). كانت غايتهم الأساسية تقديم تحليل عقلائي منطقي للعقيدة الإسلامية عن طريق إيجاد تركيب بين النقطتين : الإيمان والعقل. كان العقل، على أي حال، يشمل العلوم المقبولة في ذلك الزمان.

وأشهرها علوم الإغريق التي ترجمت حينذاك إلى العربية بحثاً من الحكومة. فقاد ذلك المعتزلة إلى إدخال مفهومات غير قرآنية إلى عقيدتهم أخذ معظمها من العلوم والفلسفة الإغريقية^(٢).

(١) دبلو، مونتغمري واط، «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي» منشورات ونورلد، روكبورت، ١٩٩٨، ص ٢٠٩-٢١٧، يتحدى هذه النسبة المقبولة على نطاق واسع.

(٢) للمزيد من الاطلاع على تأثير الفلسفة اليونانية في المعتزلة والدين الإسلامي عموماً، انظر هـ. أ. وولفستون، «فلسفة الكلام»، مطبعة جامعة هارفارد، كامبردج، ١٩٧٦، ص ٦٤-٦٦، ٣٧٣-٣٧٦، ٤١٠-٤٣٣، ٤٦٦-٥١٧.

من الصعب معرفة مدى تأثير علم الكلام. «بالسياسات الداخلية في فجر الإسلام، أو بالحوار بين الأديان، أو بالفكر الهيليني، أو بالمبادئ الفردية». إن قول أهل الكلام بأن الله، العادل، لا يمكن أن يحاسب البشر على أعمال لا سيطرة لهم عليها، الأمر الذي يستبعد القضاء والقدر، ويمكن استخدامه كذلك ضد المفهوم المسيحي المتعلق بالخطيئة الأصلية في الحوارات بين الأديان. وبالمثل، فإن إصرارهم على أن القرآن مخلوق، ليس ناشئاً فقط عن موقفهم من إرادة البشر الحرة، بل برز بوصفه ذا شأن وأهمية في الحوار مع المسيحيين حول المسيح بوصفه كلمة الله. فإذا كان القرآن هو كلمة الله الخالدة أنزلت بهيئة كتاب، يمكن أن يقول المسيحيون إذن: لماذا لا يكون عيسى كلمة الله الخالدة التي أنزلت بهيئة إنسان حقيقي؟

ولتعزيز وحدة الله نفى المعتزلة أن تكون أسماء الله الحسنى كيانات مستقلة، بل جعلوها مساوية لجوهر الله. إذ شعروا أن وجود صفات إلهية خالدة متميزة يعني قبول التعددية في الألوهية. فعندما نقول: «الله الحي، العليم، القوي، الخالد» إنما نؤكد، من وجهة نظر المعتزلة، جوهر الله. ومن ثم فإن موقفهم من الأسماء الحسنى يتمثل في تقليص هذه الصفات إلى مجرد بدائل أو مرادفات للجوهر الإلهي. وهنا، مرة أخرى، يخشى أن تؤدي هذه العقيدة إلى الاختلاط مع عقيدة التثليث المسيحية أو ربما يؤدي القبول بأسماء الله الحسنى إلى قبول صفة الكلام، وفي النهاية القبول بأن القرآن ليس مخلوقاً^(١).

تعد مواقف المعتزلة التي لخصناها أعلاه هرطقة في نظر أهل السنة والجماعة، ومع هذا فقد جاء زمن كان الفكر المعتزلي هو المذهب الرسمي للدولة الإسلامية. هنالك نقص في تحليل ظهور المعتزلة وسقوطها في الكتابات التاريخية، ولكنها توحى لنا ببعض الاحتمالات.

(١) دبلو، مونتغمري واط «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي» منشورات ونورلد، روكبورت، ١٩٩٨، ص ٢٤٦.

كان أهل الكلام إبان العهد الأموي من جماعات الحركات الفكرية المعارضة^(١)، وكان رفضهم وتفنيدهم للقضاء والقدر سبباً في نسف ادعاء النظام الرئيسي بالشرعية، وفي تمهيد الطريق دينياً للثورة العباسية. وربما يكون انتماءهم للعباسيين في أثناء الحكم الأموي، أو شكر العباسيين لهم على ما حققوه لمصلحتهم هو الذي أدى إلى صعودهم في العهد العباسي^(٢). لقد كان العباسيون في الحد الأدنى، متعاطفين مع عقيدتهم. وربما يكون الإعجاب بتفوقهم وبمهارتهم الجدلية التي كانوا يبدونها أمام البلاط في المناظرات الدينية، عاملاً من عوامل ارتقائهم. على أي حال بلغ المعتزلة ذروة نفوذهم السياسي عندما أعلن الخليفة المأمون عام ٨٢٧م = ٢١٣هـ، أن عقيدتهم هي دين الدولة، وأصدر عام ٨٣٣م = ٢١٩هـ، وهو العام الذي توفي فيه، أمراً، أنشأ بموجبه نوعاً من محاكم التفتيش عرفت بـ (المحنة)، واستمرت في عهد المعتصم والوائق حتى السنة الثانية من عهد المتوكل ٨٤٧م = ٢٣٣هـ. إذ طلب خلال هذه المحنة من الفقهاء والبارزين أن يعلنوا على الملأ موافقتهم على مقولة المعتزلة في «خلق القرآن» فسارع البعض إلى الموافقة، واستسلم آخرون تحت ضغط التهديد والتعذيب وبالموت؛ ورفض جماعة وهم قلة، من بينهم الإمام أحمد بن حنبل، فتعرضوا للسجن وعوملوا بقسوة.

يقول نصر حامد أبو زيد: إن المحنة ربما تكون مثلاً آخر من أمثلة وضع الدين في خدمة السياسة.

«هل كان الخليفة العباسي، المأمون، في تصميمه على فرض عقيدة خلق القرآن يصدر عن قناعة فكرية ؟ أم كان يسعى لتعزيز حكمه بإيجاد ذريعة يعاقب بموجبها الحنابلة الذين تمردوا على قادته العسكريين في بغداد من قبل ؟ أصبحت

(١) دراسات حول المجتمع الإسلامي في القرن الأول، تحرير ج. هـ. أ. جينبول، مطبعة جامعة إيلينوا الجنوبية، ١٩٨٢، ص ١٢٣.

(٢) ومع ذلك لم يكن صعودهم السياسي متظماً. إذ كان بعض المعتزلة ضد العباسيين، ووضع الخليفة هارون الرشيد علماء المعتزلة في السجن، ربما لأن هذا المذهب يصعد بسرعة فائقة. انظر تريتون «اللاهوت الإسلامي» مطبعة هايبريون، ويستبورت، ١٩٨١، ص ٦١.

بغداد في ذلك الوقت تحت سيطرة مجموعة من القادة العسكريين الفاسدين الذين يجمعون المال من الأغنياء خصوصاً، بحجة حمايتهم. وتبين سجلات المحاكم الشبيهة بمحاكم التفتيش، التي أقامها المأمون لفرض عقيدة المعتزلة على الناس أن المدعى عليهم كانوا هم أنفسهم العلماء الذين تمردوا على القادة العسكريين في بغداد^(١).

ولدى دراسة مدى المحنة وزمن بقائها يتبين للمأمون وخليفته المباشرين، أهداف أكبر من فرض عقيدة المعتزلة، إنهم كانوا يسعون إلى الحد من انتشار حركة أهل الحديث التي كانت تتعاضم عدداً ونفوذاً بين الناس.

ويمكن لسؤال الأستاذ أبو زيد المتعلق بفرض المأمون للمحنة أن يطرح كذلك بشأن إلغاء المتوكل لها: فهل كانت أسبابه دينية أكثر أو سياسية؟ إن واقعة استغراق المتوكل سنتين إلى أن ألغى المحنة توحى بأنه لم يكن منزعجاً من اضطهاد أهل الحديث وإعدامهم، ولا من عقيدة خلق القرآن. من الصعب كذلك أن تعزى خطوته هذه إلى دوافع تقوى، لما عرف عنه طوال حكمه بأنه «مدمن على الخمر، شبيق، قاسي القلب لا يرحم، أي لا يمكن له أن يكون خليفة الله على الأرض»^(٢).

هذا فضلاً عن أن وضع الخلافة لم يكن مستقراً بما فيه الكفاية فعندما أتى إلى السلطة قام بذلك ليتمكن من قلب السياسة رأساً على عقب بصورة درامية. كان الحكم يتصف بالبيروقراطية المتضخمة، والنفقات الحكومية المسرقة، ونقص العائدات. الأمر الذي أسفر عن اقتصاد مشوّه معطل، كما نشبت ثورات كبرى في مركز الدولة وفي أطرافها في عهدي الواثق والمتوكل. وفي عهد الأخير قامت الحروب على أطراف الدولة في مصر العليا ومصر السفلى وأذربيجان وأرمينية وآسية الصغرى وخرجت عن السيطرة. وفي تلك الأثناء كان على الخلافة أن تواجه تهديداً داخلياً من العسكرية التركية.

(١) الأهرام الأسبوعي، ص ١٢-١٨، ٢٠٠٢م، العدد رقم ٦٠٣.

(٢) محمد بن جرير الطبري «تاريخ الرسل والملوك».

أنشأ المعتصم، والد المتوكل، مدينة سامراء وجعلها عاصمته الجديدة ليتجنب «الصدّامات الدائمة والاحتكاكات بين الجنود الأتراك وأهل بغداد»^(١). لقد ساعدت استراتيجية عزل الجنود الأتراك في سامراء على تعزيز تضامنهم المتزايد وسلطتهم المتعاطمة التي حاول المتوكل بعد تسلمه السلطة أن يكسرها عن طريق عزل المسؤولين، ومصادرة الأملاك، وإعدام الوجهاء والأقوياء. وربما يكون هذا هو الدافع وراء محاولته غير الناجحة لإعادة إقامة عاصمته في دمشق. وأخيراً، أثبت الأتراك قوتهم وذبحوا المتوكل في فناء قصره بالتواطؤ مع ابنه.

هذا ويجب الأخذ بعين الاعتبار عدم الاستقرار والقلق في عهد المتوكل مع كل ما كان عليه أن يقارعه من مصادر عديدة، فإن من الحكمة البالغة أن يقوم المتوكل بحركة سياسية غير مكلفة، وهي قلب سياسة الحكومة رأساً على عقب، إذ أصبحت الحكومة وسياستها غير مرغوبة شعبياً، وعليها أن تصطف مع حركة لها جاذبية جماهيرية، وليس امتعاضها من العسكرية التركية بقليل^(٢). وإن كنا لا نستطيع التأكد من أن إقدام المتوكل على تغيير السياسة بحيث جعل مذهب أهل السنة عملياً هو دين الدولة، كان بدافع التقوى أو نتيجة حسابات سياسية، فإننا نعذر أنفسنا لو نزعنا إلى تبني الاحتمال الأخير. هناك أمر واحد مؤكد، هو : أن إلغاء المتوكل للمحنة لم يكن نزوة، بل كان خطوة أولى من برنامج متعدد الوجوه مدروس بعناية؛ إذ شرع لدى إلغائها بإصدار سياسات مؤيدة للسنة، وأخذ يتابعها بروح عدائية لغيرهم. فبالإضافة إلى استبدال المعتزلة في المناصب وإحلال غيرهم محلهم، وحظر البحث في عقيدتهم، وسجن وتعذيب بعض زعمائهم، ومصادرة أملاكهم، فقد شن حملة عنيفة ضد الشيعة^(٣).

(١) المصدر السابق.

(٢) لقد بلغ الاستياء من المحنة ذروته قبيل اعتلاء المتوكل العرش، عندما جعل خليفته وأخوه، الواثق، الاعتراف بالعقيدة المعتزلية شرطاً لفدية الأسرى المسلمين في أيدي البيزنطيين. المصدر نفسه.

(٣) من بين هذه الإجراءات هدم ضريح الحسين بن علي مع المساكن والقصور المحيطة به.

وأعاد فرض قوانين عنصرية ضد غير المسلمين، كان الدهر قد أكل عليها وشرب^(١).

ومع أن حياة المتوكل انتهت بانقلاب فإن وقوف الخلافة مع أهل الحديث كان، على ما يبدو، حركة سليمة من الناحية السياسية. إذ اتبع الخلفاء اللاحقون السياسة ذاتها ولو بعدوانية أقل، وعلى الرغم من أن السنوات الواقعة بين مقتل المتوكل عام ٢٤٨هـ وتسلم المعتمد سدة الحكم في العام ٢٥٧هـ تعد تجديداً للصراع بين المعتزلة وأهل الحديث، فإن عهد المعتمد شهد استعادة ناجحة

= وأمر بحرث مكان القبر، ويذر به الحبوب وسقايته، وهدد بسجن كل من يزور المكان. ووفقاً لليعقوبي أمر المتوكل بجلب علي بن محمد بن علي رضا بن موسى بن جعفر الإمام الشيعي العاشر، من المدينة إلى بغداد ومن ثم إلى سامراء حيث أخضعه لإقامة جبرية في بيته. وكان سبب استدعائه، كما قال اليعقوبي، هو الدعم الشعبي الذي لقيه الإمام في المدينة لقضيته. المصدر نفسه.

(١) جاء في الطبري: أمر المتوكل بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالة العسليّة والزنانير وركوب السروج بركب الخشب ويتصير كرتين على مؤخر السروج، ويتصير زرين على فلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون، ويتصير رقعتين على ما ظهر من لباس ممالكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره، والأخرى منهما خلف ظهره، وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع، ولونهما عسلياً، ومن لبس منهم عمامة فذلك يكون لونها لون العسلي، ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي، وأمر بأخذ ممالكهم بلبس الزنانير وبمنعهم لبس المناطق، وأمر بهدم بيعهم المحدثّة، وبأخذ العشر من منازلهم، وإن كان الموضع واسعاً صُيّر مسجداً، وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صُيّر قضاء، وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمومة تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين، ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين، ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين، ولا يعلمهم مسلم، ونهى أن يظهروا في شعائنيهم صليباً، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض، لئلا تشبه قبور المسلمين.

وبعد أربع سنوات من فرض هذه الممنوعات، أمر ببعض المحظورات، كان يرغبوا خرقاً صفراء بشابهم الخارجية، وألا يمتطوا سوى البغال والحمير.

لسلطة الخلافة استمرت طوال عهد خليفته^(١). بعد ذلك أخذت الخلافة بالتدهور، ومع توطد مذهب السنة الآن ديناً للدولة، فإن بقية عناصر السكان قبلت بواقعة أن الدولة والمجتمع سنيان جوهرياً^(٢). إن صعود أهل الحديث كان يعني حرمان المعتزلة وممارسة التمييز ضدهم حتى اختفوا تدريجياً^(٣). مما لا شك فيه أن الأمرين اللذين أصدرهما المأمون في جعل الاعتزال دين الدولة وإنشاء محاكم التفتيش (المحنة) قد سرّعا في انهيار المعتزلة. إن الجماهير تنظر عادة إلى الحزب الديني الذي ينتمي إلى النظام على أنه فاسد، واضطهادي، ومنزلق في اضطهاد الحركة الشعبية المقاومة، ويجرد نفسه من المصادقية، ويؤكد موته وزواله بزوال المد السياسي للنظام.

معظم المسلمين في العصر الحديث لا يعرفون إلا القليل عن المعتزلة، لا يعرفون سوى أنهم كانوا هراطقة واختفوا منذ زمن بعيد؛ ولكن أصداء ذلك الصراع المرير من أجل الهيمنة الدينية ما زالت تتردد في المجتمع اليوم في كراهية التقضي العقلي؛ كراهية واسعة الانتشار، خصوصاً عندما تتحدّى الفكر التقليدي أو الممارسات التقليدية. لقد طوى النسيان معظم النقاط التي جرى الجدل حولها، أو فقدت صلتها بالدين، لكن الشك بالعقل ما زال قائماً. ومع ذلك ألا يمكن القول: إن مثل المعتزلة يشهد على المخاطر التي يشكلها العقل على الإيمان؟ ألم يجعلهم العقل ينكرون حقيقة أسماء الله الحسنى، أو يؤكدون أن علم الله محدود بالعموميات؟

(١) دبليو . مونتغمري واط «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي» منشورات ونورلد، روكبورت، ١٩٩٨، ص ٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ٢٥٤.

(٣) كلام Kalaam، بصيغ دافعت عن الأصولية، استمرت في الإسلام السني . دبليو، مونتغمري واط «الفترة التوليدية للفكر الإسلامي»، منشورات، ونورلد، ١٩٩٨، ص ٢٧٩-٣١٨. ل. أورمسي «علم الحكمة الإلهية من وجود الشر في الإسلام» مطبعة جامعة برينستون، ١٩٨٤، ص ١٦٦-٢٠٤؛ «ابن تيمية يشرح الإسلام» جمع وترجمة محمد عبد الحق الأنصاري، جامعة الإمام محمد بن سعود، ٢٠٠٠.

المحاكمة العقلية في القرآن تكشف الزيف وتضيء الحقيقة، في حين يرفض الناس الإيمان لأنهم يفضلون اتباع الظن على استخدام العقل والتفكير^(١)، واتباع الهوى والرغبات^(٢)

= جِيئَا إِلَّا فِي قُرَى مُّحَسَّنَاتٍ أَوْ مِن دَوْلَةٍ جُنُودٌ بِأَسْهُمٍ يَتَّبِعُهُمْ مَّوَدَّةٌ تَغْشِيهِمْ جِيئَا وَقُلُوبُهُمْ شَقَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿الحشر: ١٤/٥٩﴾.

(١) انظر الآيات ﴿وَقُولِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا إِلْيَاقَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧/٤]؛ ﴿وَلَن تُلَاقِيَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِعَيْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَلَن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦/٦]؛ ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسْخًا قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَوْلَا تَتَّبِعْتُمُ إِلَّا الظَّنُّ وَلَن أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦]؛ ﴿وَمَا يَنْبَغِي أَكْذَرُ إِلَّا عَنَّا إِنْ الظَّنُّ لَا يَتَّبِعِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦/١٠]؛ ﴿آلَٰهُمَّ إِنِّي أَنَا الْغَافِلُ وَمَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَبْتَغِي الَّذِينَ يَدْعُونَكَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإَن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦/١٠]؛ ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِن عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠/٤٣]؛ ﴿وَلَا يَدْرِي إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَالسَّاعَةُ لَا تَدْرِي بِمَا تَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا عَنَّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَغْنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢/٤٥]؛ ﴿إِنْ مِنْ إِلَّا أُنمَتْ سَنِينَ مُمِثِّلَاتٍ وَمَا أَكْذَرُ مَا أُنزِلَ اللَّهُ مِنَّا مِن سُلْطَانٍ إِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَمَا تَهْوَى الْأَفْسَافُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِن نَّبِيِّهِمُ الْمُنذِرُ﴾ [النجم: ٢٣/٥٣]؛ ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَكْفُرُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَلَن الظَّنُّ لَا يَتَّبِعِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨/٥٣].

(٢) انظر الآيات ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارًا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١/٢]؛ ﴿وَلَكِن أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ مَآبِقٍ مَا نَتَّبِعُوا فِلْتَاكَ وَمَا أَتَىٰ بِتِلْكَ فِلْتَاهُمْ وَمَا يَعْمَلُهُمْ بِشَاحٍ قُبْلَةَ بَعْنٍ وَلَكِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بِيَدٍ مَا جِئَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَوْنُ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥/٢]؛ ﴿وَلَا تُصَلِّهُمْ وَلَا تَصَلِّ لَهُمْ وَلَا تُمْسِكْ بِآيَاتِنَا أَذَٰلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي تُلَاحِظُونَ فَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَيْءٍ أَشْتَرًا مِّثْلَ مَا تُكْسَبُونَ لَأَسْتَفْتِيَهُمْ وَإِنِّي لَأَكْتُبُ لَآلِئِكُم مِّنَ الْغَنَىٰ﴾ [النساء: ٤/١١٩]؛ ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَصْلَحُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧/٥]؛ ﴿وَمَا لَكُمْ إِنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُخْلِلُوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُتَعَدِّينَ﴾ [الأنعام: ١١٩/٦]؛

أو أنهم ضالون عن جادة السنة النبوية، أو أنهم محكومون من دكتاتوريين طغاة. أنا لا أستبعد هذه الاحتمالات، ولكني أعتقد أن صميم المشكلة هو رفض إعادة تقويم التراث الهائل من العلم والعادات التي وصلت إلينا من أسلافنا، تقويماً نقدياً. أشعر أن المسلمين قد شلّوا أنفسهم فكرياً بجعل الكم الهائل من الفكر الذي ورثوه نوعاً من المعليات الفكرية (المحفوظات الفكرية)، حرماً مقدساً حُجبت فيه الحقائق المزعجة ولا يجوز الاقتراب منه، وأشعر أن الأزمة الكبرى التي تحل بالمسلمين اليوم هي أزمة فكر، أزمة رفض التفكير النقدي فيما يطلبه الإسلام حقاً. إن رفض العقل بسبب التقاليد والأعراف، المخالفة في واقع الأمر للقرآن قد أوهن الأمة وجملدها، وأدى في أمريكا إلى جعل المسلمين المولودين فيها يستبعدون المؤسسات الإسلامية في البلاد لكونها بعيدة عن واقعهم. حثت في كتابي الثاني^(١) مهاجرين مسلمين ومعتنقين جدداً للإسلام أن يعيدوا تقويم الفكر الإسلامي التقليدي والممارسات الإسلامية التقليدية تقويماً نقدياً؛ ولكني كتبت ذلك قبل عشر سنين، وتأكدت الآن، كما ظننت، أن ذلك كان أملاً بعيد المنال. أصبح اليوم من كانوا أطفالاً على أبواب التعقّل أو بلغوا فعلاً سن الرشد، ومعظمهم ينفرون من المسجد؛ إن الأمر لا يحتاج إلى حشد كبير من الأفراد الذين ينصرفون لتغيير مسار التاريخ، فهناك الآن مجموعة صغيرة ولكنها بارزة من النشطاء المسلمين الأمريكيين الشباب المدركين تماماً للمشاكل التي تواجهها هذه الأمة، ويسعون بحماس لإيجاد حلول لها.

توضيحات للصراع

تعدّ الأسئلة والتعليقات التالية التي تلقيتها مؤشراً على الحاجات والتعقيدات الموجودة في الجالية المسلمة الأمريكية. أ طرحها على المألا مناشداً المسلمين كافة أن يجتمعوا على مساعدة بعضهم بعضاً وطمأنة بعضهم بعضاً، خصوصاً أولئك الذين يناضلون للحصول على إجابات وحلول لهموم شخصية واقعية.

(١) (حتى الملائكة تسأل)، منشورات أمانا، بيلتسفيل، ١٩٩٧. ودار الفكر، دمشق،

■ السؤال الأول (من أمريكية اعتنقت الإسلام؛ تتعلق رسالتها بالحجاب)

اعتنقت الإسلام منذ بضع سنين؛ والواقع أنني أجاهد نفسي بسبب الحجاب. إنني أؤمن به، وأرى أن ارتدائه يحرر المرأة المسلمة، ويقوي إيمانها. وأنا معجبة جداً بشجاعة المحجبات. حاولت ارتداء الحجاب سنة، ولكن لسوء الحظ كان مولماً تماماً لي. إذ صرت أتلقى النظرات الغاضبة من الناس، وعاملوني كأجنبية لا تستطيع تكلم الإنكليزية، وواجهتني المضايقات التي كان على أطفالي أن يتحملوها في ذهابهم إلى المدرسة وفي عودتهم منها، والإحساس بأنني فقدت تقدير نفسي، وزيادة وزني، ففاق ذلك كله مقدرتي على التحمل أو التعامل مع مثل هذه المضايقات. تابعت الصلاة والدعاء بأن يمنحني الله القوة، ولكنني صرت أكثر اكتئاباً. وبعد أن أقلعت عن تغطية رأسي تحسنت ثانية، ولكنني أعلم أن ذلك دليل على ضعف إيماني، وفقدت كذلك غالبية صديقاتي في الجالية الإسلامية. إنني أطلب النصيح. فهل تعتقد أن علي ارتداء الحجاب ثانية؟

يبدو من سؤالك أنك لا تسألين عن موازنة النقاشات المختلفة التي دارت بين المسلمين حول لباس المرأة التقليدي، تأييداً ومعارضة. وكان لدى كل طرف وجهة نظر مقبولة، وإذا كنا نعيش في مجتمع مسلم تغدو المسألة قضية مجتمعية تبحث وتناقش علناً، لأن ذلك ربما يؤدي إلى إصدار قوانين تتعلق بالحشمة العامة يطلب من كل امرئ اتباعها. أما في الولايات المتحدة، فهذه المسألة شخصية وخيار للمرأة تواجهه وحدها دونما أي أثر في المجتمع عموماً.

يبدو لي أنك مقتنعة بأن على المرأة المسلمة أن تغطي شعرها، لذلك سأقارب سؤالك من هذه الزاوية. تدل رسالتك على أن ارتداء الحجاب كان صعباً جداً عليك. أنا لست امرأة، ولكنني أتخيل أن ارتداءه في هذه البلاد ليس سهلاً أبداً، خصوصاً للأمريكيات اللواتي اعتنقن الإسلام، لأن رد فعل المجتمع تجاه غير الأمريكية أكثر مرونة من رد فعله على الأمريكية مولداً، خصوصاً بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

على الرغم من أن زوجتي ليست أمريكية، فقد توقفت عن تغطية شعرها إثر تلك الحقبة المرعبة. وذات يوم من عام ١٩٩٢، حشر شخص متعصب ثمل مخبول زوجتي في سيارتها في موقف سيارات تابع لسوبر ماركت بعد مطاردة بالسيارة في شوارع لورنس الشرقية (East Lawrence). صرخ فيها مهدداً، لاعناً، شاتماً إياها بأوصاف عنصرية عرقية، وضرب بعنف سقف سيارتها ونوافذها بقبضته. استمر ذلك بضع دقائق. كان الناس في المنطقة يشاهدون الحدث، ولكن أحداً لم يهب لمساعدتها. جلست خلال الحدث تبكي وتتضرع إلى الله أن يعيدها إلى أولادها وزوجها^(١). كان ذلك الحادث هو القشة الأخيرة في سلسلة طويلة من الأحداث المؤلمة، التي أفضل ألا تتكرر.

لست مرتاحاً لتقديم نصيحة من هذا النوع (فأنا لم أنصح زوجتي أبداً بشأن الطريقة التي تسلكها بحجابها) ولكن إن كان الأمر صعباً ومؤلماً لك جداً فيمكنك ألا تغطي شعرك وأرجني ذلك إلى ما بعد. فيما يتعلق بوضع أقليتكم، هناك عدد من التعليمات الدينية لا يستطيع المسلمون تطبيقها بصورة فعالة في الولايات المتحدة الأمريكية. وبعض السيدات الأمريكيات المسلمات اللاتي يرتدين زياً إسلامياً تقليدياً يؤلمهن ذلك ويضرُّ بدينهن أكثر مما ينفع الدين؛ ويعتمد الأمر في الواقع على الفرد - فإن كنت ترين أن ارتداء الحجاب يشكل عبئاً عليك لا تستطيعين تحمله، فإن ذلك لا يقلل من شأن إسلامك ولا ينقص من دينك ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦]. كثير من المؤمنين والمؤمنات الذين يصرون بعناد تقي ورع على ضرورة تحجب المرأة المسلمة في أمريكا لم يكن لديهم يوماً شجاعة ليفحصوا الدين الذي ولدوا فيه فحصاً نقدياً (ويمحصوا كذلك الإضافات الثقافية التي تتماشى معه) ومن ثم يعلنون على الملأ رفضها

(١) أقترح على النساء المسلمات اللاتي يواجهن موقفاً مشابهاً أن يتوجهن بالسيارة إلى مركز شرطة، أو مركز إطفاء، إن أمكن.

كما فعلت أنت. إن اعتناق دين ما، خصوصاً عندما يكون هذا الدين في مرحلة الأقلية الدنيا، يتخذ شكلاً عميقاً من الإيمان. فيما يتعلق بالصحابي الذي سرب خبراً لقبيلته عن تقدم وشيك للمسلمين، أمر النبي الصحابة الذين أرادوا قتله، أن يتركوه لقبيلته، وقال: «فما يدريكم أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١). فأولئك الذين شاركوا في معركة بدر كانوا يحفظون بأسمى درجات الاحترام، لأنهم اختاروا الإسلام مخاطرين عندما كان المجتمع كله يسير في الاتجاه المعاكس.

لا أعلم إذا كان ما كتبته هنا يساعدك. ربما لا أجيبك بالطريقة التي ترغبين. ولكن نصيحتي لك أن تعملي في جوانب أخرى من دينك حتى تشعرني بما يكفي من القوة كي تعيدي كرة الحجاب.

إضافة إلى هذه النصيحة، ربما تطور بعض النساء والأمريكيات طريقة خاصة بها بفضل تجربة أنماط مختلفة من الحجابات، وطرق متنوعة لارتدائه: هناك أغطية، غير الحجاب التقليدي، قصيرة، وطويلة، مثلثة، ومربعة، ومستطيلة، بلون واحد عليه رسوم جذابة. ففي الصيف يكون الوشاح مريحاً أكثر إذا ما ربط وراء الرأس وثبت بملاقط في مكانه (من النوع النابض وليس من نوع المشابك). فوشاح حديث مع ثوب أو رداء قصير مع بنطال (مثلاً) يمكن أن يجعل المرأة تتطابق مع المشهد النسائي الأمريكي، مع محافظتها على كونها امرأة مسلمة متواضعة ومثقفة.

■ السؤال الثاني (من كاتب يسعى لتنويري في عيوب مختلفة في ديني. إن اتجاه معظم الرسائل التي تلقيتها من غير مسلمين قرؤوا كتيبي أو اطلعوا على محاضراتي اتجاه ودي، ونزعتها تعاطفية أو فضولية تماماً، أو كلتاها معاً. ولكنني أتلقى بين الفينة والأخرى رسالة كالرسالة الآتية. إن النقاشات التي تطرح في مثل هذه المراسلات حول الإسلام تشاهد غالباً في المواقع

(١) يتعلق الحديث بحاطب بن أبي بلتعة. البخاري وأبو داود. وانظر «تاريخ الطبري»

الإنجيلية الإلكترونية، وهي جزء لا يتجزأ من الهجوم الغربي العنيف على الإسلام، ويرد عليها من حين إلى حين علماء مسلمون. وأرى أن هذا النقد القديم يسبب قلقاً للذين يتصفحون (الإنترنت) من مسلمي الجيل الثاني. لقد بحثت بعضها في أمكنة أخرى، ويمكن أن أخاطب بعضها باختصار؛ وأحيل القارئ للاطلاع على ذلك إلى الهوامش، في حين أجيب عن الادعاءات الباقية فيما يأتي):

كان سروري عظيماً حين استمعت إلى محاضرتك مساء أمس في جامعة ولاية كنساس، وتعرفت على حياتك ورحلتك من الإلحاد إلى الإسلام. وحزنت حقاً إذ علمت إدمان والدك على الخمر، مما كان له أثر في حياتك إلى أن وجدت القرآن ذات يوم على مكتبك. ووضحت أنك وجدت إجابات على أسئلتك عندما قرأت القرآن، مثل: «لماذا يسمح الله بهذا القدر من العنف والمعاناة في العالم؟» وذكرت أنك افترضت أن الله أوحى بهذا الكتاب، لأنك استطعت أن تجد فيه إجابات مُقنعة عن اعتراضاتك العقلية، ومن ثم بنيت إيمانك على هذا الافتراض^(١).

هل فكرت في احتمال أن يكون رجل ماهر جداً قد كتب هذه الوثيقة^(٢)؟ أنا متأكد أنك تعلم أن محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب وأنه كان يستخدم ورقة بن نوفل ليكتب الوحي له. ولكن هل تعلم أن الوحي توقف تماماً بعد موت ورقة بن نوفل^(٣)؟

(١) هذا تبسيط مبالغ فيه مفهوم. انظر الفصل الأول، ص ١٦٢-١٦٩.

(٢) انظر الفصل الأول، ص ٤١-٤٥.

(٣) روي أن ورقة بن نوفل توفي في السنة الثانية أو الثالثة من البعثة عندما لم يكن قد أنزل من القرآن سوى قليل من الآيات القصيرة. ويذكر معظم المؤرخين أنه لم يكن قد أنزل من القرآن عندما توفي ابن نوفل سوى الآيات من [١-٦] من سورة العلق ﴿أَفَرَأَى بِإِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَفَرَأَى إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ الْأَكْرَمَ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝﴾. واستمر النبي في تلقي الوحي

أليس عدم كتابة هذه الوثيقة حسب التسلسل التاريخي للآيات أكثر غرابة، وأن السور رتبت حسب الحجم^(١)؟

لقد قرأت القرآن أيضاً، ولكن خلفيتي مختلفة تماماً عن خلفيتك. كان لي أب محب وأم رائعة، الأم تبرز الحقيقة. لم نعان كما عانيت. وكان والدي المجتهد دائم الحضور لخدمتنا. علمنا الخطأ من الصواب، وعلمنا أن نكون خيرين طيبين بكل ما في الكلمة من معنى. أقمت في الشرق الأوسط حوالي ثلثي حياتي، وأعرف عن المسلمين والإسلام أكثر مما ستعرفه بحياتك. ولكن عندما قرأت القرآن وجدته مادياً جداً، ولم أصدق أن الله يأتي بكتاب مليء بالأخطاء في الرياضيات والتاريخ والعلم، وفيما يلي بعض الأمثلة:

١. في قانون الميراث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَزْوَاجِكُمْ لِذَكَرٍ وَمَثَلِ حَظِّ الْأُنثَىَٰيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَرِيَّتُهَا مِمَّا تَرَكْتُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ① ②﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن كُنَّ يَكُنَّ لَكُمْ بَنَاتٌ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِنَّ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَرِيَّتُهُنَّ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكْتُمْ

= حتى قبيل مماته أي إلى ما بعد عشرين سنة من وفاة ابن نوفل. انظر «موسوعة الإسلام» الطبعة الجديدة، المجلد (١١)، أبريل (٢٠٠٠) ص ١٤٢-١٤٣، حيث استشهد بآب جبر الإصابة.

(١) ليس واضحاً كيف يفترضون ذلك برهاناً على خداع القرآن. فالسور تتناقض في طولها بصورة غير منتظمة. وللإطلاع على نظام ترتيب السور انظر (حتى الملائكة تسأل)، منشورات أمانا، بلسفيل (٢٠٠٠)، ص ١٣٩-١٤٣، و (الصراع من أجل الإيمان) منشورات أمانا، بلسفيل (٢٠٠٠)، ص ٦٦-٦٧. وللإطلاع على غياب التسلسل التاريخي في القرآن انظر، (حتى الملائكة تسأل)، بلسفيل (٢٠٠٠)، ص ١٣-١٤، وهذا الكتاب الفصل الأول، السؤال الأول.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوَصَّوْنَ بِهَا أَوْ دِينٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ
 أَمْرًا وَلَهُ أَمٌّ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاجِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ
 ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصَّى بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرِ مَضَاجِرُ
 وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ [النساء: ١١/٤-١٢]، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ
 قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ آمَرْتُ بِهَذَا فَلَيْسَ لَكُمْ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ
 مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ
 وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ نِصْلٌ حِظُّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ
 تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦/٤] عندما يموت رجل تاركاً
 ثلاث بنات، ووالدين، وزوجة، توزع ثروته عليهم: ثلثان للبنات وثلث
 للوالدين، وثلث للزوجة (١/٨)، فيبلغ المجموع (١ ١/٨). (أي أكثر
 من التركة).

٢. استغرق الله في خلق السماوات والأرض ستة أيام ﴿لَكَ رَبُّكُمْ
 اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى الْعَرْشَ
 الْكَبِيرُ حِينَئِذٍ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَالشَّيْءُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَوَّغَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ
 تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤/٧] وثمانية أيام ﴿قُلْ أَتُحِبُّونَ
 لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَتَحْمِلُونَ كُلَّهَا أُنَادَا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾
 وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيَأْكُلُوا
 ﴿١١﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأُنْتِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
 طَائِعِينَ ﴿١٢﴾ فَغَضِبْنَهُنَّ سَبْعَ سَنَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرًا وَزَيَّنَّا
 السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩/٤١-١٢].

٣. اليوم عند الله بألف سنة من سنوات البشر في قوله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ
 بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَئِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾
 [الحج: ٤٧/٢٢] وبخمس مئة ألف سنة في قوله ﴿تَنْجِ الْمَلَكِيَّةَ وَالرُّوحَ إِلَيْهِ
 فِي يَوْمٍ كَانَ يُقَادَرُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤٧/٧٠].

٤. يقول القرآن إن العجل الذي عبده الإسرائيليون قد صنعه
 السامريون في عهد موسى ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الشَّامِرِيُّ
 ﴿١٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَيْنِ أَيْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا

أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْقَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٧﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّارِقُ ﴿طه: ٨٥-٨٧﴾. لم يكن السامريون موجودين حتى (٧٠٠ ق.م) أي بعد بضع مئات من السنين من زمن موسى.

٥. يذكر القرآن أن مريم كانت أخت هارون وأن الإنجيل كان موجوداً في زمن موسى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذْ قَالُوا رَبِّنا آَمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧/٧].

٦. في سورة الملك، ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَاتَّعِجْ الْبَصَرُ مَل تَرَى مِنْ قُطُوبٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ أُنْجِجَ الْبَحْرَ كَذَيْنٍ يَنْفَلِتُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَايِكًا وَمَوْ حَسِيرٌ ﴿١﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَا زُيُوجًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٢٧/٣-٥] وسورة نوح، ﴿أَنْزَلَ تَوْرًا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ٧١/١٥-١٦]، سبع سماوات، والنجوم في السماء الدنيا والقمر وسط السماوات السبع.

٧. في سورة الكهف ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَقَرَّ السَّنَنِ وَبَدَا قَرُوبُ فِي عَرِبٍ حَاسَةٍ وَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتَ مُلْكٌ لَنَا أَنْ نَنْجِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ١٨/٨٦]: الشمس تغرب في حين حمئة.

٨. ويقول القرآن: إن الله خلق من كل شيء زوجين ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ جَوْثِقًا﴾ [الدَّارِيَات: ٤٩/٥١].

إننا نعلم أن ذلك ليس صحيحاً في كثير من المخلوقات كالبكتيريا والفطريات حتى النباتات.

هذه أمثلة قليلة من نصوص كثيرة أخرى وجدت فيها إشكالات. وفيما يلي بعض الأمثلة الأخرى التي أعترض عليها بناء على أسس أخلاقية.

٩. وجدت القرآن يشجع المسلمين على كراهية غيرهم. ولا أعتقد أن الله يريدنا هكذا. في سورة التوبة الآية (١٢٣) يقول القرآن المترجم إلى الإنكليزية: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ وكلمة «قاتلوا» مشتقة من «قتل» التي تعني «اقتل» فهل هذا هو المجتمع الذي تريد العيش فيه؟ لقد ذكرت بالأمس أنك وجدت كلمة «معرفة / علم» تتكرر في القرآن (٨٤٦) مرة. دعني أسالك هل أحصيت كم مرة تتكرر كلمة «اقتل» أو ترجمتها الإنكليزية الأخف وطأة منها (حارب)؟

١٠. تحدثت عن الأهمية التي يوليها القرآن إلى (العقل) و(الاختيار) في النمو الروحي، ولكنني وجدت القرآن في الواقع يفتقر إلى ذلك كثيراً عندما قرأته. يقول في سورة التوبة، الآية (٥) ﴿قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَثُدُّوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَأَقْبِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرَصَدٍ كَانِ تَائِبًا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهنا يقول القرآن للمسلمين: إنكم أحرار في إجبار الآخرين على اعتناق الإسلام بالقوة وبالوحشية فإن لم يقبلوا فاقتلوهم. فأننا لا أرى هنا حرية الاختيار كما تراها أنت.

١١. يعد الله المسلمين الذين يموتون في الجهاد بأن لهم الجنة حيث يمارسون الجنس مع اثنتين وسبعين حورية، ويشربون الخمر، ويأكلون الطعام الشهي، وغير ذلك. أولاً، هل على المسلم أن يتخلص أولاً من زوجته ثم يأخذ اثنتين وسبعين حورية؟ أستغرب إن كان هناك مكان للزوجات الطيبات والأمهات في الجنة. ويقول القرآن ثانياً، إن الخمر من عمل الشيطان، فكيف يقدم الله ما يصنعه الشيطان في الجنة؟

١٢. وأخيراً، دعني أقل: إن القبول بوجود إله واحد بعد فترة طويلة من الإلحاد يحتاج إلى رجل قوي، ولكن: إيجاد الإله الحقيقي يحتاج إلى رجل أقوى. أعلم أنك وطدت لنفسك مكانة مرموقة في المجتمع بوصفك مسلماً غريباً، وأنت ألفت كتاباً في الإسلام، من بين أمور عديدة تصب في مصلحتك. ولكن هل هذا جدير بحياتك الخالدة؟

لأسهل على القارئ الأمر سأذكره بكل ادعاء قبل إعطاء الجواب.

١. قانون الميراث في النساء ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ
 حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً
 فَلَهَا النِّصْفُ وَلِلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ
 يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلأَبِ الثُّلُثُ وَلِلْأُمِّ الشُّدُسُ فَإِنْ كَانَتَا أَخَوْتًا فَتَكُونُ
 وَصِيَّتَيْنِ يَسَافِرُ بَيْنَهُمَا أَوْ دَيْنٌ أَوْ دِينٌ مَّا بَيْنَهُمَا وَتَرَكَتُهُ لَكُمْ تَقَعَا
 قَرْبَعًا مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ
 أَزْوَاجُكُمْ إِنْ كُنَّ يَكُنَّ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا
 تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ الْوَصِيَّتِ يَسَافِرُ بَيْنَهُمَا أَوْ دَيْنٌ وَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ
 إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ
 مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ الْوَصِيَّتِ يَسَافِرُ بَيْنَهُمَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَذَلِكَ أَوْ
 أَمْرًا وَلَهُ أُنْثَى أَوْ أُخْتُ فَلَكَ وَاحِدٌ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ
 ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ الْوَصِيَّتِ يَسَافِرُ بَيْنَهُمَا أَوْ دَيْنٌ غَيْرَ مُضَاعَفٍ
 وَصِيَّتِ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ١١/٤-١٢]، ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ
 يُفَيِّدُكُمْ فِي الْكُلِّ لَعَلَّكُمْ تُفْقَهُونَ﴾ [النساء: ١٧٦/٤]، عندما يموت الرجل تاركاً
 بنتين^(١)، ووالدين، وزوجة، توزع ثروته ٢/٣ للبنات و ١/٣ للوالدين
 و ١/٨ للزوجة، ومجموع هذه الحصص (١/٨) ١١

إن النصوص المقتبسة يمكن أن تكون مركبة لأنها تضع مخططاً موجزاً مكثفاً
 لحالات الميراث، ومن ثم يمكن تفسيرها، بل فسرت، بطرق مختلفة. إن
 المعضلة المذكورة آنفاً موجودة في نصوص كلاسية لا حصر لها في الشريعة
 الإسلامية حيث يقدم حلولاً تفسيرية مختلفة. الآيات تقول:

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ
 فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ

(١) في اعتراض الرجل على المؤلف ورد «ثلاث بنات، وليس بنتين، والنص القرآني يقول
 فوق اثنتين». (المترجم).

مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَتُ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَفٍ وَصِيَّةُ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿النساء : ١١/٤ - ١٢﴾.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرَأَةٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿النساء : ١٧٦/٤﴾.

بالإضافة إلى هذين النصين لدينا مبدأ واحد عريض يعود إلى النبي : «ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»^(١).

يقدم محمد علي في كتابه (دين الإسلام) قاعدة واضحة لحساب حصص الإرث المنسجمة مع الآيات المذكورة أعلاه والحديث ، وتعالج بسهولة كل الحالات التي يمكن أن تنشأ. تفسير محمد علي يقوم على الافتراض الحسن بأن الأمر المتنامي في سورة النساء ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَتُ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلَيْهِمَا حَكِيمًا [النساء: ١١/٤] المتعلق بحصص الأبناء يضع قاعدة عامة تطبق على ما يبقى من أملاك المتوفى من الوالدين، بعد دفع الديون وتنفيذ الوصية^(١). ثم حصص ثابتة للوالدين والزوجين كما هو مقرر في سورة النساء الآيتين [١١-١٢] ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ الْاِثْنَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَلَوْ أَنَّهُمَا ابْنَاهُ فَلِلْأُمِّ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِ يَوْمِي هَٰذَا أَوْ دَيْنٌ أَوْ آثَارُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِ يَوْمِي هَٰذَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِ نُصُوتِ هَٰذَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّاتِ يَوْمِي هَٰذَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَفٍ وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. ثم يبين أنه بموجب هذا الافتراض مع الآيات المذكورة أعلاه والحديث، يمكن معالجة كل الحالات المحتملة بما في ذلك تلك التي حيرت الفقهاء القدامى بأسلوب بسيط عادل. وفي ختام بحثه، يقدم الخلاصة الآتية^(٢):

إن قانون الإرث كما وضعه القرآن، يُختصر على النحو الآتي: «إن بقي شيء بعد دفع الديون وتنفيذ الوصية، تؤخذ أولاً حصص الوالدين والزوج أو الزوجة، وبعد ذلك تذهب بقية التركة إلى الأولاد: للذكر مثل حظ الأنثيين؛ فإن لم يكن أولاد، وكانوا إخوة وأخوات، يعطى السدس للأخ أو الأخت إن كان أي منهما وحيداً، ويعطى الثلث إن كان أكثر من أخ أو أخت، وإذا لم يترك

(١) يسمح للمرء أن يوصي بما يصل إلى الثلث من أملاكه بعد سداد الدين.

(٢) للاطلاع على التفاصيل، انظر، محمد علي «دين الإسلام» أحمدية أنجومان. عشة

إسلام (Ahmadiyya Anjuman Isha'at Islam) لاهور، ١٩٩٠، ص ٥١٨-٥٢٣.

المتوفى أولاداً ولا والدين تذهب الثروة كلها بعد اقتطاع حصة الزوج أو الزوجة إلى الإخوة والأخوات، وإن كانت أخت واحدة أو بنت واحدة تأخذ نصف الثروة، والأخ الوحيد تنطبق عليه القاعدة ذاتها؛ وإن كانتا أختين أو أكثر أو بنتين أو أكثر يأخذن الثلثين، والباقي يذهب إلى أقرب قريب ذكر حسبما ورد في الحديث؛ وإذا كان من يستحق الإرث قد مات وترك وراءه ذرية، فإن ذريته تأخذ مكانه أو مكانها؛ وإن مات الأب أو الأم تأخذ الجدة؛ أو يأخذ الجد مكانه / مكانها؛ أما بقية الإخوة والأخوات، سواء كانوا من ناحية الأم، أم من ناحية الأب، أم من الأم والأب فيعاملون بالتساوي، وإن لم يكن إخوة أو أخوات، فالأقربون بعدهم كالأعمام والعمات يأخذون مكانهم».

فإذا ما طبقنا هذه الخطة على الحالة الواردة في السؤال - فإن من يتوفى تاركاً أبوين، وزوجة، وبنتين، يُعطى الأبوان (بعد سداد الديون وتنفيذ الوصية)^(١) كل منهما السدس، وتعطى الزوجة الثمن، ويعطى ثلثا ما تبقى للبنتين، وثلث ما تبقى يعطى لأقرب قريب من الذكور. إننا نحصل على عدم توافق رياضي في هذه الحالة إذا فرضنا على الأوامر الإلهية تفسيراً يقحم تناقضاً. إن خطة محمد علي ليست هي الخطة الوحيدة المحتملة المنسجمة مع القرآن وتتلافى التناقض الرياضي، بل هناك أيضاً أكثر الخطط استقامة وصراحة إلى جانب كونها عادلة^(٢).

٢. خلق الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى الْعَرْشَ
الْجَبَّارُ يَطْلُبُ حَيْثُكَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرِينَ بِأَمْرِهِ لَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْإِبْدَانُ
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأعراف: ٥٤/٧]﴾ وفي ثمانية أيام ﴿قُلْ أَيْتَكُمْ
لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾
وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِنْ قَوْهَا وَنَزَّلَ فِيهَا قُدْرًا فِيهَا أَقْوَاتًا فَمَنْ أَزْمَعُ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلنَّاسِ بِأَيِّ

(١) إن أقصى ما يستطيع المرء أن يوصي به هو ثلث ثروته، بعد دفع الديون طبعاً.
(٢) محمد علي (دين الإسلام)، أحمدية أنجومان عشت إسلام، لاهور، ١٩٩٠، ص ٥١٩-٥٢٥.

﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُكَّانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ مِائَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحَفَظْنَا ذَلِكَ بِتُقَيْدِ الْغَرِيذِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٤١-١٢].

هذا مثال آخر على اصطناع تناقض عن طريق فرض تفسير غير ضروري على النص. إذ يجب أن يلاحظ أولاً أن كلمة «يوم» التي تترجم عادة إلى كلمة «day» تستخدم بالعربية لتدل على أي فترة زمنية، سواء كانت طويلة جداً (دهر لا نهاية له) أو قصيرة جداً (لحظة): وتطبيقها على اليوم الأرضي المكون من ٢٤ ساعة هو واحد من دلالات الكلمة^(١). ومن ثم، يقرر القرآن مباشرة بعد أن ذكر الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤٣/٤] أن «الجميع سيصعدون إليه في النهاية في يوم (يوم القيامة) الذي مقداره ألف سنة مما تعدون» ﴿يَذُكِّرُ الْأَمْرَ يَوْمَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ بِقُدَارِهِ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥/٣٢] وفي سورة [المعارج ٧٠/٤] يقول القرآن: ﴿تَرْجِعُ الْمَلٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ بِقُدَارِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

وعلياً أن نلاحظ أيضاً أن كلمة «ثم» التي تترجم إلى كلمة (furthermore) يمكن أن تعني «moreover» أو «then». لذلك إذا ترجمناها إلى كلمة (furthermore) أو (moreover)، عندئذ يكون كما شرح موريس بوكاي (Murice) (Bucaille)، الأمر على النحو الآتي: «ربما تكون إشارة بسيطة إلى أحداث متجاورة دون الاهتمام ببيان أن أحد الأحداث يتلو الآخر. على أي حال ربما تكون فترات خلق السماوات متزامنة بسهولة مع فترتي خلق الأرض... إذ لا يبدو أي تناقض بين النص المقتبس هنا ومفهوم تشكل العالم في ست المراحل الموجودة في نصوص أخرى في القرآن»^(٢).

(١) محمد أسد (رسالة القرآن) دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠)، ص ٢١١، حاشية رقم ٤٣.

(٢) موريس بوكاي: «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» سيفرس (Seghers)، باريس،

٣. ﴿وَسَيُجَازِيكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧/٢٢]، وخمسين ألف سنة، في سورة ﴿تَمُوجُ الْمَاجِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤/٧٠].

كما ذكرنا قبل قليل تستخدم كلمة (يوم) بالعربية لتدل على فترة من الزمن، كما تبين الآيتان المذكورتان آنفاً. ولا بد من الملاحظة أن كلاً من هاتين الحالتين تشير إلى حادثة مختلفة^(١).

٤. يقول القرآن : إن السامريين هم الذين صنعوا العجل الذي عبده بنو إسرائيل أيام موسى ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ (٨٥) ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيَسَافاً قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَبْقَوْا لَكُمْ رَبُّكُمْ وَوَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (٨٦) ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ٨٥-٨٧]. إن السامريين لم يوجدوا إلا حوالي (٧٠٠ ق.م) أي بعد زمن موسى ببضع مئات من السنين.

النص المطروح للتساؤل، على النحو الآتي : ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ (٨٥) ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَيَسَافاً قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَبْقَوْا لَكُمْ رَبُّكُمْ وَوَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (٨٦) ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا آوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ٨٥-٨٧].

بصرف النظر عن التماثل الصوتي اللفظي مع كلمة (السامري)، فليس هناك ما يسوغ افتراض أن تكون كلمة (السامري) العربية تشير إلى أحد أعضاء الطائفة

(١) يقول بوكاي في كتابه المذكور: إن هذه التقديرات لا تعني الكم المذكور حرفياً وبدقة، بل إنما هي إشارات إلى أن الزمن عند الله هو غير الزمن الذي نعرفه، ومن ثم عندما يقول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إنما يعني في مرحلتين، الله وحده يعلم كم طولهما من الزمن. (المترجم)

السامرية اليهودية. يعرض المفسرون المسلمون شرحاً مختلفاً. يقول محمد أسد:

«مما لا شك فيه أن كلمة (السامري) هي صفة تدل على نسب الشخص أو أصله. ووفق تفسير الطبري والزمخشري تدل الكلمة على شخص من الطائفة السامرية اليهودية. أي المجموعة العرقية الدينية التي وصفت فيما بعد بالسامريين (الذين ما زال منهم بقية قليلة موجودة في نابلس في فلسطين). وبما أن الطائفة لم تكن موجودة في زمن موسى، فمن المحتمل - كما يقول ابن عباس (الرازي) - أن يكون الشخص المعني واحداً من المصريين الكثيرين الذين اعتنقوا دين موسى والتحقوا ببني إسرائيل لدى خروجهم من مصر: وهكذا فإن صفة (سامري) ربما تكون مرتبطة بالكلمة المصرية القديمة «شيمر» (Shemer) التي تعني: (الغريب / الأجنبي) ويتعزز هذا الظن بإدخاله عبادة العجل التي هي، بلا شك، صدى لعبادة العجل المقدس عند المصريين. على أي حال ليس مستحيلاً أن يكون السامريون هم من نسل هذا الشخص، - أو اشتهروا أنهم من نسله - سواء كانوا من أصل عبري أو مصري؛ وهذا يعلل جزئياً العداء المستحكم بينهم وبين بقية المجتمع الإسرائيلي»^(١).

هذا فضلاً عن أن يوسف علي يضيف، ما يأتي: «إذا لم يقبل رد الكلمة إلى الجذر المصري، فلدينا الجذر العبري، شومر، (Shomer) ويعني «حارس» أو مراقب، أو خفير؛ المماثلة للكلمة العربية، سَمَرَ، يَسْمُر، أي يظل يقظاً في الليل، يتحدث في الليل، والسامر هو الذي يسهر في الليل. والسامري يمكن أن يكون حارساً في الواقع، أو لقباً له»^(٢).

٥. يذكر القرآن أن مريم هي أخت هارون، وأن الإنجيل موجود في زمن موسى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا

(١) محمد أسد، (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠) ص ٤٧٩، حاشية رقم ٧٠.

(٢) عبد الله يوسف علي (معنى القرآن الكريم)، منشورات أمانا، بلتسيفيل (١٩٦٦)، ص ٧٨٢، حاشية رقم ٢٦٠٨.

عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرِفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِيلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأعراف: ١٥٧/٧].

يستشهد المستشرقون كلهم تقريباً بسورة ﴿يَتَأَخَذَ هَنُورًا مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوَوَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْعًا﴾ [مريم: ٢٨/١٩] حيث خاطبها أقرباؤها بـ (يا أخت هارون) بوصفها مفارقة تاريخية فاضحة. إن ازدواجية هذا النقد واضحة لكل من يعرف العهد الجديد حيث ابنة عم مريم الیصابات (الیزابیث) كانت تنادى «يا ابنة هارون»^(١) إن تعابير مثل «يا ابنة...»، «يا أخا...»، «يا أخت...»، «يا عماء...»، «يا عمتاء...»، «يا ولدي / يا بني» تستخدم في الثقافات السامية وبين العرب والمسلمين مجازياً لتدل على الود والاحترام أو الاقتران الأسري أو السلالي. والمسلمون يخاطبون بعضهم بعضاً بـ (أخ) و (أخت). والأصغر عادة يخاطب من أكبر به بـ (عم)، (عمه) ؛ أما ما كان من نسله يشار إليه بـ «ابنة/ ابنها»، «ابنته / ابنتها». وترد عبارات مجازية مثل «ابن آدم» و «ابن داود» و «ابن إسرائيل» في الكتاب المقدس بصورة منتظمة.

فتعبير (يا أخت هارون) في سورة ﴿يَتَأَخَذَ هَنُورًا مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوَوَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْعًا﴾ [مريم: ٢٨/١٩] مناسب تماماً إذا قبلنا أن الیزابیث هي «ابنة هارون» - ابنته بصورة مباشرة. وبما أن مريم في العهد الجديد هي ابنة عم الیزابیث، فتكون مريم «أخت هارون» - ما دامت أنها تنتمي بالدم إلى الشيخ الجليل دون أن تكون ابنته بصورة مباشرة.

لا يأتي القرآن أبداً على ذكر الإنجيل في زمن موسى. فآية ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرِفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِيلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا

التَّوْرَةُ الَّتِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوتِيكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [الأعراف: ١٥٧/٧] تقول : إن أتباع النبي يجدون بشراه في التوراة والإنجيل. ويعتقد الكثيرون من المفسرين المسلمين أن العهد القديم تنبأ بمجيء نبي، مثلاً (سفر التثنية ١٨ : ١٥-١٨) الذي سيكون كموسى، وأن العهد الجديد يتنبأ بمجيء رسول آخر بعد عيسى، مثلاً: (متى : ١٣ : ١٣ ، ٢١ : ٣٣-٤٤ ؛ مرقس، ١٢ : ١-١١ ؛ لوقا، ٢٠ : ١٨-٩ ؛ يوحنا، ١ : ٢٢ ، ١٤ : ١٦ ، ١٤ : ٢٦) كلها تشير إلى مجيء النبي محمد.

٦. وفق سورة الملك ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَاتَّعِجْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۖ ثُمَّ أُنِجْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ [الملك: ١٧/٣-٥] وسورة [نوح] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ بِرَكِيعًا ۚ [نوح: ١٥/٧-١٦]، هناك سبع سماوات، وضعت النجوم في السماء الدنيا، ووضع القمر في السماء الوسطى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَاتَّعِجْ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۖ ثُمَّ أُنِجْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ [الملك: ١٧/٣-٥]. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ بِرَكِيعًا ۚ [نوح: ١٥/٧-١٦].

إن ما يريده السائل ليس واضحاً تماماً، ولكن من تفسيراته للكلمات الجوهريّة، يبدو أنه يشعر أن القرآن يشير إلى أن النجوم هي السماء الأقرب إلينا وأن القمر في سماء أبعد. لم يبين القرآن تماماً ما السماوات السبع أو ما السماء الدنيا، أو ما المصابيح التي يتحدث عنها في سورة [الملك ١٧/٥]، ولذلك يختلف المفسرون المسلمون في هذه المسألة، ومع ذلك يتفق العلماء كلهم على التعريف الآتي: «السماء تعني أساساً كل ما هو فوق، وتستخدم عادة بصيغة الجمع لتصف (أ) السماوات المرئية (وأحياناً السحب)، (ب) والفضاء الكوني

الذي فيه النجوم والمنظومات الشمسية (بما فيها منظومتا) والمجرات السائرة في أفلاكها، (ج) والمفهوم المطلق للقوى الصادرة عن الله (لأن الله بالمعنى المجازي للكلمة هو فوق، كل ما هو موجود)^(١).

ويعتقد غالبية المفسرين أن السماء الدنيا هي الفضاء الكوني الموصوف في (ب) أنفأ، ومن ثم فهو يحوي القمر والشمس والكواكب والنجوم وبقية الكون. فإذا قبلنا هذا التفسير فإنه يقودنا إلى عدم التناقض بين النصوص المقتبسة فيما ذكرنا، ومن ثم فهو مشمول فيها (فيهن - كما، هو موصوف في سورة ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦/٧١].

٧. يقول القرآن في سورة الكهف ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرِبَ الشَّامِيسِ وَبَدَا تَقَرُّبُ فِي عَايِنٍ حُمَاقٍ﴾ [الكهف: ١٨/٨٦]: إن الشمس تغرب في عين حمئة^(٢) ١١

٨. يقول القرآن: إن الله خلق من كل شيء زوجين ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/٤٩]. ونحن نعلم أن هذا ليس صحيحاً في كثير من المخلوقات مثل البكتيريا، والطفيليات، وحتى بعض النباتات. ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩/٥١].

بما أن الآية تقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ خلق الله أزواجاً، أفترض أن هذا يشير إلى الجانب الكوني الشامل من الخلق الذي يتجاوز الأشياء الحية أو ظاهرة التناسل التي يلمح إليها السائل. على ما يبدو. هناك نصوص يعتقد

(١) محمد أسد (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠)، ص ٣٥٦، حاشية رقم ٤.

(٢) انظر الفصل الأول، السؤال الأول للاطلاع على بحثي لهذه الآية ؛ وللإطلاع على تفسيرات أخرى انظر، عبد الله يوسف (معنى القرآن الكريم)، منشورات أمانا، بيلتسفييل (١٩٩٦)، ص ٧٣٢، حاشية رقم ٢٤٣٠؛ محمد علي (القرآن الكريم) مع ترجمة إنكليزية وتعليق، أحمدية أنجومان عشة إسلام (لاهور، ١٩٩٠ الحاشيتان رقم ١٥١٨، ١٥١٩، ص ٥٨٨؛ محمد أسد)، «رسالة القرآن» دار الأندلس، جبل طارق (١٩٨٠)، ص ٤٥٢، حاشية رقم ٨٥.

المفسرون الحديثون أنها تشير إلى تناسل النباتات والحيوانات والبشر^(١)، ولكن التعليقات كلها التي وجدتتها حول الآية ٤٩ من سورة الذاريات، سواء في الماضي أم في الحاضر، تتفق على أن القرآن يلمح هنا إلى «حادثة التناقض الكامل في الخلق كله، فيما هو حي وما هو جامد، هذا التناقض الكامل الذي يعبر عن نفسه بوجود القوى النقيضة والقوى التكميلية»^(٢).

يعرض يوسف علي المشهد العام على النحو الآتي: «كل الأشياء أزواج: الجنس في النبات والحيوان حيث كل فرد يكمل الآخر؛ في قوى الطبيعة اللطيفة، الليل والنهار، والكهرباء السالبة والموجبة، وقوى الجذب والنبذ، وأعداد كثيرة، كل منها تحقق غايتها، وتسهم في عالم الله: وفي العالم الأخلاقي والروحي، الحب والكراهة، الرحمة والقسوة، العدل والظلم، الجهد والراحة، وما إلى ذلك - كلها تقوم بوظائفها وفق فنية الله وغايته الرائعة. لكل شيء نظيره، أو زوجه، أو مكمله. الله وحده هو الواحد، لا شيء مثله، ولا يحتاج إلى ما يكمله»^(٣).

وهكذا تكون الآية ٤٩ من سورة الذاريات متناقضة مع العلم الحديث فقط إذا قبلنا توضيح السائل الخاص.

٩. عندما قرأته وجدته يشجع المسلمين على كراهية غيرهم. فأننا لا اعتقد أن الله يريدنا هكذا. وفي سورة [التوبة ٩/١٢٣] يقول القرآن المترجم إلى الإنكليزية «قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ» وكلمة قاتلوا العربية مشتقة من جذر «قتل» الذي يعني «اقتل». فهل هذا هو المجتمع الذي يريده الله لنا؟ لقد ذكرت مساء أمس أنك وجدت كلمة (معرفة) مكررة في القرآن ٨٤٦ مرة. فدعني أسألك هل أحصيت كم مرة

(١) موريس بوكاي، (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)، سيفهرس (Seghers)، باريس، ١٩٩٧، ص ١٨٨-١٩١، ٢١٠-٢١١.

(٢) محمد أسد، المصدر نفسه، ص ٦٧٦، حاشية رقم ٨.

(٣) عبد الله يوسف علي، المصدر نفسه، ص ١٣٦٣، حاشية (٥٠٢٥).

تكرر كلمة (اقتل) أو مرادفتها الإنكليزية الأخف وطأة منها (حارب) في القرآن؟

كتبت مطولاً في كتابي السابقين عن ألفاظ القرآن في الحرب ما يغطي الهموم المثارة في هذا السؤال والسؤال الذي يليه. ولأنصف هذا الموضوع سأكرر ما كتبته في كتاب (حتى الملائكة تسأل) وكتاب (الصراع من أجل الإيمان)^(١) ولكني سأركز على الشكاوى الميينة في السؤال توخياً للاختصار.

يؤكد السائل أنه عندما قرأ القرآن وجده يشجع المسلمين على كراهية غير المسلمين من الشعوب الأخرى. القرآن يحرم موالة غير المؤمنين ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِطَانَهُ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨/٣]؛ ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوُا فِيهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرَضًا تُشْرُونَ فِيهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَطْعَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَقْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَتَفَقَّهْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا أَنْ نَكْفُرَ﴾ [المنحنة: ٦٠/١-٢]، وخاصة من اليهود والنصارى ﴿يَتَأَهَّلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥/٥] ولكن ليس غير المسلمين ولا اليهود والنصارى كلهم، بل أولئك المعادين الكثيري العداء للمؤمنين^(٢). ومن ثم فإن سورة ﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِطَانَهُ مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨/٣] تطلب من المسلمين ألا يوالوا الكفار من دون المؤمنين^(٣). ومع ذلك يكرر القرآن في السورة نفسها فيما بعد مع وصف الكفار

(١) (الصراع من أجل الإيمان)، (حتى الملائكة تسأل).

(٢) محمد أسد (رسالة القرآن)، ص ٨٥٥، حاشية رقم ٣.

(٣) كان المسلمون في حرب مع كفار مكة عندما أنزلت هذه الآية.

الأمر بتحاسيهم: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّنْ جِهَتِهِمْ رَأَى الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ يُفَكِّدُونَ مِمَّا قَالُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣/٣]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨/٣].

وبالمثل يوجه القرآن المؤمنين في سورة [المائدة ١٥/٥] ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقِلُونَ عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ إلى عدم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ولكن بعد بضع آيات يضيف القرآن هذه المواصفات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَولِيَاءَ وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ تُمِئِينَ﴾ [المائدة: ٥٧/٥].

وأخيراً، فإن الآيتين الأولى والثانية من سورة الممتحنة التي أنزلت في العام الثامن الهجري، قرب نهاية بعثة النبي، تصفان الكفار الذين يجب عدم موالاتهم بأنهم هم أولئك الذين ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَيَتَاكَّبُونَ أَن تَأْمِنُوا بِاللَّهِ رِجْكُمْ﴾ و ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا نَوَ تَكْفُرُونَ﴾ على أي حال، يبين القرآن هنا للمرة الثانية في النص نفسه أنه لا مانع من أن يبرَّ المسلمون غير المسلمين ويقسطوا إليهم: ﴿لَا يَتَّخِذُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَن يَبْرُوهُمْ وَنَقِصُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَكُونُوا لَهُمْ عَدَاوَةً وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُوا لَا تَقَاتِلُوا عَلَيْهِمْ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَرْتَابُونَ﴾ [الممتحنة: ٩-٨/٦٠].

لذلك نرى أن القرآن في كل مرة ينهى المسلمين عن موالاة غير المسلمين يبين بوضوح الأسباب، وأن هذا الخطاب موجه فقط للذين يعادون المسلمين علناً بسبب إيمانهم ودينهم، أما الذين يناهضون العداء، فلا حرج في مصادقتهم.

يستشهد السائل بالآية الآتية ليبين أن القرآن يشجع العدوان على الآخرين

من غير سبب. ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُم مِنَ الْكُفَّارِ وَلَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣/٩].

إن سورة التوبة التي يبدو أنها تتعامل مع قضايا الحرب والسلام تركز تركيزاً خاصاً على معاهدات السلام وكيفية الرد على من يخرقها. كانت القبائل المعادية تعقد دائماً معاهدات تحالف مشترك مع المسلمين، ولكن ما إن تجز أول فرصة لنقضها حتى ينقضوها. وبعد سنوات من الخيانة، أعلن القرآن إلغاء هذه الهدنات مع استثناءين :

الأول، المعاهدات المعقودة مع القبائل التي ظلت ملتزمة بها ويتعهداتها ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤/٩] ، ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧/٩].

الثاني، لجوء كافر إلى المسلمين لحمايته. وعلى المسلمين أن يوصلوه إلى دار الأمان (أي إلى المكان الذي يختاره) دون أي إزعاج أو مضايقة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقَهِ يَأْتِكُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦/٩].

وكل الإشارات المتعلقة بقتال الكفار الواردة في هذه السورة بما فيها الآية (١٢٣) المذكورة آنفاً تسير في هذا السياق.

وصادف أن كلمات (قتال) العربية و (قاتل) قد اقترنت بسلوك المسلمين (٤١) مرة في القرآن وهو عدد ليس كبيراً إذا ما اعتبرنا أن التنزيل يغطي سنوات عديدة من الحروب.

١٠. لقد تحدثت كذلك عن الأهمية التي أولاها القرآن إلى (العقل) و (الاختيار) في النمو الروحي، ولكنني وجدت، في الواقع، افتقاراً كبيراً لكليهما في القرآن عندما قرأته. ففي سورة [التوبة ٥/٩] يقول

القرآن: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَتَدَوَّرُوا
وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ
فَقُلُوا سَيُحْيِيهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٥٠﴾. حيث يتيح القرآن للمسلمين أن
يدخلوا غير المسلمين في الإسلام عنوة وبوحشية، وإن لم يفلحوا في
ذلك فيبحث المسلمين على قتلهم. فلست متأكداً من رؤية الخيار هنا
كما تراه أنت.

هذه الآية يتمسك بها خصوم الإسلام، ممن يرغبون في إثبات أن القرآن
يشجع على العدوان العسكري وأن الإسلام انتشر بالسيف. ولكن بتعزيز هذا
الرأي المجحف، لابد من إسقاط أقوال عديدة تسمح بالقتال بصورة لا لبس
فيها في حالات الدفاع عن النفس وعن الضحايا المضطهدين فقط. ﴿أُوذِيَ الَّذِينَ
يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٦١﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ
حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
وَالَّذِينَ فِيهَا أَلَمٌ لَّا يَعْلَمُونَ مَتَىٰ جُزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ٦٢﴾ وَمَا لَكُم لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالسُّنَنِينَ مِن
الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ لِأَهْلِهَا لِأَجَلْنَا مِن
لَدُنْكَ وَإِنَّا لَآجِلُونَ ٦٣﴾ وَالَّذِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُمُوتُوا أَلَمْ يَكُن لَّهُمْ فِتْنَةٌ ٦٤﴾ وَالَّذِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
يُقَاتِلُونَ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٦٥﴾ وَأَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَاتِلُوا
وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُم وَالَّذِينَ أَقْدَمَ عَلَى الْقَتْلِ لَا تُقَاتِلُوا عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُم
فِيهِ فَإِنْ تَنَلَّوْهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ٦٦﴾ فَإِنْ أَنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٦٧﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٢].
﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ١٩٣﴾. [البقرة: ١٩٣]. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ
بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾. [البقرة: ٢٥٦].
﴿سَتَجِدُونَ الْآخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى
الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَّمْ يَعْزِلُوا فَمِنْهُمْ يُرِيدُونَ الْإِثْمَ وَالسَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَأَقْلَبُوا قُلُوبَهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ٢٥٧﴾. [النساء: ٩١].
﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ عَلَى اللَّهِ عَاهِدٌ أَن يَكُونُوا مُجَنَّبِينَ لِللَّهِ وَلِلْغُلَامِ﴾ [الأنفال: ٦١].

وكما بينا قبل قليل فإن آية ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥/٩] تتعلق بالكفار الذين ينقضون العهد، ويخلون بالتزاماتهم بممارستهم العدوان على المسلمين، كما توضح السورة نفسها في الآيات الآتية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤/٩]. ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧/٩]. ﴿أَلَا تَقْبَلُونَ قَوْمًا نُّكَتْوا آبَتُهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ وَهُمْ بَدُّوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣/٩].

ومع ذلك فإن الاستثناء الوارد في [الآية ٥] من سورة التوبة ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول: إن على المسلمين أن يتركوا المشركين الذين نقضوا المعاهدات، ثم دخلوا الإسلام، يمكن أن تستخدم لترويج فكرة إجبار الناس على اعتناق الإسلام بالقوة، على الأقل في مثل هذه الحالة الخاصة. ومع ذلك تثبت الآية الآتية أن هذا الاستخلاص غير صحيح؛ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّقَ اللَّهَ مَأْمَنَةً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦/٩].

لذلك إذا ما نقض المشركون عهودهم يحاربهم المسلمون ما لم: يعتنقوا الإسلام، أو يلجؤوا إلى المسلمين، وفي هذه الحالة يجب إيصالهم إلى مكان آمن ملائم لهم. فلو كان الإسلام يريد إجبار هؤلاء على دخول الإسلام، لما طرح البديل الثاني. أما البديل الأول فيكرر في هذا السياق مبدأ إسلامياً موطداً، هو «إذا ما اعتنق الإسلام كافر عدو فإنه يغدو عضواً كامل العضوية في

الأمة الإسلامية، ويمنح جميع الحقوق والامتيازات، ولا يخضع للعقاب؛ ومن ثم فإن الآية الآتية تذكر المؤمنين بما يلي: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِذْكُمْ فِي الَّذِينَ نَقَصُوا الْآيَةَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١/٩].

في الظروف العادية يؤدي مجرد اعتراف المرء بالدين إلى قبوله في الأمة الإسلامية، ولكن، هذه النصوص تتعامل مع الذين يخلفون وعودهم باستمرار، لذا فهي تطلب منهم التزاماً أقوى: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

١١. يعد الله الذين يموتون في الجهاد بالجنة حيث يمارسون الجنس مع اثنتين وسبعين حورية، ويشربون الخمر، ويأكلون أشهى الأطعمة، وما إلى ذلك. أولاً، هل على المسلم أن يتخلص أولاً من زوجته ثم يأخذ ٧٢ حورية؟ وأتساءل أحياناً، هل هنا متسع للزوجات الطيبات والأمهات في الجنة. وثانياً، يقول القرآن: إن الخمر من عمل الشيطان، فكيف يقدم الله ما يصنعه الشيطان في الجنة؟

فيما يتعلق بالطبيعة المجازية لتوضيحات القرآن للوقائع والحقائق التي تقع خارج نطاق التجربة البشرية، بما في ذلك الجنة والنار، أحيل القارئ إلى السؤال الثالث من الفصل الأول^(١).

يبدو لي أن مناقشة النصوص المجازية ليست سوى لعبة صبيانية، ولكني أريد تصحيح بعض النقاط توخياً للدقة: لم يذكر القرآن أن الشهيد له ٧٢ حورية - لقد ذكر في حديث في سنن الترمذي وابن ماجه؛ أما القرآن فيقول: إن الخمر في الجنة غير مسكر ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنَزَّفُونَ﴾ [الصفات: ٣٧/٤٧]؛ ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنَزَّفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩/٥٦] ويقول بصراحة مطلقة إن النساء التقيات يدخلن الجنة.

وأخيراً، لا بد لي من ذكر أن هذه النقاشات نفسها التي يحاول السائل استخدامها ضد القرآن، قد استخدمها العلماء الغربيون ضد الكتاب المقدس

(١) انظر كذلك: (حتى الملائكة تسأل).

بقوة، وفاعلية أقوى. وبما أن السائل يؤمن، على ما يبدو، بأن كتابه منزل من عند الله، فهو إما جاهل بهذا العلم، وإما أن معايير التي يستخدمها لتقويم الكتاب المقدس تختلف عن المعايير التي يستخدمها لتقويم القرآن.

■ السؤال الثالث (جزء من حديث مطول مع شابة مهاجرة مسلمة تجاهد من أجل أن تجد سلاماً فكرياً وروحياً في دينها الموروث؛ وهذا الجهاد يعد إحباطاً يتكرر ويعاني منه الشباب الأمريكي المسلم):

ذكرت لك في رسالتي الإلكترونية الأخيرة أنني كلما درست الإسلام أكثر وازدادت معرفتي به، تقلص إحساسي بالارتباط بالله أكثر. أنا متأكدة أن قلبي هذا يبدو لك غريباً لأنك عرفت الله بفضل الإسلام. ولكن الواقع أنني كلما دخلت في المسموحات والمحظورات التي يفرضها ديننا، ازداد بعداً عن الله. فمثلاً، كنت متدينة جداً في صلاتي قبل حوالي أربعة شهور، أؤدي خمس صلوات في اليوم في أوقاتها وكل ما يترتب عليها. ومع ذلك لم أشعر أبداً وأنا أصلي بحضور الله، ولم أشعر بالسلم. فصرت أصلي عساه يهديني إلى الحق ويرشدني إلى صراطه.

وبعد فترة صرت أشعر أن صلاتي عبء علي. أشعر وكأنني أؤديها لأنها هي كذلك، أو لأن الله أمرنا أن نؤديها. أردت أن أنتهي منها. أشعر أن ذلك ليس صحيحاً لي. أليس من المفترض أن تكون الصلاة لحظات هدوء مع الله، حيث نشعر بالارتباط بالله بدلاً من الشعور بالاشتمزاز من الصلاة، وأنها عبء علينا، ومن ثم تزيدنا ابتعاداً عن الله؟ لا أشعر أن عليّ الإحساس بهذه العواطف السلبية في عبادتي له. وبعبارة أخرى، شعرت أنني منافقة أقوم فقط بحركات الصلاة، في حين أنني أشعر بالاشتمزاز من القيام بها.

ثم بدأت أغضب، بالطبع، وشرعت أسأل نفسي: لماذا لا يريدني الله؟ لماذا لا يساعدني؟ لماذا لا يرشدني إلى الحقيقة مع أنني أبذل قصارى جهدي وأنصرح إليه كي يساعدني؟ لقد أسفر هذا الغضب كله والاشتمزاز إلى التوقف عن إقامة الصلاة (منذ ثلاثة أسابيع أو أربعة) وعن دراسة الإسلام.

إضافة إلى هذا أجريت حديثاً مرتين مع إمامي الذي صدّني. أشعر أن كل مسلم يحس بأن هناك مؤامرة على الإسلام وعلى المسلمين كافة في العالم، وأنا نحن الضحية دائماً، ولم تكن أبداً مجرمين. يشعرون أن ما يحل بالإسلام من مصاعب ومتاعب سببه اليهود. وأظنني تعبت من سماع ذلك كله لأننا لا نرغب أبداً أن نعرف أين نخطئ، ولا نقبل أبداً أننا يمكن أن نخطئ.

لا أريد، في الواقع، أن أثقل عليك بالحديث عن ذلك كله، بيد أنه ما زال لدي طاقة كبيرة، وغضب كثير، وصراع بشأن ذلك، مما يجعل هذا الأمر يخرج للتعبير عن ذاته. إنني أسألك يا دكتور لانغ، لماذا لا يهدي الله بعضنا، في حين أننا نريد أن نغدو راشدين برغبة قوية؟ لماذا لا يدخل الله في حياتنا في حين أننا نستسلم له وننصرع إليه كي يدخل قلوبنا؟

﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانٍ نَقْشَعُرٌ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣/٣٩].

من الصعب الإجابة عن سؤال كهذا. فهو يكشف عن مشاعر عميقة بالعجز والمسؤولية. فكيف يمكن تحليل شيء شخصي جداً، وغير ملموس، وباطني؟ الشخصية البشرية بحد ذاتها غامضة لا يسبر لها غور، فما بالك بالطبيعة الإلهية والتواصل فيما بينهما؟ ليست المسألة مسألة تشخيص مشكلة السمنة مثلاً، ووضع برنامج غذائي. فالله لا يخضع لصياغتنا وقواعدنا، بل

نحن الذين نخضع لقوانينه. وبما أنه يكمن وراء السؤال شوق وتوق، فإن جوابي لا يتعدى خيبة الأمل، لأن المشكلة من الجانب البشري عميقة الجذور مما يبعث على أمل العلاج السريع. الروحية متداخلة جداً مع مفاهيم الإنسان عن الحياة، والذات، والله، بحيث تتأثر بالتقاليد والتعاليم التي تعرضنا لها، وبأنماط الحياة التي عشناها، الأمر الذي يستدعي ضرورة إجراء إعادة توجيه. ورغم التنصل من الدين، فإن توسلاً كهذا لا يمكن تجاهله، حتى وإن كان كل ما نستطيع تقديمه هو النصيحة المبنية في الغالب على الخبرة، لأن الله يهدي من يشاء، وأحياناً يفعل ذلك من خلال مصفاة حدودنا وعجزنا.

من المهم محاولة تجنب الغموض في هذا البحث قدر الإمكان لأن خيالنا يمكن أن يصور لنا توقعات عالية جداً، بحيث يغدو ما نصبو إليه نادراً، هذا إذا كان يمكن الحصول عليه أساساً. ومن جهة أخرى، يصعب تحديد الأحداث الباطنية، وهي تختلف اختلافاً واسعاً في النوع والعمق من شخص لآخر. على أي حال، يحب أن نفترض أن الجهد من أجل الروحانية يعد جزءاً من الطبيعة البشرية وكلنا تقريباً قد شعر بأن هذه المقدرة قد أثرت قليلاً، على الأقل في وقت ما، بتحريض ما. فتماماً كما لدينا القدرة على محبة غير الله، فمن المحتمل أن يكون لدينا المقدرة على تحريك روحانيتنا وإثارتها حتى بوسائل غير دينية.

فالمتعبدون الذين شاركهم مواجهاتهم الروحانية في الصلاة يختلفون في أوصافهم. إن شروحهم كما هو متوقع تضرب جذورها على ما يبدو في خلفياتهم الدينية أو ثقافاتهم. كلهم يذكرون إحساسات روحية أو جسدية متميزة، ولكن بكلمات مختلفة. يذكر بعضهم نوعاً من الشعور كأن السماوات المطبقة تهبط عليهم، وآخرون يشعرون كأن الملائكة تنزل عليهم، وفريق يشعر وكأنه اغتسل بنور خفي، وقسم يشعر بالدفء يشع من داخله. وأفراد يشعرون كأنهم غمروا برحمة الله أو حبه، أو أن حب الله أو رحمته رفعهم إلى السماء. ويصف بعضهم أنهم أدركوا وجود شيء غير ملموس. ومن الأوصاف الشائعة

أن المرء يحس ببرودة تجتاح بدنه، وبعضهم يرتجف بغير إرادته، ويشعر آخر بالقشعريرة تسري في جلده. ويختلف طول لحظات الإحساس هذه، فبعضها يدوم ثواني، وبعضها يدوم طوال الصلاة، وبعضها إلى ما بعد ذلك، ولكن أغلبها يدوم فترات قصيرة، كما تتراوح شدة ذلك الشعور ضعفاً وقوة. وغالبية الذين تحدثت معهم أفادوا بأن هذه اللحظات لا تتكرر كثيراً. وكثيرون قالوا : إنها نادرة. ولا بد من ملاحظة أن معظم الذين قابلتهم بشأن صلواتهم أفادوا بأنهم لم يشعروا بأي شعور من هذا القبيل، رغم أن كثيرين منهم أتقياء. وعندما سألت أولئك الذين تذكروا لحظات روحية في أثناء الصلاة إن كانوا يشعرون بمثلها خارج الصلاة والعبادة، اعترف الكثيرون أنهم يشعرون بمثل هذه الحالات في مناسبات نادرة، ويكون ذلك على الأغلب عندما يسمعون، أو يشاهدون شيئاً مثيراً أو جميلاً كأغنية موحية، أو كلام أو شعر مؤثر، أو مشهد طبيعي مثير. يقول معظمهم: إن هناك فرقاً بين هذه المشاعر التي تحصل في أثناء الصلاة وتلك التي تحصل خارج تأدية العبادة، بأن الأولى تحدث فجأة دون توقع ومن دون حافز إيحائي مُدرك، ويقول الكثيرون ممن يحصل لديهم مثل هذا الشعور : إنهم يغرقون في مشاعر الخجل أو الندم. يمكنني المجازفة بالقول، انطلاقاً من هذه التحقيقات غير الرسمية، والمجازفة بالحط من قدر التجارب الباطنية: إن هذه التجارب تشبه لحظات الخشية الفائقة التي تجتاح الناس عموماً عندما يتأثرون بعمق، كالأمريكيين عندما يسمعون النشيد الوطني أو يحضرون خطاباً مثيراً يروج لمثاليات، كالحرية العامة والأخوة والعدالة؛ أما الفرق الكبير الذي أستطيع إدراكه - على الأقل استنتاجاً مما قيل لي - هو أن التجارب الروحية تدوم، على ما يبدو، أكثر وشدتها أعظم من لحظات الإثارة غير الدينية ؛ وأنها تحدث دون توقع، وغالباً ما تحصل عندما يشعر المتعبد بتواضع وخشوع عميقين أمام الله، وبندم عظيم، وامتنان كبير لله وحب بالغ. وأرى شخصياً أن (الإحساس الروحي) الذي يبتاعنا لدى سماعنا أغنية مؤثرة أو خطاباً مُلتهباً هو نفسه الشعور الذي يوصل الله به رحمته إلينا في أثناء التعبد، ولكن الله خير العارفين.

وكما ذكرنا في الفصل الأول، تسير الروحانية والنمو معاً. فكلما ازداد نمونا في الخصال والصفات الصادرة عن الله، ازدادت مقدرتنا على تلقي أسمائه الحسنى والإحساس بها، سواء في أثناء التعبد أم خارجه، وفي هذه الحياة وفي الحياة الآخرة. فالعبادة في الإسلام شمولية، والتسليم الذاتي لله يتجلى أكثر بسلوكنا اليومي تجاه الآخرين أكثر مما يتجلى بالشعائر الدينية. وتؤكد سورة الماعون هذه النقطة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِّ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ أَلَيْسَ ۚ وَلَا يُحْضِرُ عَلَىٰ طَعَامٍ الْيَسْكِينِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاكُونَ ۚ وَيَسْمَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١/١٠٧-٧].

وهذا يعلل تلازم الصلاة^(١) والزكاة^(٢) في القرآن، لأن الإيمان والصدقات يعزز بعضها بعضاً ويغنيه^(٣).

- (١) تقام الصلاة في الإسلام خمس مرات يومياً. تتألف من أوضاع موصوفة، وتلاوة من القرآن مع أدعية شخصية. إنها الركن الثاني للإسلام.
- (٢) الزكاة السنوية في الإسلام هي ٢,٥٪ من رأس مال الفرد الذي يحول عليه الحول. إنها الركن الثالث للإسلام.

(٣) انظر على سبيل المثال الآيات التالية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣/٢]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَاتُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قُرْبَانًا كُفًّا ۚ وَاسْمِعُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣/٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٧/٢]، ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥/٤]، ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّيْتُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُعْطِيَنَّكُم مَّا تَدْعُونَ ۚ فَمَن تَجَاسَّيْتُ تَجَاسَّىٰ مِن تَحْتِهَا أَلَا نَهْتَدُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢/٥]، ﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨/٩]، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

يقوم بأكثر مما هو مطلوب، كما ينمي الرياضيون والطلبة بصورة نموذجية الحاجة إلى «رفع مستوى» أدائهم.

ومع ذلك، لا يطلب الله الكمال قبل التشرب بمحبة الله. والواقع أن القرآن يقول : إن ما من أحد منا ينبغي أن يكون نقياً تماماً ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٥٣/٣٢] حتى ليذكر باستمرار أن في الأنبياء، المختارين من الله، نقاط ضعف ومواطن إخفاق.

ومع ذلك فهناك صفة واحدة تلين القلب بوجه خاص لتلقي نور الله، وخلافها يؤدي إلى قسوة القلب ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١/٢٣-٢٤]. ورغم أن التواضع والخشوع يتعارضان مع الثقافة الأمريكية الحالية، فإنهما رمز المسلم وسجيته المناسبة^(١)؛ ذلك لأنهما تميزان

(١) انظر الآيات التالية : ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥/٢] ؛ ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦/٤] ؛ ﴿يُنَادِي السَّمَاءُ مَانُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمَوْتِ أَمِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥/٥٤] ؛ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ لَتُخْلِفَنَّهُم بِالْأَسْلَافِ وَالْغُلَاةِ لَتُخْلِفَنَّهُمْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ لَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَطَّ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢/٦-٤٣] ؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالْغَنَاتِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: ٢٣/١١] ؛ ﴿وَلَا تَنسَ فِي الْأَرْضِ مَرَمًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَكِن تَبْلُغُ لِبَآلِ لَوْلَا﴾ [الإسراء: ٣٧/١٧] ؛ ﴿وَلَوْ قُلْنَا لِلنَّاسِ أَنْعِبُوا لِأَدَمَ فَسَبَّحُوا إِلَّا بِلَيْسَ أَنِ اسْتَغْبَرُوا فَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ أَنَّكَ اسْتَكْبَرْتَ أَتَىٰكَ اللَّهُ وَوَضَعَكَ الْمِيزَةَ وَلَا وَهْنًا وَعَدَا حَيْثُ شِئْنَا وَلَا نَفَرَ هَٰذِهِ الشَّجَرَةُ فَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٤-٣٥] ؛ ﴿وَلَوْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِيهِ يُقِيمُوا إِلَهُكُمْ فَلَمْ يَكُنْ أَنْفُسَكُمْ يَخَافُوا فَعُوقُوا إِنْ بَارَيْكُمْ فَاغْلُظُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤/٢] ؛ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٢٢] ؛ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَارُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا

وقفنا الحقيقية أمام الله، والحقيقة أمر حاسم في الحب الحقيقي في أي علاقة، وخصوصاً في علاقتنا مع الله، منبع الحقيقة ومصدرها.

سمعت بمعتنقين للإسلام قلبوا حياتهم كلياً، وتخلصوا من كل مساوئهم السابقة منذ أن نطقوا الشهادة. ولسوء الحظ لم أكن أنا مثلاً موحياً. إذ كنت في بعض الأوقات أخوض صراعاً صعباً لإصلاح نفسي. وجاهدت جهاداً مريراً في تلك الفترة التي تلت اعتناقي للإسلام ضد عادات سيئة كانت متأصلة في، وعانيت من نكسات لدرجة أن صلواتي الخمس اليومية كانت مبللة بدموعي ومشفوعة بتضرعاتي إلى الله كي يساعدني. وعرفت بكل ذرة من كياني حقيقة ضعفي واعتمادي الكامل على رحمة الله. ومع ذلك، في هذه الحالة من إدراك ضعفي الكلي خبرت أكثر صلواتي إثارة لمشاعري وشوقي لله. لا أعلم لماذا من الله علي بتلك اللحظات الروحية الشديدة، ولكنني أعلم أنني صليت بكل خشوع وندم، ورغم أن تلاوتي للقرآن كانت قصيرة وغير دقيقة إلا أنني قضيت وقتاً طويلاً في الصلاة أفرغ قلبي ندماً وتوبة.

ومرت فترات مطولة لم أشعر فيها بقرب من الله، ف وقعت عندما شعرت بذلك أول مرة، في حالة من الفزع طال أمدها.

لماذا انسحب الله مني؟ هكذا تساءلت. تضرعت إليه ليجعلني أشعر بعناق رحمته ثانية، ليجعلني أدرك الطمأنينة والجمال اللذين كانا يأتيان إلي على السجدة. ولكن برغم توسلي الملح ظلت صلواتي غريبة يصعب وصفها.

= يَنْصَرِّفُونَ [المؤمنون: ٧٦/٢٣]؛ ﴿وَلَا تُصَيِّرْ خَلْقَهُ لِلنَّاسِ فِي الْأَرْضِ مَرْغَبًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨/٣١]؛ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِطِينَ وَالْقَانِطَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالسَّابِقِينَ وَالسَّابِقَاتِ وَتُجْرِبُهُمُ الْفِتْنَاتِ وَاللَّذِينَ آمَنُوا الْأَوَّلَ وَاللَّذِينَ آمَنُوا الْآخِرَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥/٣٣]؛ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ أَكْثَرُ الْأَمَنَةِ﴾ [الحديد: ١٦/٥٧]؛ ﴿لَا يَكُنْ لَّكَ دُونُ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا نَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٣/٥٧].

ورغم أنني عانيت من فترة قنوط، فقد وجدت في النهاية عزاء لعدد من الاعتبارات. أولها طمأنة الله للمؤمنين في القرآن أنه قريب دائماً، ويجب دعوة الداعي إذا دعاه، وإن كنا غافلين عن ذلك في كثير من الأحيان. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦/٢].

أما الاعتبار الثاني فكان عندما لم أكن أشعر بالخشوع الذي كنت أتوقعه في صلواتي ؛ إذ كنت أكتسب الكثير منها. لقد أصبح مجرد نظام الصلوات الخمس اليومية في أوقات محددة مصدر قوة خلال فترة كنت فيها تحت تأثير ضغط هائل بسبب اختياري الإسلام. وغدت الصلوات كذلك رياضة روحية، وفرصة لأخرج نفسي بضع دقائق من الفوضى والتوتر الناجم عن متابعة الأمور الدنيوية الزائلة كي أعيد توجيه نفسي وأذكرها بغاية الحياة الحقيقية.

ثم هناك آية في سورة الكهف تخاطب النبي وتخبره بأن الوحي لا يأتي برغبة النبي، بل بإرادة الله. ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِن هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٨/٢٣-٢٤] (١).

مما تعلمته من هذه الآية أنه ما دام وحي الله والصلاة لمصلحتنا فعلينا بالتأكيد، أن نتذكر أن من غاياتهما الأساسية التسليم لله، وأن الله ليس في خدمتنا وتحت تصرفنا، بل نحن في خدمته وتحت تصرفه. وهذا غير رأبي في الصلاة. إذ أدركت أن الاعتقاد بأن الصلاة وسيلة للحصول على طمأنينة الله والخشوع يعني أن الله هو الذي في خدمتنا ومن ثم ننسف وظيفة الصلاة الأساسية.

وأخيراً، هناك توقف الوحي المشهور، إذ بعد تنزل الآيات الخمس الأولى من سورة العلق - مرّ زمن لم يتلق فيه النبي وحياً أبداً. لا يمكن تحديد طول التوقف بالضبط، ولكن يُقدر ما بين ستة شهور وثلاث سنوات. وكانت فترة حزن

(١) قيل إن النبي قال لأحد المستهزئين به: إنه سوف يتلقى وحياً حول أسئلتهم في اليوم التالي.

عميق للنبي. وكثيراً ما كنت أفكر لماذا قطع الله الوحي، خصوصاً وأن هذا الانقطاع وَلَدَ قلقاً شديداً عند النبي وشكاً في نفسه. لم أجد تفسيراً لذلك، لا في الحديث، ولا في السيرة، ولا في التفسير. على أي حال، شعرت أنه إذا كان الله في حكمته جعل الرسول يعاني فترة طويلة من القلق والعزلة، فمن أنا حتى أصاب بالذعر من فترات لا تلحظ صلواتي؟! لا بد لي، بالطبع، من فحص نفسي لأحدد فيما إذا كنت قد فقدت التركيز والهدف في صلاتي، أو إذا كنت قد ارتكبت خطأ في المرة الأخيرة، أو كنت قد تراجعت في إيماني، وكنت أحياناً أشعر بأن إيماني تراجع فعلاً، فأحاول تقويم نفسي، ولكنني أعتقد أحياناً أن الله يتركني وشأني.

لذلك صممت أن أستمّر في أداء الشعائر الإسلامية شاكراً، وجاهداً في تحسين نفسي، واستخلاص المنافع الإلهية العديدة الناجمة عن أدائها، وأترك مسألة اللقاءات الروحية بيد الله صاحب الشأن وحده. وقلت لنفسي: حتى لو لم أتمتع بعد بلقاء روعي طوال حياتي، فسأكون شاكراً لما من الله علي به من أشياء أخرى.

وبعد ذلك، وقبل مضي وقت طويل، بدأت أشعر بأن الله أخذ يحيطني برحمته، أحياناً في الصلاة، وأحياناً في التأمل، حتى وأنا بصحبة آخرين أحياناً. ومع ذلك، فإن أكثر خبراتي الروحية كثافة وشدة هي تلك التي تعود إلى المرحلة الأولى من اعتناقي للإسلام. أعلم أنه من السخف محاولة شرح ذلك، ولكنني أعتقد حقاً ما كنت لأصل إليها من دون ذلك، فعلى الرغم من قناعاتي بأن القرآن منزل من عند الله عن طريق الوحي، وقناعاتي وإيماني بنبوة محمد، فإن ذلك الإيمان كان يمكن أن يتراجع لولا عون الله. إذ بلغ الأمر بي أن لم أعد أشك في الإسلام فحسب، بل صرت أشك في نفسي أيضاً. فلم أكن أصدق أن بإمكانني التغلب على ارتكاب الأخطاء والآثام التي ألفتها، وشعرت في كثير من الأحيان أن عليّ الهروب من المجتمع بدلاً من البقاء فيه مناقفاً، إلا أن لحظات الرحمة الإلهية هذه ألهمتني الصبر. وبعبارة أخرى، أشعر أن لحظات العطف الإلهي تلك لها علاقة برحمة الله ويضعفي أكثر من أي شيء آخر. أكتب ذلك

لأنني لا أريد للقراء أن يئسوا من رحمة الله إذا لم يحفظوا بلحظات روحية في صلاتهم، كما حصل للسيدة المذكورة. لأن ذلك لا يعني أبداً أنهم خسروا رعاية الله وعطفه. أعرف أتقياء كثيرين لم يحفظوا بحياتهم، أو نادراً ما كانوا يحفظون، يمثل هذه الفترات الروحية، ولكنهم ينعمون بسعادة هائلة وسلام داخلي - وهي حالة من الرخاء الداخلي الذي أخذ ينمو بالتدريج دون أن يدركوا ذلك، على مر السنين - بفضل الالتزام الثابت بالإسلام. ويقولني هذا أحاول أن أقدم نصيحة عملية للمسلمين الأمريكيين الشباب الذين أحبطوا في صلواتهم.

بدأت ابنتي الكبرى - وهي الآن في السابعة عشرة من عمرها - تشكو منذ سنوات من خبرتها في الصلاة، وترى أنها جافة جداً ولا معنى لها. وأخيراً تركت الصلاة كلياً، ولم تعد إليها رغم حثنا لها. وبعدما تباحت معها في الأمر، قدمت في النهاية بعض الاقتراحات. قالت لي : إنه ليس لديها فكرة عما تتلوه بالعربية من القرآن، وأنها تشعر وكأنها مثل الببغاء تردد شيئاً بلا فهم، الأمر الذي جعل الشعائر الدينية في نظرها قاحلة جديداً تماماً. اقترحت عليها أن تصلي بالإنكليزية، حتى تلاوة الآيات القرآنية، لفترة من الزمن، وترى إن حصل أي فرق. ونصحت لها أن تتعلم، في هذه الأثناء، معنى ما تقرأه من آيات عربية، ومن الأفضل أن تتعلم المعنى كلمة كلمة، وأني وزوجتي سوف نساعدنا في ذلك بحيث تتمكن فيما بعد من انسجامها في صلاتها مع الفهم الحقيقي لها. وشاركتها في أن أتلو الآيات عندما أصلي وحدي بالعربية وأتبعها بترجمتي الخاصة بالإنكليزية، وأن تعمل هي مثلي في يوم من الأيام.

وقالت لي : إنها تجد من المستحيل التقيد بخمس صلوات في اليوم، وتملك قوة الإرادة اللازمة لذلك. فقلت : إن البدء بأداء خمس صلوات باليوم ربما يكون كثيراً عليها، ومثلها في ذلك كمثل من أراد أن يحافظ على لياقة جسمه بأن يركض عشرة أميال يومياً، ولكنه توقف بعد اليوم الأول لأنه اختنق وتعب نفسه. فاقترحت على ابنتي أن تبدأ بنظام مريح مثل أداء صلاة المغرب كل يوم، أو ربما صلاة العصر والمغرب، ونصحتها أن تواظب على ذلك، ثم ترفع المستوى عندما تشعر أنها جاهزة لذلك.

وقلت لها : إن بعض الناس يحبطون في تعبدهم بسبب آثامهم ، إما بسبب أمور ارتكبوها في الماضي ولا يستطيعون نسيانها أو بسبب أمور يرتكبوها الآن ولا يستطيعون التغلب عليها. قلت لها في مثل هذه الحالة عليهم أن يخبروا الله بها في صلواتهم ويطلبوا مساعدته وعفوه ، والأهم من ذلك كله أن يشقوا تماماً بأن الله سيساعدهم إن كانوا مخلصين في تضرعهم إليه.

نصحتها أن يكون معظم صلاتها فرصة للتعبير عن نفسها أمام الله ؛ وتخبره بمخاوفها ، وآمالها ، ومشاكلها ، وأن تطلب منه العون والهداية ؛ وأن تصلي وتدعو من قلبها. خطر لي أنه ربما لهذا السبب تعد الصلاة رتيبة ولا معنى لها ، لأننا نميل إلى جعلها كذلك لكوننا شكلين جداً.

إنني أنصح أبنائي كلهم أن يكلموا الله من قلوبهم حتى ولو بكلمات قليلة في كل صلاة.

واكتشفت كذلك أنها تخاف الله خوفاً مرعباً يشلها عن العمل ، كانت قد تشربته من الجالية الإسلامية عندما كانت صغيرة في طور النمو ، وحول صلاتها إلى مجرد وقفة أمام من تراه إلهاً مخيفاً مرعباً. فطلبت إليها أن تعيد توجيه تفكيرها بشأن الله ؛ وأن تذكر نفسها بآيات القرآن الكثيرة ، وأحاديث النبي التي تؤكد أن الله غفور رحيم ، وأنه لا يطلب الكمال منا. وذكرتها أن القرآن أنزل على شعب كانت أكثريته تحارب الحقيقة ، ولذلك حذرهم وهددهم ، ولكنه يطمئن المؤمنين بالله والذين يجاهدون في سبيله. وقلت لها : إننا جميعاً نخطئ ونخفق ، وإنها فتاة طيبة ، وإن الله يقول في القرآن : إن الأشرار فقط هم الذين يعذبون في الآخرة.

أدركت بالطبع أن نصيحتي لابنتي لن تكون شفاء تاماً للشباب الذين لا يقيمون الصلاة ، وأنا لا أقدم هذه النصيحة على أنها الوحيدة. بل كلي أمل في أن تشجع الآخرين على التفكير بصورة إبداعية ، بطرق لمواجهة مثل هذه المشاكل. أما ابنتي فتركتهما وشأنها مدة من الزمن. ولم أراقب مدى تقدمها ، إذ شعرت أنه من المهم عودتها هي إلى صلاتها بمبادرة منها من أجل علاقتها بالله ، بدلاً من أن تكون عودتها من العلاقة معي. وبعد شهر وجدتها تصلي عندما دخلت لأقبلها قبلة ما قبل النوم. فسألت زوجتي عنها فقالت : إنها تصلي بانتظام. وبعد

شهر آخر قالت لي زوجتي : إنها تقيم الصلوات الخمس يومياً. وبعد بضعة أسابيع سألتها عندما كنت أجلس وإياها وحيدتين ذات مساء إن كانت قد جنت شيئاً من صلاتها فقالت : إنها جنت خيراً. لا أظن أن نصيحتي لعبت دوراً أساسياً في عودتها إلى الصلاة - إذ يدلني حدسي أن ذلك الأمر شخصي جداً بينها وبين الله - والله أعلم.

■ السؤال الرابع (من شاب في منتصف الثلاثينات من عمره، ويتعلق السؤال بالآية ٣٤ من سورة النساء بشأن ضرب الزوجة. معظم الذين يتصلون بي لبحث الدين هم من المسلمين الأمريكيين من أبناء الجيل الثاني أو المسلمين الجدد، ولكنني أتلقي رسائل إلكترونية، أيضاً من أمريكيين غير مسلمين مهتمين بالإسلام. والقضية الكبرى لدى هؤلاء، بغض النظر عن جنسهم ذكوراً أو إناثاً، هي وضعية المرأة في المجتمع الإسلامي. وأكثر موضوع يطفو على السطح في هذا المجال هو، ضرب الزوجة، وهو أكثر المواضيع سخونة في الإنترنت).

ما زلت أفكر في اعتناق الإسلام، ولكنني لا أستطيع تجاوز بعض القضايا. معظم مشكلاتي تتعلق بمعاملة المرأة. وفي رأس القائمة الآية ٣٤ من سورة النساء التي تأمر الأزواج أن يضربوا زوجاتهم العاصيات. أنا أسف، ولكن أن تضرب زوجتك لمجرد أنها لا تستجيب لأوامرك - بصرف النظر عن مدى معقولة هذه الأوامر - يعد خطأ فادحاً. إنني مهتم بمعرفة موقفك من هذه المسألة.

■ السؤال الخامس (هذا السؤال أيضاً حول ضرب الزوجة، طرحه أحد المسلمين الجدد في أواخر العشرينات من عمره) :

كنت أبحث في الإنترنت، ذات يوم، عن معلومات حول وضعية المرأة في الإسلام. تقدم المواقع غير الإسلامية التي تقتبس من مصادر إسلامية صورة مروعة، وكذلك بعض المواقع الإسلامية الأكثر تحفظاً.

فلاحظت أن معظم صفحات المواقع الإسلامية التي تدافع عن وضع المرأة في الإسلام لا تتعرض لأكثر الأحاديث المركبة التي تستشهد بها المواقع المسيحية.

كما عثرت على العديد من المواقع الإسلامية التي تقول : إن كلمة (ضرب) الواردة في الآية ٣٤ من سورة النساء لا تعني المفهوم التقليدي، بل لها معانٍ حميدة أخرى مثل: (يفصل) أو حتى (ممارسة الجنس)، فكان رد فعلي الأول : «أوه يا له من انفراج !!». كما كنت أشعر دائماً أن الدفاع العام السائد الذي يقول: إن (ضرب) في هذه الآية تعني في الواقع (رَبَّتْ)، أو نقر بسواك، أو «ضرب ضرباً خفيفاً بمنشفة»، إنما هو تفسير تجميلي. وعلى الرغم من أنني انتشيت بادئ الأمر لاحتمال كون معنى ضرب ليس هو المفهوم التقليدي، فقد فكرت فيما بعد أن ذلك ربما يكون مجرد محاولة يائسة للتمسك بأي شيء يمكن أن يخرج الإسلام من الصنارة. أعني هل كان المسلمون يفهمون هذه الكلمة خطأ طوال هذه القرون؟! وبدلاً من أن أهيئ بفك الأفكار، دعني أوجه إليك سؤالا بسيطاً: هل تعتقد أن لهذا النقاش اللغوي أي منفعة؟

الرجال هم الذين يعيلون النساء وينفقون عليهن من أموالهم، لذلك فضلهم الله عليهن درجة^(١).

(١) إن الآيتين السابقتين للآية ٣٤ من سورة النساء تبين بجلء أن للمرأة نصف ما للرجل من الميراث ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلأُمِّهِ الشُّدُّ مِنْ بَيْنِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَأَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١/٤]، وشار إليها هنا . نص الآيتين كما يلي: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مَا قَضَىٰ اللَّهُ بِهِ مِنْ بَعْضِكُمْ عَلَى الْبَعْضِ إِلَّا تَصِيبَ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْتَلُوا اللَّهَ مِنْ قَضَائِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلِّ شَيْءً عَلَيْكُمْ ۖ﴾ (٣٦) وَلِكُلِّ جَنَاسٍ

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَذَلِكَ قَدْ جُعِلْتُ حَفِظَتُ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّيْلِ نَسْوَةٌ فِئَافُؤُهُمْ فَعَوَّاهُمْ وَافْجَرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَمْرُهُمْ قَانٌ أَلْفَعَكُمْ فَإِنْ تَبِعُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٣٤-٣٥] (١).

كانت هذه القضية من أصعب القضايا الشرعية الإسلامية التي تأملت فيها كثيراً منذ اعتناقي للإسلام. وفي كل مرة أفكر فيها أتذكر أمي وما كانت تتحمله من والدي تلك السنين كلها. وأعلم كم تجرح الأولاد معاملة الأب السيئة للأم.

والحق أقول: إنني لم أنتبه لهذه الآية عندما قرأت القرآن أول مرة، أو ربما اختار المترجم عبارة أكثر غموضاً، أعتقد أنني لو قرأت هذه الترجمة المذكورة من قبل لوضعت القرآن جانباً وتخلّيت عن الفكرة منذ ذلك الحين. ولكن، مرة أخرى، ربما يكون السبب هو كون هذه الآية قريبة من بداية النص وعند تلك النقطة التي كنت مهتماً بما يقوله القرآن عن معنى الحياة، لذلك فأتني هذه الآية لأنها لا تتعلق مباشرة بهذه القضية. وبعد أن اقتنعت بوجود الله وبأن القرآن منزل من عنده لم تعد حيرتي بشأن آية تهز إيماني، بل صرت أشعر بأن من واجبي أن أتفاهم معها. وعلى القارئ أن يغفر لي إذا ما بدؤت منكباً على الخلفيات لأوفق هذه الآية مع المفاهيم والمشاعر الغربية. فأنا متأكد من أن الكثيرين منهم قد نشؤوا في بيوت يسودها الحب والوثام، ولن ينظروا إلى الآية (٣٤) من سورة النساء بوصفها بطاقة بيضاء تخول الرجال ضرب نساءهم ؛ فغالبيتهم سوف يرضون باقتباس ما رآه علماء المسلمين الأقدمون والمحدثون الذين يقولون : إن هذا الإذن إنما هو رمزي في جوهره. ومع ذلك، يراودني طيف من الطبع المتوحش الغاضب الذي يرفض هذا الرأي أو لا يعترف عليه،

= مَوَالِيٍّ وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَلَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَتَأْتُوهُمْ فَيُصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٥﴾ [النساء: ٣٤-٣٥].

(١) الوعظ يعني النصح، ومخاطبة الضمير، والتحذير، والحث والتذكير.

ويستغل ما يراه رخصة منحت له من الله للسيطرة على زوجته بالعنف. وأعلم أن ما أكتبه هنا لن يؤثر في مثل هذا الموقف، ولكنني أفعل ذلك تعاطفاً مع الذين يرتادهم الكابوس نفسه.

سأنظر إلى هذا النص من زوايا مختلفة. أولاً : سوف أركز بوجه خاص على الترجمة وعلى بعض الكلمات الجوهرية في النص ومعانيها المحتملة، فأترك جانباً، وبصورة مؤقتة، كل الأدلة الخارجية من الحديث وتفسيرات العلماء. ثم أدرس بعض أهم الأحاديث التي يستشهد بها في هذا الموضوع. وأخيراً، أذكر كيف فهم الفقهاء المسلمون الآية (٣٤) من سورة النساء ﴿الرِّجَالُ قَوَّاتٌ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَعَلَ اللَّهُ بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْفَلِحُوا فِي أَمْوَالِهِمْ إِيَّاهُ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ نَفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَلَا يَبْغُوا عَلَيْهَا سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾.

حاولت أن أكون حرفياً قدر الإمكان في الترجمة المذكورة قبل قليل للآيتين (٣٤ و ٣٥) من سورة النساء. تفسير النص يعد أمراً مباشراً، ولكن هناك أربع نقحرات^(١) لعبارات عربية تطرح بعض الصعوبات. إن وصف النساء الفاضلات المطيبات بأنهن (قانتات) ربما يعني أنهن مطيبات لله، كما يتبين بوضوح بالمقارنة مع الآيتين (٣١ و ٣٥) من سورة الأحزاب ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهِنَّ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، والآية (٥) من سورة التحريم ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَكُنَّ عِيْدَاتٍ سَخِيحَاتٍ ثِيَابَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾؛ أو ربما تعني

(١) النقحرة كتابة كلمة من لغة برموز أخرى من لغة أخرى، مثل نقحرة الكلمة العربية «قانتات» هي (qanitat)، وبموجب النقحرة التي ابتكرها مترجم هذا الكتاب تكتب (q* anitat) . (المترجم).

المطيعات لأزواجهن، ويبدو لي المعنى الأول مفضلاً أكثر لأن كلمة (قانتات) نستخدم هنا لتصف (الفاضلات، التقيات، الصالحات)، ومن ثم فهي تدل على صفة دينية.

كلمة (الغيب) تعني (غياب) أي : (الغائب، المخفي، غير المرئي، غير المدرك أو السر). معظم المفسرين يفضلون معنى : (الحافظات للسر). وهذا يتفق مع الحديث المشهور^(١) الذي سنأتي إليه بعد قليل. وأما المعنيان الأولان فيتوافقان مع التوجه الكلي للآية ﴿الزَّيَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ خَفِيتُمْ حَفِظْتُ لَهُمُ الْغَيْبَ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيَّ الْخَفُونَ نَشُورُهُمْ يُفْطَرُونَ وَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَهُمْ لَا يَذْكُرُونَ فَإِنْ أَلْمَنَ كُمْ فَلَا تَتَّبِعُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٣٤/٤] التي تحاول التعامل مع الخلاف الزوجي سراً فيما بين الزوجين، قبل اللجوء إلى تحكيم خارجي كما هو موصوف في الآية (٣٥) من السورة نفسها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ليس لدى المعاجم ما تقوله في الاسم (نشوز). إذ تعني عموماً (الحقد)، أو (العدوانية) أو (العداء) أو (كراهية) أو (تنافر). تقدم المعاجم عموماً معنى «عصيان الزوجة لزوجها» إذا طبقت الكلمة على المرأة المتزوجة، و«وحشية الرجل تجاه زوجته» لدى وصف الرجل المتزوج. يبدو أن هذين المعنيين المتعلقين بالزواج والجنس ليسا جاهليين بل يعكسان أثر التشريع الإسلامي. وفيما بعد في السورة نفسها، الآية (١٢٨) ﴿وَإِنْ أَمْرُأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ يبحث القرآن ما على المرأة أن تفعل في حال نشوز زوجها، ومرة أخرى، نفترض أن سامعي القرآن الأوائل أخذوا بهذا المعنى الأشمل «الكراهية، العداء.. إلخ».

(١) انظر الحديثين (١ و ٢) للابن سبكر.

إن الفعل (ضرب) في صيغته الأمرية «اضربوا» الذي يرد في هذه الآية غني بمعناه. يفرد بحث لين (Lane) في قاموسه الشهير بضعة أوراق لمعنى هذا الفعل. ومن بين عشرات الدلالات المدرجة ما يلي : «يقرع»، «يضرب»، «يصفع»، «يطلق النار على»، «يعزف»، «يفصل»، «يفترق»، «يفرض»، «يبتعد عن»، «يتحاشى»، «ينفر»، «يلدغ»، «يهمل»، «يتجاهل»، «لا يأبه به». ومع ذلك، ليس من الصعب حصر معناها في قتال معين، كما يبدو للوهلة الأولى، لأن الأفعال بالعربية تكتسب دلالات تعني «ابتعد عن، ترك، تجنب، نفر من»، وفي النص المطروح في السؤال فإن فعل «ضرب» لا يقترن بأي من حرفي الجر هذين. ومع ذلك يبين لين (Lane) أن صيغة الأمر «اضربوا» مع حرف الجر «عن» أو من دونه يمكن أن تعني «تجاهلوا» أو «لا تأبهوا» أو «ابتعدوا عن» مثل «يضرب»، «يقرع»، «يصفع» أو بالتناوب «أبعدوهن، تجاهلوهن، انفروا منهن».

يقول المفسرون: إن الآية (٣٤) من سورة النساء تطرح سلسلة من أولويات خطوات لا تتخذ بآن واحد. إن تعاظم القسوة في الأعمال التالية تدعم وجهة النظر هذه. وهكذا نحصل من التحليل المذكور آنفاً على إجراءين محتملين بناء على المعنى الذي نعطيه لكلمة «اضربوا»، يمكن أن يلجأ إليهما الزوج الذي يخشى تعاظم كراهية زوجته له ونفورها منه. فإذا فسرنا كلمة «اضربوا» بـ «اقرعوا» فمعنى ذلك أن على الزوج أن ينصح زوجته ويحذرهما أولاً. فإن لم يُجد ذلك، يهجرها في الفراش فترة من الزمن. وإن أخفق هذا الإجراء فعليه أن يضربها، رغم أن علماء المسلمين يصرون على أن يكون الضرب خفيفاً. وإن ظلت على كراهيتها له، وظل عنده أمل في أن ينقذ الحياة الزوجية عندئذ، كما تقول الآية (٣٥) من السورة ذاتها يؤتى بحكم من أهله وحكم من أهلها للمساعدة في إصلاح ذات البين. هذا آخر إجراء يلجأ إليه، بالطبع، ذلك لأنه عندما يتدخل الأهل في النزاع بين الزوجين، فإن المرارة التي تتولد تجاه الصهر أو الكنة تستمر ولو طوى الزوجان صفحة الخلافات، الأمر الذي يمكن أن يولد شقاقاً زوجياً فيما بعد.

فإذا ما افترضنا أن معنى «اضربوا» هو «ابتعدوا عن» فإن كل ما قلناه في الفقرة السابقة يتفق مع هذا المعنى، ما خلا الخطوة الثالثة. انطلاقاً من هذا

المنظور إذا ما أزعجت زوجة زوجها بعدائها له، وإذا لم تسفر النصائح والتحذيرات، التي يتبعها هَجْرٌ في الفراش مدة معينة، عن المصالحة بينهما، عندئذ يحاول الزوج إهمال زوجته زمناً ما. وإن ظل بعد ذلك كله زواجهما مضطرباً، يؤتى بممثلين عن أسرتي الزوجين ليكونا حكماً بينهما.

ومن المنظور العقلاني البحت، يعد هذا التفسير هو المفضل لأنه فيما يتعلق بمفهوم الضرب فإنه من الصعب فهم كيف يمكن أن يخفف العقاب المادي من اشمزاز الزوجة من زوجها. إذ يظن المرء أن مثل هذا العقاب يولد العكس. ومن جهة أخرى يُعد التوجه إلى ضمير المرأة، ومن بعد ذلك التوقف عن ممارسة الجنس معها مدة، وبعد ذلك اللجوء إلى المعالجة الصامتة، كلها خطوات سابقة غير شديدة، يمكن أن تنقذ الزواج إذا كان لدى الزوجة بقية من حب عميق في قلبها لزوجها. هذا التفسير لكلمة «اضربوا» يتوافق مع التوصيات الأخرى كلها بما فيها الخطوة الرابعة وهي إحضار حكمين من أهليهما ليصلحا بينهما.

وقبل الالتفات إلى أدب الحديث لمزيد من التوضيح، نستكمل باختصار فحصنا للنشوز الزوجي في القرآن بفضل دراسة هذه الآية ﴿وَإِنْ أَرَأَيْتُمْ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨/٤].

نلاحظ هنا غياب الخطوات الواردة في الآيتين (٣٤ و ٣٥) من سورة النساء الآنفتين. بعد تأكيد القرآن بأنه لا حرج في أن تحاول المرأة حل المشكلة مع زوجها بالفهم فيما بينهما، يبحث القرآن موضوع انفصال الزوجين. إن العبارة التحذيرية ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ توحى بأن على الزوجة أن تلتزم جانب الحذر في محاولتها حل الإشكال مع زوجها فيما بينهما لأن مواجهة الزوج العدوانية تتمخض عن مجازفات ومخاطر. ولهذا السبب ينتقل القرآن فوراً إلى الانفصال، ومن ثم إذا كان الزوج يبدي عدواناً على زوجته فإن عليها أن تحاول إصلاح الأمر سلماً، ولكن ربما تكون مصلحتها أفضل في الانفصال عنه رسمياً،

وخاصة إن ازداد عدوانه عليها أو إذا هجرها عملياً. وعند هذا الحد يمكن أن تلجأ إلى أسرتها إما لإصلاح ذات البين أو لإنجاز الطلاق.

رأينا حتى الآن أن التفسيرين اللغويين للآيتين (٣٤ و ٣٥) من سورة النساء محتملان، أحدهما يسفر عن إجراء يتضمن ضرب الزوجة، والآخر يسير في اتجاه بعيد عن العنف الجسدي. اعتقد أن المسلمين في العصر الحاضر يفضلون التفسير الثاني، ما دامت الغاية واحدة، ولكن إذا ما أخذنا الأحاديث النبوية التي تتعامل مع هذا الموضوع تضعف الحجة.

يتضمن أدب الحديث عدداً من الأحاديث التي تبحث مسألة ضرب الزوجة. وفيما يلي أحاديث (رُفِّمَتْ من أجل الرجوع إليها فيما بعد) مأخوذة من أكثر الصحاح ثقةً وتقديراً.

١. عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب : «... وذكر النساء فقال: يعمد أحدكم يجلد امرأته جلد العبد فلعله يضاجعها من آخر يومه. ثم وعظهم في ضحكهم من الضرطة، وقال: لم يضحك أحدكم مما يفعل؟»^(١).

٢. عن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ... فقال: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا وإن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً، فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، وألا حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»^(٢).

(١) البخاري رقم (٤٦٥٨).

(٢) رواه الترمذي، وهذا جزء من رواية أطول في صحيح مسلم.

٣. عن لقيط بن صبرة... قال : قلت يا رسول الله إن لي امرأة، وإن في لسانها شيئاً، يعني البذاء قال: «فطلقها إذن»، قال: قلت: يا رسول الله: إن لها صحبة ولي منها ولد قال: «فمرها، يقول: عظها، فإن يك فيها خير فستفعل، ولا تضرب ظعنيتك كضربك أميتك....»^(١).

٤. روى معاوية بن حيدان قال، قلت: يا رسول الله نساؤنا، ما نأتي منهن وما نذر؟ قال: «أنت حرثك أتى شئت، أطعمها إذا طعمت، واكسها إذا اكسيت، ولا تقبح الوجه، ولا تضرب»^(٢).

٥. أخبرني أحمد بن يوسف المهلبني النيسابوري... عن جده معاوية القشيري قال: أتيت رسول الله ﷺ قال فقلت: ما تقول في نساؤنا؟ قال: «أطعموهن مما تأكلون، واكسوهم مما تكتسون، ولا تضربوهن ولا تقبحوهن»^(٣).

٦. عن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه قال : قلت : يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت...»^(٤).

٧. عن إياس عبد الله بن أبي ذباب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله» فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذرن النساء على أزواجهن، فرخّص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي ﷺ: «لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم»^(٥).

(١) أبو داود، رقم (١٤٢).

(٢) أبو داود، رقم (٢١٤٣).

(٣) أبو داود، رقم (٢١٤٤).

(٤) أبو داود، رقم (٢١٤٢).

(٥) أبو داود، رقم (٢١٤٦).

٨. عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال: «لا يسأل الرجل فيما ضرب امرأته»^(١).

٩. (انظر الحديث رقم (٢) هو نفسه.

إن أول ما نلاحظه في بحثنا عن الأحاديث النبوية التي تتعامل مع ضرب الزوجات هو ندرة ذلك في كتب الحديث الأقدم والأصح. فموطأ الإمام مالك (المتوفى ١٧٧هـ = ٧٩٣م) أقدم مجموعة حديث تصل إلينا، لا تتضمن أقوالاً مباشرة للنبي من هذا النوع. وصحيح البخاري (المتوفى ٢٥٦هـ = ٨٦٩م) ليس فيه إلا حديث واحد من هذا النوع، يستكر بشدة ضرب الزوجة [الحديث (١) المتقدم]. وفي صحيح مسلم (المتوفى ٢٦١هـ = ٨٧٤م) حديث واحد [الحديث (٢) المتقدم] يتعامل مع هذا الموضوع. وبالمقابل فعندما نأتي إلى سنن أبي داود (المتوفى ٢٧٥هـ = ٨٨٨م) نجد ستة أحاديث تتعلق بضرب الزوجة [الأحاديث من (٣-٨) السابقة]. في الحديث (٣) يمنع النبي صحابياً من ضرب زوجته الناشز. والأحاديث من (٤-٦) تعد نسخاً مختلفة لحديث واحد من مصدر واحد، الأمر الذي يجعلنا نحار أي معاوية روى الحديث معاوية القشيري أم معاوية بن حيدان^(٢) هذه الصيغ الثلاث من الحديث كلها تحرم ضرب الزوجة وشمها. أما في [الحديث (٨) السابق] فإن النبي يحرم في البدء ضرب الزوجة، ثم يسمح به، وبعد ذلك يلوم الذين يفعلون، ويؤنبهم بقوله: «وهم ليسوا خياركم». في حين أن [الحديث (٨) السابق] يطلق يد الزوج في المسألة. أما [الحديث (٩)] الذي في صحيح الترمذي، فيبدو أنه نسخة أخرى من [الحديث (٢)] إنه يبين الموقف المتفق عليه باختصار. وتشترط معظم الأعمال الكلاسية - التي تبحث ضرب الزوجة - ألا يكون الضرب مبرحاً، وأنه لا يسمح به إلا في حالات السلوك السيئ الفاضح، كما هو وارد في هذا الحديث (٢) المتقدم.

(١) أبو داود، رقم (٢١٤٧)

(٢) ما لم يكن الاثنان واحداً نفسه في الواقع، وأن معاوية بن حيدان من قبيلة قشير. يبدو أن ابن حيدان هو مصدر نحو اثنين وأربعين حديثاً.

من دون أن ندخل الصيغ المختلفة للحديث في الحساب نجد الروايات المذكورة المتقدمة مقسمة بالتساوي بشأن هذه القضية: ثلاث تستنكر ضرب الزوجة وثلاث تسمح به، على الرغم من أن واحداً من هذه الأحاديث الثلاثة الأخيرة، يعنف من يضرب زوجته [الحديث (٧) المتقدم] ضرباً مبرحاً. وحديثان آخران هما (٢) و (٩) المتقدمان يضعان قيوداً على قسوة العقوبة أو التأديب، ويبين متى يسمح بالتأديب. لا نجد لدى العلماء الأقدمين تفسيراً واضحاً لهذا التباين: حرّم النبي أساساً ضرب الزوجة، ولكن بنزول الآية (٣٤) من سورة النساء عدّل موقفه. حتى إن حديثاً يشهد بذلك ويؤيده: حدثنا الحسن أن رجلاً لطم امرأته فأنت النبي ﷺ فأراد أن يقصها منه، فأنزل الله تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤/٤] فدعاه النبي ﷺ، فتلاها عليه، وقال: «أردت شيئاً، وأراد الله غيره»^(١).

على الرغم من أن هذا الحديث يقدم تفسيراً أيضاً فإن علماء المسلمين يشكون فيه.

لأنه أولاً: برواية شخص واحد هو الحسن البصري، وهو حديث مرسل^(٢). ولأنه ثانياً: يشير إلى أن تحذيرات النبي بهذا الشأن قبل نزول الآية (٣٤) من سورة النساء كانت موقفاً شخصياً، وهذا ينافي ما هو معروف أن النبي في أحاديثه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

لا يحتاج التوفيق بين الأحاديث من (١-٩) وحقيقة أن الأحاديث كلها كانت بوحى، وتوقيت نزول الآية التي في ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَاصْلَحْتَ فَنَنْتَ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي نَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَنُظَاهِرُهُمْ فِي الْمَصَاحِجِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ

(١) الرازي «التفسير الكبير» الآية (٣٤) من سورة النساء.

(٢) مرسل (غير كامل) تعني أن صحابياً رواه عن النبي، ولكن من دون تحديد الصحابي الذي رواه.

أَطْفَنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ مَكِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا» [النساء: ٣٤/٤] إلى عبقرية كبيرة. فالحل الأبسط افتراضنا أن النبي منع في الأصل ضرب الزوجة، ثم نسخ هذا التحريم [الحديث (٧)]، وكل ذلك بوحى من الله، وكان بعد أن نزلت الآية (٣٤) من سورة النساء. ومن هذا المنظور إن أخذنا كلمة «اضربوا» بمعنى الضرب التقليدي تكون الآية منسجمة مع السُّنة الموحاة، لأن الآية نزلت بعد أن ألغى النبي حكمه في منع ضرب الزوجة وسمح بذلك. هذا هو موقف الإمام الشافعي الذي استشهد [بالحديث (٧)]^(١).

اقتبست الأحاديث المذكورة قبل قليل من كتب الأحاديث التي يقدرها أهل السُّنة تقديراً عالياً^(٢). ويعد صحيحا البخاري ومسلم أكثر مصادر الحديث ثقة، ويؤمن معظم المسلمين بأن ما ورد فيهما من أحاديث صحيحة قطعاً. أما سنن الترمذي وأبي داود فموثوقان كذلك على نطاق واسع كصحيح البخاري ومسلم رغم أنهما يحتويان بعض الروايات المشكوك فيها. على كل حال، لم أستطع أن أجد تعليقات سلبية على أي من هذه الأحاديث على أسس التحليل الإسنادي، رغم أن ذلك لا يؤكد أن هذه الأحاديث لم تتعرض إلى النقد، بل يعني أنني أنا لم أستطع أن أجد مثل هذا النقد.

يقيد علماء الحديث نقدهم للحديث بالإسناد فقط، ولكن فحص متون الأحاديث ربما يقدم دليلاً على صحتها. وأعتقد أن المبدأ العام الذي يمكن قبوله هو أنه كلما كانت التعاليم الأخلاقية للحديث متقدمة على زمانها ازداد احتمال كونها تعاليم نبوية أصيلة. لأنه لو تحدى أي مفهوم تلك الثقافات التي أنتجت أجيال المسلمين القليلة الأولى، لكان من الصعب التخيل كيف حاز

(١) الرازي «التفسير الكبير»، الآية ٣٤ النساء . واستتج الشافعي بناء على هذا الحديث أن ضرب الزوجة، مسموح به، ولكنه غير مفضل ولا محبب . ويبدو أن الشافعي إما أنه لم يطلع على الحديثين (٢) و (٩) المتقدمين، وإما أنه لا يثق بهما، لأنه لم يستشهد بأي منهما لدعم رأيه.

(٢) ٨٥٪ تقريباً من مسلمي العالم من أهل السنة.

على قبول واسع النطاق، ما لم يكن صدر فعلاً عن النبي نفسه. ومن ثم، فنحن واثقون بناء على هذه الأسس وحدها، بأن الأحاديث المذكورة التي تحرم ضرب الزوجة مبنية على تعليمات نبوية صادقة وصحيحة. ولا بد لنا من أن نتذكر أن النساء كن أدنى درجة من الرجال في الحضارات التي خضعت لحكم المسلمين في القرنين الهجريين الأولين. إذ كان وضع المرأة مقابل الرجل كوضع أولاده، وكثيراً ما كانت المرأة تتزوج مباشرة بعد بلوغها الحلم. ومن هذا المنظور، لم تكن المرأة، في العاطفة والفكر، أكثر من طفل، إذ كانت مهمتها في المجتمع محصورة بالحمل وتربية الأطفال وإشباع حاجة الرجل الجنسية. ففي هذه البيئة حيث الزوجة في رعاية زوجها أساساً وتحت مسؤوليته، يعد منع الرجل من تأديب زوجته التأديب الجسدي أمراً غريباً عن حضارة العصر^(١).

حتى في الجزيرة العربية أيام الجاهلية حيث كانت المرأة أكثر حرية وأقل معاناة من النساء في الثقافات المحيطة والأكثر تقدماً، كن أدنى درجة من الرجال. وكان النظام العشائري الأبوي العربي ينظر إلى المرأة على أنه مخلوق غير عاقل، عابث، مشغول بتزيين نفسه وتجميلها واكتساب الحلي. والقرآن يقدم التفصيلات الصارخة الآتية في هذا الأمر: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَيِّنِ ۖ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۖ أَوْ مَن يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٦/٤٣-١٨]. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۖ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۖ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِذِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧/١٦-٥٩].

رأينا هنا عَرَضَيْنِ متطرفين متبادلين من الاحتقار المَرَضِي للمرأة : الهيام بموضوع خيالي مستحيل المنال من موضوعات رغبة الرجال، وفي الوقت نفسه خنق وتحقير للأنوثة الحقيقية.

(١) جمال، أ. بدوي، «وضع المرأة في الإسلام»، MSR & US & Canada (١٩٧٦)، ص ٥-١٠.

إن كراهية النساء في ذلك العصر انعكست كذلك بالطرق الواقعية التي كانت المرأة تعامل بها بوصفها ملكاً للرجل. إذ كانت القبائل تغزو بعضها بعضاً لأخذ النساء غنائم. وكان مالكو العبيد يجبرون إماءهم على البغاء ﴿وَلَسْتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ كَلِمًا حَقًّا يَنْفِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِنَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكُتِبَ لَهُمْ أَن يَحْلِفُوا فِيهِمْ خَيْرًا وَأَن تَوَفُّهُمْ مِن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي مَاتَكُمْ وَلَا تَكْرِهُوا فَيَنْزِلَكُمْ عَلَى الْإِغْلَاءِ إِنِ ارْتَدَّ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَنُوا عَرَضَ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣/٢٤].

وكان الرجل يستطيع الحصول على عدد غير محدود من الزوجات والسراري. وكان الرجال يضايقون النساء ويراودوهن عن أنفسهن في الطرقات^(١). ويبدو أن النساء كن ينظرن إلى أنفسهن النظرة ذاتها، لأن القرآن يوصي كثيراً بالاحتشام في اللباس^(٢)، وينهى عن السلوك الفاسق والعاهر

(١) انظر الآيات : ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ يَدَهُنَّ حَيْثُ مَتَّعْتِهِنَّ يَرْضَوْنَ وَأَن يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/٦٠]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُنَّ عَلَيْهِنَّ مِن جَلْبَسِيهِنَّ ذَلِكَ أَدَقُّ أَن يَشْرَعْنَ فَلَا يُوْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩/٣٣].

(٢) انظر الآيات : ﴿وَلِلْمُؤْمِنَاتِ لِحْظَةٌ مِّنْ ثِيَابِهِنَّ يَضَعْنَ مِنْ أَعْيُنِهِنَّ وَحِفْظَنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُوهِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّامِيمَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَرَّ يَطْمَعُوا عَلَى عَرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتَوَرَّوْا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١/٢٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَوِيَ بَيْنَكُمْ فِي الْمَوْتِ كَمَا كُنْتُمْ حَيًّا وَلَا تَحْزَنُوا إِنَّمَا السَّمِيعُ الْعَلِيمُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَوُوا كَمَا اسْتَوَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ يَدَهُنَّ حَيْثُ مَتَّعْتِهِنَّ يَرْضَوْنَ وَأَن يَسْتَغْفِرَ خَيْرٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٥٨/٢٤-٦٠]، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهِنَّ وَلَمَّا تَبَيَّنَ ﴿٥٩﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِكُنَّ عَلَيْهِنَّ مِن جَلْبَسِيهِنَّ ذَلِكَ أَدَقُّ أَن يَشْرَعْنَ فَلَا يُوْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦٠﴾ لِّئَن لَّرِ بَيْنَهُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجُونَ

أَدْعِيَاءَكُمْ أَنبَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿الاحزاب: ٤٣﴾. ﴿الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن سَائِبِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٥٨/٢].

يمكن الحصول على مزيد من الأدلة عن كراهية النساء في الجزيرة العربية قديماً من المصادر التاريخية، وقد يكون مبالغاً فيها، ذلك لأن الثقافة التي تغفر الممارسات المذكورة فيما تقدم تحتقر المرأة. وهذا يعيدنا إلى تأكيدنا السابق بأن منع ضرب المرأة كان منافياً للثقافات التي خضعت للحكم الإسلامي في مطلقه، وبناء على المبدأ المذكور آنفاً تزداد قناعتنا أن منع ضرب الزوجة يعود أصلاً إلى النبي، ولكن هل نستشهد بالمبدأ ذاته لدعم [الحديث (٧) السابق] الذي يعتف ضاربي الزوجات، و [الحديثين (٢) و (٩)] اللذين يسمحان فقط بضرب لطيف للزوجة؟ أليست هذه الأحاديث خارجة عن سياق ذلك الزمن؟ ربما، ولكن أليس منظر الزوجة كريهاً وهي تضرب بعنف حتى عند أكثر الرجال احتقاراً للمرأة؟ فحظر ضرب المرأة وجلدها يمكن قبوله كحماية لها من القسوة أما حظر العقوبة الجسدية كلها فيعد اعتداء على سلطة الرجل. والنقاش هنا أقل تأثيراً، لأن الأحاديث، على ما يبدو، تحجم عن سياسة أكثر تقدماً.

صحيح أن تحريم ضرب الزوجة، كما يبين [الحديث (٧) السابق] يعد ليبرالياً جداً في الجزيرة العربية زمن القرن السابع. فإذا كان الحال كذلك، فإن تعديل الحظر يفسر على أنه تنازل إلى بدائية ذلك العصر، وأن فرض الحظر الأصلي يمكن أن يكون مثالياً عندما تسمح الظروف. ربما يصّر آخرون على أن كلمة النبي الأخيرة نسخت الأولى، مهما كانت الأسباب. وربما ترى أن أي مقارنة أكثر ارتباطاً في هذه الأحاديث تهيئة لنظام أبوي يأتي بعد مرحلة النبوة. تعتمد أمور كثيرة على درجة الثقة بهذه الأحاديث المتبقية. كل هذه الأحاديث، كما ذكرنا قبل قليل، صحيحة عموماً، ولكن يمكننا أن نفحص متونها وما يمكن أن يصمد للحقيقة.

لم نقل حتى الآن بشأن [الحديث (٨) السابق] إلا القليل. إنه يُعد أكثر الأحاديث صعوبة عند أعداء النظام الأبوي. يعد هذا الحديث من أكثر الأحاديث

وروداً في المواقع المعادية للإسلام، ولا يلقي أي اهتمام من الكتاب المسلمين، وهو حول وضع المرأة في الإسلام. ربما يكون السبب أن الحديث لم يُقبل على نطاق واسع، ولكنني لم أجد ما يؤكد ذلك. يمكن اعتبار هذا الحديث من دون الأحاديث التي ذكرت كلها خارجاً عن السياق، أي يختلف اختلافاً كبيراً عن البقية. إذ إن الأحاديث الأخرى كلها، تحرم ضرب الزوجة أو تكبحه أو تنظر إليه شزراً، أما هذا الحديث إذا ما أخذ على ظاهره، فيبدو أنه يطلق حرية الرجل في كيفية معاملة زوجته. وبسبب طبيعة هذا الحديث الشاذة، وبالنظر إلى حث القرآن المتكرر على معاملة المرأة معاملة لطيفة وعادلة، أشك أن يمثل هذا الحديث تعاليم النبي الصحيحة.

ينسب [الحديثان (٢) و (٩) السابقان] نصائح النبي بشأن معاملة المرأة إلى خطبته في حجة الودع. فإن كان ذلك صحيحاً فإن قراءة «اضربوا» في سورة [النساء ٣٤/٤] ﴿الزَّيَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَذَّبْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَالَّذِي خَافُونَ تُسَوِّهُنَّ يَوْمَئِذٍ وَأَفْجُرُونَهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُونَهُنَّ فَإِنْ أَلْفَكْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ بمعنى «ابتعدوا عن» لا يمكن الدفاع عنها. حسب هذا الوصف، فإن النبي يعلق بلا شك على الآية (٣٤) من سورة النساء، وإن قوله: إن فعلن ذلك اضربوهن ضرباً خفيفاً، يؤكد أن صيغة الأمر «اضربوهن» تعني الضرب التقليدي. ولكن هناك سبب يدعو إلى الشك في صحة هاتين الروايتين، رغم قبولهما بصورة شاملة تقريباً. لأن النبي فيهما يقول بوضوح: إنه إذا ما دعت الزوجة رجلاً آخرين إلى فراش زوجها يمكن أن يطبق الزوج الآية (٣٤) من سورة النساء، شريطة ألا يكون الضرب مبرحاً. أفترض الآن أن عبارة «إلى فراشك» تتضمن ممارسة الجنس مع رجل غير الزوج فإن كان الحال كذلك، يكون لدينا قانون متساهل جداً في معاملة الزوجة الزانية حتى بمقاييس هذه الأيام: أولاً، انصحها، فإن أصرت، اهجرها في الفراش فترة، وإن ظلت مصرة، عاقبها بلطف، فإن ارتدعت، فاعف عنها ولا تتماذ في أكثر من ذلك؛ وإلا فالجأ إلى حكمين من أهلك وأهلها. أفترض

أنه بموجب المبدأ المذكور، ندخل في إيمان مزدوج: نؤمن أن هذا المبدأ في معاملة خيانة الزوجة هو مبدأ نبوي، وبالوقت نفسه نقبل أنه خارج عن سياق القرآن، لأن القرآن يعدُّ الزنى من الكبائر التي يعاقب عليها بالرجم عقاباً رادعاً للزنى نهائياً. ومن ثم فإنني أرى أن الأمور التي نظرنا فيها كلها تجعلني أشك في صحة هاتين الروايتين.

وهذا يقودنا في النهاية إلى [الحديث (٧) السابق]. هذا الحديث في مسند الشافعي، وسنن أبي داود، والتسائي، وابن ماجه، والطبري، والحاكم. وهو صحيح أورده الإمام النووي في كتابه (رياض الصالحين)، وكذلك السيوطي في (الجامع الصغير). رواه عن عمر بن الخطاب الذي يعد من أنصار معاملة المرأة بحزم. ففي حين أن شهرته في القسوة ترسخت في الحقيقة، فإن قيام عمر بهذا الدور بصورة متكررة في أدب الحديث يجعل المرء يتساءل: ألم يكن عمر شخصية يمكن معها أن تنسب إليه الآراء القاسية بشأن المرأة؟! ويمكن أن يشك المرء في أن النبي يوبخ الرجال على ضربهم لزوجاتهم بعد أن سمح لهم بذلك، ويعترض على القسوة التي يعامل بها بعضهم زوجاتهم. على مستوى العقيدة، هناك أحاديث عديدة تشير إلى أن عمر وصحابة آخرين كباراً كانوا يضربون زوجاتهم، في حين أن هذا الحديث يستبعدهم من نخبة المجتمع، وهكذا تعود مسألة القسوة ثانية لتكون نقطة خلاف ونقاش. وباختصار ليس في [الحديث (٧) السابق] نقطة جوهرية تدعو إلى الشك. يعدُّ فحص متون هذه الأحاديث محدوداً، ولكن حتى إذا كان النقد أعمق وأكثر إتقاناً فربما لا يسفر عن نتائج حاسمة. إذ، ما من شك، أن غالبية المؤمنين سوف يصرون على صحتها بصرف النظر عن سلامة النتائج المكتشفة. هذا لا يعني أن يشعر المسلمون المقيمون في الغرب أنهم على خلاف مع إدانة المجتمع الأكبر لإساءة معاملة الزوجة. فما من نص كتب في الشريعة الإسلامية، قديماً ولا حديثاً، إلا ويؤكد عدم شرعية ضرب الزوج لزوجته ضرباً مبرحاً. ويؤكد معظم الفقهاء أنه يُسمح للرجل أن يعاقب زوجته فقط في حالات السلوك الفاضح، وحتى في هذه الحالات يفضل تجنب العقاب. ويقول العلماء: إنه لا يسمح بضرب الزوجة على وجهها، أو أن

يُسبب لها أي ضرر جسدي أو يُترك أثر على جسمها، أو تضرب بعنف. إن معارضة العلماء لأي عمل يوصف في القانون الغربي المعاصر بأنه إساءة للزوجة، لا يعد أبداً تحسين صورة للإسلام أو تبييضها. إن دعاة المساواة بين الرجل والمرأة في العصر الحديث سيرفضون بالطبع على أسس إيديولوجية أن يكون للزوج حق في ضرب زوجته مهما كان الضرب لطيفاً، لأنه حتى لو كان هذا التصرف رمزياً كما يؤكد بعض الكتاب المسلمين المحدثين، فإنه يظل رمزاً على هيمنة الرجل على المرأة.

أنا، شخصياً، أميل إلى تفسير كلمة (اضربوهن) بـ (ابتعدوا عنهن) أكثر من (اضربوهن) بالمعنى التقليدي لفعل (ضرب). لأن مفهوم الابتعاد أو الهجر يتلاءم مع طبيعة التوصيات الأخرى المناهضة للعنف والواردة في الآية (٣٤) من سورة النساء. فضلاً عن أن الأحاديث المؤيدة للتفسير التقليدي كلها عدا حديث واحد تحتوي على أقوال تبدو متضاربة مع القرآن. حتى الرواية التي تقول : إن النبي حرم أولاً ضرب الزوجة، ثم سمح به، ثم وبّخ الذين استغلوا هذا السماح تبدو لي مختلفة. أنا أسلم بأن قروناً من الإجماع على تفسير كلمة «اضربوهن» هو ضد ما أرى بقوة، ولكن الأحاديث التي تمنع ضرب الزوجة يمكن أن تكون من آثار الخلاف في الرأي حول هذا الموضوع.

■ التعليق ١

(من مسؤول مدرسي أمريكي كبير: يشيع في هذا الجيل الشك والفوضى التي يعبر عنها الصراع الناشئ، خصوصاً عن النزاعات القائمة بين الجانب «السحري» لمعتقدات الآباء والمحاكمة النقدية التي يؤكّد عليها في المدارس):

أرسلت لك بريداً إلكترونياً، إن كنت تذكر، حول إشكالات بيني وبين زوجتي. دعني أشرح لك عن نفسي أكثر.

والداي محافظان، ولكنهما ليبراليان بأن واحد. أعني أنهما غارقان في القيم التقليدية، ولكنهما في الوقت نفسه أكثر تساهلاً من الآباء المسلمين الآخرين. لذلك كنت أشعر وأنا أكبر في العمر أنني أملك أفضل مقاربة. إذ كنت دائماً

متديناً، ولكن باعتدال، أي كنت أذهب إلى المسجد باستمرار، ولكن ليس كل يوم، ولم أكن أحضر الحلقات، في غالب الأحيان، ولكنني لم أكن أنفر منها، وكنت أحضرها أحياناً. أنا واثق بنفسي. واستمر حالي هكذا في المدرسة الثانوية بالرغم من أنني كنت المسلم الوحيد في مدرسة الكاثوليك للذكور، حيث كانوا يمطرونني بالعقائد الكاثوليكية، ومناقشاتها العقلية. فلم أشك لحظة في إيماني، بل انتفعت، في واقع الأمر، من مناقشات الصف هذه. إذ كانت غالباً ما تعزز إيماني.

توافر لدي وقت كاف في عطلة الصيف بين السنة الأولى والسنة الثانية، وقضيت معظم هذا الوقت في المسجد وفي دراسة القرآن وتعلم اللغة العربية. وكنت أمكث في المسجد كل يوم من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء أشارك في بعض الأنشطة. في حين أنني كنت أستمتع بهذا الوقت كثيراً، وكان إيماني يزداد، راودني خوف من أن ينغلق عقلي على الدين. إذ شعرت كأني وجدت الدين الصحيح، وأنه ينبغي أن أغلق عقلي به، وأحجبه عن الآراء التي لا تتفق مع ديني وآرائي، لأنها ربما تفسد إيماني. شرعت بدراسة الفلسفة التي اختلطت بعقلي وأنا أتبنى هذا الموقف العدائي من الرأي الآخر.

بعد ذلك الصيف من الانصراف إلى التعبد الكثيف، أصبحت مقارنتي للإسلام نظرية أكثر منها عملية، أي صرت أصلي لأجد إنجازاً تحقق. ولكن كلما أحسست بالاقتراب من الله أكثر كنت أضع نفسي في موقع عال جداً أخشى السقوط منه سقوطاً مروعاً. حصل هذا لأنني نسيت قيمة الفكر الحر والنقاش المفتوح. صرت مغلق الذهن. لذلك عندما دخلت صف الفلسفة وكان إيماني مهزوزاً، لم تكن استجابتي كما ينبغي أن تكون، باستخدام العقل لدعم قناعاتي. بل حاولت، بدلاً من ذلك، أن أحجب الأسئلة عني. جعلتني هذه المقاربة أفقد إيماني بسرعة أكبر. أي إنني أردت الإيمان بالله ولكنني لم أستطع تحليل هذا الإيمان، لأن إيماني أصبح باطنياً غامضاً أكثر مما هو عقلائي، أظنك تعرف ما أعني.

استمر ذلك سنتين. كنت فيهما أحياناً وأساء أحياناً أخرى، لم ينته الأمر أبداً. منذ الصيف الماضي وأنا أحاول استخدام العقل والمنطق لطرد هذه الشكوك. ولكنني لم أفلح بعد. من الصعب أن أنسى السلم الذي كنت أشعر به بفضل إيماني البسيط، وكلما حاولت محاكمة الأمر عقلياً، شعرت بأن علي أن أحسم الأمر على الفور، لأنني ربما أموت غداً فأذهب إلى جهنم بسبب شكّي بالله. لم تقدني هذه المقاربة إلى أي نجاح، لأنني كنت أضع حداً مصطنعاً لمستوى فهمي. حتى الآن ما زلت أفهم المناقشات لتقوية الإيمان بالله وتفوق الإسلام، ولكنني لا أستطيع، مهما حاولت، ترجمة ذلك إلى إيمان راسخ. ربما أشعر أنني بخير مدة أسبوعين، ولكنني أنكفئ، عاجلاً أو آجلاً، إلى الشك، وقد دمرت هذه الشكوك حياتي.

أبدو للناظر متديناً جداً، واثقاً من صحة ديني، فيحترمني الناس. في هذه الحالة أشعر أن علي أن أكون مؤمناً، لأن الناس يظنونني كذلك. ولكنني لم أكن أبداً مؤمناً كامل الإيمان. ربما أؤمن بأن الله موجود، وأن القرآن حق، ولكنني كلما قرأت عن الغيبات في القرآن، بدا قلبي غير راغب في الإيمان. فأضيع ضياعاً مطبقاً، في هذه الحالة لا أدري ماذا أفعل. ربما أقرأ بعض السور التي يقال إنها تحمي المرء من الشيطان، أو ربما أصلي النوافل، ولكنني لا أؤمن بهذه الأمور رغم أنني أقوم بها، ومن ثم لا تؤثر في. ربما أؤمن بها، ولكنه إيمان ناقص، متأرجح. وليس هذا التأرجح كتأرجح الإيمان الذي يمر به كل شخص، بل هو أعقد من ذلك قليلاً. إنني دائماً على حافة الإسلام، أحياناً أكون فيه وأحياناً أكون خارجه. إنها لطريقة صعبة في الحياة. ربما تفهمني لأنك ممن اعتنقوا الإسلام. لا أفهم لماذا أشعر بعدم الرغبة في متابعة القرآن عندما أقرأ عن الملائكة والجن أو الآخرة أو عيسى. هل ذلك لأن مقاربتني خاطئة أم لأن الشيطان مهيم على؟ أم أن ذلك مجرد خيال؟

لا أعرف كيف أنهي هذا التمرد على دين الله. أعني أن أسرتي متدينة جداً، ولم يتطرق إليها الشك أبداً كمثّل ما تطرق إلي، لذلك فهم لا يفهموني. يرى

والذي أن عليّ أن أكف عن مثل هذا التفكير. وأنا لا أنفق معهم على ذلك. ويقول إخوتي: تابع التفكير في هذه الأمور فإنها ستختفي وحدها، ولكن من المستحيل أن أحاكم الأمور بالطريقة التي ينبغي أن أحكمها بها ما دامت صحي تتدهور يوماً بعد يوم. فأنا لا أستطيع حتى التأمل، ولا أستطيع اتخاذ قرار، ولا أستطيع تغيير حياتي. ما زلت في هذه الحالة زمناً طويلاً، ولا أدري كيف أضع حداً لهذه الشكوك. يبدو الأمر أحياناً وكأنني فقدت حماسي للبحث عن الحقيقة، وأني أبحث فقط عن مخرج سواء باتباع الحقيقة أم باتباع الزيف، بحيث لا أعاني ثانية، ولكن يبدو أن المشكلة معقدة جداً.

عندما أرى الذين اعتنقوا الإسلام أشعر أنني أعرف أكثر منهم، وأني أفضل منهم، رغم الشكوك التي تساورني، من الواضح أنني مرتبك بمقاربة غبية، ولكني لا أستطيع التخلص منها. كنت دائماً شخصاً لطيفاً أتخاشى المواجهات مهما كلف ذلك من ثمن. يبدو أنني أفترق إلى الشجاعة للوقوف ومتابعة الحقيقة، وأنا حائر في كيفية استعادة هذه الشجاعة.

زرت إمام الحي الذي أجرى عليّ فحصاً ليرى إن كنت منذوراً، أو محسوداً أو مسحوراً. وبما أنني نشأت في أمريكا، أجد من الصعب أن أومن بمثل هذه الأمور. أعلم أن النبي قال شيئاً عن النذر، لذلك أعترف أنه لا بد أن يكون موجوداً، ولكنني لا أعرف كيف أؤكد أن ذلك حقيقة. تلك هي المشكلة الأساسية، في ظني. أعلم أن النبي حق وصادق، ولكنني لا أستطيع الالتزام بتعاليمه مدى الحياة. لم يكتف قلبي بذلك، ولست متأكداً إن كان ذلك بسبب مشكلة ما في بحثي، أو بسبب مشكلة سحرية غامضة أو أي شيء آخر؟ أنا لا أعرف، حقاً. لا أستطيع أن أفسر لماذا أشعر بأن أموراً مغلوبة ولا أجرؤ على القول: إنها مغلوبة فأنساها وأتبع ما هو صحيح وعدل. أعلم أن هذا تفسير غامض، ولكنني لا أعلم لمن ألجأ لشرح لي ذلك، وأعتقد أنك الشخص المناسب لأنك مررت بمرحلة من الشك.

■ التعليق ٢

(من طالبة جامعية مسلمة أمريكية. غالبية الرسائل التي ألقاها من نساء الجيل الثاني، تشكو، كما في هذه الرسالة الإلكترونية من معاملة النساء في المجتمع الإسلامي):

لست متأكدة إن كنت قد أنجزت كتابك الجديد، ولكن لدي بعض الأفكار أود أن أشاركك فيها. إنني مسلمة أمريكية من الجيل الثاني، وتعاملت مع جماعتي من المسلمين الذين لم يصلوا بعد إلى القرن الحادي والعشرين، لذلك فكرت أن أرفدك بأفكاري عساها تساعدك في تأليف كتابك.

منذ بضعة أيام ذهبت إلى مسجد جاليتنا لتناول إفطار رمضان. إنني أفطر عادة في بيتي مع أسرتي، ولكن الأسرة كانت هذه المرة خارج المدينة، لذلك قررت أن أذهب إلى المسجد مع بعض صديقاتي. كنا قد سمعنا أنهن يتناولون إفطاراً جماعياً كل يوم، خصوصاً العزّاب (ادعيت أنني عزباء).

في المسجد مستويان. غرفة قرنفلية اللون في الطابق العلوي مخصصة لصلاة النساء، وبجانبيها غرفة الأطفال. وفي الطابق العلوي كذلك مكتبة المسجد، وغرفة لأغراض متعددة، ولكنهما مغلفتان من جوانب الأخوات، أما الطابق السفلي كله فمخصص لصلاة الرجال. ظل الباب الأوسط من جهة الأخوات مغلقاً بعد صلاة المغرب. قالت لي إحدى الأخوات اللاتي يداومن على لقاء الإفطار: إنهم ينسون الأخوات عادة فلا يقدمون لهن التمر ليفطرن عليه. حسناً، كان معي قطعة من الشوكولاته في محفظتي. فقسمنها فيما بيننا وأفطرنا عليها.

بعد الصلاة سمعنا أحد الإخوة يصعد إلى الطابق العلوي ويفتح الباب، فدخلنا غرفة الطعام. لم تكن نعرف سوى القليل، لم تستخدم الغرفة للطعام، بل طلب إلينا الانتظار حتى يقدم لنا الإخوة الوجبات. انتظرنا إلى أن سألنا أحدهم عن عدد الأخوات الموجودات؛ وأخيراً فتح الباب وإذا بأحد الإخوة يحمل ستة أطباق من الطعام وأدخلها من شق الباب. فشعرت كأننا كلبات يقدم لها الطعام، يا سبحان الله.

كل الأخوات مسلمات أمريكيات، وأصابهن الهلع من هذه المعاملة. لذلك فتحنا الباب وحدثناهم عن شعورنا حول عدم مقدرتنا على المساهمة في لقاء الإفطار الفعلي. فآثار ذلك أكثر مما توقعنا، لأن الأخوات أطلقن مشاعر الإحباط لديهن كلها تجاه نظام المسجد بأكمله. وقلنا لهم إن تصرف «الفصل مع المساواة» لا يطبق في مجالات عديدة في المسجد. مثلاً البنية التحتية للمسجد غير عادلة. فإذا ما كان لدى الأخوات سؤال لا يستطعن طرحه لعدم وجود ميكروفون كالذي في الطابق السفلي. نسمع فقط ما يقال، حتى ذلك، فإنه يُعَمُّ علينا أحياناً. وكان في يوم الجمعة، إعلان يسأل الناس إن كانوا يفضلون تغيير وقت الجمعة إلى الساعة الواحدة أو الثانية عشرة والنصف بعد الظهر. وكان دور الأخوات أن يسمعن إخوانهن في الطابق الأسفل يصوتون. ولم ينخرطن في عملية اتخاذ القرار. الشورى احتفظ بموقع «رئيسة الأخوات»، ولكن هذا هو الموقع الوحيد الذي سمح للإناث أخذه. إذ لا تصوت الأخوات إلا لهذا المنصب، ولا يسمح لنا أن نصوت لاختيار الإمام أو أي عضو من أعضاء مجلس الشورى. ولم أتخيل أبداً أن يحدث مثل هذا الأمر في أمريكا. يتألف مجلس الشورى من بالغين مولودين في الخارج يتمسكون بمقولة: «غير المسلمين كفار لا علاقة لنا بهم من بعيد أو قريب». إن هذا محبط جداً.

أقمت في أيوا (IOWA) طوال حياتي، وأقمت في مدينة أيوا عشر سنين. منذ خمس سنين كان مسجدي في قبضة ثلة من السلفيين^(١). يبدو أن الإخوة لم يستطيعوا الصمود ضد أيديولوجية هؤلاء الزعماء المتشددة وفرضها على الآخرين. حتى إن القيادة لم تكن تتحدث مع الأخوات، لذلك لا فاعلية لمحاولاتنا (كالتي بذلناها في لقاء الإفطار). إذ ما يزعجني هو كيفية معاملة الأخوات العالميات للأخوات الأمريكيات (بمن فيهن الجيل الثاني).

(١) السلفية: حركة إسلامية معاصرة نشأت في السعودية، ويجب التفريق بينها وبين حركة الإصلاح التي أسسها محمد عبدو في مصر (١٨٤٩-١٩٠٥).

منذ بضعة أسابيع حاولت مع بعض صديقاتي استخدام المكتبة للدراسة ولكنهم أمرونا بمغادرتها، وقيل لنا: إنها مكتبة الإخوة. لم يدخل هذه المكتبة أحد من الإخوة طوال الوقت الذي قضيناه هناك. شرحنا لهم كيف يمكن وضع جدول بحيث يستفيد من المكتبة الذكور والإناث معاً، ومع ذلك طلبوا إلينا الخروج. ووضعوا قفلاً على باب المكتبة الذي يدخل منه الإناث. المفتاح مع الإمام ومع رئيسة الأخوات، ومع ذلك لا تستطيع رئيسة الأخوات فتحه من دون إذن الإمام وطبعاً لم يسمح لنا الإمام، بالدراسة فيها. ما هذا - أطالبان حتى لا يتلقى العلم إلا الذكور ؟ لا يمكن لأي مجتمع أن يزدهر من دون النساء المثقات.

وعندما أرادت أخت أن تعقد حلقة دراسة لأخوات أمريكيات قيل لها: لا يمكن أن تظهر آراء مختلفة عن آراء المسجد. وأخفقت في الامتحان السلفي. حتى الشيعة طردوا من المسجد لأنهم اعتبروهم تهديداً. وبدلاً من محاورتهم ومناقشتهم سلكوا معهم سلوك الجبناء، وطردوهم من المسجد، وقالوا لهم: لا تعودوا إليه حتى تؤمنوا بما يؤمن به القياديون.

هذه دكتاتورية طاغية.

كنت رئيسة لمؤتمر السنة الماضية، وكان بعض الإخوة من المسجد يقولون: إن علينا ألا نعكس الأدوار، وإن واحداً من الإخوة ينبغي أن يكون رئيساً للمؤتمر، وبلغ بهم الأمر أن قالوا لي: عليك أن ترأسي لجان رعاية الأطفال في البيوت أو لجان طعام. على أي حالة تتشكل جمعيتنا MSA^(١) من طلبة مسلمين أقوياء منفتحي العقول. كنت هذه السنة رئيسة برنامج، وكانت لجنة الإطعام كلها مليئة بالإخوة، ليست هذه مشكلة، وليست هي قضية. لأنني أومن أن جيل المسلمين الجديد - أولئك أقوياء بما يكفي للحيلولة دون وقوف التخلف (آسفة لم أجد كلمة أفضل منها) في طريق إيمانهم.

(١) MSA جمعية الطلبة المسلمين (Muslim Student Association)، جمعية مظلة للمسجد.

اطلعت إحداهن على الإسلام في السنة الماضية ونظقت الشهادة وحدها. ثم استجمعت شجاعتها وذهبت إلى المسجد، والتحقت بالجمالية الإسلامية. جاءت مرة إلى المسجد، ولم تكن تعرف من أي باب تدخل فدخلت من الباب الرئيس (مدخل الرجال). فتحت الباب وإذا بعض الإخوة يطلبون منها المغادرة قائلين لها: «كل النساء البيضاوات يأتين هنا للبحث عن زوج، ألهذا أنت هنا؟».

ولي أنا نفسي قضية مع المدخل. إذ دخلت ذات يوم من المدخل الرئيس لأنني أوقفت سيارتي أمامه، ولم أشأ إخراج مفتاحي من مخزن السيارة الخلفي. إذ كان الجو بارداً فلم أشأ أن أدور حول المسجد لكي أصل إلى باب النساء في الطابق العلوي. وفعلت ذلك حوالي عشرين مرة من قبل، ولم يكن الوقت وقت صلاة عندما يكون الإخوة موجودين هناك؛ أما هذه المرة، فتحت الباب وإذا بائنين من الإخوة يقفان هناك. فصدمنا لدى رؤيتي وحولاً الموضوع إلى قضية. وصفوني بأني غير محتشمة وأسأوا إلى مقصدي من استخدام ذلك المدخل. وتراءى لي أنهم كانوا يتوقعون مني أن أختبئ نهائياً عن الرجال حتى يكون الفصل كلياً. ليس هذا معقولاً!! ففي القرآن أمر للرجال أن يغضوا البصر أولاً، وفي الآية التالية يؤمر النساء أن يغضضن من أبصارهن وألا يعرضن زينتهن. بعض هؤلاء الإخوة معتادون على البقاليات الرجالية فقط في بلادهم، ومن ثم فإن مجرد رؤية امرأة وإن كانت مُغطاة تكفي لصدمتهم. ومؤخراً أرادت فتاة اعتنقت الإسلام حديثاً أن تكلم الإمام عن مشكلتها. فطلب إليها أن تدخل غرفة النساء فبقيت هناك. وأخذ يكلمها من وراء الجدار. هذا تطرف كبير.

عندما بدأت ارتدي الحجاب لم أكن أظن أنه سوف يفسد هويتي، كان الحجاب يميزني في إسلامي، ولكن، على ما يبدو، صار وكأنه لافتة تقول: هذه أجنبية وليست أمريكية، لأن من يلبس الحجاب ليسوا أمريكيات. وبدا لي كأنه ينبغي أن أطوف بين الناس لأبرهن أنني لست من أولئك النسوة اللاتي يقبلن أن يضطهدن أو أن يخضعن لهيمنة الرجال. ومع ذلك، لست من الطرف الآخر - النساء الخاضعات للرجال، لأنهن لا يتعدين كونهن موضوعاً جنسياً. إنه لميزان خيث لا أستطيع الاحتفاظ به في أغلب الأحيان.

هذه الإشكالات كلها التي تحدث في المساجد تزعج الأخوات المسلمات الأمريكيات، لأنهن لم يألفن مثل هذه التصرفات. لقد نشأنا في مجتمع نستطيع فيه أن نعبر عن آرائنا، ونُحِثُّ على أن نستجوب الأحكام والسلطات. لقد تعلمنا كيف نحلل ونتأمل، ولا نقبل ما يقال لنا على علاته. ففي اختصاصي الذي أدرسه وهو الدين، وما قبل الحقوق يجب أن أكون موضوعية وناقدة. لذلك عندما نتعامل بمثل هذه القضايا مع إخوتنا العالميين الذين لم يألّفوا أخوات مثلنا، يكشف هذا التعامل عن صدام حضارات. فمثلاً، عندما لم تؤخذ همومنا في لقاء الإفطار مأخذ الجد، لم نتراجع، بل دعانا ذلك إلى «ثورة». إذ بدأنا نذهب مجموعات إلى الطابق السفلي ونصلي وراء الإخوة. تلقينا نظرات قذرة، وألقيت أحذيتنا خارجاً، وهددنا بالطرْد بالقوة. إن الله قد منحنا، على أي حال، الحق في أن نصلي في الغرفة ذاتها، وهكذا تابعنا تمردنا. من المحزن أن يكون سوى التمرد هو الأسلوب الوحيد الذي يجعل هؤلاء يهتمون بنا وبمشاكلنا بصورة جدية، ووصموا تصرفنا بأنه فتنة^(١)، ولكن ما هذه إلا (كليشية). الفتنة صراع، ولكن الصراع الفعلي هنا هو كفاح الأخوات من أجل استرداد حقوقهن التي منحهنّ الله إياها.

■ التعليق ٣

(قدم لي هذا التعليق مجموعة من النساء المسلمات من الجامعة التي تدرس فيها صاحبة التعليق السابق. لقد بدأت بنات الجيل الثاني ينظمن أنفسهن أكثر ضد أدوار المرأة التقليدية في المجتمع الإسلامي):

الإخوة، الأخوات، الأصدقاء:

نسعى أن نبدأ سنتنا الجديدة بإصلاحات لمسجدنا بالحصول على حقوق متساوية للجميع. نستطيع، إن عملنا معاً، أن نصلح النظام ونحسن وضع الجالية. فيما يأتي نعرض همومنا الأساسية:

(١) الفتنة هي، المحنة، الإثارة، الإغواء، الانشقاق، الخلاف، الحرب الأهلية .

١. لا تُجرى الانتخابات كل عام

إن موقع الإمام ليس دائماً في المسجد، لذلك، كانت الانتخابات في الماضي تجرى سنوياً لمنح فرص للناس كي يتقدموا. أما الآن فلا تجرى الانتخابات إلا بعد أن يمارس ضغط على القيادة. وآخر انتخابات أجريت لهذا المسجد كانت عام ١٩٩٩. في جاليتنا قادة من ذوي العلم والمعرفة، ويستحقون أن يأخذوا فرصتهم لقيادة الجالية.

٢. لا يسمح للنساء بالمشاركة في اختيار الإمام (هذا إذا أجريت الانتخابات)

القيادات الحالية لا تسمح للنساء الإدلاء بأصواتهن لمنصب الإمام، قائد المسجد. ليس لهذا الموقف أساس في الإسلام. بل الإسلام في الواقع حرر المرأة ومنحها حق التصويت.

٣. ليس في المجلس سوى موقع واحد للنساء

إما أن يمنع النساء من المساهمة في عملية اتخاذ القرار، أو يثبطن عن ذلك. قبل بضعة أسابيع مثلاً، أعلن بيان بشأن وقت صلاة الجمعة الجديد. وعندما كانت النقاشات تدور في الطابق الأسفل في منطقة الرجال، كانت النسوة في الطابق العلوي يستمعن عبر المكبرات. وبعد ذلك، أرسلت ورقة ممهورة إلى لوحة الإعلانات في الطابق السفلي حيث يستطيع الرجال المساهمة في الإدلاء بآرائهم. أما النساء فلم يقمن بأي دور في اختيار وقت الصلاة. إذ لا تؤخذ آراء النسوة عادة في مثل هذه القرارات. ولم يكن في الطابق العلوي ميكروفون كي تتمكن النساء من التعبير عن آرائهن أو إصدار إعلان أو حتى توجيه سؤال.

٤. لا تجري جمعية الطلبة المسلمين انتخابات، ولا تشمل النساء:

في الجامعة نحو ثلاث مئة طالب مسلم، ومع ذلك يعين الإمام كل سنة رئيساً للجمعية. كما يعين الإمام هيئة الجمعية. هناك طلبة كثيرون من الإخوة والأخوات المؤهلين والراغبين في قيادة الجمعية، يجب منح هؤلاء فرصتهم.

والجمعية لا تنفذ نظامها الداخلي الذي ينص بوضوح على وجوب إجراء انتخابات في كل سنة.

وفي الاجتماع الأخير للجمعية استبعدت النساء، كالعادة. عقد الاجتماع في الطابق الأسفل المخصص للرجال. وقال رئيس الجمعية في إعلان موجه فقط للذكور: «أيها الإخوة، يرجى البقاء لحضور اجتماع الجمعية بعد صلاة الجمعة».

٥. عينت رئيسة أخرى للأخوات من دون انتخابات أو مناقشة

رفضت إحدى الأخوات أن تعمل مع رئيسة الأخوات الحالية أو تتعامل معها بسبب توتر شخصي. وبدلاً من تنحية هذه الإشكالات جانباً، والعمل معاً، شكلت هذه الأخت فريقاً مستقلاً من الأخوات من خلال حلقاتها الأسبوعية. فعينها الإمام رئيسة للأخوات رغم أن الأخت الأولى كانت قد فازت بمنصب رئاسة الأخوات في انتخابات عام ١٩٩٩ بالأكثرية. لدينا اليوم حلقتنا دراسة تفود كلاً منهما رئيسة أخوات. إحداهن فقط منتخبة، ولو منذ ثلاث سنين.

ومؤخراً وضعت رئيسة الأخوات أقفالاً على أبواب المكتبة بعد أن أخفقت في محاولاتها منع الطالبات من دخول المكتبة. للنساء حق في المكتبة، ومن الظلم أن يكون في المسجد مكتبة واحدة اسمها «مكتبة الإخوة».

٦. الآراء السلفية / الوهابية لا تمثل آراء الأكثرية

إمام جاليتنا وهابي علناً (سلفي AKA)، التي هي تفسير قاس وجامد للإسلام تتبناه كذلك حركة طالبان. لا يستحق مثل هذا الزعيم المتعصب لآرائه أن يكون إماماً. ولا لنساء هذا المسجد أن يكون لهن رئيسة - تستطيع معاملتهن على قدم المساواة، وتتيح لهن التعبير عن آرائهن، ويشجعنها. لا تنتمي أكثرية المسلمين في هذه المدينة إلى الوهابية، ونحن بحاجة للتأكد من أن هذا التفسير الجامد للإسلام بعيد عن العقائد الإسلامية.

عُلِّقت مقالة مؤخراً في الطابق السفلي في قسم الرجال تقول: إنه محرم على النساء ارتداء البنطال. لقد نبذ المسلمون هذا النوع من الإيديولوجية الوهابية على الفور، ومع ذلك ظلت المقالة معلقة نحو شهر، ولم يتصدَّ لها أحد.

وفي ١٢ أيلول/سبتمبر عندما شجع بعض المسلمين قيادة المسجد على إقامة صلاة على ضحايا ٩/١١/٢٠٠١ تكلم رئيس جمعية الطلبة المسلمين (MSA) بالنيابة عنهم ورفض ذلك. لأنه شعر أنه من غير اللائح أن يصلي المسلمون على غير المسلمين. وعلى الرغم من وجود مئات المسلمين العاملين في مركز التجارة العالمي (WTC) لم تفلح القيادة في إدراك المبدأ الإنساني الذي مفاده أن المسلمين وغير المسلمين كلهم خلق الله. أقامت غالبية المساجد في أيوا (IOWA) صلاة على أرواح ضحايا ٩/١١ ؛ ويجب ألا يختلف عنهم مسجدنا.

من المهم أن نلاحظ أن جمعية الطلبة المسلمين لم تستدع خطباء خلال السنوات الثلاث السابقة سوى الوهابيين، ذلك لأن الإمام يقوم بفحص الخطيب وغربلته قبل دعوته (والخطيب دائماً ذكر)، وإذا ما اقترح امرؤ أن يكون خطيباً غير وهابي يقال: إنه لا يتمتع بالمعرفة الكافية.

تشجع قيادة المسجد، القيام برحلة كل سنة إلى مؤتمر الجمعية الإسلامية لشمال أمريكا (IANA) توزع إعلانات، وتستأجر حافلات، وتوزع باليد استمارات تسجيل. ومع ذلك يضللون الناس فلا يذكرون أن هذا المؤتمر وهابي. إن أكبر مؤتمر إسلامي وأكثر المؤتمرات الشعبية في هذا البلد هو مؤتمر الجمعية الإسلامية لشمال أمريكا (ISNA) ويعقد كذلك مرة كل سنة في شيكاغو Chicago. لم يوزع العاملون على هذا المؤتمر دعوات، ولم يذيعوا إعلانات أبداً. كما أن مؤتمر الولاية السنوي حول الإسلام يتم تجاهله كلياً، رغم أن المساجد وجمعية الطلبة المسلمين في الولاية لا يحضرون المؤتمر فحسب، بل يساعدون أيضاً في تنظيمه.

تحرش رجل غير معروف تحرشاً شفهياً بطالبة مسلمة في احتفال إسلامي في الجامعة مؤخراً. عبّرت عن قلقها وهمومها وفي أثناء عقد الاجتماع. وعلى الرغم من أن قيادة جمعية الطلبة المسلمين حاولوا تحديد هوية المتحرش، قاموا بتقويم الموقف بصورة غير عادلة. إذ افترضوا أنها أقحمت نفسها في الموقف، ولكي تتلافى مثل ذلك الحدث عليها أن يقتصر حضورها على اللقاءات التي يتم فيها فصل الإناث عن الذكور. وليس لهذا الأمر صلة بالموضوع الذي يتلخص في أن شخصاً ما ضايق فتاة وتحرش بها. ويجب أن يتحمل ذلك الشخص المسؤولية كاملة، ويجب ألا يسوغ سلوكه، وينبغي ألا تلام ضحيته معه.

■ هذا ما نريده :

شكلت لجنة انتخابية من مسلمين مختلفين. وسوف يرأس هذه اللجنة ويشرف عليها شخص محترم من جالية مسلمة أخرى في أيوا. ستحدد اللجنة موعداً للانتخابات يشمل المناصب الآتية، وليست محددة بها؛ الإمام، أعضاء مجلس (العضوية مفتوحة للجنسين)، ورئيس جمعية الطلبة المسلمين، والمجلس التنفيذي للجمعية. تجمع اللجنة أسماء المرشحين، وتعلم الجالية بالأسماء وبآرائهم وقوتهم، إما عن طريق نشرات، أو رسائل (إلى الجنسين)، أو بأي طريقة أخرى. ستجرى الانتخابات وترسل النتائج بالبريد.

لا يصدق أن مثل هذه الأحداث العتيقة تحدث في أمريكا القرن الحادي والعشرين. أرجو أن تساعدنا في تغيير هذا الوضع.

■ التعليق ٤

(إن نساء الجيل الثاني في كندا يعترضن على الوضع الراهن كما تبين الرسالة).

لقد عدت لتوي من أحدث المناظرات والمجادلات. قضية جدل قديمة جديدة. القضية هي أين ستصلي النساء. معلومات خلفية. كان مسجد ريجينا Regina كنيسة سابقة تستخدم الآن مسجداً. لذلك فإن تصميم المسجد مختلف

عن غيره من المساجد، أي إنه توجد قاعة رئيسية في الطابق الرئيسي. وفي الطابق العلوي صفوف وغرف أخرى، خصصت إحدى هذه الغرف لتكون «مصلًى للأخوات». منذ سنوات والأخوات يناضلن بقوة ليكون تحديد مكان صلاة الأخوات بناء على اختيارهن. ومع ذلك، هناك رجال يريدون أن تكون الكلمة العليا في هذا الشأن لهم.

ضوء إلى الأمام اليوم: بما أنني موظفة محظوظة في المدينة حصلت على إجازة اليوم. كنت أخطط لتخصيص وقت أذهب فيه إلى صلاة الجمعة. تهيأت نفسياً مع قليل من الاضطراب، لأنني لم أذهب إلى المسجد منذ زمن. حوالي الساعة العاشرة من هذا الصباح، هتفت لي صديقتي، فذكرت لها في أثناء الحديث أنني سأراها في صلاة الجمعة. فقالت: إنها لن تذهب لأن مجلس المسجد أعلن يوم الجمعة الماضي أن على الأخوات أن يصلين الجمعة القادمة في الغرفة الصغيرة في الطابق العلوي. لأن ضيوفاً سيأتون إلى المسجد من الجامعة (أستاذ وطلابه يدرسون الإسلام). ومن ثم فلن يكون هناك متسع للأخوات. فانزعجت وقررت عدم الذهاب هذا الأسبوع. فأحبطت أنا كذلك. إذ كنت أطلع للذهاب إلى الجمعة وأستمع بلحظات روحية. طار صوابي كذلك من هذا القرار. من أعطى الرجال حقاً ليحددوا أين نصلي وأين لا نصلي ؟ فقررت ألا أذهب أيضاً. ولكني غيرت رأيي في اللحظة الأخيرة. إذ قررت أنهم بغياي يكسبون وأخسر أنا. كنت قد خططت للذهاب إلى الجمعة ولي الحق في الذهاب. لذلك قررت أن أذهب وأصلي في القاعة الرئيسية. كنت غاضبة، ولا أعرف ماذا سيحدث. وصلت في أثناء الخطبة. دخلت قاعة الصلاة الرئيسية. فرمقتني نظرات استغراب وأنا داخلة. يبدو أن لكل شخص راداره الذي يرصد به الأخوات، أمر مضحك.

جلست أصغي إلى الخطبة. وبعد بضع دقائق، قام أحد الإخوة من كرسية (مع أنه كان يصلي على الكرسي لكن لديه القدرة أن يأتي لينصحني) من الصف الأمامي واتجه من بين المصلين إلي مباشرة حيث كنت أجلس.

الأخ : عليك أن تصعدي إلى الطابق العلوي.

أنا : اخترت أن أصلي هنا.

الأخ : ليس هنا سواك فلا تستطيعين أداء صلاة الجمعة وحدك. لابد من أن تصعدي إلى الطابق العلوي.

أنا : لا. إنني أصلي هنا.

الأخ : الأخوات الأخريات كلهن في الطابق العلوي، وعليك أن تذهبي إلى هناك لتصلي معهن.

ظن ذلك سوف يغريني، فأخضع وأصعد إلى الطابق العلوي. ولكني بقيت.

أنا : حسناً، يمكنهن الصلاة هنا إن شئن.

وبعد بضع دقائق قدم أخ آخر.

الأخ الثاني : يا أخت، لقد أجريت ترتيبات هذا الأسبوع لكي تصلي الأخوات في الطابق الثاني.

أنا : إنني أصلي هنا في الطابق الأسفل.

الأخ الثاني : لكن تقرر ذلك، فقط لهذا الأسبوع.

أنا : إنني باقية هنا.

أظن أنه لم يشأ إحداث جلبة، لذلك تركني وعاد إلى مقعده. استمرت الخطبة، وبعد بضع دقائق أخت أخرى جلست بجانبني. وعندما انتهت الخطبة، صليت وهذه الأخت معاً حيث كنا جالستين. وبعد الصلاة، لاحظت الأستاذ القادم من الصف فذهبت إليه وتحدثت معه قليلاً.

أنا : مرحبا !! هل أنت من UR؟^(١)

الأستاذ : نعم. أنا كذلك، وأدرس الإسلام في الجامعة.

أنا : هل أحضرت طلبتك ؟

الأستاذ : نعم. فقدمني إلى طالبه الذي كان يجلس بجانبه. احسبهم : اثنان آخران في قاعة الصلاة. وهناك طالبتان في الطابق العلوي.

بعد ذلك ودعت الأخت الأخرى وشرعت في الخروج من المبنى. كان لابد للأخوين اللذين تكلمنا معي في أثناء الصلاة من كلمة أخرى معي.

الأخ الثاني: يا أخت كان ينبغي أن تذهبي إلى الطابق العلوي ما دام قد تقرر ذلك. لقد أعلن القرار الأسبوع المنصرم بسبب قدوم الضيوف هذا الأسبوع فقط.

أنا: يا أخ، لم يكن من الضيوف سوى أربعة، ويمكن تدبر الأمر بوجودهم بسهولة. وأنا لم يعجبني قدومك إلي والتحدث معي في أثناء الخطبة، لقد أفسدت علي سماع الخطبة.

الأخ الثاني: وأنت أفسدت علي سماعها أيضاً. كان ينبغي أن تصعدي إلى الطابق العلوي.

أنا: يا أخ. لن أصلي في الطابق العلوي. ولا أوافق على قرار المجلس. وأعتقد أن عليهم أن يناقشوا الأمر مع أعضاء الجالية كلهم. ولا يعجبني أن أعامل بهذه الطريقة عندما آتي إلى المسجد. اقتطعت من وقت عملي لآتي كي أؤدي الصلاة.

الأخ الثاني: نعم. جيد جداً أن تأتي لتصلي.

هراء. وفي هذه الأثناء كان لابد للأخ الذي كان جالساً على الكرسي من أن يقول بضع كلمات وداع.

الأخ الأول: كان ينبغي أن تصعدي إلى الطابق العلوي عندما قلت لك ذلك. إنه المبدأ. كنت وحيدة.

أنا: لا، بل كانت معي أخت ثانية.

الأخ الأول : دخلت عندما رأتك. كان ينبغي أن تصعدي إلى الطابق العلوي. فهي لم تعرف أن بقية الأخوات كن هناك.

إنه يلومني الآن على إفساد تلك الأخت. ثم بدأ يشرح : كيف أني لا أستطيع الصلاة وحدي ، رغم أني أفهمته أننا كنا اثنتين ، والواقع أني كنت أصلي مع أعضاء الجالية كلهم.

أنا : يا أخ ؛ لن أناقشك في هذا الموضوع ما لم تأت ببرهان على ما تقول. على أي شيء تبني رأيك؟

الأخ الأول : حسناً ! ليس لدي برهان ، لذلك أعتقد أنه لم يعد بالإمكان المناقشة.

أنا : حسناً.

ثم تركتهما وسرت في طريقي السعيد البهيج.

■ التعليق ٥

(من امرأة مسلمة من شمال إفريقية. تلقيت رسائل تشجيع كثيرة من مسلمين من وراء البحار. كما تلقيت رسائل إلكترونية أكثر نقداً من مسلمين ، وكان بعضها يذمّ كتبي ومحاضراتي. تعبر هذه الرسالة - التي لم أكن أتوقعها - عن أمل مشترك بين أولئك الذين يتصلون بي من الخارج : تقول : إن الذين يعتنقون الإسلام سوف يتابعون قبل كل شيء إعادة تقويم الفكر الإسلامي والممارسات الإسلامية بصورة نقدية. ويقدر ما أعجب بالعوطف الداعمة المؤيدة ، فإني أعتقد أن أي حركة في الفكر الإسلامي لا تأتي من العالم الإسلامي التقليدي لن تصمد).

أنا متأكدة أنك تلقيت رسائل إلكترونية كثيرة تشكرك على كتابيك. على أي حال ، لا يسعني إلا أن أعبر عن امتناني لك لما تبذله من جهود لمساعدتي والمسلمين كافة وغير المسلمين على حد سواء في فهم ديننا بصورة أفضل. كنت في رحلة عمل الأسبوع الماضي وحالفني الحظ أن قرأت كتابك الأول ، وأنا

الآن في منتصف كتابك الثاني. ويعد أن كان لابد من إجراء الفحص الأمني قبل تحميل الطائرة منذ ١١ أيلول/سبتمبر «إنني أرتدي حجاباً وأعمل مستشارة هندسية في الصناعات البتروكيميائية، لذلك أسافر كثيراً وأصور وأكتب عن سيرتي باستمرار»، احتجت إلى قراءة شيء يذكرني بسبب جعل هذا الأمر جزءاً من «الجهاد» بحيث أتحمّل تفاقم الأمور والإثارة ببساطة. وقدمت كتبك الفحص الأول المطلوب للسلامة العقلية في وقته.

أود القول: إنني وجدت طريقة تفكيرك مربكة وعرضك للحقائق دقيقاً ومفعماً بالمعلومات. الإسلام دين الله، غايته البشر كافة، وأنت شاهد حي على أن الذين يعتنقون الإسلام أقدر على اكتساب المعرفة الإسلامية أكثر من المسلمين بالولادة^(١) أنا ولدت مسلمة ونشأت في مجتمع إسلامي في شمال شرق أفريقية، ولكنني حصلت على ميزة التعرف في وقت مبكر إلى المسيحية عبر المنهاج المدرسي الذي التحقت به. قلة هم الذين حازوا على منفعة التعرف في سن مبكرة إلى أديان مختلفة، سواء من المسيحيين أم اليهود أم المسلمين، أم الذين انتفعوا من توجيه آبائهم لهم كي يفكروا قبل أن يقرروا لأنفسهم أو يحكموا على الآخرين... إن لهم أن يحكموا أن المقدرة على التفكير خارج نطاق بيئة المرء متوافرة عموماً لدى الذين يتخذون خطوات جريئة كاعتناق دين آخر. ومن ثم، يجب الاستفادة من هذه النقطة القوية لدى معتنقي الإسلام من أجل تطوير أمتنا الإسلامية وتنميتها^(٢). أخشى أن يتردد المسلمون بالولادة كثيراً عندما تتعرض بعض المعتقدات الإسلامية للتساؤل، وعندما لا يكونون قد فكروا في القضية بعناية قبل اعتناق الدين، فإنهم نادراً ما يستطيعون الدفاع عنه إذا نشأ حوار. فضلاً عن أننا نجد صعوبة في أن نضع أنفسنا مكان الآخرين. لقد جرى حوار محبط مع مجموعة من المسلمين بالولادة والمثقفين جداً في رمضان المنصرم، وجدت نفسي الوحيدة التي أرى أن مفهوم الإيمان بالله يتجاوز الأديان كلها

(١) هذه عواطف لطيفة، ولكنني عندما أنظر إلى أخطائي الناجمة عن إهمال في محاضراتي وكتاباتي السابقة أشعر بأنني أفتر إلى المعرفة.

(٢) الأمة هي الكلمة العربية المرادفة للكلمة الإنكليزية (مجتمع Community).

ويسمو عليها، وأنه إذا كنا نؤمن حقاً بأن الله رحيم فلا ندين الطيبين الخيِّرين من الشعوب والأديان الأخرى وأن لا نحكم عليهم باللعة الخالدة، لمجرد أنهم لم ينطقوا الشهادة فإذا كانت المجموعة تمثل عينة من نخبة أمتنا المثقفين، فإن المسلمين بالولادة أشد حاجة إلى كتبك من الذين يعتنقون الإسلام حديثاً. من الصعب جداً على المسلمين بالولادة أن يضعوا أنفسهم مكان الآخرين ولو لفترة قصيرة، ومع ذلك يتوقعون أن الجميع قادرون على رؤية الخير في الإسلام مع كل ما يحيط به من انحرافات، ومحدودية المعطيات اللامتحيضة التي يتلقاها العالم الغربي.

إن أمل أمتنا، هذه الأيام، هو التعاطف الإنساني الأساسي والتسامح والانفتاح العقلي والفكري والإيمان المثقف والواثق بالله، فأرجو أن تتابع إسهاماتك في مساعدة المسلمين وغير المسلمين على فهم الإسلام.

■ التعليق ٦

(من شابة تزوجت رجلاً غير مسلم. لقد أصبح اليوم زواج مسلمات الجيل الثاني من غير مسلمين شائعاً):

إنني أقرأ كتابك (الصراع من أجل الإيمان) وجدته ممتعاً جداً، وأعتقد أن الطريقة التي أسلمت بها مؤثرة جداً. رأى والدي على ظهر غلاف الكتاب أنك أستاذ في جامعة كنساس، فبحثت في الإنترنت وحصلت على عنوانك الإلكتروني. إنني بحاجة إلى مساعدتك في وضع أختي. كانت أختي متدينة جداً وترتدي الحجاب، ولكنها تركت الإسلام مؤخراً. ونقول: إنها تؤمن بالله، ولكنها لا تؤمن بدين معين أو نبي معين. وهذا مزيد من التفاصيل.

كانت أختي متدينة طوال حياتها ووضعت الحجاب عندما كانت في السنة الثانية من الكلية. انتسبت إلى MSA^(١) وكتبت مقالة تقارن فيها بين المرأة في

(١) MSA جمعية الطلبة المسلمين.

اليهودية والمسيحية والإسلام. وألقت خطباً عديدة حول حقوق المرأة في الإسلام.

وقبل تخرجها بستة شهور مهندسة قالت لأمي: إن لديها بعض الأسئلة حول الإسلام. أجابتها أمي عليها ورضيت بها. ثم قبل التخرج بأسبوعين قالت لأمي: لم أعد مسلمة، لأنها لا تفهم «القدر»^(١) ولا تفهم بعض القضايا النسائية. دعا والدي أربعة علماء متخصصين في الإسلام إلى بيتنا في مناسبات مختلفة. جلست مع كل واحد منهم وأعطوها إجابات جيدة، ولكنها ما زالت مصرة على عدم انفتاح قلبها على الإسلام ثانية.

حصلت على منحة دراسية كاملة لأفضل كلية هندسة. ولم يستطع والدي منعها من قبولها. كانت الكلية تبعد عن المنزل أربع ساعات. وفي كل مرة تأتي أختي لزيارتنا يجري نقاش في الدين. والداي متدينان جداً فلم يستطيعا القبول بارتدادها عن الدين. وبعد سنتين قرر والدي التبرؤ منها. وبعد خمسة شهور اكتشف الوالدان أنهما لا يستطيعان الاستمرار على هذه الحال فقررا إعادة العلاقة معها. تلقت أختي خلال ثلاث سنوات عروضاً بالزواج عديدة من شباب مسلمين، وكانت في كل مرة تختلق الأعذار وترفض. وعندما عادت إلى العلاقة معنا طرحت شرطين:

(١) ألا نكلمها في الدين إطلاقاً.

(٢) أن نقبل بمن تختاره زوجاً لها.

وافق والداي على هذين الشرطين. جاءها عرض بالزواج بعد ستة شهور ولكنها رفضت، لذلك سألتها أمي إن كان هناك شخص في حياتها، فأجابت، نعم. وبدأت تبكي، وأخيراً أخبرت أمي أن شاباً ملحداً أحبها منذ أيام الكلية وطلب يدها. فصدته لأنها لا تريد أن تخيب أمل أسرتها فيها، فسافر إلى أوربة، قالت أختي: إنها حاولت أن تجد آخرين، ولكنها لم تستطع نسيانه. فسألت أمها إن كان بإمكانها الزواج منه.

(١) القدر هنا تعني به القضاء والقدر، انظر الفصل الأول السؤال السابع.

قالت أمي إنها مهتمة بأختي، وبزواجي يوماً ما. ورغم أن أختي ليست مؤمنة، لم يكن أحد من الجالية الإسلامية يعلم بذلك. فاشتريت أمي عليها إن كانت تريد الزواج منه أن ينطق الشهادة ويتزوجها بالطريقة الإسلامية، ويتحدث إلى عالم إسلامي. فوافق على نطق الشهادة والزواج بالطريقة الإسلامية.

تقول أختي: إن مشاعرها كانت قوية جداً، وأنها عرفت منذ كانت في الكلية، ولكنه أثر فيها تأثيراً إلحادياً وربما حرفها عن الإسلام. حاولت قبل تخرجها أن تقنعه بالإسلام، ولكنه أبعداها بدلاً من ذلك عن عقيدتها.

إننا نريد أولاً شخصاً يقنعه بوجود الله. فإن اقتنع تأتي الخطوة التالية وهي التحدث معه عن الإسلام، فإن آمن، ربما يعيدها إن شاء الله، إلى الإسلام. فهل لك أن تبعث إليه برسالة إلكترونية، كنت ملحداً قبل أن يهديك الله إلى الإسلام؟ إننا نشمن حقاً مساعدتك لنا، أعرف أن رسالتي طويلة، فمعذرة. ونرجو أن تعلمنا إن كنت تستطيع مساعدتنا.

■ الجواب

إنني راغب في الحديث مع هذا الرجل، ولكن الأفضل أن يبادر هو. فليس هناك من سبب وجيه يجعل امرأ غريباً يدفعه إلى الإسلام، فإن ذلك ربما يجعله أكثر إصراراً وعناداً. أعتقد أن أفضل استراتيجية هي محاولة استرداد أختك واكتسابها أولاً. فإن عادت إلى الإسلام فإنها ستؤثر في زوجها بلا ريب؛ أما الاستراتيجية المعكوسة فهي أكثر عرضة للإخفاق. ولتحقيق هذه الغاية، أو للسير في هذا الاتجاه على الأقل، من المهم أن تحافظوا على العلاقات الوثيقة مع أختك وزوجها. ادعواهما للمشاركة في لقاءات الأسرة، والصيام في رمضان، والاحتفالات الدينية وما إلى ذلك. لا أشجع أسرتك أن تكون مندفة أو مقهورة مع أختك وزوجها، بل أعطوهما فرصة الإعجاب ببعض الأمور الخيرة والجيدة في حياتكم وسلوك أسرتكم الناجم عن الدين. فإن ظلت أختك

قريبة ووثيقة الصلة بأسرتها فربما تشعر يوماً ما بالحاجة إلى إعادة النظر في إلحادها، وبالرغبة في استكشاف الإسلام بصورة أعمق.

أعتقد أنني أعرف بشكل تلقائي ما عانتة أختك. أنا كذلك أجد أن المعتقدات ذات الصلة بالقَدَر - التي تمثل اتجاهاً واحداً في الفكر الإسلامي، واستغرقت مئات السنين حتى تبلورت - مخيبة للآمال جداً. وأرى كذلك أن محاولة المجتمع المسلم تبييض العديد من الإشكالات ذات العلاقة بمعاملة النساء المسلمات غير مقنعة. يبحث كتابي الثاني (حتى الملائكة تسأل) هذه المشكلات وغيرها. فأنا لا ألوم أختك ولا والديك. إنني أتعاطف معكم جميعاً وأشعر بالحزن من أجلكم. وهناك نساء أمريكيات مسلمات يخضن هذه التجربة المؤلمة هن وأسرهن.

إن الطريقة التي تعلم بموجبها الجالية الإسلام وتطبقه ربما تكون نافعة ومُجدية في المجتمعات الإسلامية التقليدية. بيد أن كثيرين من الشباب الأمريكيين المسلمين لا يستطيعون الانتماء إلى آراء وأفكار متأثرة ثقافياً تأثراً قوياً، خصوصاً بعد أن يدخلوا الجامعة، ويتعرضوا إلى آراء بديلة يدافع عنها أصحابها ببراعة.

الآن، ربما يفضل والداك شخصاً آخر ليكلّم أختك وزوجها، يكون أكثر التزاماً بالنظرة التقليدية، ومع ذلك أكون سعيداً جداً أن تكلموهما إن كانا يرغبان بالاتصال بي.

■ التعليق ٧

(تعبّر عن شكوك خطيرة حول الإسلام. تلقيت رسائل عديدة مماثلة من مسلمي الجيل الثاني. ليس في ذلك ما يسبب صدمة، فكثير من الشباب الأمريكي من كل دين يمرون بمراحل من الشك، ولكنني دهشت بالعدد الهائل من الرسائل الإلكترونية التي تلقيتها من ملحدّين من الجيل الثاني لأبوين مسلمين. ليس تحول هؤلاء الشباب إلى الإلحاد هو الذي أذهلني - فكثيرون هم الذين يفعلون هذا من الأمريكيين - ولكن الذي أذهلني هو الجهد الذي بذلوه

للاتصال بي لبحث مسألة تركهم الإسلام، إن خروجهم عن طريقهم لكي يبحثوا عمن يفترض ألا يمجّد قرارهم لأمر عجيب. وفيما يلي مقتطف من محادثة طويلة جرت بيني وبين سيدة على مدى شهور. أخبرتني في رسالتها الإلكترونية الأولى أنها تخلت عن إيمانها بالله. ومع ذلك لم يطل الزمن حتى عادت بملء إرادتها وحريتها إلى الإسلام، وإن كان ذلك مصحوباً بكثير من الأسئلة والترددات. هذا المقتطف من رسالة إلكترونية بعثتها لي بعد عودتها للإيمان):

أحبذ لو تستمر في البحث معي، خصوصاً بشأن مكان الحديث، السيرة والتفسير وعلاقتهما بفهم القرآن. أسأل ذلك لأنك أثرت في كتابك الأول سؤالاً حاسماً صدمني. لقد سألت، حسبما أذكر، لماذا نحتاج إلى مصادر نصية للإرشاد الديني غير القرآن؟ طرحت السؤال على نفسي عندما بلغت الثامنة عشرة من عمري، فكان جوابي مختلفاً عن جوابك. وكلما فكرت في السؤال أكثر ازدادت يقيناً أنني في ما أنا فيه من مأزق كان بسبب الطريقة التي أجبت بموجبه عن السؤال. أذكر أنني كنت أسأل نفسي في ذلك الوقت ما الفرق بين اليهودية والمسيحية والإسلام؟ شعرت أن الجواب هو أن كتابنا بصيغته الأصلية الصرف ليس وحده، بل شعرت كذلك أنه خلافاً للمسيحيين واليهود، لدينا الحديث، كان ذلك مهماً بالنسبة إليّ، لأنني شعرت أنه لم يترك الأمر للتفسير. فالحديث في رأيي يمكن أن يخفف ويقلص الاختلافات في الفهم التي تنجم عن التحيز المتأثر بالثقافة. فكنت دائماً أستشهد بالحديث الذي ترويه عائشة ومفاده أن محمداً كان قرآنًا يمشي على الأرض. وهذا يعني عندي أنه لا يفسر القرآن فحسب، بل أيضاً يعلمنا كيف نأخذ ذلك المعنى ليكون في حياتنا وسلوكنا، كما يعني أن هناك جوانب من البشر لا تتغير. وجاء الإسلام فأعطى أحكاماً نوعية محددة لهذه الجوانب البشرية والمظاهر الحياتية. وهذا ما قادني إلى النقطة التي وصلت إليها قبل شهر تقريباً عندما أحسست أنه لم يعد بإمكانني أن أومن بالإسلام. فلم أعد أرى القرآن كتاباً يدفع للتفكير، بل هو كتاب يعطي أحكاماً، ويضع قواعد لكيفية العيش، والحديث يساعد على الحد من كمية تفسير القرآن.

هذه النتيجة السطحية قادتني إلى الالتحاق بمجموعة من الناس ينشرون شكلاً من الإسلام يقول : إن ما من مشكلة في الحياة إلا ولها حل دقيق في القرآن والحديث. فكان ذلك يلائم نمط الأسئلة والهموم التي كانت تشغلني عندما التقيت هذه الجماعة. وقد أخبرتك عن تجربتي معها في رسالتي الأولى. أعتقد أنه كان لدي هموم وأسئلة مشروعة عندما التقيتها، ولكن الإجابات التي وجدتها كانت سهلة وليست تلك التي أنا مقتنعة بها.

عندما بلغت التاسعة عشرة ازداد انخراطي في الجالية الإسلامية، أحبيت الإسلام كثيراً وكنت تواقاً للتعبير عنه. وأعظم شعور لدي كان شعوري بأن حولي شعب مسلم. كان لدي إحساس بالسلم والوحدة. ولكن، كلما تعاظم الإحساس بالسلم والوحدة هذا ازداد إدراكي لمشاكل الأمة. وفجأة رأيت على شاشة التلفاز المسلمين البوسنيين يقتلون، وكانت لي صديقة قدمت مؤخراً من البوسنة، الأمر الذي جعل من الصعب أن أفهم ما يجري. صرت حساسة جداً تجاه قضايا فلسطين وكشمير وغيرهما. بدا لي كأن كل بلد مسلم يعيش في أزمة. تُقتل يميناً وشمالاً، وتُستغل، وأذكر أنني ذهبت إلى اجتماع نسائي ليلي. وأتذكر أنني قلت لأحد المتكلمين والدمع يترقرق في عيني: إننا بحاجة لأن نتوحد، وبحاجة إلى أن نجعل كليتون يرى الأمور من جانبنا.

تغيرت استجابتي بعد ذلك بوقت قصير. إذ لم أعد أرى أننا بحاجة إلى مساعدة كليتون، ولكن بما أن الإسلام هو الحق فيجب أن يكون عنده الحل لهذه المشكلة ولغيرها من المشاكل، وبما أنه ليس لدى الكفار إسلام فلا يمكن أن نعتمد عليهم لمساعدتنا. بل هم في واقع الأمر، كما استنتجت، سبب المشكلة.

عند هذه اللحظة من حياتي التقيت بمجموعة من المسلمين يروجون لأفكار مماثلة للتي أنميها في ذهني. تنتسب هذه المجموعة إلى جماعة تسمى «حزب التحرير»^(١) لن أعرض لهم بأي حال، والواقع أنني أحببتهم جداً. جعلوني أتعاطف

(١) هو حزب التحرير الإسلامي الذي أسسه تقي الدين النبهاني في فلسطين.

مع الإسلام، وهم الذين جعلوني، إلى حد كبير، أفكر في الإسلام وفي سبب كونه الحقيقة. وجعلوني أفكر بتلك الأمور بطريقة لم أعهد لها من قبل. هم أول من قالوا لي: إن بإمكانني التفكير في الإسلام وفي كونه الحقيقة. وكأنهم يعبرون عما يجول في خاطري ويعتلج في نفسي. جعلوني أعتقد أن عقلي يجب أن يكون له دور. فإذا كان هذا هو الحال، فلا شك أنك سوف تعجب لماذا أنا الآن إذن في هذا الموقع، غير متأكدة مما أومن به.

ربما لأنني أظن أنهم يروجون لاستخدام مقيد للعقل. يتحدثون عن دور العقل وكيف أننا بوصفنا بشراً يمكن أن نصل إلى حقائق شاملة معينة كالعقيدة^(١) الإسلامية، ولكن لا نستطيع السؤال فيما وراء ذلك. لا يمكننا أن نسأل لماذا طلب الله إلى النساء أن يرتدين الحجاب، أو لماذا لا نستطيع أكل لحم الخنزير. ولا نستطيع الاعتراض على زواج الرجل أربع نساء، ولا يجوز للمرأة إلا أن تتزوج رجلاً واحداً، لأن ذلك سيقودنا إلى إعطاء أسباب مقيدة بثقافتنا وتاريخنا، أي موصومة بانحيازاتنا. حتى إنهم قالوا: لا يجوز البحث في القرآن عما يجعلنا نؤمن بأنه الحقيقة. وقالوا: إن سبب ذلك هو أن القرآن يتحدث عن الغيب^(٢)، وما يخفى، ونحن غير قادرين على التفكير في هذه الأمور. لذلك من الغباء استخدام ما في القرآن ليكون دليلاً على أنه حق. بل علينا أن ننظر ببساطة إلى كيفية تنزيله، إذ يكفي ذلك دليلاً على صدقه وأنه حقيقة. لقد بدا لي ذلك معقولاً، لأنني شعرت مرة أخرى أن الطريقة الوحيدة لتضييق الشقة بين المسلمين هي تقييد التفسيرات وتحديدها. ولكن لسوء الحظ قادني هذا المسار المنطوي على حسن النية إلى الاختناق. من المضحك أنه عندما وصفت تجربة الإلحاد بأنها مبدئياً شعور بالحرية، شعرت أنا بالحرية عندما قررت ألا أكون مسلمة. شعرت وكأنني صرت في النهاية قادرة على التفكير، وعلى أن أحدد بنفسني ما هو خطأ وما هو صواب. أما عضويتي في الحزب فقد جمدتني لدرجة

(١) العقيدة هي جوهر الدين.

(٢) ما وراء الطبيعة، أو ما لا يرى ولا يُعلم.

أنني لم أعد أعرف ما هو خطأ وما هو صواب. ربما أتوسع قليلاً ولكن إن لم يقل أحد ما ينبغي أن أقوله في الحلقات^(١) حتى إنني لا أعرف ما أقول عندما أقوم بممارسة الدعوة^(٢).

والأغرب من ذلك كله أنني عندما أجلس في الحلقة أشعر بالدونية وكأنني دائماً على خطأ، ومع ذلك عندما أخرج للتحديث مع الناس في الأمة^(٣) أكون متغطرة. سارعت إلى القول : إن الجميع على خطأ. لاحظ شخص عرفته في المدرسة أنني بعد أن يحدثني شخص ما، يبدأ جوابي دائماً بكلمة «ولكن». لم أعد أصغي للآخرين ؛ شعرت أن الحزب هو الطريق الوحيد. شعرت أن الخلاف يجب أن يكون في حده الأدنى، لقد جررت مصيبتني بنفسي. بدأت أدرك ذلك في مطلع أكتوبر. شعرت أنني بدأت أدرك ذلك عندما كنت أتحدث إلى أستاذي - الذي أكن له احتراماً كاملاً وكلياً - على الهاتف. أصغى إلي وأنا أشكو الآخرين وألومهم لعدم قدرتي على فهم أستاذي في دراسات الشرق الأوسط. قال أستاذي المفكر الهادئ هذا بطريقة لطيفة جداً: «أنت تعلمين أن أعظم شيء في العالم أن تَري الأمور من منظورين». استغرقت شهراً آخر حتى أدركت أنني قضيت سنة كاملة أتحدث معه عن الإسلام - ولم يكن الحديث مناقشة أو بحثاً، بل أنا أتحدث - وهو صامت، لأنه كان يسعى لرؤية وجهة نظري كاملة. ولم أحاول حتى لحظة واحدة أن أكلف نفسي فأصغي إليه وأعرف وجهة نظره. إذ كنت مقتنعة دائماً أن رأيه فاسد. وكنت أشعر أن الكفار لا يمكن أن يفهموا الإسلام إلا إذا صاروا مسلمين. والآن، بعد أن أخذت أفكر في الأمر، وجدت أن هذا الاعتقاد يشبه كثيراً اعتقاد المسيحيين الذين يقولون: إنك لا تؤمن حتى تحل فيك الروح القدس، وعندما تسألهم كيف تحل في الروح

(١) حلقات دراسة يعقدها حزب التحرير لأعضائه لمناقشة القضايا المطروحة في المجتمع وفي العالم.

(٢) دعوة الناس إلى الإسلام.

(٣) المجتمع الإسلامي.

القدس؟ يقولون: عندما تؤمن. كنت أعتقد أن مثل هذه المناقشات التي تدور في حلقة مفرغة يجربها المسيحيون وليس المسلمون، أو أنا. وكلما فكرت في السنوات التي خلت من حياتي ازدادت انزعاجاً وإحباطاً، وازددت إدراكاً لأهمية أن يتمكن المرء من رؤية الجوانب المختلفة وأن يستمر في طرح الأسئلة. من المضحك أنني مكثت نحو شهرين - قبل أن أكتب إليك - لا أكلّم المسلمين لأنني كنت محبطة ومشمتزة. بل كنت أتحدث فقط مع الكفار. شعرت وكأنه ما من مسلم استطاع أن يشغل عقلي، ويحفز فكري. لم أكن أصدق أن انشغال المرء، والتفكير، والنمو بطريقة إبداعية يمكن أن يكون خطأ. ومع ذلك، ما التقيت بمسلم إلا وقال لي: إن ذلك خطأ فعلاً.

أظن أن ما أحاول قوله لك هو أن قراءة كتبك كانت مركباً صعباً وطريقاً وعراً، ولكنني تعلمت الكثير منها. وأهم ما تعلمته هو أن عليّ أن أستمّر في طرح أسئلتني، والأهم من ذلك أن أتابعها. سأفعل ذلك إن شاء الله. أشكرك على كل شيء. وأمل ألا تجد غضاضة في متابعة التواصل معي. إذ ليس هناك ممن هم حولي سوى القليل يتمكنون من منحي الوقت الكافي لأتعلّم، وأطرح الأسئلة مثلك، فأشكرك شكراً جزيلاً.

أخبرت أمي وأختي منذ نحو أسبوع بما أنا عازمة عليه. وكان غباء مني أن فعلت ذلك، لأنهما ردّا علي بغضب واشمئزاز. لقد هدأتا الآن وتدعيان أنهما سيحاولان فهمي، ولكنهما في الواقع لا تفهماني وأنا لست متأكدة من أنهما ستستطيعان فهمي ولو حاولتا. إذ إن أختي ما تفتأ تقول لي: إنني بحاجة لرؤية الأمور من المنظور الإسلامي، وأمّي تقول: ينبغي أن أكف عن طرح الأسئلة، لأن ذلك سيدخلني في فوضى أكبر، واضطراب أشدّ. لذلك أنا ممتنة لك حقاً، لأن ردك لم يكن كردهما، ولأنك نصحتني أن أحافظ على شجاعتي وتصميمي تجاه الوضع الصعب الذي أنا فيه.

■ التعليق ٨

(من امرأة في أيوا مهتمة بالإسلام. تبين هذه الرسالة مرة أخرى المصاعب التي تواجهها المرأة الأمريكية في الحصول على ثقافة المسجد، والشكوك التي تواجههم باستمرار في هذه العملية):

أردت أن أعبر لك عن إعجابي الشديد بمحاضرتك في مؤتمر أيوا الإسلامي الأول. أنا خريجة من جامعة ولاية أيوا، ولست تقليدية (أو قديمة). بدأت دراستي للإسلام في الصيف الماضي. رغم أنني أشعر بانجذاب قوي للإسلام، لكنني لم أنطق الشهادة بعد. من الأسباب إحساسي بالانفصال عن هذا الدين ؛ أنا متأكدة أن السبب الفعلي ثقافي. ومع ذلك أجد نفسي أتكلم مع قلة من الرجال قرييين مني، أو أبحث عن معلومات في الإنترنت.

بنيت محاضرتك حول الـ (٢٥٪) المفقودة^(١). إن ما أشعر به ليس شخصياً أبداً. فكوني امرأة وببضاء ومهتمة بالإسلام يثير الشكوك في أذهان المسلمين هنا. لست متأكدة ولكنني أشعر أنهم يظنونني مهتمة بالإسلام كي أجد زوجاً لي. وعندما سمعتك تقول: إن هذه مشكلة الكثير من النساء شعرت بأني أفضل من قبل. سأستمر في دراستي للإسلام وآمل أن أظل على صلة بصديقاتي الجديديات اللاتي تعرفت عليهن في المؤتمر.

أشكرك على ما قضيت من وقت وما أبديت من اهتمام للبحث عن شيء يهمني شخصياً والحديث عنه.

(١) بينت في محاضرتي أن غالبية الأمريكيين المسلمين - حوالي ٧٥٪ منهم - ولدوا في الولايات المتحدة الأمريكية، ومع ذلك لا يُرى في المساجد والمراكز الإسلامية سوى حفنة قليلة منهم ومن الجيل الثاني. وقدرت في بداية هذا الفصل أن الذين يتفرون من الجالية الإسلامية من المسلمين المولودين في أمريكا يقدرون بـ (٨٠٪). هذه التقديرات تقريبية، ولكن النسبة المثوية الحقيقية عالية بالتأكيد.

■ التعليق ٩

(من طالب هندسة من الجيل الثاني اعتنق المسيحية، ثم ترك الكنيسة، ولا ينتمي الآن إلى أي دين. لقد شكّا لي عدد كبير من الشباب افتقار الإسلام إلى الروحانيات. والمشكلة الكبرى لديهم أن غالبيتهم لا يفهمون اللغة العربية التي هي لغة الشعائر في الدين الإسلامي)^(١):

أريد فقط أن أخبرك بأنني استمتعت حقاً بسماعك تتحدث في نهاية هذا الأسبوع، وأفدت كثيراً من المحاضرات. لا أعرف إن كنت تتذكر أنني قلت لك: إنني لا أومن، في الواقع بشيء الآن.

ما كنت أود قوله لك، ولكنني لم أستطع الوصول إليك لكثرة من يودون الحديث معك، هو سبب وصولي إلى هذه النقطة من عدم الإيمان بأي شيء. أتذكر ما ذكرته بإيجاز عن التجربة الروحية والعاطفية التي خضتها وأنت تقرأ القرآن. لقد خضت التجربة ذاتها، ولكن في المسيحية. فالإسلام كان بالنسبة إلي «ديناً ميتاً». أعني أنه مجموعة من الأحكام الفارغة والعلاقات الخالية ؛ وليس فيه أي نوع من العلاقة أو الراحة الملموسة. أعلم أن الوضع لم يكن كذلك في حياة النبي، ولكن هكذا كانت تجري الأمور، وما زالت كذلك بالنسبة إلي.

ربما أستغرق وقتاً طويلاً لأشرح بالتفصيل تجاربي في المسيحية. لقد قبلت المسيح، الأمر الذي جعل أسرتي وأصدقائي يغضبون غضباً شديداً، ولكنني تركت المسيحية بعد أن بحثت عن مصداقية الكتاب المقدس والديانة المسيحية، ولكن عندما كنت أبحث عن الحقيقة وأسأل الله أن يهديني إليها كنت أشعر بصدق أنني أوجّه نحو المسيح. وكنت أشعر، بأمانة، عندما أصلي له، بأن شخصاً ما كان يسمعي ؛ كانت أكثر الأمور التي حصلت عليها واقعية، حتى وإن كان ذلك غير ملموس أبداً. أظنك تعرف ما أعني بالعبرة الأخيرة.

على أي حال، لم أحظ بالاتصال بالله من قبل إطلاقاً، ولم أحظ بذلك في الإسلام. قيل لي : إن هذا اختيار أو ما أشبه ذلك، ولكنني لا أستطيع حل لغز

(١) انظر السؤال رقم (٣).

الحقيقة التي مفادها أنني أشعر أحياناً باتصال روحي، وأحياناً لا أشعر بشيء. وكلما ازددت بحثاً وتأملاً، ازددت جنوناً. لذلك تركت. يبدو أن الأمر تافه لا معنى له. ما زلت أشعر بالغضب والقلق اللذين يضربان جذورهما في أعماق نفسي ملازمين لي لا يفارقاني. أحاول ألا أفكر في الأمر.

ليس هناك بديل للاتصال الروحي مهما بدا سليماً في الفكر. افترض أنك تعتقد الإسلام حقيقةً، ولكنني أريد أن أقول لك: لماذا لم أومن بشيء. ولا أعلم إن كان القرآن يقول شيئاً بهذا الصدد، وإن كان يقول شيئاً أرجوك أعلمني به.

■ الجواب

أشكرك على كلماتك اللطيفة جداً. التقيت أناساً كثيرين في ذينك اليومين، ولا أستطيع أن أتذكر بالضبط الذين قابلتهم، ولكنني أظن أنني أتذكر.

لست متأكداً مما سأقوله بشأن خبراتي أو خبراتك الروحية. لم تشتمل محاضرتي على تفاصيل خبراتي، لأنها كما ذكرت غير ملموسة ومن ثم فمن الصعب شرحها. كانت محاضرتي كلها تقريباً حول الجوانب العقلانية لقراءتي الأولى للقرآن، لأنني أشعر أن هذا الجانب أيسر توصيلاً للناس، وأسهل على الناس الارتباط به. والصعوبة الأخرى هي أن التجارب الروحية شخصية جداً؛ ومن ملاحظاتي لحلقات الذكر الصوتية، واللقاءات المسيحية الساحرة، يبدو لي أن التجارب الروحية ذاتية الإغراء.

وبما أنني ألمحت إلى تجاربي الروحية في أثناء قراءة القرآن دون أن أصفها، وبما أن ما قلته قد اتفق مع ما ترى، فسوف أشركك ببعض خصوصياتها؛ ولكن لا تنس أنه ما من سبب يجعلك تتوقع أن تكون متطابقة مع خصوصيات تجربتك. وإذا لم تشترك لحظاتك الروحية مع معالم لحظاتي، فلا ينتقص ذلك من أصالتها وصدقها.

بدأ بحثي عقلياً، لأنني أومن أنه إذا كان هناك إله فلا بد أن يهبنا عقلاً - وهو، برأيي، أقوى ملكة وهبنا إياها - لغاية ما. واعتقدت أنه إذا كان الله

موجوداً حقاً فلا بد أن يساعدنا العقل على حمايتنا من اتباع معتقدات خاطئة بشأنه، أو تطور معتقدات كهذه. كما شعرت أن المقاربة العاطفية النفسية الروحية إلى الإيمان غير جديرة بالاهتمام، لأن عواطفنا، برأيي، أكثر عرضة للخطأ من العقل المدرب المنظم. ومشكلتي هي أن العقل كان يتعارض لا محالة مع المعتقدات التي أحقق فيها. لذلك كانت قراءتي للقرآن استكشافاً عقلياً، اتخذت فيما بعد ومن دون أي توقع شكلاً روحانياً. وعندما بدأت أقرأ القرآن أول مرة، لم يكن لدي أي ميل للإيمان بالله، ولم أشعر بالتجربة الروحية إلا بعد أن استنفدت في الواقع جميع المناقشات ضد وجود الله. ولا بد من القول: إنني لم أتوقع، ولم أسع إلى الوصول لأية رابطة روحية. بل بالعكس كنت أقاوم اللحظات الروحية التي تتابني. كنت أحاول إبعادها عني وتعليلها تعليلاً غير روحي. لم أسع إليها، ولم أرغب في السعي إليها؛ ولكنها حصلت.

أعتقد أنك محق في قولك إن الروحية جزء حيوي من الإيمان. وأستطيع فهم كون تجربتك الإيمانية في الإسلام قاحلة روحياً. هذا هو رأيي بوصفي قادماً من خارج الإيمان، ولكن المسلمين، كما يبدو لي، قد قتلوا الرسالة الروحية الإسلامية والطاقة الروحية القوية للشعائر الإسلامية بالتشدد في الأحكام والأنظمة والعقوبات والشكليات والسياسات التي تقترب من استبعاد البعد الروحي والأخلاقي الذي هو رسالة القرآن المهيمنة. ما زلت أسمع خطب الجمعة منذ أكثر من عشرين سنة، ولم أسمع قط بمحاضرات تربط الإيمان والأعمال الصالحة بالروحانية وبعلاقتنا بالله. فلو كان مصدري الوحيد الذي أستقي منه المعلومات حول الإسلام هو خطب الجمعة والأحاديث التي أجريها مع المسلمين، فإني سأفهم الله وكأنه قوى حاسدة متحاملة بلا حدود، تفرض علينا قرارات وأوامر فقط لاختبار مدى طاعتنا له، ثم يترىص الله بنا حتى إذا ارتكبنا أوهى خطيئة، صب جام غضبه وأقسى عقوباته علينا. أو ربما أرى الإسلام مجرد حركة سياسية مهمتها جعل المسلمين القوى الأعظم في العالم ليتقموا من الإذلال والمعاناة اللذين لحقوا بهم منذ انهيار حضارتهم.

إن ما أحاول قوله هو أنه إذا ما افتقد شاب أمريكي مسلم روحانية الإسلام، فإن عليه أن يروود طريقه بنفسه بعيداً عن انشغالات الجالية الإسلامية الحالية، وليبدأ بالقرآن مفتوح الذهن قدر الإمكان، متحلاً من الالتزامات التي تلقنها من قبل. يخوض بعض الناس الروحية من خلال الصوفية، التي لا أؤيدها أنا شخصياً، لأنها لا تتوافق مع شخصيتي وطريقة تفكيري، ولكن لكل منهجه وشرعته.

أرى أن العقل عنصر جوهري من عناصر الإيمان. لا أعني بذلك أن المرء لا يكون متديناً أصيلاً من دون روح شخصي متماسك، أو من دون خوض تجربة لحظات روحية، بل أعتقد أنه إذا ما شعر امرؤ أن إيمانه خالٍ من الروحانيات أو يتناقض مع العقل، فذلك يعني وجود خطأ ما في مكان ما، وعليه أن يتابع البحث عن الحقيقة. وفي حالتك، يبدو أنك تجد سلاماً حقيقياً في أي دين تتعرف عليه. فقد انجذبت إلى المسيحية، وشعرت أن المسيح يسمع صلواتك، ولكن المسيحية لم تجذبك عقلاً. ومن ناحية أخرى، كان الإسلام كما تعلمته «إيماناً ميتاً» بالنسبة إليك، ولسوء الحظ أني لا أعرفك جيداً فأتمكن من تقديم نصيحة معمقة متقنة. ما دمت تؤمن بالله فمن المعقول أن تتابع البحث عن هدايته، وربما يكون هو الآن يوجهك إلى طريق الهداية، ولو لم يبد لك الأمر كذلك. ونصيحتي إليك ألا تستسلم، لأن الإنسان بلا إله خسارة كبيرة وضياع. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

لقد كنت مباشراً وصريحاً في إشراكي في مشكلتك، وحاولت أن أكون كذلك في جوابي، راجياً ألا تكون قد انزعجت من شيء قلته؛ إذ من السهل أن يؤذي المرء من غير قصد مشاعر الآخر لدى بحث أمور حميمة كهذه. واعتذر إن فعلت ذلك. وإن كنت ترغب في بحث هذه القضايا أو سواها أكثر من ذلك فأرجوك ألا تخجل في أن تبعث إليّ رسائل إلكترونية.

■ التعليق ١٠

(غالبية الأمريكيين الذين اعتنقوا الإسلام في العقدين الأخيرين من النساء، غالبيتهن خريجات جامعات يملن إلى اليسار اجتماعياً وسياسياً. وأظهرن حتى الآن التزاماً وقوة أكثر من أقرانهن من الرجال، وهو أمر مذهل، لأن معظم المساجد والمراكز الإسلامية تروج عادات ومواقف تجاه المرأة تصطدم مع القيم النسائية. تبين هذه الرسالة الإلكترونية القصيرة بعض الإحباطات التي أصابت السيدات اللاتي اعتنقن الإسلام والمدى الذي وصلن إليه في محاولات التعامل مع هذه المسألة).

أعتذر عن الكتابة إليك لأنني أعرف أنك غارق في العمل. ارتحت كثيراً لكتابتك الأولين بوصفي أدين بالإسلام منذ سبع سنوات حيث ناضلت مع مثيلاتي الأمريكيات من التنظيم الديني الإسلامي لرعاية المجتمع. سمعت بك، فعلاً، قبل أربع سنوات في مؤتمر الوحدة حيث ذكرك أحد المتكلمين وشاهدت شريط الفيديو الذي أصدرته مؤخراً حول تربية أطفالنا في الإسلام أو الاحتفاظ بهم في الإسلام، ورأيت عاطفتك التي جعلتك تبكي وجعلتني أنا أيضاً أبكي معك. كنت تتحدث نيابة عني بشأن التجارب الرهيبة التي خضناها مع المتشددین في الشريعة، المقيدين بثقافتهم، المهوسين بالأحكام، المجانين في الحديث. لقد طُردت من مسجدي المحلي حيث باءت محاولاتني لدعم معتنقات الإسلام بالخيبة عندما طلبت زوجة الإمام، وهي أمريكية من النمط الطالباني، من النساء أن يتجنبنني ويتحاشينني لأنني رفضت ارتداء الحجاب في الخارج. ولأنني أذهب إلى مسجد الصوفيین في فيلادلفيا، وهو أحد الأماكن التي أشعر أنني مقبولة فيها. لي صديقات عديدات متعلقات بالإسلام بخيط وإو ويتجنبن الجالية للأسباب ذاتها. يذهب بعضهم إلى الكنيسة عندما يشعرون أنهم بأمس الحاجة إلى مزاملة روحية غير قضائية. يبعد المسجد الصوفي عنا حوالي ساعة. وأحياناً أبكي وأقول: «لماذا صرت مسلمة؟» ولكنني أشعر أنني مُسَيَّرَةٌ روحياً إلى توحيد الإسلام مع قضايا العدالة التقدمية، وقضايا مساواة المرأة، ومساعدة أصدقائي وصديقاتي ومن هم مثلي من الناس

ليصبحوا مسلمين، مع احتفاظهم بأمرئيتهم، نشيطين اجتماعياً وسياسياً، ولا يضغط عليهم ليرتدوا الجلاية والكوفية، ويعملون بأنفسهم وينخرطون في المجتمع عموماً. أريد ذلك أنا أيضاً. حاولت بصورة غير رسمية أن أشكل نظام دعم لمعتنقي الإسلام، وأقوم حالياً بتنظيم مأوى وملجأ للنساء اللاتي يعتنقن الإسلام أو المنسحبات من المجتمع ممن يردن طريق الوسطية في الإسلام. جعلني كلامك أشعر أنني أفعل ما هو صحيح، وأن عليّ أن أتابع. وعندما قلت: إن على المرء أن يتابع القول والعمل حتى الممات وإن لم يصغ إليه أحد، قلت لنفسي: «أنا كذلك». وأظن أنني لست مجنونة. كانت شبكة المسلمين التقدميين عوناً كبيراً لي، وأدت نساء عديدات هذا الأسبوع أول صلاة جمعة في منطقة (مركز المدينة). وبحسنا احتمال أن تصلي النسوة مع الرجال في القاعة ذاتها، ولكن النساء في صف والرجال في صف بعضهم بجانب بعض كل في جانب، وتبادل الخطب مع نساء تؤم الصلاة. لقد طرحت هذه الأمور على بساط البحث، على الأقل. أشكرك على أية حال، أشكرك، أشكرك، وإن كان لديك قائمة بعناوين إلكترونية. أخبرني عندما يصدر كتابك التالي.

■ التعليق ١١

(هذا سؤال أكثر مما هو تعليق، ولكني فقدت الاتصال بالمرسل ولم أستطع إجابته عليه. ومن خبرتي السابقة أرى أنني لو باشرت مع هذا الشاب في بحث ربما نتعرض إلى كثير من الموضوعات الواردة في الفصل الأول. إن العدد الكبير من مثل هذه الرسائل التي وردتني جعلتني أضمن هذا الكتاب فصلاً آخر عن غاية الحياة. لم أعلم شيئاً آخر من المراسلات مع الشباب الأمريكي المسلم، بل علمت أن المؤسسات الإسلامية الأمريكية، عموماً، إما أنها خارج الموضوع، أو أنها غير مهتمة بهمومهم ومشاكلهم).

إنني أعاني من مشكلة خطيرة. أمل أن تجد وقتاً تجيبني فيه على همومي. أومن بأن هناك قوى خلقت هذا الكون. المسلمون يعرفون هذه القوة بأنها الله.

ولكنني أشعر أن الله ليس عادلاً. لماذا يسمح بتعذيب الأبرياء وقتلهم في إفريقية وآسية؟ لماذا يعاقب الناس بأنماط غريبة من الأمراض. وأشعر بأنه إن كان الله خيراً وطيباً، فإنه لا يسيطر على كل شيء، ولهذا نعاني في هذا العالم وتحل بنا المحن، فلو كان هو القوي العزيز المهيمن فلماذا لا يكون طيباً مع الناس أجمعين ؟ إن الله، من وجهة نظر المسلمين، مهيمن وطيب. وهاتان صفتان متضاربتان في رأيي. فماذا بعد ؟ هل ذلك يجعلني غير مسلم؟

غالباً ما أشعر أنه من الأفضل ألا آخذ الدين مأخذ الجد، بل أقيم الصلاة وأدفع الزكاة وأصوم على خير وجه، وأهمل البقية. وأريد أن أجعل هدفي من حياتي الإسهام بسعادة الآخرين قدر المستطاع. ولكنني لا أريد أن أكون عميق الإيمان بالله، وليس هو، في نظري، بلا عيوب، ولا هو بحاجة إلى أن يتذكره الإنسان باستمرار ويواظب على عبادته بلا انقطاع، وأخيراً، لم يوضح الله الأمور في رسالته الأخيرة، القرآن. فلماذا أكرس وقتي في مزيد من القراءة عنه؟ فهناك أمور أخرى يعملها المرء في حياته كالاهتمام بعمله ورعاية أسرته. وأشعر أنك إذا تابعت التفكير في الله والدين فلن يبقى عقلك سليماً.

وبما أنه منحنا حرية التفكير، فلا أظن أنه سيعاقبنا ما دمنّا لم نوذ أحداً. وهكذا لا حاجة للمرء أن يكون مسلماً ليكون خيراً ولينجو من العقاب. ربما هناك مسيحيون أو حتى ملحدون سينجون من العقاب. ولكن هل يمكن أن يكون من مثلي ليس لديه إيمان حازم بالله مسلماً؟ إنني أنتظر جوابك على أحر الجمر.

■ التعليق ١٢

(من رسالة إلكترونية طويلة ملتهبة العواطف من طالب دكتوراه زائر من قبرص. لقد شاركني كثيرون من الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً أو من أبناء الجيل الثاني شكوكهم بشأن أدب الحديث الشريف، ولكن يبدو أن الارتباب في جدارة هذه المادة أخذ بالتنامي بين الشباب المسلمين في مختلف أنحاء العالم).

بوجود الفساد الواسع في الممارسة الإسلامية، فإن هذه الممارسة لا تعد إسلاماً بحد ذاتها - وعليها أن تجدد نفسها وتنقي ذاتها باستمرار حتى تعيش. لا خيار في ذلك، كما أرى، وليس هناك من سبيل إلى التحديد والتطهير ما لم نتخلص من خوف طرح الأسئلة والتعرض إلى الأسئلة. أوافق، أو لا أوافق هذا هو المبدأ الذي يجب اتباعه في الخطاب الاجتماعي.

هناك في الممارسة الإسلامية الحالية كثير من الشرك، وعلينا أن نقبل ذلك، ولكن الراغبين في التفكير، مجرد التفكير، في هذا الاحتمال، قلة قليلة. ليس الانشقاق مستحباً لأن الوحدة من أجل الوحدة محبة أكثر من الحقيقة. أعتقد أن الأشرار قد حققوا الممارسات الإسلامية عبر قرون من الزمن بأمر مختلف يحددها الإيمان. ومع ذلك، يبدو بصورة عامة أن المسلمين غير تواقين لممارسات إسلامية نقية، أو ممارسات إسلامية جذورها في كتاب الله، بل يفضلون إنتاج مجلدات فوق مجلدات حول ما يفترض أن النبي محمداً قاله أو فعله.

غالبية المسلمين يعتقدون أن تفسيرهم للإسلام هو التفسير الوحيد المقبول، لأنه ليس لهم الرغبة في تدقيق هذه الممارسات التي أحيطت بهالة «حماية مقدسة» من الحديث والسنة. لقد وصلت إلى قناعة بأنه آن الأوان أن نعود إلى القرآن الذي منه استخلصنا غالبية ممارساتنا وأن نتخذ موقفاً استقصائياً تدقيقياً شديداً تجاه الحديث والسنة.

وأعتقد أنه يجب أن نلتزم بالقرآن بوصفه المصدر الوحيد للإسلام، لأن الله ليس بحاجة إلى ما يكمل كتابه ولا يطلب ذلك. فقد ضمن لنا الله في القرآن أنه هو بنفسه يحمي القرآن (فمهما كان فهم الآية (٩) من سورة الحجر مختلفاً ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ومهما كان عمق هذا الفهم متبايناً، فإن الفكرة الأساسية بأن الله يحمي القرآن واضحة تماماً). وبما أنه لا يوجد كتاب آخر يتمتع بمثل هذه الحماية الإلهية، فليس لدينا خيار سوى قبول القرآن مصدراً كافياً لنا.

الإسلام في النهاية هو بين الفرد والله. فلماذا أعتمد على الآخرين كي

يجعلوا هذا حلالاً وذاك حراماً؟ وكيف تجيّر إرادة امرئ للآخرين المعرضين للخطأ مثلي؟ هل هناك دعم قرآني؟ أعتقد أنه لا يوجد دعم قرآني. ولهذا السبب لا أستطيع قبول أية قيود دينية غير المذكورة في القرآن لأن الله يعلم ما يحرم ويحلل.

أود لو أرى في يوم من الأيام النساء يصلين في المساجد كلها الصلوات الخمس، بغض النظر عن حالتهم الجسمية، وإعطائهن نصف المكان المخصص للصلاة، ليس خلف الرجال بل في منطقة تقع على يمينهم أو يسارهم. أنا من قبرص، حيث لم أر قط مثل هذا الفصل للنساء كما هو الحال في مساجد أمريكا. لقد تراجعنا تماماً في المسجد الذي أصلي به في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يسمح للنساء أن يصلين في الخلف على الأقل.

فأمي وجدتي لم ترتديا حجاباً أو برقعاً يغطيها من الرأس إلى أخمص القدم حتى تكونا صالحتين. والآية (٣١) من سورة النور ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْضُضْنَ مِنْ أَثْبَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ أَخْوَانِهِنَّ أَوْ إِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعَاتِ غَيْرِ أُولِي الْإِرَادَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَا يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِقِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْغَلِيظُ﴾ يمكن فهمها بطرق مختلفة. إن الآية التي تأمر النساء بتغطية صدورهن أسيء فهمها، وفسرت بأن على النساء أن يغطين رؤوسهن، وهكذا، وإن لم يرد ذكر للرأس أو الشعر في الآية.

كثيراً ما يهمل جواب (إذا) في آيات كثيرة كما هو الحال في النص الذي يشرح الظروف التاريخية التي جعلت شهادة امرأتين مقابل شهادة رجل واحد أمراً ضرورياً، أو كالنص الذي يبين الظروف التي يسمح فيها بتعدد الزوجات. إذ لم ترد أداة الشرط (إذا) أبداً. القرآن يذكرها ولكن أحداً لا يتحدث عنها.

أعرف مسلمين لا يأكلون الجيلي، لأنه يحتوي على مادة الجيلاتين التي يمكن أن تستخلص من عظام الخنازير، ولكن القرآن يحرم لحم الخنزير بالتحديد، وليس عظامه أو أجزائه الأخرى. وليس هناك مثال أفضل من الآية (١٤٦) من سورة الأنعام ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْفٍ وَرِيتِ الْبَقَرِ وَالْأَنْعَمِ حَرْمَنَا عَلَيْهِمْ شُعُوهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ التي تبين أن الله إذا أراد أن يحرم شيئاً بصورة نوعية دقيقة، فإنه يفعل. القرآن يحدد بصورة خاصة أربعة أنواع من اللحم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُ وَالدَّمَ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلَتْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ بِعْثِي وَرَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ اضْطَرَّ فِي مَخَضَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِيْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣/٥] و ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنَازِيرٍ فَإِنَّهُمْ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥/٦] إذا كانت هذه «القوانين الإلهية» مبنية على الحديث، فإن علينا أن نسأل، على ماذا بُني الحديث؟ هل الحديث أو السنة؟ فإن كان الأمر كذلك، كيف يفترض بعضهم أن قولاً للنبي أو سلوكاً له يضع قيوداً إضافية إلى قيود القرآن؟

وهناك قضية أخرى، هي الوضوء قبل الصلاة. يخبرنا القرآن كيف نقوم بذلك بالتحديد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْهُقًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦/٥] ويتحدث عن التيمم^(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا

(١) استخدام التراب النقي للتطهير.

الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ [النساء: ٤٣/٤] ؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦/٥] في حالة عدم وجود الماء. ومع ذلك، يشعر كثير من المسلمين - إن لم تكن غالبيتهم، بأنهم ملزمون بالقيام بأعمال إضافية في أثناء الرضوء وبتريد أدعية رسمية وما إلى ذلك. ولا نسأل أبداً إن كان النبي يضيف إلى أوامر الله أو يحذف منها، خصوصاً عندما تكون الأوامر واضحة صريحة في القرآن. أنا لا يهمني إن كان حديث هنا أو هناك، يخبرني بالكيفية التي كان النبي يتروصاً للصلاة. من الأسهل والأوثق منه في المئة أن يُقرأ القرآن والاعتقاد بأن النبي كان يمارس القرآن حرفياً. فهل هناك فرصة، ولو ضئيلة جداً، بأن نزيد على كلمة الله شيئاً آخر.

لا أظن الناس يعاملون القرآن كما ينبغي أن يُعامل. فكيف تساوى كلمة الله أو تستكمل بكتاب ألفه بشر عن إنسان؟ ويبالغ بعضهم بالقول: إن الحديث هو وحي لم يضمه النبي في القرآن. وحكاية الآية الضائعة التي تأمر بقتل الزاني والزانية برجمهما تبين خطورة مثل هذه المقاربة، فكل شيء يصل إلى هذا الحد ليفرض إسلاماً فاسداً ليس سوى شيء بغيفض وممقوت. يجد الكثيرون حكمة عظيمة في ممارسات النبي المفترضة الواردة في الحديث الذي نثق فيه ثقة لا تهتز ولا تقل عن ثقتنا بالقرآن دون الاهتمام بما إذا كان النبي قد تصرف هكذا بوصفه بشراً أم بوصفه نبياً ورسولاً. أرى أن كتب الحديث ليست، في أحسن الأحوال، سوى روايات تاريخية ؛ وأقول : «في أحسن الأحوال»، لأن كثيراً من مصادر الروايات ضبابية وآتية من أجيال متأخرة من

الرواة الموثوقین (بموجب تقدير مجموعة معينة ذات مصالح قوية). والجدال في علم (الحديث) أمر مضحك، لأنه يسير على خطا المنطق نفسه الذي يتبعه علماء الكتاب المقدس الذين يقولون بمصادقية النص التوراتي وسلامته من الفساد، بناء على أنه كان في ذلك الزمن حديث وتقليد قوي يؤكد الحكايات التي نُقلت إلينا دون انتقاص ودون أن يصيبها أي فساد. إن الحوار الكلي للمحدثين والتقليديين قد وصل إلى هذا التساؤل: أين نبحت عن تفسير ما ليس بواضح في القرآن؟ أنا أرى أن هناك اتجاهاً واحداً لا ثاني له : هو كلمة الله، والله وحده لا إله إلا هو، كما أوحى في تنزيل خاتمة الكتب على خاتم الأنبياء.

■ التعليق ۱۳

(واحدة من رسائل عديدة من مهاجرين مسلمين إلى أمريكا خرجوا من دينهم، ولكنهم يشعرون بالاهتمام المتجدد في الإسلام عن طريق زواجهم من متدينين من أبناء ديانات أخرى. نلاحظ في حكاية هذه السيدة الشابة التشديد على أهمية العقل والمنطق في بحثها الروحي. بعض أسئلتها في مكان آخر من هذا الكتاب):

إنك لا تعرفني، ولأكون صادقة لم أسمع بك إلا منذ أسبوعين فقط، حين أخبرتني إحدى صديقاتي في المسجد الذي أتردد عليه بكتابك (حتى الملائكة تسأل) فاشتريته وقرأته. وقبل أن أبين لك سبب اتصالي بك، أود أن أقطع من وقتك دقيقة لأخبرك بأن كتابك قد ردّ إلي شيئاً كنت قد افتقدته في إيماني؛ ألا وهو الأمل. ذكرني كتابك بالجمال والمعنى الروحانيين للإسلام، الذي أخشى أن يختلف عما تعلمه ومارسه كثير من المسلمين اليوم. شجعتني كتابك أن أتابع طريقي في رحلتي الروحية لأجد الله.

الآن، أبين لك سبب اتصالي بك. أنا مسلمة بالولادة. ولدت في تركية، ونشأت فيها. ليست أسرتي متدينة كثيراً. فوالدي يؤمن بالله ؛ ولكنه لا يؤمن بدين منظم، وأمي مسلمة ولكنها لا تمارس الشعائر بدقة. وعندما بلغت السادسة

عشرة من عمري جئت إلى أمريكا بمنحة دراسية ولكن انتهى بي المطاف إلى ترك الجامعة وبقيت هنا في النهاية. أقيم الآن في ساوذرن أورنج كنتري (Southern Orange Country) في كاليفورنية.

كان لي دائماً اهتمام بالأديان كلها وخصوصاً اهتمامي بفهم الإسلام. ولسوء الحظ لم أبحث بجد، أو ربما عندما كنت أبحث وأطرح الأسئلة كان من حولي يفعلون ذلك بالطريقة العادية السطحية ؛ أي «هناك أمور ينبغي ألا تسأل عنها»، «ذلك ما يقول القرآن»، «حسناً كان ذلك طبيعياً في عهد النبي». «وهي أجوبة لا معنى لها، وجعلتني أتحنى عن البحث. وبمرور الزمن، فقدت الاهتمام بالوصول إلى الحقيقة إلى أن تزوجت أمريكياً مسيحياً. فبلقائه وحيي له ومعرفتي المزيد عن المسيحية من خلاله انبعثت في الاهتمام بالله، وبالدين والحقيقة ثانية. لذلك بدأت أبحث عن الله مرة ثانية.

شرعت بالذهاب إلى مسجد والتقي بمزيد من المسلمين. كنت أبحث عن شخص ذي معرفة عالية بالإسلام أستطيع أن أبحث معه ما يخطر لي من قضايا وأطرح عليه أسئلة، دون أن يدينني أو يصدر في أحكاماً بسبب طبيعتي الاستفسارية الاستقصائية. والحمد لله كان الإمام هو ذاك الشخص. سألته إن كان لا يجد غضاضة في دراسة القرآن معي. فقال سيرتب وقته لهذا الأمر. وما زلت أدرس معه القرآن منذ شهرين، والواقع أنني مستمتعة بذلك. إنه إمام رائع، لطيف، متفتح الذهن، طيب النفس. إننا ندرس القرآن سورة، سورة. ومع ذلك ما زالت لدي أسئلة كبيرة لم يستطع هو الإجابة عنها بما يرضيني. وأحياناً تكون هذه المسائل عقبة كأداء أمامي وتلقي بالظلال على إيماني. ولدى قراءتي لكتابتك ورؤيتي لمقاربتك إلى الإسلام وبعض الأسئلة، خطر لي أن بإمكانني أن أتوجه إليك ببعض الأسئلة. يبدو أن تقارب الأشياء من وجهة نظر منطقية وتحليلية تصف في واقع الأمر المنهج الذي أتبعه لأجد الله. وأعتقد أنك ستستطيع الإجابة على بعض أسئلتي منطقياً.

وبما أنني أدرس الإسلام والقرآن، وبرزت أمامي أسئلة لم يستطع الإمام الإجابة عليها بما يرضيني، فهل لي أن أطلب منك العون ؟ أعلم أن لديك

برنامجاً مشغولاً جداً، وأن مساعدتي هي آخر ما لديك من وقت كي تفعله : غريبة تسألك لتقطع من وقتك لتجيب عن أسئلتها. على أية حال، أعتقد أنك على بصيرة ومعرفة كافيتين لتلقي بعض الضوء على بعض الأمور التي أراها مزرعة في الإسلام، وفي القرآن، وحتى في حياة النبي. أود، حقاً، لو تساعدني في بحثي عن الله، وأعذر إن لم يكن لديك الوقت لذلك.

■ التعليق ١٤

(من شاب مسلم مهاجر يناضل من أجل الدفاع عن دينه. معظم المهاجرين المسلمين إلى أمريكا يأتون من بلدان حيث لا يجوز الحط من قدر الإسلام. وبالمقابل يتعرض أبناؤهم غالباً إلى نقد لاذع لعقيدتهم. وفيما يلي عينة مما يواجهون. أعلق بما يأتي، وفي الهوامش، باختصار على بعض النقاط. ليست غايتي هنا تقديم دفاع، بل غايتي بيان أنواع المواجهات الفكرية التي يتورطون فيها^(١)).

أعرف شخصاً يجادل شخصاً آخر في حقوق المرأة في الإسلام. يرسلان إلي ذلك شارحين بعض النقاط التي نوقشت. سأحتاج بعض المساعدة في مناقشة هذا الموضوع والبحث فيه. فإن كنت تستطيع إرسال ما تقدر عليه سأكون ممتنة لك. حتى الآن ما زالت مناقشاتي ضد المصدر، لأنني أشعر أن الخميني لا يمثل الإسلام. فإن كنت تستطيع تزويدي بمراجع أو (URLS)^(٢) فإن ذلك سيساعدني جداً. أرسل له معارض الأخ المقتطفات التالية من أحد كتب الخميني^(٣).

(١) للاطلاع على مثال آخر مفصل من هذا النوع؛ انظر النقد الذي قدمه نيوتن ورفيق الحق على الموقع الإلكتروني (debate.domini.org/Nlewtow/womeng.htm).

(٢) URL : Uniform Resources Loactor موجود الموارد الموحّد. مصطلح في علم الكمبيوتر يساعد على إيجاد العنوان المطلوب للاتصال به والحصول على المعلومات. (المترجم).

(٣) كتاب آية الله الخميني (تحرير الوسيلة) (تعليق على الوسيلة [في الخلاص لـ س. عبد المحسن أصفهاني]) هو تعليق على عمل لعالم سابق هو س. عبد المحسن أصفهاني الذي يستشهد بأحكام تعود إلى عدة قرون سابقة . ولسوء الحظ لم أستطع الحصول =

تعاليم آية الله الخميني الدينية حول الزواج والطلاق والعلاقات، مقتبسة من كتاب تحرير الوسيلة، المجلد الرابع، دار العلم، قم، إيران، ١٩٩٠^(١).

(١) يستطيع الرجل الزواج من فتاة يقلُّ عمرها عن التاسعة ولو كانت طفلة ترضع^(٢)، ويحرم على الرجل، مع ذلك، ممارسة الجنس مع من يقلُّ عمرها عن التاسعة، أما المداعبات الجنسية كالمعاشرة، والملامسة والتقبيل واللواط فهي متاحة^(٣)، ولا يكون الرجل الذي يمارس الجنس مع من هي أقل من التاسعة مُجرماً، بل مخالفاً، إذا لم تتضرر الفتاة بصورة دائمة.

على نسخة من الكتاب أو على ترجمة إنكليزية له لتدقيق مدى صحة ما هو وارد فيما تقدم . إن المقتبسات الثلاثة الأولى هي آراء آية الله الخميني، أما البقية فهي آيات من القرآن الكريم (الشواهد ٤، ٥) ومن صحاح الحديث (الشواهد ٦-٩). ما عدا استثناءات قليلة ترد الأحاديث في الصحاح المقتبسة ولكنها لا يمكن أن تكون جزءاً من كتاب آية الله الخميني لأنه بوصفه عالماً شيعياً لا يعتمد على المصادر السنية، وفي الأمثلة المشافهة كلها، كان المعارض يستخدم المصادر المختلفة المتوافرة لديه ليقيم قضيته، ولا يدعي أنها من نص واحد.

(١) لا بد أن نذكر دائماً أن أعمالاً شرعية تقليدية كهذه تحاول استباق أية مشكلة شرعية يتصورها المرء، بغض النظر عن بعدها أو عدم واقعيته. انظر مثلاً: مقدمة توضيح أسئلة، ترجمة غير موجزة لرسالة توزيع المسائل لآية الله خميني، ترجمة ج. بوروجيردي (J.Borujerdi) مع مقدمة لفيشر (Fisher) و م. أبيدي (M.Abedi).

(٢) في الثقافات الإسلامية التقليدية يمكن أن يفصل بين الزواج الرسمي والعيش معاً بضع سنوات . وبعد الاحتفال الرسمي بالزواج تكون اللقاءات بين الزوجين مراقبة بشدة حتى يحين الوقت للمشاركة في البيت والفراش . وفي حين أنه يمكن إقامة احتفال بالزواج الرسمي، لكنه لا يسمح بالاتصال الجنسي ما دام أحد العروسين أو كلاهما ما زال في سن الطفولة حتى يبلغ رشده. لذلك بحث سيناريو مستحيل جداً في ما سيأتي، فإن كان هذا الشاهد صحيحاً، وثانية أقول: إن هذا النوع من الإفتاء المطلق شائع في «الكتيبات» التقليدية هذه المتعلقة بالقضايا الشرعية . لقد بحث موضوع الزواج بين الإنس والجن في بعض المقالات. ولا بد من ملاحظة أن زواج الأطفال كما هو موصوف أصبح نادر الذكر في البلدان الإسلامية تلبية لمطالب التحديث.

(٣) يجيز الشيعة اللواط بين الزوج وزوجته، أما أهل السنة فيحرّمونه.

ولكن هذه الزوجة الصغيرة لا تحسب من الزوجات الأربع الدائمات. ولا يسمح للرجل أن يتزوج أخت هذه الفتاة الصغيرة^(١).

(٢) لا يسمح للمرأة ذات الزوج الدائم أن تخرج من البيت من دون إذن زوجها؛ ويجب أن تظل تحت تصرفه لتلبية أي رغبة من رغباته^(٢) ويجب ألا تمنعه من ممارسة الجنس معها إلا لأسباب دينية سارية. فإن طعنه في هذه الأمور، فإن عليه أن يزودها بالمأكل والملبس والمأوى وغير ذلك من الضروريات، وإن لم يفعل، يكون مديناً لها بذلك كله، سواء كان قادراً أم لم يكن.

(٣) المرأة التي تمنع نفسها عن زوجها ملامة، وربما لا تطلب منه مأكلاً ولا ملبساً ولا مأوى أو أية علاقات جنسية لاحقة. ومع ذلك يظل لها الحق في مهرها^(٣).

■ تعليق للمعارض:

لا تفهموني خطأ، فهناك كثير من النقاط الإيجابية أيضاً، ولكن كانت هذه النقاط هي التي صدمتني أولاً، يمكن ألا تكون كلمات الخميني غير صالحة دينياً، لأنه كان متعصباً فجر حرياً أهلية في إيران^(٤)؟ أم أن هذا ما قيل لي من

(١) ج. شاخت، أصول الشريعة المحمدية، أكسفورد ١٩٥٠، ص ٥٨ - ٨١ م.م. برافمان، الخلفية الروحية لفجر الإسلام، دراسات في المفاهيم العربية القديمة، لندن، ١٩٧٢، ص ١٢٣ - ١٩٨ ج. هـ. ا. جانبول، دراسات حول أصول الحديث الإسلامي واستخداماته، فيبرورام (١٩٩٦).

(٢) الرغبات المشروعة (ضمن حدود الشريعة) متضمنة هنا لأن الخميني يقول مباشرة بعد «رسالة توزيع المسائل» ما يلي: «ليس للرجل حق في إجبار زوجته على خدمة البيت» انظر «توضيح المسائل»، ص ٣١٨ و ٢٤١٤.

(٣) ليست مثل هذه الآراء (النقاط ١-٣) غير شائعة بين علماء المسلمين؛ والواقع أن اعتراض المسلمين المقيمين في الغرب على هذه النقاط يؤكد الحاجة إلى مراجعة نقدية للعلم الإسلامي ماضيه وحاضره.

(٤) لم يكن هناك حرب أهلية في أثناء حكم الخميني، ولكن العراق هاجمت إيران وتفجرت بذلك حرب دامت سنين عديدة.

قبل مسلمين آخرين، على الأقل. ولكن انظر إلى الآيات التالية من القرآن:

﴿الزَّيَالُ قَوْمُونَ عَلَى النِّسَاءِ يَمَا فَصَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقْتَ قَوْلَكَ حَفِظْتَ لِلنِّسَاءِ يَمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي نَخَافُونَ نُزُورَهُمْ فَيُظْهِرُونَ وَأَفْجُرُونَ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُونَ فَإِنْ أَلَمَكُمُ فَلَا تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤/٤].

■ تعليق المعارض :

حسناً، أنت ترى مشكلتي لأسباب واضحة. ولكن هذه ليست هي المشكلة الكبرى : فانا أعرف عن هذه المشكلة منذ زمن بعيد.

﴿وَاللَّي يَأْتِيكَ الْفَجْةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَزْوَاجَكُم مِّنكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَقَّعَنَّ الْمَوْتَ أَوْ يَجْمَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ قَوَّامًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٥/٤-١٦/١].

■ تعليق من المعارض :

لم أدرك بعد مدى عمق المعايير المزدوجة. فأقوال محمد الآتية تعطي الرجال سلطة دكتاتورية على أزواجهم.

(٦) قال النبي ﷺ: «لو أن رجلاً أمر امرأته أن تنقل من جبل أحمر إلى جبل أسود، ومن جبل أسود إلى جبل أحمر لكان نولها أن تفعل».

(٧) عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رسول الله ﷺ: «فلا تفعلوا فإني لو كنت امرأةً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها كله ولو سألها نفسها وهي على قتب لم تمنعه»^(٢).

(١) انظر تعليقي فيما سيأتي.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان.

(٨) عن قيس بن طلق عن أبيه طلق بن علي قال : قال رسول الله ﷺ :
«إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور»^(١).

(٩) عن أبي هريرة... قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»^(٢).

(١٠) عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال : «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا»^(٣).

(١١) عن أبي سعيد الخدري قال خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال : «يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار. فقلن ويم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله. قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: ذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصلي ولم تصم؟ قلن: بلى. قال: ذلك من نقصان دينها»^(٤).

(١٢) عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال.. «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(٥).

(١٣) قال النبي : «إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس»^(٦).

(١) الترمذي، رقم (١١٦٠).

(٢) البخاري، رقم (٣٠٦٥).

(٣) الترمذي، رقم (١١٧٤).

(٤) الشاهدان، ١١، ٢٣ من الحديث نفسه في البخاري رقم (٢٩٨).

(٥) مسلم، رقم (٢٧٤٢).

(٦) البخاري.

(١٤) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يَخْنِزِ اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر»^(١).

(١٥) عن أم سلمة قالت قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»^(٢).

(١٦) عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال: «لا يسأل الرجل فيما ضرب امرأته»^(٣).

(١٧) عن عبد الله بن أبي ذباب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تضربوا إماء الله، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: ذنن النساء على أزواجهن، فرخص في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال النبي ﷺ لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم».

(١٨) عن عبد الله بن عمر وأن رسول الله ﷺ قال: «لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها»^(٤).

(١٩) عن أبي سعيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا تسافر امرأة مسيرة يومين ليس معها زوجها أو ذو محرم، ولا صوم يومين؛ الفطر والأضحى ولا صلاة بعد صلاتين بعد العصر حتى تغرب الشمس وبعد الصبح حتى تطلع الشمس...»^(٥).

(١) النص الحرفي للحديث هو «لولا بنو إسرائيل لما فسد اللحم، ولولا حواء لما خانت زوجة زوجها». إن التعليق على حوار تعكس حكاية سفر التكوين من التوراة عن الزوج الأول حيث أغوت حواء آدم فأخرجته من الجنة، ولا تعكس حكاية القرآن. البخاري رقم (٣١٥٢).

(٢) الترمذي، رقم (١١٦١).

(٣) لابد أن نذكر أن الأحاديث الثلاثة في أبي داود التي تذكر ضرب المرأة، اثنان يحرمان ضربها وواحد لا يشجع على ضربها. (أبو داود، رقم ٢١٤٧).

(٤) الشريعة الإسلامية لا تسمح كذلك للزوج أن ينفق شيئاً من مال زوجته من دون إذنها . وهذا يعني أن كلاً منهما مستقل مالياً عن الآخر. أبو داود، رقم (٣٥٤٧).

(٥) وجدت في هذه الروايات، الصيام التطوعي فقط، البخاري، رقم (١٧٦٥).

(٢٠) «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة»^(١).

تعليق معارض: ومن جهة أخرى يستطيع الرجل تطليق زوجته من جانب واحد.

(٢١) «تحرم المرأة بطرق شتى من حضانة طفلها. حتى حليبها ملك لزوجها». (البخاري)^(٢).

(٢٢) انظر الحديث رقم (١٩) أعلاه. هو نفسه^(٣).

(٢٣) عن ابن عمر بن حصين عن النبي ﷺ قال: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»^(٤).

(٢٤) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح»^(٥).

(٢٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء»^(٦).

(٢٦) عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان»^(٧).

(١) أبو داود (٢٢٢٦).

(٢) ليس في صحيح البخاري مثل ذلك (المترجم).

(٣) نص الحديث ما يلي: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة، وليس معها ذو محرم». إذا ما أخذنا مخاطر السفر في تلك الأيام في الاعتبار، لا يكون هذا الحديث غريباً. البخاري رقم (١٧٦٥).

(٤) المقتبسان ١١ و ٢٣، مأخوذان من الحديث نفسه. البخاري، رقم (٣٠٦٩).

(٥) البخاري، رقم (٣٠٦٥).

(٦) البخاري، رقم (٣١٥٣).

(٧) الترمذي، رقم (١١٧٣).

(٢٧) عن عبد الله بن مسعود قال: «كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، ليس معنا نساء، فقلنا: ألا نخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثم رخص لنا أن نستمتع، فكان أحدنا ينكح المرأة بالثوب إلى أجل»^(١).

(٢٨) عن عبد الرحمن بن سلام أن رسول الله قال: «تزوجوا الأبكار فهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً، وأرضى باليسير»^(٢).

(٢٩) عن عليّ أن رسول الله قال: «إن في الجنة لسوقاً ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها»^(٣).

■ تعليق المؤلف:

ليست هذه الشواهد - كما أشرت في حواشي عديدة - مباشرة بل صيغت بصورة متحيزة، ربما يكون المعارض قد وجد هذه الأحاديث في الإنترنت. فهذه المعلومات ترد ليس فقط في المواقع الإلكترونية الإنجيلية التي تهاجم الإسلام، بل أيضاً في مواقع المسلمين المحافظين التي تبحث مكانة المرأة في الإسلام. إن تفسير القرآن [النساء ٤/ ١٥-١٦] في النقطة الخامسة ليس دقيقاً. إن التفسير الأكثر حرفية هو على النحو التالي: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشِيرُوا عَلَيْهِنَّ أَزْوَاجَكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَنكِحُوا فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَكَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا [النساء: ٤/ ١٥-١٦].

الفرق الجوهرى بين هذا النص وترجمة المعارض هو أن كلمة «رجلين» لم ترد بل وردت كلمة «اللدان» التي تعني بالعربية أولئك الاثنان والتي يمكن أن

(١) البخاري (٤٣٣٩)

(٢) رواه الطبراني.

(٣) هي صيغة أقل فحشاً من الصيغة التي أوردها المعارض . ويبدو أن الحديث يوحى بأن المرء يستطيع اختيار الشكل الخارجى له في الجنة . ذكره الترمذى في «غريب الحديث» (٢٥٥٣).

تعني إما «تلك المرأة وذلك الرجل»، أو «ذینك الرجلان» وذلك حسب السياق. وليس هناك ما يسوغ الافتراض بأن الآيتين غير مترابطتين. بل العكس هو الصحيح. ومن ثم فإن القراءة الطبيعية للآية (١٦) من سورة النساء تكون على النحو الآتي: «أولئك الاثنان (امرأة) وجدت مذنبه بارتكاب فاحشة كما جرى بحته في الآية (١٥) وشريكها الرجل في الفاحشة أو حتى رجلان ارتكبا فاحشة (ما) فاي منكم مذنب بهذه الفاحشة، عاقبوهما. ثم إذا تابا وأصلحا، فدعوها وشأنهما، إن الله تواب رحيم»^(١).

وهكذا يعلق محمد علي: بالرغم من أن كلمة فاحشة تستخدم أحياناً لتعني الزنى، فإن السياق هنا يبين أنها تعني سلوكاً غير أخلاقي دون الزنى، لأن عقوبة الزنى واردة في الآية (٢) من سورة النور ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَلَيْهِمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. إن كلمات الآية التي ترد بعد كلمة فاحشة تشير إلى عمل غير أخلاقي مماثل من طبيعة العقوبة غير المحددة تدعم هذا الاستنتاج، لأن عقوبة أي عمل دون الزنى تختلف باختلاف طبيعة الجريمة. وهكذا المرأة المدانة بسلوك غير أخلاقي يُحْدُثُ من حرمتها. فإن صلحت حالها أو تزوجت إذا كانت غير ذات زوج، فإن الله يفتح أمامها الطريق وتستعيد حرمتها، فإن لم تصلح حالها فإن تقيُّدَ حرمتها حتى مماتها. والجريمة التي يتحدث عنها القرآن في هذه الآية هي كذلك التي ورد ذكرها في الآية السابقة. المقترfan هما اثنان^(٢).

بالإضافة إلى أن بعض الشواهد قد أعيدت صياغتها بصورة متحيزة ومغرضة فإن نقاد الحديث قد حكموا أيضاً على العديد من الأحاديث بأنها مشكوك فيها. ومع ذلك بالرغم من عدم الدقة، هناك ما يستحق النظر لخلق حالة مقنعة بأن الإسلام يضمني على المرأة دوراً تابعاً استسلامياً في الزواج. يمكن مناقشة هؤلاء

(١) هذه ترجمة للآية، وليس نصها العربي.

(٢) محمد علي (القرآن الكريم، مع ترجمة إنكليزية وتعليق)، لاهور (١٩٩٤) الحاشيتان (٥٥١، ٥٥٢). انظر كذلك محمد أسد (رسالة القرآن)، دار الأندلس، جبل طارق،

(١٩٨٠) الحاشيتان (١٣، ١٤).

الآن بأن التنظيمات القرآنية ومعظم التشريعات الواردة في الأحاديث والتي يستشهد بها لدعم فكرة هذا الدور التابع للمرأة يعكس بيئة اجتماعية - تاريخية معينة، وأنها في هذا الوسط تكون قد حَسنت وضع المرأة ورفعت من قيمتها. وانطلاقاً من هذا المنظور، يمكن أن يكون هذا التشريع نموذجاً لإصلاح العلاقة بين الجنسين ينبغي أن يحاكي، ويوسع ويعزز كلما سمح تطور المجتمع بذلك. ومع ذلك هناك عقبتان في وجه هذا الرأي: الأولى، أن بعض الأحاديث النبوية (كـبعض الأحاديث المقتبسة فيما تقدم) يصعب التوفيق بينها وبين هذه الفكرة، والعقبة الثانية، أن غالبية علماء المسلمين والعلمانيين يرفضونها.

■ التعليق ١٥

(قصيدة من معتنقة للإسلام في العشرينات من عمرها ، من سيدار رايبدرز (Cedra Rapids)، أبوا. تعبر عن العزلة بين المجتمع الأوسع والجمالية الإسلامية التي يشهدها الكثيرون من معتنقي الإسلام):

ممزقة بين عالمين كارلي كاريس (Carly Caris)

أبحث عن هويتي
موزعة بين عالمين
أبحث عن مكان أعتزل فيه
حيث أجد نفسي.
أنظر في المرأة
ولكن من تلك التي تحقق بي ؟
أشعر كفتاة بريئة
فقدت عذريتها
أنظر إلى الناس
أحملك فيهم وأصفر وأنا أمر بهم
يدعونني (خاتنة)
معتقدين أن إيماني مجرد كذبة
أبحث في أعماق نفسي
أسأل ذاتي الداخلية
أصلي من أجل جهادي
من أجل السلام والتضامن.
أجمع شجاعتي

لأنصح عمن أكون
معلقة على حيث أنا
فخورة بهذا الموقف

إني ممزقة بين عالمين
لست منسجمة مع هذا ولا ذاك
تكيفت لأتم العالمين
دون أن أشعر بالاختناق

يحكم الناس علي قبل أن أتكلم
يتقدون ويحللون
يحاولون إضعافي
فأصرخ فيهم : «أنا لست أمة»

أسير ببطء على الأبواب
مهيئة روحي ونفسي
مدركة أنه لا يهمني ما يقولون
سأظل كلاً موحداً

لست منسجمة هنا ، ولا هناك
إني في مكان ما بينهما
ربما تضيع هويتي
ولكنني في النهاية سأظل أنا

■ التعليق ١٦

(أغنية ناقدة قاسية من أمريكي اعتنق الإسلام عمره تسعة وعشرون عاماً.
ليست العواطف التي يعبر عنها غريبة بين المسلمين المواطنين. إنها انفجار وخيبة
أمل من ثقافة المسجد)

لتر ما قرى

أغنيات وشرح لكيل ويليام أندرس (Kyle William Anders)

كتبت سنة (٢٠٠٣)

عندما أتحدث يقولون: إنني لا أحترم النبي
ولكن لو يصغون، إنني لا أحتقر حتى البخاري.
كل ما أقوله مهما كان طويلاً
شرحه، قطعه، صفه، سأقول:
كتاب واحد، صنارة واحدة أمسكتني
الله يحميها، ولم يصنعها بشر
كأنه كان لديهم قرآن فيه الحكمة
لكنهم لم يحبوه ولم يستوعبوه، ثم نسوه، ولكن
ليس قبل أن يفتلوه بمفتاح بلعوه.
أفسدوا هديه، وأهملوه، وأساؤوا إليه.
والآن، ترك ما تبقى بنا مع مئات السنين من تقدمهم؟
ألم يقرؤوه؟ أعني أن (اقرأ) كانت هي الكلمة الأولى
إن تنظر إلينا الآن، ربما تفكر بكلمة (اقرأ)
ألم تكن فيه،
أم كانت محذوفة منه أم شطبت أم عدنا إلى البداية،

أم الكلمة الأخيرة التي لم يسمعوا بها أبداً
لأنهم لم يصلوا إلى ذلك البعد
عندما ألقوا بالكتاب على الرف أو ربما على الأرض.

حسناً، ربما أكون قاسياً. هناك البعض، لا شك،
قد حصلوا عليه منذ زمن بعيد،
أو على بعضه، أو قليل منه، واستخدموه.
لكن ذلك لا يعني أنه يجب ألا نفعل أو لا نستطيع أن نفعل
أو أننا لسنا أذكاء بما يكفي لتفسير الحكمة التي وجدوها
مجتمعة مع الزمن الذي مضى ومعرفة اليوم،
بيد أن المشكلة هي أنها مازالت محجوبة بعيداً عنا،
ألا تحصل عليها ؟ هيا، أنت تعرف ما أقول.
أو، نستطيع قراءته، تأكد أنك لا تقول ما حصلت عليه.
سيستلُّ أحدهم تقليداً ويردك به قتيلاً على الفور
قل، ليس هذا ما جنيت، وأنت لا تفهم ذلك.
وأنت بحاجة إلى خمسة عشر كتاباً أخرى لتوضح الأمر.
ألفها فتى لا تعرفه ذكي حقاً، لا يقود سيارة أو برنامج VCR،
لأنه لا يوجد أحد، حتى الآن،
أعني أن لديه جملاً،
وليس ذلك بشيء، ولكنه يسير
حتى يريك أنك لا يمكن أن تكون ذا بصيرة قديمة، انظر
لو شهدت زمناً ما في القرن الثالث عشر.

ما زلت أعود إلى الورا إلى أفكاري الرئيسة التي أضعف فيها
 صخبي وهذيانني اللذين يجعلانك تعبر.
 يا إلهي !! هل أنا أفعل ذلك ؟
 لقد استخدمت كلمتين في أغنيتي، من (أغنيك)
 للسيد إلثون جون، وهو مسرور
 ولكنه ألحق باسمه في النهاية اسم يحيى
 وهناك ما هو أسوأ من السرور، بالرغم من أنني لا أحبه
 ولكن بعضكم أيها المسلمون، لو أتاحت لكم الفرصة لقتلتموه.
 وإلهي ؛ أليس ذلك أسوأ ؟
 هذا يعيدني إلى نقطتي التي انطلقت منها، وهي
 أننا طوينا القرآن، وأحرقناه، وتصاعد دخانه.
 أعني، ولم لا ؟ فالورق مصنوع من قنب
 ربما نستفيد منه شيئاً
 ومن يحتاجه أصلاً ؟ انظر حولك،
 لا أحد يرى في ذلك عاراً
 لأن لدينا خمسة عشر غازليون كتاباً آخر بالعنوان نفسه.
 ولكن من ألفها ؟ أنت تعرف من.
 نعم. أنا وأنت نعرف.
 أي إنسان في الموقع، وآخر من عرفت، ظن المسلمون
 أن الله لم يدخل خلقه، وأنه هو الله.
 أعني عندما أستشهد بالله - أستشهد مباشرة من القرآن.
 لكننا نقول، قال النبي هذا، وقال ذاك، كما نشاء
 أو هذا صواب وذاك خطأ لأنه كان كما تعلمت

في الإسلام نفعل هذا ، أو كمسلمين نشعر
بأصوات وكأننا نتكلم عن الله
ولا أستطيع أن أومن أن ذلك واقعي
أعني آخر شيء أود فعله

هو أن أثبت قدمي في فمي لدى محاولتي وضع نفسي مكان الله.
لا تفهموني خطأ ، أعني لو قالها النبي
لتبعته.

هناك من يقول لي : «قال ، قالت
أشتره ولا أتباعه
ثم أطلب إليهم أن يتجوا أوقية واحدة من الأدلة
التي تثبت بلا أدنى شك
أن الكتب التي في أيدينا
ليست من صنع الإنسان ، وأنها إلهية مشعة
كالنور والحكمة الصادرين عن كتابي.

الكتاب الذي يقرأ ، الكتاب الذي يُقرأ.
كلمة القرآن تعني ، الكتاب الذي يقرأ.
الكتاب الذي يقرأ ، الكتاب الذي يُقرأ.
فليُقدَّ رأسك بالمعرفة ، قبل أن تموت.

عندما قال الله قولاً محدداً ، اجعلوه عاماً
ثم خدعونا

ونصبوا أنفسهم جنرالات.
وعندما جعله الله عاماً، قالوا : بل هو خاص
ابحث في أي كتاب بغض النظر عن شرعيته
املاً الفراغات كلها التي ظنوا أن الله غفل عنها
لا تثقوا بحكمته، لا تثقوا بكلمته
أخذوا حكاياته كلها ومسحوها فصارت سخيّة
أو خاطئة، أو غيبة، أو فقدت معناها.
ولكنهم حصلوا بجهودهم على توقيع كتاب
ووقعنا كلنا بالشُّرك
لأننا توقفنا عن قراءته بأنفسنا
وبدأنا نجادل فيما هو غامض
كما تبعدنا قادتنا إلى جهنم.

والآن بعد وقت طويل، تُرك مجتمعنا بإيمان
اغْتَصَب واستغل لمكاسب شخصية
ترك على زاوية الطريق لتلتقط المافيا منه النفاية
أو الإرهابيون، عندما ندعوهم بافتخار
كما نحث كل ليلة في المسجد
إن «التفجير الانتحاري أمر حسن،
إن حصلت اليوم على فتى راغب وقنبلة»
وبالنسبة لدين لم يسمح بالكهنوت
لماذا فيه كهنة أكثر من المسيحية ؟
إننا ننوء برؤوسنا ونتحى ونقف

فقل هذا الشيخ وذاك الشيخ.
علينا أن نبيع الشيوخ كلهم ونتخلص منهم

ثم ما شأن هذه الكلمة «دين»
الذي اعتقد أنه الإسلام، أو أعني الاستسلام،
وأنه كان (سيلاً) أو على الأقل ما أراد العلماء أن نقوله
إلى غير المسلمين على الأقل
ولكن عندما يغطون، ويصرخون
خير لك أن تضع أنفك في التراب، ليس هذا سيلاً، إنه دين
فيه عقيدة، وإفراط، وفلاحون أميون.
ثم ما الذي تظنه خطأً
كيلا يكون قرار عالم

الكتاب الذي يقرأ، الكتاب الذي يقرأ.
كلمة القرآن تعني، الكتاب الذي يقرأ.
الكتاب الذي يقرأ، الكتاب الذي يقرأ.
فلتؤكد معرفته رؤوسنا، قبل أن نلقى ربنا.

اقرأ مرات عديدة
مراراً وتكراراً،
اصعد هذه التلة ماشياً
إلى العالم الآخر.
يريدك الكثيرون أن تكون غيباً

ذلك ما لا تفهمه ، وأنه لن يكلمك .
وأنت بحاجة إليهم كي تعانقهم وتقبلهم وتنحني لهم
ولكن ضع ثقتك بالله بدلاً من وضعها في أفواههم .
وهكذا ، كلهم يصغون ، لا تصغي إلي ،
اقرأ القرآن فحسب ، ثم انظر
ماذا ترى
ويقولي اقرأ القرآن ، أعني ، اقرأ القرآن
وليس أي كتاب آخر لا يمكن الاعتماد عليه .

ملاحظات فراق

إلى الإخوة والأخوات الأمريكيين الذين نشؤوا في الوطن

إن مجتمعنا في أمريكا اليوم غارق في صراع حاسم سواء كنا مدركين لذلك أم لم نكن، أو سواء اعترفنا به أم لم نعترف، وإننا نتكبد خسائر فادحة. أعداد هائلة من الأولاد والأحفاد المسلمين، الذين اعتنقوا الإسلام، وسعوا إلى الروحانيات تتخلى اليوم عن المجتمع الإسلامي، وكثير منهم يتخلون عن الدين نهائياً. ليست المواجهة عسكرية - بالطبع - بل هي مواجهة على الصعيد الفكري. ديننا يهان عن وعي وعلناً من قبل وسائل الإعلام في جبهة، وتقوم المواقع الإلكترونية المناهضة للإسلام بالهجوم، في جبهة أخرى، على الدين الإسلامي بانتقادات استشراقية عتيقة منبوذة ولكن يعاد إحيائها الآن.

وفي جبهة ثالثة حملة من التفسير السام وغير المعقول على العقيدة الإسلامية مع دعم كبير من الخارج لمسرح مركزي في المشهد العالمي. وفي جبهة رابعة، تقوم غالبية مساجد هذا البلد بفرض تقاليد ومعتقدات مشكوك فيها باسم الإسلام تشوش رسالة الله الجهورية التي جاءت في آخر تنزيل للبشرية، وتخرج الأفراد زرافات من الدين، وتؤكد لكثيرين من الشباب ذوي الأبرين المسلمين، وللذين

اعتنقوا الإسلام من الأمريكيين الانطباع السائد عن الإسلام الذي يؤمن به المجتمع عموماً. وبدلاً من أن يرى هؤلاء المسلمون المتحررون الإسلام سبيلاً إلى النمو الروحي والتنوير والإنجاز، فإنهم يرونه آسناً، رجعياً، أبوياً، بقية من ثقافة متخلفة غارقة بجداول لا معنى له وشكلية فارغة لا حياة فيها.

إذا كان لابد من مواجهة هذا الوضع فإن دون ذلك جهود فكرية ضخمة وشجاعة، وإن الذين يقع على عاتقهم هذا العبء والتحديث هم الجيل الثاني ومعتنقو الإسلام من الأمريكيين الذين ما زالوا متمسكين بدينهم بالرغم من التحديات الكثيرة التي تواجههم. أنتم يا شباب الإسلام الأمريكيين المسلمين النشطاء، واعتنقتم الإسلام؛ بالرغم من قلة عددكم، قد وُضِعتم في الدور المحوري. ويفضل تربيتكم الأمريكية، فإنكم تفهمون المجتمع المحيط بكم وتعرفونه تمام المعرفة؛ ويفضل حبكم الله والتزامكم به وبدينكم، وكونكم في بيئة تختبركم باستمرار، قد أصبحتم بالضرورة وبالطبيعة الجسر الحاسم بين دينكم ومستقبله في هذا البلد. إنكم في أفضل وضع يؤهلكم للرد العقلي على الذين يحطون من شأن الإسلام، وللتواصل مع أبناء وطنكم رجالاً ونساءً، وتبينوا لهم ماذا يعني أن يكون المرء مسلماً حقاً. إنكم تفكرون كما يفكرون وتتكلمون كما يتكلمون وتقدرتون همومهم وما يسبب لهم اضطراباً وفوضى. وأنتم كذلك في أفضل موقع لإعادة تقويم التراث الواسع الذي ورثناه باسم الإسلام. وبما أنكم لم تنشؤوا في ثقافة إسلامية تقليدية، ولأنكم تعلمتم منذ اليوم الأول في المدرسة على البحث والسؤال والنقد والتحليل، فأنتم المرشحون الأساسيون لمحاولة فصل الدين عن الثقافة، وللتمييز بين ما هو ضروري وجوهري للإسلام من التفسيرات المقيدة بزمان ومكان. أنتم الأقدر على فهم الشباب المسلم الساخطين والتواصل معهم. هذا جهادكم، جهاد العقول والقلوب، جهاد الفكر والعقل والمنطق.

لذلك أشجعكم على تسليح أنفسكم، يا إخوتي وأخواتي الأصغر مني، بالكتب والأقلام والحواسيب الشخصية وبأدوات التعلم الأخرى كلها، سلحوا أنفسكم بمعرفة تراثكم الديني وأعمال عقوله الكبرى في الماضي وأفكارهم،

وسلحوا أنفسكم كذلك بالتقنيات الحديثة للبحث النقدي والتحليلي والتحقيقي كي تتمكنوا من دراسة الإسهامات الماضية في العلوم الإسلامية ونقدها. تعلموا كل ما تقدرون على تعلمه في عملكم، وخصوصاً في حقول كحقول الدراسات الدينية والتاريخ وعلم الإنسان واللسانيات. وسلحوا أنفسكم، كذلك، إن كان لديكم استعداد وميل، بدرجات عالية متقدمة في حقول البحث هذه، لتكونوا قادرين على نقد تقاليد مجتمعتنا وإعادة تقويمها. وسلحوا أنفسكم بالتواضع، لأنه حيوي وضروري للموضوعية، وسلحوا أنفسكم بالشجاعة والصبر والمثابرة، أيها الإخوة والأخوات، لأنكم ستواجهون معارضة من خارج المجتمع الإسلامي ومن داخله على حد سواء. وتذكروا أن تتابعوا دائماً البحث عن الحقيقة، لأن الله هو الحقيقة، وصلُّوا له دائماً وثقوا بهدايته. وسلحوا أنفسكم أيضاً بتقوى الله، ولا تنسوا أنكم أسلمتم أنفسكم له وحده - وليس للتقاليد، ولا للحديث ولا للمذاهب الفكرية أو الجالية المحلية أو الثقافة أو الإرث العلمي - واعلموا أن حياتكم وكفاحكم وتضحياتكم ومماتكم كلها لله.

بِسْمِ اللَّهِ

مستخلص

هذا الكتاب صرخة استغاثة من أجل المسلمين الجدد في أمريكا وأبناء المسلمين المهاجرين إليها.

تناول الكتاب في أساسه للمشكلات التي يتعرض لها هؤلاء في أمور دينهم وفي صلتهم بالمجتمع الأمريكي، تلك الصلة التي توقعهم بتناقضات واضطرابات في عقيدتهم، وفي التزامهم بالدين.

عرض المؤلف أولاً تجربته في انتقاله من الإلحاد إلى الإيمان عن طريق دراسة القرآن دراسة نقدية من أجل المعرفة. وطرح من خلال ذلك أسئلة ضد الله، حتى وقع على أجوبة شافية، قادت إلى الإيمان العميق.

ثم عرض للأسئلة التي كانت تأتيه على الموقع الإلكتروني من المسلمين الجدد الأمريكيين ومن أبناء المسلمين المهاجرين (الجيل الثاني) وكانت أسئلة محرجة تظهر مدى المشكلات النفسية والاجتماعية والعقائدية التي يعانون منها.. وكانت تلك الأسئلة تتعرض لموضوع المرأة ومكانتها في الإسلام ومعاملة القائمين على المراكز الإسلامية لها، ومشكلاتها في الشارع ومع الحجاب. كما تعرض لمسألة تعدد زوجات الرسول وزواجه من عائشة، وأشار إلى مسألة خلط المسلمين عاداتهم وتقاليدهم بالدين الذي أودخلوا عليه ما ليس منه. وعرض مشكلة الهيمنة التي يفرضها القائمون على المساجد وفرضهم جواً معيناً خاصاً من الأفكار وعدم السماح بالمناقشة. وأشار إلى موضوع الميراث، ودافع عن القرآن ضد خصومه الذين يعرضون آيات يتوهمون أنها من ثغرات الكتاب.

الكتاب مملوء بالمشكلات التي يعاني منها المسلمون الأمريكيون في إسلامهم، ويدعو إلى المناقشة، وقبول الآراء المجددة، وفحص الممارسات الإسلامية الحالية التقليدية، وتمييز ما هو جوهرى في الدين عما هو داخل عليه، ليتلاءم الدين مع العصر الحاضر فهماً وشرعاً على أسس متينة، لتلا يرتد المسلمون الجدد، ولا ينهزموا أمام عدوهم المتربص بهم.